فردينان دي سوسير

دروس في الألسنية العامّة

تعريب : صالح القرمادي

محمّد الشّاوش - محمّد عجينة

الدار العربية للكتاب

إلى الذي فارقنا والكتاب تحت الطبع
إلى صالح القرمادي
وفاء وتقديرًا

© جميع الحقوق محفوظة الدار العربية للكتاب

1985

توطئـــة

الظروف التي حفّت بإعداد هذه الترجمة :

بدأنا التفكير في ترجمة هذا الكتاب منذ سنة 1975 ، وذلك في صورة فصول تمّ اختيارها والاتفاق على تعريبها في نطاق نشاط قسم الألسنية بمركز البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية بتونس . وقد قبل أستاذنا صالح القرمادي رئيس قسم الألسنية آنذاك بالمركز الآنف الذكر والمدرّس بالجامعة التونسية أن يشرف على هذا العمل وأن يأخذ بأيدينا ويهدي خطانا وكنّا من طلبته الأقدمين .

ثم عقدنا العزم في مرحلة ثانية على ترجمة الكتاب بتمامه وكماله ، فتقاسمنا فصوله أنا وزميلي محمد عجينة ، فكان من نصيبه المقدمة والألسنية التطورية والألسنية الجغرافية ، ومن نصيبي مبادئ في الفنولوجيا والمبادئ العامة والألسنية الآنية والخاتمة . فترجم كل منّا نصيبه على حدة ثم راجعه على الآخر .

ثم كانت المرحلة الموالية بعد الفراغ من ترجمة الكتاب برمته ، وتمثلت في مراجعة نص الترجمة على أستاذنا صالح القرمادي في جلسات عمل جمعتنا ثلاثتنا . وكانت هذه المرحلة لا تقل عناء وجهدا عن سابقاتها ناهيك أنها استغرقت أكثر من سنتين اجتمعنا خلالها حوالي سبعين حصة . ولئن استغرقت هذه المرحلة مدة طويلة فإنها مكنتنا من مراجعة الترجمة سطرا سطرا بل كلمة كلمة . ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن ننوّه بما تحلّى به أستاذنا من تفهم وصبر وأناة ورحابة صدر وهي خصال فيه

بالطبع أذكاها حرصه على إرساء أسس الألسنية في هذه الربوع وإيمانه بما للترجمة من قيمة وأهمية في تعزيز خطى هذا العلم ونشره بين الناس (*).

كتاب نشر سنة 1916 تصدر ترجمته بالعربية سنة 1985 !

قد تبدو ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية في وقت متأخر عن تاريخ صدوره كلّ هذا التأخر مدعاة للاستغراب لكن لهذا التأخير بعض ما يبرره .

فلئن بادر اليابانيون (1928) والألمان (1931) والروس (1933) بنقل هذا الكتاب إلى لغاتهم ، فإنه لم يترجم إلى الإسبانية إلا سنة 1945 . أما ترجمته إلى الانقليزية والبولونية والإيطالية فقد تمت في وقت متأخر، وظهرت على الترتيب سنة 1959 و 1961 و 1967 .

ثم إن الاهتمام بالألسنية ، في هذه الديار ، وفي العالم العربي بصورة عامة ، أمر حديث العهد نسبيا ، إذ لا نكاد نجد منه أمرا يذكر قبل الستينات سواء في ميدان التدريس أو البحث . فلم يكن لهذا العلم آنذاك خطّة واضحة ولا برنامج شامل يسير على هديه الدارس ولا مؤسسة علمية تحتضنه وترعاه وتسهر على نشره . وما ظهر في هذا الميدان إنما كان في شكل مبادرات فردية قليلة منعزلة . ولم يغب عن أصحابها ضرورة الاستعانة بالترجمة في مرحلة أولى من مراحل تركيز هذا العلم . فجعلوا الأولوية لترجمة الأمهات والكتب التمهيدية التي تقوم مدخلا له . فتعهد الأستاذ صالح القرمادي بترجمة «مبادئ في الألسنية العامة» لأندري مارتيني وتعهد الأستاذ الطيب البكوش بترجمة «مفاتيح الألسنية» لجورج مونان . ثم تم الاتفاق بيني وبين زميلي محمد عجينة على ترجمة كتاب دي سوسير «دروس في الألسنية العامة» ورحّب أستاذنا القرمادي بالإشراف على هذه الترجمة .

ولعلّ أهم عامل حال دون ترجمة كتاب دي سوسير قبل هذا التاريخ إنما هو طبيعة الكتاب ذاتها وما ينفرد به من خصائص ليس من شأنها أن تيسر على المترجم

(*) نذكر له في هذا الميدان بالاضافة إلى الاشراف على هذه الترجمة :
(1) تعريبه لكتاب «كنتينو» دروس في علم الأصوات العربية . ط تونس 1966 .
(2) تعريبه لكتاب «مارتيني» مبادئ في الألسنية العامة (تحت الطبع) .

مهمته . من ذلك أن همّ صاحب الكتاب كان موجها أساسا إلى وضع الحدود وضبط المفاهيم وتصنيف مختلف الظواهر اللسانية . وذلك راجع ـ حسبما جاء في إحدى رسائله ـ إلى ما لاحظه من قصور فيما هو شائع من المصطلحات ، وإلى شعوره بضرورة إصلاحه ... وذلك «بوضع كتاب يبيّن للناس فيه ... لم لا يوجد في الألسنية كلمة واحدة يطلقها على معنى غير مضبوط ...» وسيكون لهذا الحرص على الضبط والتصنيف أثره في دروس دي سوسير وفي صيغة الكتاب الذي نشره تلاميذه بعد وفاته . وهو ما نلمسه سواء في ما تمتاز به شبكة المصطلحات التي استعملها أو مجموعة الشواهد والأمثلة التي استعان بها .

شبكة من المصطلحات بين الدقة والتردد

ينمّ قسم كبير من المصطلحات على رغبة سوسير في ضبط المفاهيم وتدقيقها، نذكر من ذلك على سبيل المثال تلك الأزواج syntagmatique / associatif و externe / interne و système / mécanisme ، الثواليث synchronie / diachronie و panchronie / signe و signifiant / signifié بل وحتّى الرباعيات مثل langage / langue / parole / idiome . إلّا أن الناظر في شبكة المصطلحات التي استعملها سوسير يلاحظ منه بعض التردد في استعمال مصطلحات مختلفة لمفهوم بعينه تقريبا ، مثل mutabilité و changement أو linguistique و historique و évolutive و diachronique أو système و mécanisme أو استعمال نفس الكلمة بالمعنى الاصطلاحي الدقيق تارة وبالمعنى العادي تارة أخرى ، كما هو الشأن بالنسبة إلى كلمة signe .

والجدير بالملاحظة أيضا أن سوسير قد استعمل بعض المصطلحات استعمالا خاصا لم يكتب له البقاء في ما شاع من الدراسات اللغوية، من ذلك كلمة paradigme وقد استعملها سوسير بمعنى الجريد والجدول . وكذلك لفظتا association و associatif وقد عوضتا في الألسنية البنيوية بـ paradigme و paradigmatique، كما أنه استعمل phonétique بمعنى علم الأصوات التاريخي . أما phonologie فكانت في نظره أقرب إلى علم الأصوات بصرف النظر عن كل تطور .

وقد أخذنا الملاحظات المتقدمة بعين الاعتبار عند قيامنا بترجمة المصطلحات وعالجناها بطريقة تحفظ لصاحب الكتاب خصوصياته وللكتاب ما يجعله ممثّلا للطور الذي ظهر فيه من تاريخ هذا العلم . فأبقينا على ذلك التردد بين مصطلحات تكاد تؤدي نفس المفهوم وعلى تلك الاستعمالات الخاصة بسوسير . ولم ننطلق في ترجمتنا لذلك الجهاز الاصطلاحي من لا شيء إذ أن قسما كبيرا من المفاهيم لها بعد مصطلحات عربية شاع استعمالها في ميداني التدريس والبحث بالبلاد التونسية وخارجها ، بل إن من المفاهيم ما اقترحوا له أكثر من تسمية ،نذكر على سبيل المثال المصطلحات التي اقترحت مقابلا لـ linguistique . فأنت تجد الألسنية واللسانيات وعلم اللغة .... أو تلك التي ترجموا بها signe ومنها علامة ودليل بل وحتّى «رمز» حسب بعضهم . كما يجدر بنا أن نلاحظ ظاهرة أخرى أخطر من المتقدمة تتمثل في إطلاق نفس المصطلح العربي على مفاهيم مختلفة متباينة من ذلك استعمال كلمة «رمز» مثلا مقابلا لـ symbole و signe و signifiant ولم يكن الاختيار بين تلك التراجم المتعددة بالأمر العسير . فرجّحنا ما رأيناه أنسب وأوفق .

على أنه يحسن أن نشير ههنا إلى مجموعتين من المصطلحات لكثرة ورودهما في الكتاب ولكوننا عالجناهما بصورة تختلف عن بعض ما هو شائع . أما الأولى فتضم signe و signifiant و signifié وترجمناها تباعا بـ : دليل (ج دلائل) ودالّ (ج دوالّ) ومدلول (ج مدلولات) وبالتالي تكون sémiologie علم الدلائل (أو الدلائلية) وذلك لحرص سوسير على تسمية هذه المفاهيم الثلاثة «بأسماء يدعو بعضها البعض مع تقابلها» وأما الثانية فتضم langage و langue و parole و idiome وقد ترجمناها تباعا بـ كلام ، لغة ، لفظ ، لسان . فجعلنا «الكلام» شاملا للظاهرة اللغوية بمعناها العام و «اللغة» دالة على الجانب الجماعي المشترك و «اللفظ» خاصا بالاستعمال الفردي للغة و «اللسان» دالّا على لغة قوم من الأقوام .

الأمثلة والشواهد :

قد ضمن سوسير «دروسه» من الأمثلة والشواهد ما اقتضته ضرورات التوضيح والإبانة والاستدلال . ولم تكن ترجمة هذه الأمثلة أقل عناء من ترجمة نص الكتاب ، وذلك لكثرتها كثرة اقتضتها طبيعة الكتاب وموضوعه المتعلق بالألسنية

العامة وذكّاهما قرب عهده بالألسنية التاريخية . وقد استقى سوسير أمثلته وشواهده من فصائل لغوية متنوعة ولغات مختلفة ترجع إلى أطوار متفاوتة في القدم ، كالهندية الأوروبية و السنسكريتية والجرمانية القديمة المشتركة واليونانية واللاتينية والسامية والعبرية والعربية (في مناسبة واحدة) والغوطية والرّومانية والصقلبية والزندية ... بالإضافة إلى أمثلة من لغات حديثة كالفرنسية والألمانية والإنقليزية و الإيطالية . وقارن بينها أو بين مختلف أطوار كل لغة منها .

وقد عمدنا في معالجة الأمثلة إلى البحث عما يناسبها في اللغة العربية تارة وإلى الإبقاء عليها في لغتها الأصليـة مع ذكر ترجمتها . كلما تعذر علينا إيجاد مقابل مناسب لها في اللغة العربية . أما الطريقة الأولى فقد كانت ممكنة خصوصا بالنسبة إلى الأمثلة الأحادية اللغة أي تلك التي لا تخرج عن نطاق طور معين من أطوار لغة معينة ، كتلك الأمثلة التي جاءت باللغة الفرنسية لغة متن الكتاب المترجم . فعلنا ذلك كلما بدأ لنا المثال العربي المقترح مطابقا للمثال الأصلي من جميع الوجوه ، وكل ما جاء في الترجمة من أمثلة باللغة العربية إنما هو من هذا القبيل (باستثناء مثال واحد هو «قتل ـ قتل» ساقه بالعربية سوسير ذاته) . وكلما بدا لنا تعويض المثال الأصلي بمثال عربي محلا ببعض جوانب التمثيل عمدنا إلى الاحتفاظ به ووضحناه بمثال عربي قريب منه أو أشرنا إلى وجه الشبه بينه وبين بعض الظواهر التي توفرها اللغة العربية .

أما الأمثلة المتعددة اللغة أي تلك التي تجمع بين كلمات من لغات أو أطوار لغوية مختلفة فقد كان البحث عن مقابل لها في العربية أعسر ، وذلك لقلة الدراسات التاريخية والمقارنة فيها . فاوردنا تلك الأمثلة في لغاتها الأصلية ، على أننا حاولنا ـ كلما تيسر لنا ذلك ـ أن نبحث عما يناسبها أو يشبهها اعتمادا على العربية الفصحى وبعض ما تطور عنها من لهجات (مثل وجود مقولة المثنّى في اللغة السنسكريتية وانقراضها من الفرنسية وهي ظاهرة تشبه انقراض المثنّى مما تطور عن العربية الفصحى من لهجات) .

ويتضمن الكتاب بالإضافة إلى هذه التوطئة :

ـ قائمة الرموز الصوتية ، ولئن خلا النص الأصلي من مثل هذه القائمة فقد رأينا ضرورة إضافتها لوجود قسم هام خاص بالأصوات (ذلك المعنون بـ «مبادئ في

الفنولوجيا ») ولكثرة الأمثلة القائمة على الجانب الصوتي . وأضفنا إلى الرموز اللاتينية المعتمدة في النص الأصلي قائمة من الرموز بالحروف العربية استعملناها في كتابة الأمثلة بالعربية كتابة صوتية .

ـ ترجمة نص الكتاب وقد أثبتنا بالهامش ترقيم الصفحات بالنص الأصلي حتى يتسنى للقارئ العود إليه .

ـ ثبتا عاما للمصطلحات ثلاثي اللغة (عربية ـ فرنسية ـ إنقليزية) مرتبا ترتيبا ألفبائيا حسب قائمة المصطلحات العربية .

ـ مدخلا فرنسيا وآخر إنقليزيا لثبت المصطلحات العام مرتبين ترتيبا ألفبائيا حسب كل لغة . وذلك حتى يتسنى الوصول إلى المصطلح العربي إنطلاقا من المصطلح الأجنبي .

ـ مقالا للأستاذ صالح القرمادي عنوانه «أمهات نظريات ف دي سوسير» كان أشار علينا بإمكانية جعله تعقيبا على هذه الترجمة .

رجاؤنا أن نكون بهذا العمل قد أسهمنا في إثراء المكتبة العربية وفي خدمة علم اللغة في بلادنا . ونحن إذ نقدم للقارئ العربي هذه الترجمة نأمل أن تكون له حافزا على نقدها قصد إمدادنا بما سيهتدي إليه من التنبيهات والمقترحات . عسانا نستدرك على ضوئها ما قد يكون غاب عنا .

قائمة الرموز الصوتية

ملاحظات عامة : ـ المطة تحت الحرف اشارة إلى رخاوته .
ـ النقطة تحته اشارة إلى تفخيمه .
ـ الظفر إلى جانبه اشارة إلى تليينه .
ـ العلامة (v) فوقه اشارة إلى شأشأته .
ـ المطة فوق الحركة اشارة إلى طولها .
ـ العلامة (~) فوقها اشارة إلى خيشوميتها .

الحــــروف

	الرموز	قيمتها الصوتية
پ	p	باء مهموسة
ب	b	ـ بـاء
م	m	ـ ميـم
	ƀ	ـ باء رخوة
ف	f	ـ فـاء
ڤ	v	ـ فاء مجهورة
ت	t	ـ تـاء
د	d	ـ دال
ن	n	ـ نـون
	ŋ	ـ نون خفية
ث	ŧ	ـ ثاء

ذ	ḏ	ـ ذال
ط	ṭ	ـ طـاء
تي	t'	ـ تاء ملينة
ḍ	ḍ	ـ دال مفخمة
ظ	ḏ̣	ـ ظـاء
ل	l	ـ لام
لي	l'	ـ لام ملينة حنكية
ڶ	ɫ	ـ لام اقصى حُنكية
ر	r	ـ راء
ك	k	ـ كـاف
ك1	k1	ـ كاف حنكية أمامية
ك2	k2	ـ كاف حنكية خلفية
ڨ	g	ـ كاف مهجورة
س	s	ـ سـين
ص	ṣ	ـ صـاد
ز	z	ـ ز ا اي
ش	š	ـ شـين
ج	ž	ـ جيم (تونسية) شديدة التعطيش = شين مجهورة
خ	x	ـ خـاء
غ	ɣ	ـ غـين
خ'	x'	ـ خاء أمامية كما في كلمة ich الألمانية
غ'	ɣ'	ـ غين أمامية كما في كلمة liegen الألمانية
ق	q	ـ قـاف
ء	?	ـ همـزة
بهـ	p^h	ـ باء مهموسة منفسة
دهـ	p^h	ـ دال منفسة
و	w	ـ و ا و
ي	y	ـ يـاء

الحركـــات :

ـِ	i	ـ كسـرة
ـِي	ī	ـ كسرة طويلة

ـُ	u	ـ ضمـة
ـُو	ū	ـ ضمة طويلـة
ـَ	a	ـ فتـحة
ـَا	ā	ـ فتحة طويلـة
	ü	ـ حركة أمامية منغلقة مستديرة = كسرة مستديرة كما في كلمة tu الفرنسية
	e	ـ فتحة ممالة كما في كلمة été الفرنسية
	o	ـ ضمة نصف منغلقة كما في كلمة total
	ö	ـ حركة أمامية نصف منغلقة مستديرة كما في كلمة feu
	ã	ـ فتحة خيشومية كما في كلمة pendant
	õ	ـ ضمة نصف منغلقة خيشومية كما في كلمة son .
	ẽ	ـ فتحة ممالة خيشومية كما في كلمة brin .
	ö̃	ـ حركة أمامية نصف منغلقة خيشومية كما في كلمة brun .
	e muet	ـ فتحة صامتـة

علامات خاصة بالمقطعة :

>	ـ صوت انحباسي متى وقعت فوق حرف لاتيني
>	ـ صوت انفجاري متى وقعت فوق حرف عربي
<	ـ صوت انفجاري متى وقعت فوق حرف لاتيني
<	ـ صوت انحباسي متى وقعت فوق حرف عربي .

مقدمة

الباب الأول
لمحة عن تاريخ الألسنية

لقد مر هذا العلم الذي تأسس حول الظواهر اللغوية بثلاثة اطوار متتالية قبل أن يتوصل اصحابه الى تعيين موضوعه الحقيقي الوحيد .

أما في الطور الاول ، فقد اشتغلوا بما كان يطلق عليه اسم Grammaire أي النحو وقد كان هذا النوع من الدراسة الذي شرع فيه اليونانيون وتواصل أساسا على يد الدارسين الفرنسيين ، قائما على المنطق ، وخاليا من كل نظرة علمية غايتها الوحيدة دراسة اللغة في حد ذاتها . وذلك أن الغرض الذي كان يرمي اليه اصحابه انما هو وضع القواعد للتمييز بين الصحيح وغير الصحيح من صيغ الكلام . فهو اذن مبحث تقعيديّ بعيد كل البعد عن مجرد الملاحظة الصرف ، ووجهة النظر فيه وجهة ضيّقة بالضرورة .

ثم ظهرت الفيلولوجيا اي فقه اللغة . فقد سبق أن وجدت بالاسكندرية مدرسة « فيلولوجية » . الا أن هذه التسمية تقترن خاصة بتلك الحركة العلمية التي أنشأها « فريدرش أغسطس وولف » Friedrich August Wolf بداية من سنة 1777 والتي ما زلنا نشهد اليوم تواصلها . وليست اللغة موضوع الفيلولوجيا الوحيد اذ أن همّ اصحابها انما هو ضبط النصوص وتأويلها والتعليق عليها ولذلك

فان هذا الطور من أطوار الدراسة سيفضي بهم الى أن يعتنوا كذلك بتاريخ الادب والاخلاق والمؤسسات وغيرها . ولذلك سيعتمدون في كل من هذه الميادين
14 منهجهم الخاص الذي هو النقد . وان هم انبروا يدرسون/المسائل اللغوية فانهم انما يفعلون ذلك خاصة للمقارنة بين نصوص من عهود مختلفة ولتحديد اللّغة الخاصّة بكل كاتب أو لرفع العجمة عن الكتابات المنقوشة في لغة عتيقة أو غامضة ولتفسيرها .

ولعل هذه الابحاث قد مهدت السبيل لظهور الالسنية التاريخية . من ذلك أن اعمال « رتشل » Ritschl المتعلقة بـ « بلوط » Plaute يمكن أن تنعت بأنها اعمال ألسنية غير أن النقد الفيلولوجي في هذا المجال يشكو من نقص يتعلق بنقطة معيّنة وهي أن أصحابه يتشبثون باللغة المكتوبة في خنوع مشط ساهين في ذلك عن اللغة الحية ، وذلك فضلا عن أنهم يولون كامل عنايتهم الى العصور اليونانية واللاتينية القديمة .

أما الطور الثالث فقد بدأ عندما اكتشف بعضهم أنه يمكن مقارنة اللغات فيما بينها . فكان ذلك منطلقا للفيلولوجيا المقارنة أو « النحو المقارن » . ففي سنة 1816 أصدر « فرانتز بوب » Franz Bopp كتابا أسماه « **نظام التصريف في اللغة السنسكريتية** » (1) درس فيه العلاقات التي تربط هذه اللغة بالجرمانية واليونانية واللاتينية وغيرها . ولم يكن « بوب » أول من لاحظ وجود تلك الوشائج وقال بأن جميع تلك اللغات تنحدر من أصل واحد ، فقد سبقه الى اكتشاف هذه الحقيقة آخرون نخص بالذكر منهم المستشرق الانقليزي : « و . جونس » W. Jones (ت 1794) إلّا أنّ وجود بعض الاقوال المنعزلة في هذا الشأن ليس برهانا كافيا على أن الدارسين أدركوا بوجه عام حوالي سنة 1816 مدلول هذه الحقيقة ومدى أهميتها . فلئن لم يكن لـ «بوب» **الفضل في اكتشاف أن بين اللغة** السنسكريتيّة وبعض لغات أوروبا وآسيا قرابة فإليه يرجع الفضل في ادراك أن العلاقات القائمة بين لغات بينها قرابة يمكن أن تصبح موضوعا لعلم قائم بذاته . فتسليط الاضواء على لغة بالاعتماد على لغة أخرى ، وتفسير صيغ هذه بصيغ تلك ، ذاك لعمري ما لم يسبقه اليه أحد .

ولعلّ « بوب » لم يكن ليؤسس علمه ذاك — على الاقل بمثل تلك السرعة — لولا اكتشاف اللّغة السنسكريتية . فقد جاءت السنسكريتية شاهدا ثالثا — الى

جانب اللغتين اليونانية واللاتينية ـ فوفرت لـ«بوب»قاعدة للدراسة أمتن وأوسع . ومما ضاعف من أهمية هذا الغنم أن للغة السنسكريتية أوضاعا مواتية على نحو منقطع النظير لانارة مثل هذه المقارنة بين اللغات ، وفي ذلك ما فيه من بخت لم يكن في
15 الحسبان ./

واليك هذا الشاهد مثلا : فان نحن نظرنا في صيغ الكلمة اللاتينية genus (وهي genus - generis - genere - genera -generum الخ) وفي جدول اعراب الكلمة اليونانية génos (وهي génos - géneos - géneï - génea-geneôn وهلم جرا) فاننا لا نخرج من هاتين السلسلتين من الصيغ الاعرابية بطائل سواء تناولنا كل واحدة منهما على حدة أو قارنا بينهما . ولكن الامر يتغير بمجرد أن نضيف اليهما السلسلة الموافقة لهما في اللغة السنسكريتية (وهي ǵanas ǵanasas - ǵanasi - ǵanassu - ǵanasâm الخ) اذ يكفي أن نلقي عليها جميعها نظرة عابرة حتى ندرك الصلة القائمة بين السلسلتين اليونانية واللاتينية . واذا نحن قبلنا الى حين أن ǵanas تمثل الصورة البدائية ـ بما أن ذلك يساعد على التفسير — فانه يمكننا أن نستنتج أن السين لا بد أن تكون سقطت من الصيغ اليونانية gène (s)os وغيرها ، كلما وقعت بين حركتين . ثم نستنتج أن السين تصير الى الراء في اللاتينية اذا وجدت في نفس الوضع . ثم نستنتج من وجهة النظر النحوية أن سلسلة جدول إعراب السنسكريتية توضح مفهوم ما يسمى بالاصل radical أي ذلك العنصر الموافق لوحدة ثابتة لا تتغير يمكن تماما تعيين حدودها على أتم الوجوه وهي (- ǵanas) . ان هذا الوضع الذي تمثله السنسكريتية وضع لم تشهده اللغتان اللاتينية واليونانية الا في عهود نشأتهما الاولى . فالسنسكريتية اذن لغة مفيدة وذلك لأنها احتفظت بجميع الحالات التي يرد فيها حرف السين في الهندية الاوروبية . صحيح أن درجة احتفاظ هذه اللغة بخصائص النموذج الهندي الاوروبي الاصلي بالنسبة الى نقط [صرفية] اخرى هي اقل من ذلك . فهي قد قلبت النظام الحركي رأسا على عقب ، لكنها قد احتفظت على وجه العموم بجملة من العناصر الاصلية . ومهما يكن من امر ، فان ما احتفظت به من عناصر اصلية يساعدنا على البحث أيما مساعدة : فقد شاءت الصدف أن تكون لهذه اللغة مؤهلات كبيرة جعلتها قمينة بأن تنير السبيل لمن يدرس اللغات الاخرى في جملة كبيرة من الحالات والمسائل .

وانا لنشهد منذ البداية بروز عدد من الالسنيين الاعلام الى جانب « بوب » منهم « يعقوب قريم » Jacob Grimm مؤسس الدراسات الجرمانية (وقد نشر مؤلفه : النحو الالماني (2) بين 1822 و 1830) و « بوت » Pott الذي قام ببحوث ايتيمولوجية وفرت للالسنيين مادة ضخمة جدا ، و « كون » Kuhn وقد تعلقت اعماله بالالسنية / وبالميثولوجيا المقارنة في آن واحد ، و « بنفاي » Benfey و « أوفرشت » Aufrecht وهما من المختصين في الدراسات الهندية الاوروبية وغيرهم . 16

وختاما ينبغي أن نخص بالذكر من بين آخر ممثلي هذه المدرسة « ماكس موللر » Max Müller و « ج . كورتيوس » G. Curtius و«أغسطس شليشر » August Schleicher فقد بذل ثلاثتهم في سبيل الدراسات المقارنة ، على اختلاف طرائقهم ، جهودا طائلة . وقد اذاعها « ماكس موللر » وذلك بواسطة احاديثه الباهرة وعنوانها (**دروس في علم الكلام البشري** (3) 1861) الا أنه لا يمكن أن يعاب بالافراط في النزاهة العلمية . أما « كورتيوس » — وهو عالم ممتاز في الفيلولوجيا اشتهر خاصة بكتابه : **مبادىء في الايتيمولوجيا اليونانية** (1879)(4) — فقد كان من الاوائل الذين وفقوا بين النحو المقارن والفيلولوجيا الكلاسيكية ، وكان اصحابها قد تابعوا في حذر واحتراز ما حققه ذلك العلم ، اي النحو المقارن ، حتى اصبح ذلك الحذر متبادلا بين الطرفين . ونذكر اخيرا « شليشر » وهو **أول** من حاول تقنين نتائج الابحاث الجزئية . فكتابه : **مختصر في نحو اللغات الهندية الاوروبية المقارن** (1861) (5) هو ضرب من نظمنة ذلك العلم الذي اسسه « بوب » . ان هذا الكتاب الذي اسدى خدمات جليلة على مدى احقاب طويلة من الزمن يوحي اكثر من غيره بملامح تلك المدرسة المقارنة التي تمثل أول طور من اطوار الالسنية الهندية الاوروبية .

الا ان هذه المدرسة وان كان لها فضل لا ينكر في فتح مجال خصب جديد،لم توفق الى تأسيس علم اللغة الحق ولم يكن من مشاغلها قط أن تعتني باستخلاص طبيعة موضوع دراستها والحال ان اي علم من العلوم عاجز أن يتخذ لنفسه منهجا إن هو لم يقم بهذا العمل البسيط الاول .

وأول خطإ ارتكبه اصحاب النحو المقارن — وهو خطأ يحتوي على بذور كل

الاخطاء الاخرى — أنهم لم يتساءلوا أثناء قيامهم بابحاثهم ، وكانت بالاضافة الى ذلك تقتصر على اللغات الهندية الاوروبية ، عن مغزى ما كانوا يقومون به من مقارنات بين اللغات وعن مدلول ما كانوا يكتشفونه من علاقات . ولقد كانت دراستهم دراسة نحوية مقارنة ليس الا ، بدل أن تكون دراسة تاريخية . صحيح ان المقارنة هي الشرط/الضروري لكل عملية ترمي الى اعادة بناء اللغات تاريخيّا ، ولكن اعتماد المقارنة وحدها أمر غير كاف لاستخلاص النتائج النهائية . وممّا زاد في اعاقة هؤلاء المقارنين عن الظفر بمثل هذه الاستنتاجات النهائية أنهم كانوا يعتبرون تطور لغتين من اللغات مثلما يعتبر عالم الطبيعة نموّ نبتتين من النباتات . فهذا « شليشر » على سبيل المثال ، وهو الذي كان يدعونا دوما الى الانطلاق من اللغة الهندية الاوروبية ، وكأنه في ذلك يلتزم مسلك المؤرخ التزاما، — لا يتردد في القول بأن الـ e وال o (أي الفتحة الممالة والضمة نصف المنغلقة) تمثلان في اللغة اليونانية « درجتين » (Stufen) في نظامها الحركي ، وذلك أن السنسكريتية تشتمل على نظام تناوب حركي يوحي بفكرة الدرجات الحركية هذه . فقد افترض «شليشر» إذن أن هذه الدرجات يجب أن يمر بها الانسان في كلّ لغة على حدة وبصورة موازية لما يحدث في صلب كل لغة أخرى، مثلما يمر نمّو النباتات التي من نفس النوع بنفس الاطوار دون أن يكون نمو بعضها متعلقا بنمو بعض . فأفضى به ذلك الى أن اعتبر أن الحركة o في اللغة اليونانية انما هي درجة مشبعة من الحركة e في نفس اللغة ، تماما كما اعتبر ان الفتحة الطويلة ā في اللغة السنسكريتية ، انما هي اشباع للفتحة الخيشومية ā التابعة لنفس اللغة . والواقع أن الامر يتعلق بتناوب حركي خاص بالهندية الاوروبية يظهر على نحوين مختلفين في اليونانية والسنسكريتية دون أن ينجر عن ذلك بالضرورة وجود اي تطابق بين ما ينشأ بسبب التناوب من تأثيرات نحوية في هذه اللغة وفي تلك (انظر ص 238 وما بعدها) . 17

ان هذا المنهج القائم على المقارنة الصرف يفضي بنا الى مجموعة هامة من التصورات الخاطئة التي لا تطابق الواقع في شيء والتي لا تمت بصلة الى الظروف والملابسات الحقيقية الخاصة بكل كلام بشري . فلقد كان بعضهم يعتبر اللغة عالما خاصا أي عالما رابعا من عوالم الطبيعة (6) . وقد ظهرت في هذا انماط من التفكير والنظر لو ظهرت في علم آخر لكانت باعثة على الدهشة والاستغراب . ولا

يكاد المرء في ايامنا يقرأ بضعة اسطر مما كتبوا في ذلك العهد حتى تصيبه الدهشة لما يجد في افكارهم وفي ما يستعملون من عبارات لتبريرها من غرابة وشذوذ .

أما من وجهة النظر المنهجية فان معرفة تلك الاخطاء امر لا يخلو من فائدة . ذلك أن ما نجده من اخطاء في صلب علم من العلوم في أوائل نشأته لهو صورة مكبرة للأخطاء التي يرتكبها أولئك الدارسون الذين يشرعون في الابحاث العلمية / ونسوف يتاح لنا في اثناء هذا العرض أن ننبه إلى عدد كبير منها . 18

وانما بدأ الناس يتساءلون عن الظروف والملابسات التي تتعلق بحياة اللغة حوالي سنة 1870 . فقد انتبهوا آنذاك الى أن ما يجمع بين اللغات من صفات مشتركة ليست سوى وجه من وجوه الظاهرة اللغوية ، وأن المقارنة ليست إلا وسيلة ومنهجا لاعادة بناء الوقائع اللغوية.

وأما الألسنية بالمعنى الصحيح — تلك التي أنزلت المقارنة منزلتها الصحيحة — فقد نشأت عن دراسة اللغات الرّوْمنية واللغات الجرمانية . فقد اسهمت الدراسات الرومنية — التي كان « ديتز » Diez رائدها الأول بكتابه : **نحو اللغات الرّوْمنية** (7) وقد ظهر بين 1836 و 1838 — اسهاما ذا بال في تقريب الالسنية من موضوعها الحقيقي . وذلك أن دراسي اللغات الرومنية كانوا يحظون في عملهم بظروف ممتازة لم يحظ بها دارسو اللغات الهندية الاوروبية . فقد كانوا أولا يعرفون اللغة اللاتينية وهي النموذج الاصلي للغات الرّومنية . ثم ان وفرة الوثائق كانت تسمح لهم أن يتتبعوا مختلف الالسن الرّوْمنية في أدق تفاصيلها . وقد حدّ هذان الامران من وجود الاحتمال ، وطبعا تلك الدراسة بأكملها بطابع ملموس الى حد بعيد .

وكان دراسو اللغات الجرمانية في وضع مشابه لما ذكرنا . فلئن كان النموذج الجرماني الاصلي غير معروف لديهم بصفة مباشرة ، فقد كان تتبع تاريخ اللغات المتفرعة عنه ممكنا بفضل وثائق عديدة تمتد على سلسلة طويلة من القرون . ولذلك فان اصحاب الدراسات الجرمانية — وكانوا أشدّ التصاقا بالواقع اللغوي — قد انتهوا الى تصورات مخالفة لتلك التي انتهى اليها رواد الدراسات الهندية الاوروبية .

أما الدفعة الاولى في هذا المجال فيرجع الفضل فيها الى الامريكي « ويتني » Whitney صاحب كتاب : « حياة الكلام » (8) (وقد صدر سنة 1875)

وسرعان ما تكوّنت اثره مدرسة جديدة هي مدرسة النحاة الجدد (Junggrammatiker) وكان رؤساؤها جميعا من الالمان نذكر من بينهم « ك . بروقمان » K. Brugman و « هـ . أوستهوف » H. Osthoff ؛ ومن المختصين في الدراسات الجرمانية « و . براون » W. Braune و « أ . سيفرس » E. Sievers و « هـ . بول » H. Paul كما نذكر « لسكين » Leskien وهو من المتخصصين في اللغات الصّقْلبيّة . وقد كان لجميع هؤلاء الفضل في احلالهم نتائج منهج المقارنة كلها محلها من المنظور التاريخي/وبالتالي في ربط حلقات سلسلة الاحداث اللغوية حسب نسقها الطبيعي ، وبفضلهم لم يعد الناس يعتبرون اللغة جهازا يتطور من تلقاء نفسه وصاروا يرون فيها نتاجا من نتاجات الفكر الجماعي للمجموعات اللغوية . وأدركوا تبعا لذلك وفي نفس الوقت ما في الافكار التي يقوم عليها فقه اللغة والنحو المقارن من خطإ وقصور (9) . ولكن مهما تكن قيمة الخدمات التي أسدتها هذه المدرسة ، فلا يمكن أن نقول انها قد كشفت عن غوامض هذه المسألة في مجموعها ، لأن المشاكل الجوهرية في الالسنية العامة ما تزال قائمة الى يومنا هذا تنتظر من يحلها . 19

الباب الثاني
مادة الالسنية ومهمتها
صلاتها بالعلوم المقترنة بها

ان مادة الالسنية تتكون بادئ ذي بدء من جميع مظاهر الكلام البشري سواء تعلق الامر بكلام الشعوب المتوحشة أو الامم المتحضرة ، في العصور العتيقة أو الكلاسيكية أو في عصور الانحطاط . والمعتبر في كل عصر من هذه العصور ليس الكلام الصحيح و« الكلام الأدبي » فقط ، ولكن جميع أشكال التعبير . وليس ذلك كل ما في الامر . اذ إنه لمّا كان الكلام [المنطوق] يفلت في أغلب الاحيان عن الملاحظة ، فانه يتعين على الالسني أن يقرأ أيضا حسابا للنصوص المكتوبة لأنها هي وحدها التي تمكنه من أن يعرف الالسن القديمة أو النائية .

وستتمثل مهمة الالسني في :

أ : أن يقوم بالوصف والتأريخ لكل ما يمكنه أن يقف عليه من اللغات وهو ما يؤول به الى أن يقوم بوضع تاريخ الفصائل اللغوية وأن يعيد بقدر المستطاع بناء اللّغات الأمّ من كل فصيلة .

ب : أن يبحث عن القوى العاملة عملا دائما مستمرا في جميع لغات العالم ، وأن يستخلص القوانين العامّة التي اليها يمكن ارجاع جميع الظواهر الخاصة بتاريخ اللغات .

ج : أن يحدّد موضوعها ويعرف ماهيتها .

ذلك أن للالسنية علاقات وثيقة جدا بعلوم أخرى ، وهذه العلوم تقتبس منها بعض المعطيات تارة وتوفر لها بعض المعطيات تارة أخرى . والحدود التي تفصلها عن تلك العلوم لا تظهر دائما بوضوح . فعلى سبيل المثال ينبغي أن تميّز الالسنية بكل عناية عن الانثروغرافيا (10) وعن دراسة عصور ما قبل التاريخ.فليس للغة فيهما من دور سوى دور الوثيقة . كما ينبغي أن تميزها عن الانثروبولوجياوهو علم لا يدرس الانسان إلّا من وجهة نظر النوع ، بينما الكلام البشري إنما هو ظاهرة اجتماعية . ولكن هل ينبغي تبعا لذلك أن ندمجها في صلب علم الاجتماع ؟ ثم ما هي الصلات الموجودة بين الالسنية وعلم النفس الاجتماعي ؟ فكلّ ما في اللغة في نهاية الامر نفسي . وتدخل في ذلك مظاهرها المادية والميكانيكية مثل تغيّر الأصوات . واذا كانت الالسنية توفر لعلم النفس الاجتماعي معطيات على هذا القدر من القيمة ، أفليست ملحمة به التحاما عضويا ؟ تلك أسئلة عديدة لا نقوم الآن إلّا بمجرد التلميح اليها . وسنعود اليها فيما بعد .

أما صلات الالسنية بالفيزيولوجيا فليس تخليصها على نفس الدرجة من الصعوبة — فالصلة بينهما صلة من جهة واحدة . بمعنى أن الألسنية تقتبس توضيحات من فيزيولوجيا الأصوات ولكنها لا توفر لفيزيولوجيا الأصوات أي توضيح . ومهما يكن من أمر فان الخلط بين هاتين المادتين أمر محال . فجوهر اللغة كما سنرى لا يمت الى الطبيعة الصوتية للدليل اللغوي بصلة .

وأما الفيلولوجيا ، فقد وصلنا بعد الى موقف ثابت بشأنها : انها تتميز عن الالسنية تميزا جليا رغم نقاط الاتصال بين العلمين والخدمات المتبادلة بينهما .

وفي نهاية المطاف يمكن أن نتساءل : ما هي جدوى الألسنية ؟

إن من شم أفكار واضحة في هذا الشأن لقلة قليلة . وليس المجال هنا أن نضبط الافكار بصورة نهائية . لكنه من البديهي مثلا أن المسائل اللغوية تهم كلا من المؤرخين والفيلولوجيين وغيرهم ممن يشتغلون بممارسة النصوص . وبديهية أكثر من ذلك قيمتها بالنسبة الى الثقافة العامة . فالكلام ، في حياة الاشخاص والمجتمعات عامل أعظم شانا من أي عامل سواه . ولا يعقل بحال من الأحوال أن يبقى دراسته مقصورة على بعض المختصين .

22

وحقيقة الأمر أن جميع الناس يهتمون بالكلام اهتماما قليلا أو كثيرا ؛ ولكن — وهذه نتيجة غريبة بالنسبة إلى ما يوليه الناس اياه من اهتمام — لا يوجد مجال سواه فرّخ فيه عدد أكبر من الآراء العبثية والأحكام الماقبليّة والأوهام وتهويمات الخيال . وليست تلك الأخطاء من وجهة نظر علم النفس مما يستهان به ، إلّا أن مهمة الالسني تتمثل قبل كل شيء في أن يندّد بها وأن يدحضها ما استطاع الى ذلك سبيلا .

23

الباب الثالث
موضوع الالسنية

الفصل الأول : اللغة وحدّها

ما هو موضوع الالسنية ، موضوعها الكامل والملموس في الآن نفسه ؟ ان المسألة لعلى جانب كبير من العسر . وسنرى فيما بعد لماذا . ولنقتصر على أن نوقف القارىء على هذه الصعوبة .

ذلك أن أصحاب العلوم الأخرى يباشرون أشياء معطاة سلفا يمكنهم أن يفحصوها من زوايا مختلفة . أما في مجالنا نحن معشر الالسنيين فلا شيء من هذا القبيل . فقد ينطق أحدهم بكلمة «nu» مثلا فاذا الملاحظ السطحي الذي يكتفي بظاهر الامور ينزع الى أن يجد فيها شيئا لغويا محسوسا . ولكن فحصا فيه قسط أكبر من التمعّن يجعلنا نجد على التوالي أمورا ثلاثة أو أربعة مختلفة تمام الاختلاف بحسب الطريقة التي بها يتمّ اعتبار الكلمة : أي باعتبارها أصواتا أو باعتبارها تعبيرا عن فكرة أو باعتبارها موافق كلمة nūdum في اللّاتينية .

ونحن أبعد ما نكون عن القول بأن الشيء سابق لوجهة النظر ، بل قد يبدو أن وجهة النظر هي التي تخلق الشيء . على أنه ليس ثمة ما يخبرنا سلفًا بأن احدى هذه الطّرق في النظر بالذات سابقة لغيرها أو أفضل منها .

وعلاوة على ذلك ومهما تكن الطريقة التي نتوخاها ، فان الظاهرة اللغوية تمثل على الدوام وجهين يتطابقان ، وليس لأحدهما قيمة إلّا بالآخر . فعلى سبيل المثال :

1) ان ما نلفظه من مقاطع هي انطباعات أكوستيكية تلتقطها الاذن ، ولكن الأصوات ما كانت لتوجد لولا أعضاء التصويت . وهكذا فان صوت النون لا يوجد إلّا/بتطابق هذين المظهرين . فلا يمكن اذن أن نقصر اللغة على الصوت ولا أن نفصل الصوت عن عملية تقطيع النطق في الفم . وبالعكس لا يمكننا أن نحدّد حركات أعضاء التصويت ان نحن صرفنا النظر عن اعتبار الانطباع الاكوستيكي . (انظر ص 70 وما بعدها) .

24

2) ولكن هب اننا قبلنا اعتبار الصوت شيئا بسيطا . أهو الذي يمثل قوام الكلام ؟ كلا . فما هو إلّا أداة للتفكير ولا يوجد لذاته . وهنا تبرز مطابقة جديدة خطيرة تتمثّل في أن الصوت ، تلك الوحدة الاكوستيكية الصوتية المركبة ، يشكل بدوره مع الفكرة وحدة مركّبة ، فيزيولوجية ذهنية . وليس هذا كل ما في الأمر ولا منتهاه .

3) فللكلام جانب شخصي وجانب اجتماعي . ولا يمكن تصور الواحد بدون الآخر . وبالاضافة الى ذلك :

4) فهو يقتضي في كل آونة نظاما مستقرا وتطورا . فهو في كل حين مؤسسة حاليّة ونتاج من نتاجات الماضي . ويبدو لأول وهلة أن التمييز بين النظام وتاريخه أمي بين ما هو عليه وما كان عليه ، هو من السهولة بمكان . وواقع الأمر أن العلاقة الرابطة بين هذين الشيئين هي من المتانة بحيث يعسر الفصل بينهما . ثم أوّ تكون المسألة أبسط لو اعتبرنا الظاهرة اللغوية من حيث أصولها ، كأن نبدأ على سبيل المثال بدراسة كلام الاطفال ؟ كلا . انه لرأي خاطئ كل الخطإ أن نعتقد أن قضية البداية في الكلام تختلف عن قضية أوضاعه الدائمة اذ نحن لا نخرج عند ذلك من الحلقة المفرغة .

وهكذا مهما يكن الجانب الذي منه نباشر المسألة فان موضوع الألسنية بتمامه وكماله لا يتجلى لنا في أي من هذه الجوانب . فنحن نصطدم أنّى اتجهنا بهذه

المعضلة : اما اننا نوقف اهتمامنا على جانب واحد من كلّ مسألة فيكون في ذلك خطر أن لا ندرك الثنائيات المشار اليها آنفا ، أو اننا ندرس الكلام من زوايا متعددة في آن واحد فيلوح لنا موضوع الألسنية ركاما مبهما من أشياء متباينة لا يمتّ بعضها الى بعض بصلة . أما اذا سلك السالك هذا النهج الثاني بالذات فانه يفتح الباب على مصراعيه أمام علوم متعددة كعلم النفس والأنثروبولوجيا والنحو التقعيدي والفيلولوجيا الخ .../في حين أننا نرى وجوب فصلها عن الالسنية فصلا واضحا . وهي علوم متى تناولها الدارس بمنهج غير سليم قد يطالب أصحابها بضمّ الكلام إليها واعتباره موضوعا من مواضيعها .

25

وليس يوجد في رأينا إلّا حلّ واحد لكل هذه المشاكل : **يجب أن نحصر اهتمامنا في ميدان اللغة فقط وأن نتخذها قاعدة للحكم على جميع مظاهر الكلام الاخرى** . وفعلا فمن بين ذلك العدد الجمّ من الثنائيات ، تبدو اللغة وحدها حَرِيّة بحدّ قائم بذاته مستقر يطمئن اليه فكر الانسان .

لكن ما اللغة ؟ ان اللغة والكلام عندنا ليسا بشيء واحد . فإنما هي منه بمثابة قسم معيّن وان كان أساسيا والحق يقال . فهي في الآن نفسه نتاج اجتماعي لملكة الكلام،ومجموعة من المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكّن الأفراد من ممارسة هذه الملكة . واذا أخذنا الكلام جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقومات موزّعا في الآن نفسه بين ميادين متعددة بما فيها الفيزيائي والفيزيولوجي والنفسي ، منتميا في الآن نفسه الى ما هو فردي والى ما هو اجتماعي . ولا يتسنى لنا ترتيبه ضمن أي قسم من أقسام الظواهر البشرية لأننا لا نستطيع أن نستخرج وحدته .

أما اللغة فهي على عكس ذلك ، كلّ بذاته ومبدأ من مبادىء التبويب . وما ان نجعلها في المقام الأول بين ظواهر الكلام حتى ندخل نظاما طبيعيا في مجموعة من الظواهر لا تخضع لأي نوع آخر من التبويب .

ولقائل أن يقول : ان ممارسة الكلام مبدأ من مبادىء التبويب تقوم على ملكة اكتسبناها من الطبيعة في حين أن اللغة انما هي شيء مكتسب متواضع عليه ، وينبغي أن تكون خاضعة للغريزة الطبيعية بدلا من أن تكون مقدّمة عليها .

ويمكن أن نرد على هذا بقولنا :

أولا إنه لم يثبت أن وظيفة الكلام كما تتمثل عندما نتكلم ، طبيعية كلّها ، أي
26 أن جهاز التصويت مجعول لكي نتكلم كما جعلت أرجلنا لكي نمشي . والالسنيون/
أبعد ما يكونون عن الاتفاق بشأن هذه النقطة . فهذا « ويتني » يعتبر اللغة
مؤسسة اجتماعية مثلها في ذلك مثل سائر المؤسسات الأخرى ويقول بأننا ان
استعملنا جهاز التصويت لتأدية اللغة فذلك بمحض الصدفة أي لمجرد كون ذلك
من أيسر السبل ولعله كان يمكن للناس أن يختاروا الاشارة وأن يستخدموا الصور
المرئية عوضا عن الصور الاكوستيكية . ولا شك أن في إرسال مثل هذا القول
اطلاقا مفرطا . فاللغة ليست مؤسسة اجتماعية شبيهة بما سواها من المؤسسات
الاجتماعية الأخرى في جميع النواحي (انظر ص 118 وما بعدها وص 122) .
وعلاوة على ذلك فان « ويتني » مشطّ في قوله إن اختيارنا وقع على أعضاء
التصويت بمحض الصدفة . فانما هي بوجه من الوجوه مفروضة علينا من الطبيعة
فرضا . ولكن يبدو لنا أن هذا الالسني الامريكي محق في شأن النقطة الأساسية :
فاللغة تواضع . وطبيعة الدليل المتفق عليه غير ذات أهمية . فقضية جهاز
التصويت اذن قضية ثانوية في ما يتعلق بمشكلة الكلام .

ويمكن أن يدعم هذا الرأي تحديد من التحديدات لما يسمّى **بالكلام المقطّع** Langage articulé ففي اللاتينية تعني كلمة articulus العضو أو الجزء أو التفريع في صلب سلسلة من الأشياء . أما في مجال اللغة فيمكن للتقطيع أن يعْني إمّا تقسيم السلسلة المنطوقة الى مقاطع أو تقسيم سلسلة المعاني الى وحدات معنوية . وفي هذا المعنى يقال في الالمانية gegliederte Sprache أي الكلام المقطّع عضوا عضوا . وتمسكا بهذا التعريف الثاني يمكن أن نقول : ليس الكلام المنطوق هو الطبيعي بالنسبة الى الانسان بل ان الطبيعي انما هو ملكة تأسيس لغة أي تأسيس نظام من الدلائل المتميزة المطابقة لأفكار متميزة .

لقد اكتشف « بروكا » (Broca) ان ملكة الكلام مكانها في الطيّة الامامية اليسرى الثالثة من الدماغ وعلى هذا اعتمدوا لكي يسندوا الى الكلام صفته الطبيعية . ولكننا نعلم أن تحديد هذا المكان قد لوحظ وثبتت صحته بالنسبة الى جميع ما يتصل بالكلام بما في ذلك الكتابة . وكأننا بهذه الملاحظة مضافة الى ما لاحظوه بخصوص مختلف أشكال داء الحبسة الناتجة عن انعطاب هذا الموضع من
27 الدماغ/تشير الى الأمور التالية :

1 — ان مختلف الاضطرابات الحاصلة في الكلام المنطوق والاضطرابات الحاصلة في الكلام المكتوب متشابكة تشابكا لا حدّ له .

2 — ان ما يختل في جميع حالات الحبسة أو داء العجز عن الكتابة ليس ملكة التفوه بهذا الصوت أو ذاك أو خط هذا الحرف أو ذاك بقدر ما هو ملكة استعمال أية وسيلة من الوسائل لاستحضار دلائل تابعة لكلام ذي نظام . ويجرنا كل هذا الى أن نعتقد أنه توجد فوق عمل مختلف الأعضاء ملكة أعم هي تلك التي تتحكم في الدلائل والتي ربما تكون الملكة اللغوية بأتم معنى الكلمة . وفي ذلك ما يفضي بنا الى استنتاج نفس ما استنتجناه أعلاه .

ولكي نسند الى اللغة المكانة الأولى في دراسة الكلام يمكن أخيرا أن ندلي بهذه الحجة وتتمثل في أن ملكة تقطيع الألفاظ سواء كانت طبيعية أو لا ، لا تتحقق إلّا بفضل تلك الوسيلة التي تخلقها المجموعة وتوفرها .

فليس اذن من باب الوهم أن نقول : ان ما يجعل للكلام وحدته انما هو اللغة .

الفصل الثاني : منزلة اللغة من الظواهر الخاصة بالكلام

اذا أردنا أن نبحث في مجموع الكلام عن المجال الذي يناسب اللغة فينبغي لنا أن نفحص العملية الفردية التي تمكن من تشخيص دورة الخطاب . ويُفترض في تلك العملية وجود شخصين على أقل تقدير ، فهو أدنى ما يطلب حتى تكون الدورة تامة . فلنفترض اذن أن شخصين أحدهما « أ » والثاني « ب » يتخاطبان :

28 / ان منطلق الدورة موجود في دماغ أحدهما ، وهو « أ » على سبيل المثال ، حيث تقترن ظواهر الادراك — وهي التي نسميها المتصورات الذهنية — بما يمثل الدلائل اللغوية أي الصور الاكوستيكية المستخدمة للتعبير عن تلك الظواهر . ولنفترض أن متصورا ما يثير في الدماغ صورة أكوستيكية مناسبة له فان هذه العملية تمثل ظاهرة **نفسية** صرفا تليها عمليّة **فيزيولوجية** . وصورة ذلك أن الدماغ يبلّغ أعضاء التصويت دفعة مناسبة للصورة الاكوستيكية . ثم ان الموجات الصوتية تنتشر من فم « أ » الى اذن « ب » وتلك عمليّة **فيزيائية** صرف . ثم ان الدورة تتواصل عند « ب » ولكن في ترتيب معاكس ، أولا من الاذن الى الدماغ — حيث تتم عمليّة تبليغ فيزيولوجية للصورة الاكوستيكية ثم ثانيا في الدماغ نفسه حيث يتم ربط ذهني بين تلك الصورة والمتصور الذهني الذي يناسبها . فاذا تكلم « ب » بدوره فان هذه العملية الجديدة أي كلام « ب » ستسلك في تنقلها من دماغه الى دماغ « أ » نفس المسلك الذي سلكته العملية الأولى بالذات أي كلام « أ » وتمر بنفس المراحل المتتابعة . ونحن نمثل لك ذلك كما يلي :

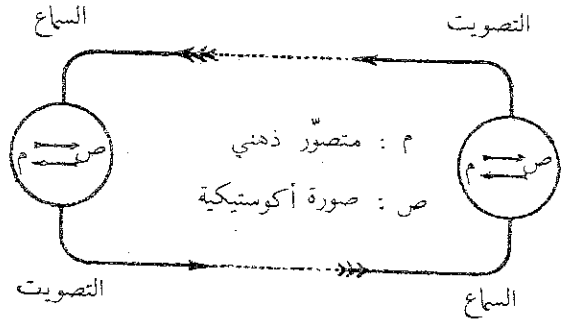

اننا لا ندعي أن هذا التحليل تحليل كامل ، فانه يمكن بالاضافة إلى ذلك أن نميز أشياء أخرى منها الارتسام المادي الاكوستيكي المحض ومنها ادراك تماثل ذلك الارتسام والصورة الاكوستيكية الكامنة . ومنها الصورة العضلية للتصويت الخ ... بيد أننا لم نأخذ بعين الاعتبار إلّا العناصر التي بدت لنا جوهرية . على أن الرسم
29 أعلاه يمكّن من أن نميز من أول وهلة العناصر الفيزيائية (أي الموجات الصوتية) عن العناصر الفيزيولوجية (أي التصويت والسماع) وعن العناصر النفسيّة (أي المتصور

اللفظية والمتصورات) . وفعلا فانه من الأمور الجوهرية أن نلاحظ أن الصورة اللفظية لا توافق تماما الصوت نفسه ، وأنها ذات طبيعة نفسية ، شأنها في ذلك شأن المتصور الذي يقترن بها .

ثم انه يمكن للدورة كما مثلناها أن تنقسم هي أيضا بصورة أخرى الى :

أ : قسم خارجي (يشمل نزيز الأصوات في انطلاقها من الفم ووصولها الى الاذن) وقسم داخلي يشمل سائر الأمور الأخرى .

ب : قسم نفسي وقسم لانفسي . والثاني منهما يحتوي في الآن نفسه الظواهر الفيزيولوجية التي مقرها الأعضاء والظواهر الفيزيائية الخارجة عن نطاق الشخص .

ج : قسم ايجابيّ وقسم سلبي — والايجابي هو كل ما ذهب من مركز عملية الاقتران لدى أحد الاشخاص الى اذن الشخص الآخر . وأما السلبيّ فكل ما ذهب من اذن الاخير الى مركز الاقتران عنده أي الدماغ .

أما عن القسم النفسي الذي مكانه الدماغ فيمكن فيه أن نسمي منقّذا كل ما هو ايجابي (متصور ← صورة) وأن نطلق اسم متقبّل على كل ما هو سلبي (صورة ← متصور) .

وينبغي أن نضيف الى ذلك تلك الملكة الخاصة بعمليتي القرن والتنسيق والتي يظهر مفعولها متى لم يعد الامر متعلقا بدلائل منعزلة . وهذه الملكة هي التي تقوم بأكبر دور في تنظيم اللغة من حيث هي نظام . (انظر ص 186) .

أما اذا أردنا أن نفهم هذا الدور جيّد الفهم ، فينبغي أن نتجاوز العملية الفردية التي هي من الكلام بمثابة الجنين من الانسان لنباشر معالجة الظاهرة الاجتماعية .

ذلك أنه يقوم بين جميع الاشخاص المتصلين فيما بينهم على تلك الصورة بواسطة الكلام شبه القاسم المشترك . فهم يستعملون ، لا على سبيل التدقيق بدون شك ولكن على سبيل التقريب نفس الدلائل مقرونة بنفس المتصورات الذهنية .

فترى ما الذي يجعل هذه العملية تصبح ظاهرة اجتماعية ؟ وأي جزء من أجزاء الدورة يمكن اعتباره المتسبب في ذلك/لأنه من المحتمل جدا أن كل أجزائها ليس لها نفس القدر من الأهمية في تلك العمليه .

فمن الممكن أن نطرح جانبا ، بادئ ذي بدء الجزء الفيزيائي . فاننا عندما نستمع الى لغة نجهلها نسمع الأصوات جيدا ، ولكننا نبقى ، بسبب عدم فهمنا لتلك اللغة ، خارج الظاهرة الاجتماعية .

كما أن القسم النفسيّ لا يقوم إلا بدور جزئي في هذا المضمار . ذلك أن الجانب المنفّذ لا دخل له هنا ، لأن التنفيذ لا يتم في مستوى الجمهور وانما يتم دائما في مستوى الافراد ، والفرد هو دائما المتحكم فيه ، وسنسميه **اللفظ** (parole) .

ان ما يتكون لدى المتكلمين من الارتسامات التي تكاد تبلغ التماثل التام لدى جميع الناس انما يتم بفضل قيام الملكتين ، ملكة التقبّل وملكة التنسيق بعملهما . فكيف يجب أن نتصور هذا المنتوج الاجتماعي الذي هو اللغة حتى نميزه من سائر الميادين الأخرى وأن نخلّصه تخليصا كاملا .

لو كان في الامكان أن نحيط بمجموع الصور اللفظية المختزنة لدى جميع الأفراد لضبطنا ذلك الرابط الاجتماعي الذي تتكون منه اللغة . انه كنز مودع عن طريق ممارسة اللفظ لدى جماعة من الأشخاص المنتمين الى مجموعة واحدة وهو نظام نحوي يوجد بالقوة في كل دماغ أو على نحو أدق في أدمغة مجموعة من الأفراد . وذلك لأن اللغة ليست تامة في دماغ واحد منها بمفرده ولا وجود لها على الوجه الأكمل إلّا عند الجمهور .

وهكذا ، فإننا إذ نفصل اللغة عن اللفظ نفصل في الآن نفسه : أولا ما هو اجتماعي عما هو فردي ؛ ثانيا ، ما هو جوهري عما هو ثانوي وعرضي بدرجة من الدرجات .

وليست اللغة وظيفة من وظائف المتكلم ، بل هي نتاج يتقبّله ويسجله دون أن يقوم بأي نشاط . وليس له فيها البتة أيّ سابق اضمار . بل ليس لتفكيره فيها من نشاط سوى نشاط الترتيب . وهي قضية سنتناولها (ص 186 وما بعدها) .

وأما اللفظ ، فهو على العكس من ذلك ، عمل فردي يقوم على الارادة والذكاء ، ويحسن أن نميّز فيه بين :/

1 — التوليفات التي بواسطتها يستعمل المتكلم قانون اللغة ليعبّر عن رأيه الشخصي ؛

2 — الإوانيّة النفسية الفيزيائية التي تمكّنه من أبراز تلك التوليفات الى الخارج .

وينبغي أن نلاحظ أن ما عرّفناه هو مجموعة من الأشياء لا من الكلمات وأن التميزات التي أقمناها أعلاه لا ينال منها ما في الكلمات التي لا تتفق معانيها تماما من لغة الى أخرى من ابهام واشتراك . من ذلك أن كلمة Sprache في الألمانية تعني « اللغة » و « الكلام » معا ، أما Rede فتوافق تقريبا مفهوم « اللفظ » ولكنها تفيد بالاضافة اليه المعنى الخاص الذي لكلمة « خطاب » (Discours) . وأما في اللاتينية فان كلمة sermo تعني بالأحص « الكلام » و « اللفظ » بينما الذي تفيده كلمة lingua هو « اللغة » . وكذا في سائر اللغات . فلا كلمة من هذه الكلمات توافق بالضبط أحد المفاهيم المحددة أعلاه . ولذلك فإن أي تعريف يكون منطلقه الكلمات تعريف لا طائل من ورائه . وانه لمن الخطل في الطريقة أن ننطلق من الكلمات كي نحدّد الأشياء .

ولنلخّص الآن خصائص اللغة :

1 — اللغة شيء معيّن مضبوط الحدود ضمن مجموع ظواهر الكلام المتنافرة . ويمكن أن نحدد مكانها في ذلك القسم المعين من الدورة حيث تقترن صورة سمعية ما بتصور ذهنيّ ما . وهي الجانب الاجتماعي من الكلام الخارج عن نطاق الفرد ، لأن الفرد الواحد غير قادر على أن يخلقها أو على أن يحورها . وهي لا توجد الا بمقتضى نوع من التعاقد يتم بين أعضاء المجموعة البشرية الواحدة . ومن جهة أخرى فان الفرد في حاجة الى دربة حتى يعرف قواعد عملها . فالطفل لا يتمثلها الا شيئا فشيئا . واللغة شيء متميز في حد ذاته تميزا واضحا الى حدّ أنّ من يفقد القدرة على اللفظ يبقى مع ذلك محتفظا باللغة شريطة أن يفهم ما يسمع من الدلائل الصوتية .

2 — ان اللغة ، بتميزها هكذا عن اللفظ ، شيء يمكن أن يدرس على حدة .

فنحن لم نعد نتكلم اللغات المنقرضة ولكننا قادرون على تمثل بنيتها اللغوية تمام القدرة . وليس يمكن لعلم اللغة أن يستغني عن عناصر الكلام الأخرى فقط ، بل
32 هو لا يكون ممكنا إلّا متى لم يشمل مثل تلك العناصر ./

3 — لئن كان الكلام متنافر المقومات فان اللغة كما حدّدناها ذات طبيعة متجانسة . فهي نظام من الدلائل ليس فيه من جوهري سوى اقتران المعنى والصورة الاكوستيكية . وهي نظام يكون فيه وجها الدليل نفسيين بنفس الدرجة والقدر .

4 — إنّ اللغة شيء ذو طبيعة ملموسة ولا تقلّ في ذلك عن اللفظ . وهو غنم كبير للدراسة . والدلائل اللغوية ، وإن كانت في جوهرها نفسية فانها ليست من المجردات . فعمليات الترابط بين الدال والمدلول التي يقرها الجمهور ويرتضيها والتي يكوّن مجموعها اللغةَ حقائق مقرّها الدماغ . وعلاوة على ذلك فان دلائل اللغة دلائل ملموسة ان صح التعبير ويمكن تقييدها في الخط بعلامات متواضع عليها ، بينما قد يستحيل أن نصور عمليات اللفظ في جميع جزئياتها . فان النطق بكلمة مهما صغرت يمثل عددا لا يحصى من الحركات العضلية التي تعسر معرفتها ويعسر رسمها عسرا شديدا . وليس في اللغة على عكس ذلك الا الصورة الاكوستيكية وهي صورة يمكن ترجمتها الى صورة مرئية قارة . وذلك أننا ان صرفنا النظر عن ذلك العدد الوافر من الحركات الضرورية لانجاز الصورة الأكوستيكية في مستوى اللفظ فان هذه الصورة الاكوستيكية ليست كما سنرى الا مجموع عدد محدود من العناصر أي من الصوائم التي يمكن لها بدورها أن تمثل في الخط بواسطة عدد من العلامات موافق لها . ان هذه الامكانية في ضبط الأشياء التابعة للغة هي التي تجعل أي معجم أو كتاب نحو للغة ما يعكسان صورتها بصدق وأمانة . ذلك أن اللغة مستودع للصور الاكوستيكية بينما الكتابة هي الشكل الملموس لتلك الصور .

الفصل الثالث : منزلة اللغة ضمن الظواهر البشرية.علم الدلائل

ان خصائص اللغة هذه تجعلنا نكتشف خاصية أخرى أكثر أهمية . فاللغة كما

حددناها ضمن مجموع ظواهر/الكلام قابلة لأن تصنف ضمن الظواهر البشرية ،
33 أما الكلام فلا .

وقد سبق أن رأينا أن اللغة مؤسسة اجتماعية ولكنها تتميز عما سواها من المؤسسات السياسية والقانونية وغيرها بعدة سمات . ولكي نفهم طبيعتها الخاصة ، ينبغي أن ندرج في هذا السياق ظواهر من صعيد آخر .

ان اللغة نظام من الدلائل يعبر عما للانسان من أفكار . وهي في هذا شبيهة بالكتابة وبألفبائية الصم والبكم ، وبالطقوس الرمزية وصور آداب السلوك وبالاشارات الحربية وغيرها . إلا أنّ اللغة أهم هذه الأنظمة جميعها .

واذن فانه من الممكن أن **نتصور علما يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية** . وقد يكون قسما من علم النفس الاجتماعي وبالتالي قسما من علم النفس العام . ونقترح تسميته بـ sémiologie (11) أي **علم الدلائل** وهي كلمة مشتقة من اليونانية sémeîon بمعنى دليل . ولعله سيمكننا من أن نعرف **مم** تتكون الدلائل والقوانين التي تسيرها . ولما كان هذا العلم غير موجود بعد فانه لا يمكن أن نتنبأ بما سيكون . ولكن يحق له أن يوجد ، ومكانه محدد سلفا . وليست الالسنية سوى قسم من هذا العلم العام . والقوانين التي سيكشف عنها علم الدلائل سيكون تطبيقها على الالسنية ممكنا . وستجد الالسنية نفسها ملحقة بميدان محدد المعالم مضبوط ضمن مجموع الظواهر البشرية .

وعلى عالم النفس أن يضبط بالتدقيق منزلة علم الدلائل (12) . أما مهمة الالسني فهي أن يحدّد ما يجعل من اللغة نظاما خاصا ضمن مجموع الظواهر الدلائلية وسنعود الى هذه المسألة أسلفه . ونحن لا نأخذ بعين الاعتبار سوى أمر
34 واحد . فلئن أمكننا لأول مرة أن نقرّ للالسنية مكانا ضمن سائر العلوم فذلك لأننا ألحقناها بعلم الدلائل .

فلماذا لم يعترف بعلم الدلائل الى الآن بوصفه علما قائم الذات له موضوعه الخاص مثل أي علم سواه ؟ ذلك أننا ندور في حلقة مفرغة . فمن جهة ليس ثمة ما هو أجدر من اللغة بأن يوضح لنا طبيعة المشكل الدلائلي . ولكن طرح هذا

المشكل كما ينبغي،يحتّم علينا دراسة اللغة في حدّ ذاتها والحال أن دراستها كانت الى حدّ الآن وفي جلّ الحالات رهينة حيثيات ووجهات نظر أخرى .

فنحن نجد أولا ذلك التصور السطحي المتفشي بين الجمهور العريض من الناس . وهو لا يرى في اللغة إلّا قائمة من الكلمات (انظر ص 101) وهو تصور يقضي على كل إمكانية بحث عن طبيعتها الحقيقية .

ونجد أيضا وجهة نظر عالم النفس الذي يدرس إوالية الدليل لدى الفرد . وتلك الطريق أيسر إلّا أنها لا تتجاوز مستوى التنفيذ الفردي ولا تبلغ الدليل الذي هو اجتماعي بطبيعته .

وحتى عندما نتفطن الى أن الدليل ينبغي أن يدرس دراسة اجتماعية فاننا لا نأخذ بعين الاعتبار إلّا تلك السمات التابعة للغة والتي تربطها بالمؤسسات الأخرى أي تلك المؤسسات التي تخضع بنسبة تقل أو تكثر الى ارادتنا . وبهذه الصورة نحيد عن الغرض المنشود لأننا نكون قد أهملنا الخصائص التي هي وقف على لمة الدلائلية بوجه عام وعلى اللغة بوجه خاص . ذلك أن الدليل يخرج دائما وبنسبة ما عن ارادة الفرد والجماعة . وتلك هي صفته الجوهرية . ولكنها أخفى صفاته . فلا تدرك لأول وهلة .

وهكذا فان هذه الخاصة لا تبدو واضحة إلّا في صلب اللغة ، ولكنها تتجلى في الأشياء التي تدرس أقل من غيرها وبالتالي لا يرى الناس من ضرورة الى علم يدرس الدلائل أو من فائدة خاصة تجنى منه . أما بالنسبة إلينا ، فإن المسألة اللغوية على عكس ذلك ، هي قبل كل شيء مسألة دلائلية وكل تحليلاتنا تكتسب معناها من هذا الأمر الخطير . فان نحن أردنا أن نكشف عن طبيعة اللغة 35
الحقيقية ، وجب أن نعالجها أولا من خلال ما تشترك فيه جميع الأنظمة الأخرى التي من نفس الصنف . ولذلك فان بعض العوامل اللغوية التي تبدو ذات أهمية بالغة لأول وهلة (كعامل جهاز التصويت) ينبغي أن لا تعتبر إلّا في المقام الثاني ، ان هي لم تصلح إلّا لتمييز اللغة عن سائر الأنظمة . وهكذا فاننا نكون قد سلطنا الأضواء على المسألة اللغوية ، وبالاضافة الى ذلك فاننا نعتقد أننا اذا اعتبرنا الطقوس والعادات والتقاليد وغيرها دلائل،بدت لنا مختلف هذه الظواهر في مظهر

جديد نشعر معه بالحاجة الى جمعها في إطار علم الدلائل والى شرحها وتفسيرها بواسطة قوانين هذا العلم .

الباب الرابع
ألسنية اللغة وألسنية اللفظ

36

اننا اذ أنزلنا علم اللغة منزلته الحقيقية ضمن دراسة الكلام جملة فقد حددنا بذلك مكان الألسنية برمّتها . فكل عنصر من عناصر الكلام الأخرى التي تكوّن اللّفظ تصبح بطبيعتها من توابع هذا العلم الأول . وكل أقسام الالسنية انما تجد منزلتها الطبيعية بفضل هذه التبعيّة .

فلننظر على سبيل المثال كيف يتمّ إنتاج الأصوات الضرورية للّفظ : إن أعضاء التصويت عناصر أجنبية عن اللغة شأنها في ذلك شأن الأجهزة الكهربائية التي تصلح لترقيم ألفبائية « مورس » في غربتها عن تلك الالفبائية .والتصويت — أي انجاز الصور الاكوستيكية — لا ينال في شيء من النظام نفسه . وعلى ضوء هذه العلاقة ، يمكن أن نقارن اللغة بسمفونية ، حقيقتها مستقلّة عن الطريقة التي بها يعزفها العازفون . فالأخطاء التي قد يرتكبونها لا تنال البتة من حقيقتها تلك .

وقد يعترض معترض على هذا الفصل بين التصويت واللغة مستدلّا بأن التغيرات الصوتية واعتلال الأصوات وان كانا من نصيب اللفظ فانهما يحدثان مع ذلك تأثيرا بعيد المدى في مصير اللغة نفسها ؛ فترى هل يحقّ لنا أن نزعم أن للغة وجودا مستقلّا عن هذه الظواهر الصوتية ؟ الجواب عن هذا السؤال يكون بنعم/ لأن هذه الظواهر لا تنال من الكلمات إلّا وجهها المادي ، وان هي أصابت اللغة

37

من حيث هي نظام من الدلائل فلا يتم ذلك إلّا بصورة غير مباشرة أي عن طريق التأويل الجديد الذي ينجم عن ذلك . بيد أن هذا التحول في التأويل لا يمت الى الأصوات بأية صلة (انظر ص 133)

وقد يكون من المفيد أن نبحث عن أسباب هذه التغيرات،وستعيننا دراسة الأصوات في ذلك بيد أنه ليس بالأمر الجوهري ، فانه يكفي بالنسبة الى علم اللغة أن نلاحظ تغيرات الأصوات وأن نحصي تأثيراتها .

وما قلناه في التصويت يصحّ في جميع أقسام اللفظ الأخرى . ويجب أن ندرس نشاط المتكلّم في صلب مجموعة من الميادين العلمية ليس لها من مكان في الألسنية إلّا بما لها من صلة باللغة .

فدراسة الكلام تحتوي إذن قسمين :

— قسم جوهري ، موضوعه اللغة ، وهي جماعية في جوهرها ومستقلّة عن الفرد وهذه الدراسة دراسة نفسية بحتة .

— وقسم آخر ثانوي ، وموضوعه الجانب الفرديّ من الكلام أي اللفظ بما في ذلك عملية التصويت ، وهو نفسي فيزيائيّ .

ولا شكّ في أن هذين الموضوعين مرتبطان ارتباطا وثيقا وأن وجود أحدهما يقتضي وجود الآخر . فاللغة أمر ضروري لكي يكون اللفظ واضحا مفهوما ولكي يحدث كل تأثيراته . إلّا أن اللفظ ضروري لكي تقوم اللغة . أما من الوجهة التاريخية ، فان ظاهرة اللفظ هي دائما السابقة ، وإلّا فكيف يمكن أن ننتبه فنربط بين فكرة وصورة لفظية إن نحن لم نعثر من قبل على هذا الربط وقد وجد بعد في عملية من عمليات اللفظ . ومن جهة أخرى ، فاننا انما نتعلم لغتنا الأولى بفضل الاستماع الى الغير . ولا يتأتى لها أن تستقرّ في أدمغتنا إلّا بعد عدد لا يحصى من التجارب . وأخيرا فان اللفظ هو الذي يطور اللغة . فالارتسامات الحاصلة عندنا بالاستماع الى الغير هي التي تغير من عاداتنا اللغوية . فثمة اذن تعلّق متبادل بين اللغة واللفظ . واللغة هي في الآن نفسه أداة اللفظ ونتيجته. على أن كل/هذا لا يمنع أنهما شيئان متميز أحدهما عن الآخر تمام التميّز .

38

فاللغة موجودة لدى الجماعة في شكل جملة من الارتسامات المودعة في كل دماغ . ومثلها في ذلك على سبيل التقريب مثل المعجم توزّع نسخه المتماثلة على كل فرد من أفراد المجموعة . فهي اذن شيء ما موجود في كل دماغ من تلك الأدمغة على حدة ومع ذلك فهو مشترك بينها جميعا مودع لدى أصحابها دون أن يكون لمشيئتهم في ذلك أي دخل . ويمكن أن نمثّل وجود اللغة على هذا النحو بالصيغة التالية : ا + ا + ا + ا ... = ا (نموذج جماعي) .

فعلى أيّ نحو يكون وجود اللفظ لدى هذه المجموعة نفسها ؟ ان اللفظ انما هو جملة ما يقوله الناس ويحتوي :

أ ـــ توليفات لفظية فردية هي رهينة ارادة المتكلمين .
ب ـــ عمليات تصويت ارادية هي الأخرى وضرورية لانجاز تلك التوليفات .

فليس في اللفظ اذن أية صفة جماعية إذ أن مظاهر تجليه فرديّة وقتية . وما هو إلّا مجموع من الحالات الخاصة حسب الصيغة التالية :
(ا + ا' + ا'' + ا''' ...) .

ولهذه الأسباب جميعها ، يكون من باب الوهم أن ننظر الى اللغة والكلام معا من وجهة نظر واحدة وليس يمكن التعرف على الكلام بتمامه وكماله ، لأنه غير متجانس المكونات في حين أنّ ما اقترحناه من تمييز بين اللغة واللفظ ومن تعلّق أحدهما بالآخر ، من الأمور التي توضح جميع جوانب هذا الموضوع .

ذلك هو اذن أول تفريع ذي شعبتين نصادفه حالما نروم تأسيس نظرية الكلام اذ يجب أن نختار بين سبيلين يستحيل أن نسلكهما معا في وقت واحد بل ينبغي أن يسلك كل منهما على حدة .

وقد يمكن مع شيء من التسامح أن نطلق اسم الألسنية على كلّ من هاتين المادتين وأن نستعمل عبارة ألسنية اللفظ | كما استعملنا عبارة ألسنية اللغة | ، ولكن يجب أن لا نخلط بين العبارة الأولى وبين الألسنية/بأتم معنى الكلمة ، أي تلك التي موضوعها الوحيد هو اللغة .

وسوف نقصر اهتمامنا على ألسنية اللغة وحدها . وان اقتبسنا أحيانا خلال

استدلالاتنا بعض التوضيحات من دراسة اللفظ ، فسنبذل أقصى ما في وسعنا حتى لا نمحو أبدا ما يفصل بين المجالين من الحدود .

40

الباب الخامس

عناصر اللغة الداخلية والخارجية

يقتضي تحديدنا للغة أننا نطرح جانبا كل ما هو غريب عن جهازها العضوي وعن نظامها وباختصار كل ما يطلق عليه عبارة الألسنية الخارجية . بيد أن هذه الالسنية بالذات تهتم بأشياء على جانب من الأهمية والتي ينصرف تفكيرنا بصفة خاصة عندما نباشر دراسة الكلام .

وهذه الأشياء هي : أولا جميع النقاط التي بواسطتها تتصل الألسنية بالاثنولوجيا (أي علم الأجناس البشرية) وهي جميع العلاقات التي يمكن أن توجد بين تاريخ لغة من اللغات وجنس من الأجناس البشرية أو حضارة من الحضارات. وهذان التاريخان يتداخلان ويقيمان علاقات متبادلة . وهذا يذكرنا قليلا بما لاحظنا من المطابقات بين الظواهر الالسنية بأتمّ معنى الكلمة اذ لأخلاق أمة من الأمم انعكاس يرتدّ على لغتها . ومن جهة أخرى فان اللغة هي التي تضطلع الى حدّ كبير بأن تجعل من الامة أمة .

وفي مرتبة ثانية ينبغي أن نشير الى العلاقات الموجودة بين اللغة والتاريخ السياسي . فان لبعض الوقائع التاريخية الكبرى-مثل الغزو الرومانى-من التأثيرات في عديد من الظواهر اللغوية ما لا حصر له . فالاستعمار — وما هو إلّا شكل من أشكال الغزو — ينقل لسانا من الألسن الى أوساط مختلفة وهو ما يؤدي الى

41

تغيرات في صلب ذلك اللسان . ويمكن أن نستشهد تدعيما لهذا بأنواع من الشواهد عديدة . فان بلاد النورفاج مثلا قد تبنت اللغة الدانماركية عندما اتحدت سياسيا مع بلاد الدانمارك . وصحيح أن/سكان بلاد النورفاج-والحق يقال-يحاولون اليوم أن يتحرروا من هذا التأثير اللغوي . وليست السياسة الداخلية للدول دون ذلك أهمية بالنسبة إلى حياة اللغات . فان بعض الحكومات مثل سويسرة ترتضي وجود عدة ألسن في ترابها بينما نجد بلدانا أخرى مثل فرنسا تسعى الى توحيد لغتها . كما أن بلوغ طور من الحضارة متقدم يساعد على تطور بعض اللغات الخاصة (كلغة القانون والمصطلحات العلمية وغيرها) .

ويفضي بنا كل هذا الى نقطة ثالثة هي علاقات اللغة بمؤسسات شتّى كالكنيسة والمدرسة وغيرهما . وهذه المؤسسات بدورها مرتبطة بالتطور الأدبي في لغة من اللغات ارتباطا وثيقا . وهي ظاهرة عامة لا سيما أنه لا يمكن فصلها عن التاريخ السياسي . فاللغة الأدبية تتجاوز من جميع النواحي الحدود التي يبدو أن الأدب يسطرها لها . ولنفكّر مثلا في تأثير الصالونات والبلاطات والمجامع اللغوية . ومن جهة أخرى تطرح اللغة الادبيّة المشكل الكبير ، مشكل النزاع الذي ينشب بينها وبين اللّهجات المحلية (انظر ص 291) . وعلى الالسني أن يفحص أيضا العلاقات المتبادلة بين لغة الكتب ولغة التخاطب اليومي ، لأن كل لغة أدبية — وهي نتاج الثقافة — تتمكن من أن تفصل مجال وجودها عن المجال الطبيعي أي مجال لغة التخاطب اليومي .

وأخيرا فان كل ما يتصل بانتشار اللغات جغرافيّا أو بتعدد اللهجات يدخل في الألسنية الخارجية ولا شك أن التمييز بين الالسنية الداخلية والالسنية الخارجية ، في هذه النقطة بالذات ، يبدو أكثر مدعاة الى الاستغراب . وذلك لشدة ارتباط الظاهرة الجغرافية بوجود كل لغة . ولكنها في الواقع لا تمسّ الجهاز الداخلي من اللسان .

وقد زعم بعضهم أنه يستحيل تمام الاستحالة أن نفصل بين جميع المسائل المذكورة أعلاه وبين دراسة اللغة في حدّ ذاتها . وقد سادت وجهة النظر هذه خاصة منذ أن أصبح الالحاح شديدا على هذه الحقائق الملموسة . فمثلما يتغير جهاز التّبتة الداخلي بفعل عوامل خارجيّة كالتربة والمناخ إلخ ، أفليس جهاز اللغة/ 42

النحويّ يتغير دائما كذلك بمفعول العوامل الخارجيّة التّابعة للتغيّر اللغوي؟ ويبدو أننا نسيء تفسير المصطلحات الفنيّة والكلمات الدخيلة التي تعجّ بها اللغة إن لم نعتبر مأتاها . فهل يمكن أن نميز التطور الطبيعي العضوي في لسان من الالسن عن أشكاله الاصطناعيّة مثل اللغة الادبية وهي أشكال راجعة الى عوامل خارجية وبالتالي غير عضوية ؟ أفلسنا نرى باطراد كيف أن لغة مشتركة تتطور الى جانب لهجات محلّية ؟

في اعتقادنا أن دراسة الظواهر الالسنية الخارجية ذات جدوى كبيرة ولكن من الخطإ القول إنه بدونها لا يمكن معرفة الجهاز الالسني الداخلي . ولنأخذ على سبيل المثال دخول كلمات أجنبية في لغة من اللغات ، فانه يمكننا أن نلاحظ أولا أن ذلك ليس عنصرا قارّا البتة في حياة لغة من اللغات . فانه توجد في بعض الاودية المنعزلة لهيجات يكاد لم يدخلها لفظ اصطناعي واحد وفد عليها من الخارج . فهل سنقول ان هذه الالسن خارجة عن الظروف التي تحفّ بالكلام عادة وعاجزة عن أن تقدّم لنا فكرة عن الكلام وأنها هي التي تتطلّب أن نفردها بدراسة مَسْخِيّة باعتبارها لم تخضع لأي اختلاط ؟ إلا أن الكلمة الدخيلة بصفة خاصة لا تعتبر دخيلة متى درست في صلب النظام . فلا وجود لها إلّا من حيث علاقاتها وتقابلها مع الكلمات التي ترتبط بها ، مثلها في ذلك مثل أي دليل محليّ آخر . وعلى العموم ليس من الضروري دوما أن نعرف الملابسات التي تحف بتطور لغة من اللغات . فبالنسبة الى بعض الالسن مثل اللغة الزندية ، والصقلبيّة لقديمة نحن لا نعرف معرفة دقيقة حتّى أي الشعوب تكلمت بها . ولكن هذا الجهل لا يمثّل عائقا في سبيل دراستنا لها من الداخل والوقوف على ما أصابها من التغيّرات . ومهما يكن من أمر فان الفصل بين وجهتي النظر المذكورتين واقع يفرض نفسه . وكلما كان احترامه دقيقا كان ذلك أفضل ./

وأفضل دليل على ذلك أنّ كلّا منهما يخلق منهجا متميزا . فالالسنية الخارجية يمكنها أن تكدّس التفاصيل دون أن يحصر أصحابها أنفسهم بين فكّي اطار دراسة نظام ما . وعلى سبيل المثال فان كل دارس لغوي سيجمّع الظواهر المتعلقة بانتشار لغة من اللغات خارج ترابها كما يشاء . وإن بحثَ الدارس عن العوامل التي أنشأت لغة أدبية تقابل ما يوجد من اللهجات فانه يمكنه في جميع الحالات

أن يتخذ طريقة التعداد البسيط . وان هو نظّم المسائل تنظيما فيه قدر ما من المنهجية فان ذلك لن يكون إلّا لضرورة البيان والوضوح .

أما بالنسبة الى الالسنية الداخليّة فالامر مخالف لذلك تمام المخالفة . فهي لا ترتضي أي تنظيم اتفق . فاللغة نظام لا يخضع لغير نظامه الخاصّ . والمقارنة مع لعبة الشطرنج توضح لنا ذلك أكثر مما فعلنا إلى حدّ الآن . ففيها يسهل نسبيّا التمييز بين ما هو خارجي وما هو داخليّ . فأن تكون هذه اللعبة انتقلت من بلاد فارس الى أوروبا انما هو أمر خارجي . أما الدّاخلي منها فهو على العكس كل ما يتعلق بنظام هذه اللعبة وقواعدها . وان نحن عوضنا بعض القطع الخشبية بأخرى من العاج ، فان هذا التعويض لا ينال من نظام اللعبة لكن ان نحن أنقصنا من عدد القطع أو زدنا فيه فان هذا التغيير ينال من « نحو » اللعبة الى حدّ كبير . على أن ذلك لا يعني التخلّي عن قدر من الانتباه لكي نتمكن من القيام بمثل هذه التمييزات . وهكذا ففي كل حالة ، سنطرح مسألة طبيعة الظاهرة المعنية بالامر . ولكي نحل هذه المسألة سنلتزم بهذه القاعدة : فما هو داخلي في دراسة اللغة هو ما يغير نظامها بنسبة من النّسب .

44

الباب السادس
تمثيل اللغة بواسطة الكتابة

الفصل الأول : ضرورة دراسة هذا الموضوع

ان موضوع دراستنا الملموس هو اذن ذلك النتاج الاجتماعي المودع في دماغ كل فرد ، أي اللغة . ولكن ذلك النتاج يختلف من مجموعة لغوية الى أخرى ولهذا فان معطيات دراستنا هي اللغات . ويتحتم على الألسني أن يعرف منها أكبر عدد ممكن حتى يستخلص من معاينتها ومن المقارنة بينها ما هو كلّي مشترك بينها . غير أننا — وبوجه عام — لا نعرف تلك اللغات إلّا عن طريق الكتابة . بل اننا نلجأ في كل حين وآونة ، حتى في لغتنا الأولى ، الى الوثائق المكتوبة . أما اذا تعلق الأمر بلسان يتكلمه الناس في مكان بعيد عنا بعض البعد فان اللجوء الى الشواهد المكتوبة يصبح أكثر ضرورة والحاحا . ومن باب أولى وأحرى أن يكون ذلك ضروريا بالنسبة الى الالسن التي انقرضت . ولو أردنا أن تتوفر لنا في جميع الحالات وثائق مباشرة لكان ينبغي أن يكون الناس قد قاموا منذ أقدم العصور بما نقوم به اليوم في « فينّا » و « باريس » أي جمع نماذج من التسجيلات الصوتية عن جميع لغات العالم وحتى في هذه الصورة فانه يتحتم اللجوء الى الكتابة كي نطلع الناس على النصوص المخفوظة المسجلة تسجيلا صوتيا وهذا ، ولئن كانت الكتابة في حدّ ذاتها لا تمتّ الى نظام اللغة الداخلي بصلة فيستحيل علينا أن

نسقط من حسابنا هذه الطريقة التي نصور بها اللغة على الدوام . فيصبح من الضروري إذن أن نعرف فائدة الكتابة وعيوبها ومخاطرها ./ 45

الفصل الثاني : تعظيم المكتوب وأسباب تبجيله على المنطوق

تكوّن اللغة والكتابة نظامين متميزين من أنظمة الدلائل . ولا مبرر لوجود الكتابة سوى تمثيل اللغة . وموضوع الالسنية لا يتحدد في كونه نتيجة الجمع بين صورة الكلمة مكتوبة وصورتها منطوقة ، بل ينحصر هذا الموضوع في الكلمة المنطوقة فقط . إلّا أن الكلمة المكتوبة — وما هي إلّا صورة الكلمة المنطوقة — تمتزج وإياها امتزاجا عميقا ينتهي بها الى اغتصاب الدور الاساسي حتى أن الامر يؤول بالناس الى أن يعيروا صورة الدليل الصوتي في الخط أهمية تساوي بل تفوق أهمية الدليل نفسه . ومثلهم في ذلك كمثل المرء يريد معرفة أحد الاشخاص فيتصور أن أفضل طريقة لذلك هي أن ينظر الى صورته الفوتوغرافية بدل النظر الى وجهه .

وانه لوهم قد شاع بين الناس منذ أقدم العصور وما زال ، وهو يضم كل الآراء الشائعة التي يتناقلها الناس عن اللغة . من ذلك ما شاع من اعتقاد بان اختلال اللسان يكون أسرع اذا انعدمت الكتابة ، وهو الضلال عينه . فقد تخفف الكتابة في بعض الحالات من سرعة التغيرات التي تطرأ على اللغة ، لكن ، وبخلاف ذلك فان دوام اللغة وبقاءها لا يؤثر فيهما انعدام الكتابة بالمرة . فنحن لا نعرف اللغة الليتوانية — وهي لغة يتكلم بها الناس الى يوم الناس هذا في بلاد بروسيا الشرقية وفي قسم من تراب بلاد روسيا — من خلال الوثائق المكتوبة إلا منذ 1540 ، ولكنها تقدم لنا في تلك الفترة المتأخرة من تاريخها — بوجه عام — صورة أمينة عن اللغة الهندية الاوروبية تضاهي في صدقها ونقائها الصورة التي تقدمها لنا عنها اللغة اللاتينية في القرن الثالث قبل الميلاد . ويقوم هذا الأمر وحده برهانا على مدى استقلال اللغة عن الكتابة .

وقد تواصل وجود ظواهر لغوية معينة على جانب كبير من الدقة بدون أيّ لجوء الى الكتابة . فلئن كتبوا في كامل الحقبة التاريخية التي تمتد عليها الالمانية العليا القديمة tōren و fuolen و stōzen فقد أصبحت الكلمتان الاوليان في أواخر القرن

ثاني عشر ترسمان في الخط töten و füelen بينما بقيت الثالثة تكتب stözen أي
على صورتها السابقة . فما هو مأتى هذا الاختلاف ؟ الجواب أنه في كل موضع
46 ظهر فيه هذا الاختلاف كانت توجد في المقطع الموالي له شبه حركة هي الياء؛
ذلك أن اللغة الجرمانية الاصلية كان فيها قديما daupyan * و fōlyan* من جهة
و stautan * من جهة أخرى . ثم انه في بداية الطور الأدبي لهذه اللغة أي حوالي
سنة 800 ضعفت تلك الياء الى حد أن الكتابة لم تعد تحتفظ بأي اثر لها طيلة
ثلاثة قرون . على أنها قد تركت أثرا خفيفا في النطق . ثم ها هي ذا تبعث من
جديد في شكل الاملوت umlaut أي الامالة حوالي 1180 كما رأينا ذلك أعلاه .
هكذا اذن وبدون أي ما لجوء الى الكتابة تنوقل هذا الفويرق في النطق تماما كما
هو .

فاللغة اذن صورة شفوية مستقلة عن الكتابة وأكثر منها ثباتا بكثير . ولكن تعظيم الناس للصورة المكتوبة يمنعهم من تبين ذلك . وقد أخطأ الألسنيون الأوائل في هذا الشأن كما أخطأ من قبلهم المختصون في دراسة الآداب واللغات العتيقة . فهذا « بوب » نفسه لا يميز تمييزا واضحا بين الحرف [المكتوب] والصوت ، بل إن من يقرأ ما كتبه يتوهم أن لا سبيل الى الفصل بين لغة ما وحروف أبجديتها . ثم وقع تابعوه المباشرون في الفخ نفسه . فصورة رسمهم للثاء الدعكية هكذا th [أي حرفين] قد حملت « قريم » على الاعتقاد بأن ذلك الصوت ليس فقط صوتا مزدوجا بل أنه شديد ومنفّس أيضا . وهذا ما يفسر المحلّ الذي أحلّه فيه ضمن قانونه المتعلق بالتغير الحرفي المسمى في الالمانية Lautverschiebung (انظر ص 219) . أفلم يقل « قاسطون دي شان » Gaston Deschamps متحدثا عن « برتلو » Berthelot انّه قد صان اللغة الفرنسية من التلف والاندثار بتصدّيه لتيسير قواعد رسمها » .

فترى ما هي الأسباب التي نفسر بها هذه الهالة من التبجيل التي يحيطون بها الكتابة ؟

1) السبب الأول هو أن صورة الكلمات في الخط تستدعي انتباهنا من حيث هي شيء ثابت متين وهي أكثر قدرة من الصوت على تشخيص وحدة الكلام عبر الزمان . ومهما يكن هذا الرابط سطحيا ومهما تكن الوحدة التي يشخصها

اصطناعية محضة فان ادراكنا له أيسر من ادراكنا لذلك الرابط الطبيعي الحقيقي الوحيد الذي هو رابط الصوت .

2) الثاني ان الانطباعات المرئية أوضح وأبقى لدى معظم الناس من
47 الانطباعات الاكوستيكية . لذلك ترى تعلقهم بالانطباعات المرئية أشدّ وأقوى .
وهو ما يفضي بالصورة المكتوبة الى أن تفرض نفسها عندهم على حساب
الصوت .

وفضلا عن ذلك فان اللغة الأدبية تضفي على الكتابة مزيدا من تلك القيمة التي هي غير جديرة بها . فللغة معاجمها وكتبها النحوية . والتعليم في المدارس انما يكون بالاحالة الى الكتب وبواسطة الكتب . فللصورة التي تتجلى عليها اللغة قانون ينظّمها . وما هذا القانون في حدّ ذاته سوى مجموعة من السنن المكتوبة الخاضعة في الاستعمال لقواعد صارمة هي قواعد الرسم . ولهذا السبب تراهم ينزّلون الكتابة المنزلة الأولى من حيث الأهمية فيغيب عنهم في نهاية الامر أن الانسان يتعلم الكلام قبل أن يتعلم الكتابة . فيعسكون الآية عكسا .

4) ونذكر في الختام أنه كلما وجد اختلاف بين اللغة وقواعد الرسم عسر حسم الجدال فيه الا على الالسنيين . لكن لمّا لم يكن للالسنيين حق في ابداء الرأي في الموضوع تحتّم تغلّب الصورة المكتوبة على الصورة المسموعة وذلك لأن في الالتجاء الى الصورة المكتوبة ركونا الى أيسر السبل . وعلى هذا بوّؤوها منزلة من الأهمية لا حقّ لها فيها .

الفصل الثالث : أنظمة الكتابة

للكتابة نظامان اثنان لا ثالث لهما :

1) نظام الكتابة الايديوغرافية idéographique : وهو نظام يمثلون فيه الكلمة بدليل خطّي واحد لا يمت الى الأصوات التي منها يتكون بأية صلة . ويتصل ذلك الدليل بمجموع الكلمة وبالتالي فانه يتصل — على نحو غير مباشر — بالفكرة التي تعبر عنه . والكتابة الصينية هي المثال الذي يسوقونه عادة في هذا المضمار .

2) النظام الذي شاعت تسميته بالنظام « الصوتي » ، والذي يسعى أصحابه إلى تصوير سلسلة الأصوات المتتالية في الكلمة . والكتابات الصوتية كتابات مقطعيّة تارة والفبائية تارة أخرى أي أنها تقوم على عناصر اللّفظ التي لا تقبل مزيدا من التجزئة .

على أن أنظمة الكتابة الايديوغرافية كثيرا ما تنحو الى الاختلاط فتحوّل بعض
الصور الايديوغرافية عن قيمتها الأولى ويؤول بها الامر الى تمثيل أصوات منفردة . 48

وقد سبق أن ذكرنا أن الكلمة المكتوبة تنزع في أذهاننا الى الحلول محل الكلمة الملفوظة . وهذا صحيح بالنسبة الى نظامي الكتابة المذكورين كليهما . غير أن هذه النزعة أقوى في نظام الكتابة الايديوغرافية . فالصورة الايديوغرافية واللفظ المنطوق كلاهما لدى الصينيين دليل يمثل الفكرة . والكتابة بالنسبة اليهم لغة ثانية ولذلك تراهم اذا وردت في كلامهم كلمتان لهما في النطق صورة واحدة يلجأون أحيانا الى الكلمة المكتوبة لتوضيح مقصدهم . لكن عملية التعويض هذه يمكن أن تكون مطلقة عندهم ولهذا فانه ليس لها نفس العواقب الوخيمة التي لنظام كتابتنا نحن . فالكلمات الصينية التابعة للهجات مختلفة والموافقة لفكرة واحدة ، سواء في حسن تجسّمها في الدليل الخطّي الواحد .

وسنقصر دراستنا هذه على نظام الكتابة الصوتي وبالاخص على النظام المستعمل في أيامنا هذه والذي نموذجه الاصلي هو الالفبائية اليونانية .

فعندما يوضع نظام الفبائي من هذا القبيل ، فانه يعكس في بدايته حالة اللغة عكسا فيه قدر كاف من الخضوع لمقتضيات المنطق ، اللهم الا اذا كان ذلك النظام الألفبائي استعير من لغة أخرى مع ما يحمل في طيّاته من شائن الاختلالات فللالفبائية اليونانية من حيث مقتضيات المنطق خصائص ممتازة جدا كما سنرى ذلك (ص 71) إلّا أن هذا الانسجام بين الخط والنطق لن يعمر طويلا، فما هي أسباب ذلك ؟ هذا ما ينبغي أن ننظر فيه .

الفصل الرابع : أسباب عدم التطابق بين المنطوق والمكتوب

ان أسباب هذا الاختلاف عديدة ولكننا سنقتصر على ذكر أهمها :

والسبب الأول هو أن اللغة تتطور بدون انقطاع . أما الكتابة فتنزع الى الثبوت على حالها لا تتغير . وينجر عن ذلك أن الصورة المكتوبة تصبح في النهاية غير مطابقة لما عليها أن تمثله . وقد تكون الصورة المكتوبة مطابقة في وقت ما ولكنها تصبح لا وجه لها بعد أن يمضي عليها قرن من الزمان . ذلك أن الناس يغيّرون
49 الدليل المكتوب لمدة ما من الزمن حتى يطابق التغيرات الحاصلة في النطق/ثم تراهم يعدلون عن مثل ذلك التغيير وذلك هو ما حصل في اللغة الفرنسية بالنسبة الى [الحركة المزدوجة] oi .

فقد تغير نطقهم بها ورسمهم لها على النحو التالي :

فقد كانوا : 1 في القرن الحادي عشر ... ينطقون rei و lei ويكتبون rei و lei

2 في القرن الثالث عشر ... ينطقون roi و loi ويكتبون roi و loi

3 في القرن الرابع عشر ... ينطقون roè و loè ويكتبون roi و loi

4 في القرن التاسع عشر ... ينطقون rwa و lwa ويكتبون roi و loi

وهكذا ، والى حدود القرن الثالث عشر ، فاننا نراهم قد اعتبروا في الكتابة ما جد من تغيرات في طريقة نطقهم للكلمتين . فكان لكل طور من أطوار تاريخ اللغة طورٌ مناسب في تاريخ الكتابة . ولكن الكتابة ، بداية من القرن الرابع عشر ظلت كما هي ولم تتغير ، بينما تواصل تطور اللغة من حيث النطق . ومنذ ذلك الحين نشأ بينها وبين قواعد الرسم اختلاف ما فتئ يتضاعف ويستفحل . وفي آخر الأمر ، لمّا بقي الناس يصلون بين هذين الضربين من العناصر المتنافرة ، كان لهذا الامر انعكاسه المباشر على نظام الكتابة نفسه . فأصبح للصورة التي تكتب بها oi قيمة أخرى لا تمتّ بصلة الى العنصرين الذين تتكون منهما .

ويمكننا أن نسوق في هذا المضمار عددا من الشواهد لا عدّ له ولا حصر كأن نتساءل لماذا كتبوا في الفرنسية [illegible] ونطقوا âme و ré ؟ ولماذا جعلوا لحرف h في كثير من الأحيان قيمة حرف s ؟ ذلك أنهم قد احتفظوا في الكتابة بصور خطية لم يعد لها ما يبررّها .

والسبب المذكور أعلاه يعمل في كل الأزمنة . فنحن نلاحظ في أيامنا هذه انقلاب اللام الليّنة في اللغة الفرنسية ياء فترى الناس ينطقون éveyer و mouyer

بالياء أي مثل essuyer و nettoyer لكنّهم ظلوا يكتبون الكلمتين الأوليين éveiller و mouiller أي باللام .

وللاختلاف بين الكتابة والنطق سبب ثان : ه د استعار شعب من الشعوب نظامه الالفبائي من شعب آخر ، ففي كثير من الأحيان لا تلائم امكانيات ذلك النظام المستعار وظيفته الجديدة ملاءمة كافية . فتراهم يلجؤون اضطرارا الى جملة من الحيل . من ذلك استعمالهم حرفين اثنين للدلالة على صوت واحد . وهذا ما وقع مثلا بالنسبة الى صوت التاء (الدعكية الاسنانية المهموسة) في اللغات الجرمانية . فلمّا كان نظام الالفبائية/اللاتينية لا يتوفر فيه أية علامة لتمثيلها في 50
الخط فقد عمدوا الى رسمها بحرفين هما التاء والهاء th . ورغم أن الملك الميروفنيجي « شلبريك » Chilpéric قد حاول أن يضيف الى الحروف اللاّتينية علامة خاصة بذلك الصوت فانه لم يوفق فيما سعى اليه ، وكرّس الاستعمال رسمهم هذا الصوت بحرفين أي th . وكانت اللغة الانقليزية في القرون الوسطى تشتمل على حركة أمامية منغلقة هي الـ e (كما في قولهم «sed» أي « بذرة ») وعلى حركة أمامية منفتحة هي الـ e (كما في led بمعنى « قاد ») . ولمّا كانت الفبائيتهم خالية من علامتين متميزتين لرسم هذين الصوتين فانهم ذهبوا الى رسمها على نحو آخر كما في seed و lead أما في الفرنسية ، فقد عمدوا في رسمهم للصوت المشأشأ الذي هو الشين الى علامة مضاعفة هي ch الخ .

ومن أسباب الاختلاف بين النطق والكتابة أيضا مشاغلهم الايتيمولوجية . وهو انشغال كان مهيمنا في بعض العصور كما في عصر النهضة . وغالبا ما تكون الصورة المكتوبة صورة قد فرضها خطأ في محاولة ارجاع الكلمة الى أصلها الاشتقاقي . من ذلك اقحامهم حرف الدال في رسمهم للكلمة الفرنسية Poids توهما منهم أن أصلها في اللاتينية هو Pondus والحقيقة أن أصلها هو pensum.ولا يهمنا كثيرا إن كان تطبيقهم لهذا المبدأ صحيحا أو لا . ذلك أن المبدأ نفسه أي مبدأ كتابة الكلمات بحسب أصولها الايتيمولوجية مبدأ خاطئ .

أما في بعض الحالات الأخرى فاننا لا ندرك سبب ذلك الاختلاف بين المنطوق والمكتوب . من ذلك ما نجده في الكتابة من عجائب وغرائب لا تبررها حتى الاعتبارات الايتيمولوجية . فلماذا تراهم في الألمانية كتبوا thun بدل tun ؟ لقد

قالوا ان الحرف h يمثل ذلك التنفيس الذي يلي الحرف الاول ، ولكن لو صحّ هذا لوجب أن ندخله في كل موضع فيه مثل هذ التنفيس غير أننا نجد طائفة من الكلمات التاءُ فيها منفّسة ولا هاء بعدها في الخط كقولهم Tugend و Tisch وغيرهما .

الفصل الخامس : نتائج عدم التطابق بين المنطوق والمكتوب

قد يطول بنا الحديث ان نحن حاولنا أن نقيم جدولا نرتب فيه ما في الكتابة من اضطرابات وخلل . ومن أتعسها رسمهم للصوت الواحد بعلامات عديدة . فانك تجد لصوت الجيم في الفرنسية ثلاث صور هي j و g و ge . كما في (joli و geler و geai) ولصوت الزاي صورتين هما z و s . ولصوت السين ثمان صور هي s و c و ç و t (كما في Nation) و ss (كما في chasser) و sc(كما في acquiescer)و sç (كما في acquiesçant) و x (كما في dix) . ولصوت الكاف ست صور هي : c و qu و k و ch و cc و cqu (كما في acquerir) . وبعكس ذلك فان عددا كبيرا من الأصوات ترسم بعلامة واحدة . من ذلك أن علامة t تستعمل لرسم صوت التاء وصوت السين معا . وعلامة g تستعمل لرسم صوت القاف وصوت الجيم الخ ... / 51

ولنشر كذلك الى أنه قد توجد في الكتابة « علامات خطيّة ذات قيمة صوتية غير مباشرة » فأنت تراهم في الألمانية — رغم أنه لا وجود في Zettel و Teller لأي صوت مضاعف — يكتبون هاتين الكلمتين بتاءين ولامين لا لشيء إلا للاشارة الى أن الحركة السابقة لهما حركة قصيرة منفتحة وهذا الامر شبيه في غرابته بما نجده في الانقليزية عندما أضافوا الى آخر الكلمة فتحة صامتة e muet ، وذلك للاشارة الى أن الحركة السابقة لها حركة طويلة . قارن على سبيل المثال بين made (وتنطق بحركة طويلة) و mad (وتنطق بحركة قصيرة) . فان تلك الفتحة الصامتة e التي تتعلق في الواقع بالمقطع الوحيد الذي يكوّن الكلمة توهم الناظر بوجود مقطع ثان .

ولئن كان لهذه الصور الخطية اللامنطقية ما يناسبها في اللغة وان قليلا ، فانه توجد صور خطية أخرى ليس لها من مبرر اطلاقا . فليس في اللغة الفرنسية اليوم

حروف مضاعفة إلّا في صيغ التصريف القديمة الدالة على المستقبل كما في mourrai و courrai . ورغم ذلك فان صور رسمهم في الفرنسية تعج بحروف مضاعفة لا مبرر لها كما في bourru و sottise و souffrir وغيرها .

وقد يحدث أيضا ترددهم في الرسم . وذلك لأنّ قواعدهُ لم تُضبط بعد ، فتراهم ينتحلون صورا متقلبة لرسم بعض الكلمات وهو ما يشير الى ما قاموا به في مختلف العصور من شتى المحاولات لتصوير أصوات اللغة . ومن ذلك مثلا ما نجده في الألمانية العليا القديمة ففي ertha و erdha و erda أو في thri و dhri و dri نعلم حق العلم أن th و dh و d انما هي صورة مختنمة لعنصر صوتي واحد بعينه . لكن ترى ما هو ذلك العنصر ؟ الجواب أن الكتابة وحدها لا تمكّننا من معرفته . وينجر عن ذلك تعقيد مفاده أنك قد تجد نفسك أمام صورتين خطيتين للصيغة الواحدة فلا تستطيع أن تجزم في جميع الحالات إن كان الأمر يتعلق حقّا بنطقين مختلفين أم لا . من ذلك أنهم قد رسموا الكلمة الواحدة في الوثائق التابعة للهجات متجاورة asca في بعضها و ascha في بعضها الآخر . فان كان الامر يتعلق بنفس الصوت في كلتا الحالتين أمكننا القول بوجود صورة متقلبة في الرسم وإلّا فنحن أمام إمكانيّتين :

إمّا أن يكون الاختلاف اختلافا فنولوجيا لهجيا كما هو الشأن بالنسبة الى الصيغ اليونانية paízō و paísdō و paíddō أو أن يكون ذلك الاختلاف ممثلا للغة عهدين متعاقبين . فقد كتبوا في الانجليزية أولا hwat و hweel الخ ثم انهم كتبوهما what و whell الخ . أفنحن بازاء تغيّر في الخط أم أمام تغير في التصويت ؟

نستخلص مما تقدم نتيجة بديهية مفادها أن الكتابة تقيم بيننا وبين اللغة حجابا يمنعنا من رؤيتها كما هي . وذلك أن الكتابة ليست ثوبا عاديا تلبسه اللغة
بل هي قناع/خدّاع تتنكر فيه . ويتجلى لنا هذا في صورة رسمهم للكملة الفرنسية 52
oiseau حيث لم يرسموا أي صوت من أصوات الكلمة المنطوقة : wazo (وَازُو) بواسطة دليله الخاص به . فلم يبقوا على شيء من الصورة الحقيقية للغة .

ومن النتائج الأخرى المترتبة عن الاختلاف بين النطق والكتابة أنه كلما عظم

البون بين الخط وما ينبغي أن يمثله في النطق من أصوات،قويت نزعة بعضهم الى اتخاذ الكتابة عمادا . ألا ترى أن النحاة يغالون في لفتهم الأنظار الى الصيغة المكتوبة من الكلمات العـ...ـه نذه ما يبررها من الوجهة النفسية إلّا أن لها عواقب وخيمة جدا . فاستعمالهم لفعل « نطق » وللمصدر منه أي « النطق » هو تكريس لذلك الشطط وقلب للعلاقة الشرعية الحقيقية التي تجمع بين الكتابة واللغة رأسا على عقب . فقولهم بأن حرف كذا أو كذا ينطق هكذا أو هكذا دليل على أنهم يجرون صورة الشيء الخارجية مجرى الشيء ذاته فلكي يصح قولنا ان «oi» تنطق «wa» ينبغي أن تكون oi موجودة لذاتها . والصواب أنه يجب أن نقول بدلا من ذلك أن wa هي التي تكتب oi ولتفسير قولهم الغريب هذا تراهم يردفون قائلين : ان الامر في هذه الحالة يتعلق بنطق استثنائي للضمة نصف المنغلقة o والكسرة i ، وهو قول باطل . لأن فيه ما يقتضي تبعية اللغة بالنسبة الى الصورة الخطية وكأنما قد تجرّأوا على انتهاك بعض ما للكتابة من حرمة ، كما لو كان الحرف المكتوب هو الأصل .

وتتجلى هذه الأوهامّ حتى في القواعد الـ...ـوية،من ذلك قاعدة [رسم] الهاء h في اللغة الفرنسية . ففي هذه اللغة كلما ، حركتها خالية من التنفيس ولكنها اقترنت بهاء تذكرا لأصلها اللاتيني . فتراهم على سبيل المثال يكتبون homme . (وكانـــوا يكتبـــونها قديما ome) لأن أصلهـــا هو homo ولكننا نجد في الفرنسية كلمات أخرى جرمانية الأصل كانوا ينطقون فيها بصوت الهاء نطقا صريحا كما في قولهم hache و hareng و honte وغيرها . فطالما احتفظوا بالتنفيس في هذه الكلمات فانهم أخضعوها للقوانين المتعلقة بالحروف الواقعة في أول الكلمة . فكانوا ينطقون deu haches و le hareng بينما كانوا يقولون deu-z-hommes و l'omme وذلك طبقا للقاعدة المتعلقة بالكلمات التي في أولها حركة . ففي ذلك العهد كانت القاعدة الآتية (اذا كانت الهاء منفسه لم يجز قبلها الوصل ولا الحذف) قاعدة صحيحة . ولكنها صارت اليوم خالية من
كل معنى وذلك لانقراض الهاء المنفسة من اللغة/اللّهم إلّا إذا أطلقنا هذه التسمية 53
على ...لك الشيء الذي ليس صوتا ولكنه شيء لا يقع قبله وصل ولا حذف . وإذن فهي الحلقة المفرغة ، وما الـ h في اللغة الفرنسية في الخط إلا كائن من صنع الوهم والخيال تسببت في اختلاقه الكتابة .

ان الذي يضبط نطق كلمة من الكلمات ليس صورة رسمها انما هو تاريخها،أما صورة رسمها في الخط في زمن ما فتمثّل مرحلة ما من مراحل تطورها . وهو تطور مفروض على الكلمة اتباعه ومضبوط بقوانين دقيقة . وكل مرحلة من المراحل يمكن أن تضبط بالمرحلة السابقة لها . أما الشيء الوحيد الذي ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار والذي أهملوه أكثر من غيره فهو أصل الكلمة أي أصلها الايتيمولوجي .

فصورة الترقيم الصوتي لاسم مدينة Auch هي oš . وتلك لعمري هي الحالة الوحيدة التي تمثل فيها العلامتان الخطيتان في الفرنسية ch صوت الشين š اذا وقع في آخر الكلمة . وقولنا ان علامتي ch اذا وقعتا آخرا لا تنطقان شينا ّلا في هذه الكلمة ليس من التفسير في شيء ، بل المسألة هاهنا تحصر في أمر واحد هو معرفة كيف تحولت الكلمة اللاتينية Aus... الى oš ، وأما رسم الكلمة فلا شأن له هاهنا

وهل يجب علينا أن ننطق gageure بحركة أمامية نصف منغلقة مستديرة أي ö أم بحركة امامية منغلقة مستديرة أي ü ؟ سيقول لك بعضهم نطقها gažör حَمْلًا على heure وتنطق ör . أما بعضهم الآخر فسيقولون لك : لا ننطقها كذلك ولكن ننطقها gažür لأن ge هي علامة رسم الجيم كما في geôle مثلا . وهو لعمري جدال عديم الجدوى . ان المسألة الحقيقية مسألة ايتيمولوجية . فقد اشتقوا كلمة gageur من gager مثلما اشتقوا tournure من tourner وهما كلمتان قد اشتقتا على منوال واحد . و gažür هي صورة النطق الوحيدة التي لها ما يبررها . أما gažör فهو نطق مرده الوحيد الالتباس الحاصل بسبب الكتابة .

ولكن طغيان الحرف المكتوب لا يقف عند هذا الحد . فهو من شدة ما يفرض نفسه على الجمهور يؤثر في اللغة ويحورها تحويرا .

وهذا لا يحدث إلّا في الالسن الضاربة في الأدبية حيث للوثيقة المكتوبة شأن عظيم . ففي هذه الحال قد يصل الأمر بالصورة المكتوبة الى التسبب في حدوث كيفيات في النطق فاسدة وهو الاختلاط عينه . وكثيرا ما يصادف المرء في اللغة الفرنسية أمثلة على هذه الظاهرة . من ذلك ما نلاحظه بالنسبة الى اللقب العائلي Lefèvre (واصله في اللاتينية faber) فقد كان يُرسم على نحوين مختلفين أوّلهما شعبي بسيط وهو Lefèvre وثانيهما ايتيمولوجيّ فيه تقعر وتفصّح وهو

Lefèbvre ونظرا إلى أنّهم كانوا لا يفرّقون قديما بين v و u في الخط ، فإن لكلمة Lefèbvre قد قرئت Lefèbure أي بباء b لم تكن موجودة البتة في الكلمة وب u ناشيء عن التباس . أمّا الآن فقد أصبحوا ينطقون صيغة Le fèvre نطقا فعليا . 54

ومن المحتمل أن هذه التحريفات ستتكاثر على مر الزمان وأنّ نطق الناس بالحروف الزائدة في الخط سيتزايد . انك لتجد الناس في باريس ينطقون بعد sept femmes فينطقون التاء نطقا صريحا . بل ويتوقع « دارمستاتر » Darmesteter أن سيأتي يوم ينطق فيه الناس حتى بالحرفين الاخيرين من كلمة vingt ويالها من صورة خطية مشوهة .

ولهذه التحريفات الصوتية وجود حقيقي في اللغة إلّا أنها ليست ناتجة عن عمل اللغة الطبيعي بل المتسبب فيها عامل لا يمتّ اليها بصلة . ويتعين على الألسني أن يفرد لها قسما خاصا يفحصها فيه،ذلك أنها تمثل حالات مسخية .

---

(1) Système de la conjugaison du sanscrit .

(2) Deutsche Grammatik.

(3) Lessons in the science of Language

(4) Grundzüge der griechischen Etymologie

(5) Compendium der vergleichenden Grammatik der indo-germanischen Sprachen

(6) العوالم الثلاثة الاخرى هي عالم المعادن وعالم النبات وعالم الحيوان (المترجمون) .

(7) Grammatik der romanischen Sprachen .

(8) The life of language

(9) لقد التصقت هذه المدرسة الجديدة بالواقع فشنت حربا ضد ما استعمله اصحاب المنهج المقارن من مصطلحات ، وخاصة ضد ما كانوا يعتمدونه من تشبيهات واستعارات لا منطقيّة . ومنذ ذلك الحين لم يعد أحد يتجرأ فيقول : « ان اللغة تفعل كذا أو كذا » أو أن يتحدث عن « حياة اللغة » الخ . وذلك لأن اللغة ليست كيانا قائما ولا وجود لها الا في أدمغة المتكلمين . على أنه ينبغي أن نتجنب الغلو والشطط في هذا الموضوع فأما المطالبة بالاقتصار على استعمال المصطلحات التي تطابق واقع الكلام البشري والالتزام بذلك دون سواه فمعناه الادعاء بأن هذا الواقع قد انكشفت لنا اسراره وخباياه كلها . وما ابعدنا عن ذلك . بهذا السبب فاننا لن نتردد — اذا صادف الامر — في استعمال هذه العبارة او تلك مما استهجنوه في ذلك العهد . (فرديناند دي سوسير) .

(10) أي علم الاجناس البشريّة

(11) ينبغي أن نحذر الخلط بين sémiologie أي علم الدلائل و Sémantique أي علم الدلالة اذ يهتم الاخير بما يطرأ على الدلالة من تغيرات وهو علم لم يخصه ف . دي س. بعرض منهجي مفصل إلا أننا نجده قد تعرض الى المبدإ الاساسي الذي هو يقوم عليه هذا العلم ص 109 .

(12) انظر Ad. Naville : Classification des sciences 2e ed. P. 104 (الناشرون)

(13) لقد تغيرت دلالة الكلمتين فتمحضت phonétique لعلم الأصوات و phonologie لعلم وظائف الأصوات وأطلقت عبارة phonétique historique على دراسة الأصوات من الوجهة التاريخية التطورية (المترجمون) .

(14) شبيه بهذا ظلّ وضلّ وظن وضنّ عند من اختلط نطقهم بالضاد والظاء(المترجمون) .

الباب السابع
الفنولوجيا

الفصل الأول : حـــدهـا

ان نحن تخيلنا انتفاء الكتابة فان من يحرم هكذا من هذه الصورة المحسوسة يوشك أن لا يدرك من اللغة بعدئذ سوى كتلة لا معالم لها لا يدري ما عسى أن يصنع بها . فيكون شأنه في ذلك شأن متعلم السباحة يجرد من حزام النجاة .

وينبغي لنا فورا أن نحل ما هو طبيعي محل ما هو اصطناعي . ولكن يتعذر علينا القيام بذلك ما لم ندرس أصوات اللغة لأننا اذا جردنا الأصوات من دلائلها الخطية ، لم تعد تمثل بالنسبة الينا سوى تصورات يحيط بها الغموض والابهام . فترى المرء في هذه الحالة أيضا يفضل الاستناد الى الكتابة وان خدعته . ولهذا السبب ترى علماء اللغة الأولين — وكانوا يجهلون كل شيء عن فيزيولوجيا الأصوات المقطعة — كثيرا ما وقعوا في هذه المزالق. فقد كان التخلي عن الحرف المكتوب بالنسبة اليهم معناه أن تزل بهم القدم . أما بالنسبة إلينا فهي خطوة أولى خطوها صوب الحقيقة . ذلك أن دراسة الأصوات في ذاتها هي التي تسعفنا بما ننشده من عون. ولقد توصل الالسنيون في العصر الحديث أخيرا الى ادراك هذه الحقيقة. فعادوا الى أبحاث كان شرع فيها غيرهم من علماء الفيزيولوجيا ومن أصحاب

النظريات في الغناء وغيرهم وتبنوها فَحَبّوا الالسنية بعلم هو لها بمثابة المساعد حررها من ربقة الكلمة المكتوبة .

وكثيرا ما تجدهم يطلقون على فيزيولوجيا الأصوات (وتسمى في الألمانية Lautphysiologie أو Sprachphysiologie اسم «phonétique» في اللغة الفرنسية (و Phonetik في الألمانية و «phonetics» في الانقليزية) . إلّا أن هذه التسمية تبدو لنا في غير محلها . ونقترح ابدالهما بتسمية أخرى هي فنولوجيا phonologie لأن كلمة phonétique كانت/تدل على دراسة الأطوار التي تمر بها الأصوات 56
وينبغي أن تظل كذلك (13) ولا يمكن بحال أن نخلط بين مبحثين أحدهما متميز عن الآخر تمام التميز فنطلق عليهما تسمية واحدة . فعلم الأصوات la phonétique علم تأريخي وأصحاب هذا العلم يحللون الأحداث والتغيرات الصوتية ، وعلمهم يتحرك عبر الزمان أما الفنولوجيا فهي خارجة عن نطاق الزمان لان إوالية تقطيع الأصوات تبقى دوما هي هي .

ولا سبيل الى الخلط بين هذين المبحثين بل ولا حتى للمقابلة بينهما . فعلم الأصوات قسم أساسي من أقسام علم اللغة ، أما الفنولوجيا ، فيجب أن نقول ونكرر أنها ليست سوى مادة مساعدة ، وهي ليست تابعة إلّا للفظ (انظر ص 40).وصحيح أننا ما كنا لنتبين فائدة حركات جهاز التصويت لو لم تكن اللغة موجودة إلّا أن هذه الحركات لا تكوّن اللغة . وحتى عندما يكون المرء قد فسّر جميع حركات جهاز التصويت الضرورية لإحداث كل انطباع أكوستيكي فانه لا يكون قد وضح أي جانب من جوانب مشكل اللغة . فاللغة نظام يقوم على المقابلة بالفكر بين الانطباعات الاكوستيكية المذكورة شأنها في ذلك شأن المنسوج في أنه عمل فني ناتج عن المقابلة بالبصر بين خيوط ذات ألوان شتى . إلّا أن ما يهم المحلل في هذا المضمار انما هو نظام هذه المقابلات وليس الطرق التي تحصلوا بها على تلك الألوان .

ومن أراد أن تكون له نظرة مجملة عن نظام فنولوجي ما فنحن نحيله الى الملحق ص 70 . أما ههنا فليس لنا من هم سوى أن نعرف ما هو العون الذي يمكن للالسنيين أن ينتظروه من هذا العلم حتى يتخلصوا مما تتسبب فيه الكتابة من أوهام .

الفصل الثاني : الكتابة الفنولوجية

ان ما ينشده الألسني قبل كل شيء هو أن يُمكّن من وسيلة لتمثيل الأصوات المقطعة تمثيلا تنتفي معه كل شبهة ويرتفع كل لبس . والواقع أنهم قد اقترحوا أنظمة خطية عديدة ./ 57

فما هي المبادىء التي ينبغي أن تتوفر في كتابة فنولوجية حقيقية ؟ ينبغي أن يكون القصد منها تمثيل كل عنصر من السلسلة المنطوقة بعلامة واحدة . إلّا أنهم لا يتقيدون دوما بهذا الشرط . من ذلك أن بعض علماء الفنولوجيا من الانقليز يمثلون بعض الاصوات بعلامات تتركب من حرفين بل وحتى من ثلاثة أحرف ، وذلك لانشغالهم بالتبويب بدل اهتمامهم بالتحليل . وفضلا عن ذلك فانه ينبغي أن نميز تمييزا دقيقا صارما بين الأصوات الانفجارية والأصوات الانحباسية (انظر ص 193 وما بعدها) كما سنذكره في موضعه .

فهل ثمة ما يعلل وجوب تعويض طريقة الرسم العادية بألفبائية فنولوجية ؟ لا يمكننا أن نتعرض ها هنا لهذه المسألة المفيدة إلا تعرضا خاطفا والرأي عندنا أن يبقى استعمال الكتابة الفنولوجية مقصورا على الألسنيين وحدهم . وذلك لأسباب منها :

أولا : صعوبة حمل الانقليز والالمان والفرنسيين وغيرهم على تبني نظام خطي ذي شكل واحد .

ثانيا : ان وضع ألفبائية يمكن تطبيقها على جميع اللغات ، من شأنه أن يجعلها تكتض بالعلامات التمييزية الزائدة على الحرف بقطع النظر عن الصورة المفجعة التي قد تحصل لنا عند قراءة صفحة فيها نص دُوّن على ذلك النحو . فمن البديهي أن مثل هذه الكتابة ، لشدة حرصنا فيها على الدقة ، ستُعمّي ما كانت تقصد الى ايضاحه وستشوش على القارىء أمره . وقد لا نجد فيها من الفوائد ما يكفي لتلافي هذه النقائص . فان رسم الأصوات رسما فنولوجيا دقيقا ليس بالأمر المرغوب فيه كثيرا اللهم إلّا في الميدان العلمي البحت .

وثمة مسألة أخرى هي مسألة القراءة . فنحن نقرأ بطريقتين اثنتين . فنحن اذ

نقرأ الكلمة الجديدة أو التي نجهلها نهجّاها حرفا حرفا . أما الكلمات المألوفة والجاري بها الاستعمال فإن بصرنا يحيط بها في طرفة عين أي بصرف النظر عن الحروف المكونة لها . ذلك أن صورة الكلمة قد اكتسبت في نظرنا قيمة الشكل الايديوغرافي .

وفي هذه الحالة يمكن أن يكون لمطالبة بعضهم باتخاذ الطريقة التقليدية في الكتابة ما يبررها . لأنه من المفيد التمييز بين tant و temps وبين حرف العطف et وفعل الكينونة في صورتيه est و ait ، وكذلك بين الأداة du واسم المفعول dû وبين المفرد في il devait والجمع في ils devaient وهلم جرا (14) . وغاية ما نأمله هو أن تتخلص الكتابة مما يرد فيها من صور غريبة أبعد ما تكون عن المنطق-ولئن كان اتخاذ ألفبائية فنولوجية ما في ميدان تعليم اللغات قد يسدي بعض الخدمات فانه لا ينبغي بحال أن نعمم استعماله/.

58 **الفصل الثالث : نقد شهادة المكتوب [على المنطوق]**

بعدما تبينا ما تتصف به الكتابة من تضليل وخداع ، من الخطإ اذن أن نعتقد أن أول ما ينبغي أن نبادر به هو أن نعمد الى اصلاح قواعد الرسم . ذلك أن الفائدة الحقيقية التي نفيدها من الفنولوجيا انما تتمثل في تمكينها ايّانا من أن نتوخى بعض الحذر ازاء تلك الصورة المكتوبة التي يجب أن نمر بواسطتها كي ندرك اللغة . فشهادة الكتابة على اللغة لا قيمة لها إلّا اذا أولناها تأويلا . فعند مباشرتنا لكل حالة من الحالات نستخرج النظام الفنولوجي للغة المنظور فيها أي نقيم جدولا للأصوات التي تستعملها تلك اللغة . ذلك أن كل لغة من اللغات تستعمل-فعلا-عددا معلوما من الصوائم المتمايزة تمايزا واضحا . وهذا النظام هو الواقع الوحيد الذي يهم الألسني . أما العلاقات الخطية فليست سوى صورة لهذا النظام علينا أن نحدد مدى دقتها وتختلف صعوبة هذا التحديد بحسب الألسن والظروف .

فاذا تعلق الأمر بلغة من لغات الماضي اضطررنا الى الاقتصار على معطيات غير مباشرة . فنرى ما هي الموارد التي من شأنها أن تمكننا من استخراج نظامها الفنولوجي ؟

من هذه الموارد أولا : **القرائن الخارجية** وفي مقدمتها شهادة أولئك الذين عاصروها ووصفوا أصواتها وطريقة النطق بها في زمانهم . من ذلك أن النحاة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر وخاصة من كانت غايتهم تقديم بعض المعلومات المفيدة عن الفرنسية لغير الناطقين بها قد تركوا لنا عددا كبيرا من الملاحظات القيّمة . إلا أن هذا المصدر مصدر لا ينبغي أن نطمئن اليه كلّ الاطمئنان لأنه لم يكن لأولئك النحاة أي منهج فنولوجي. فقد وصفوا ما وصفوا بما اتفق من الألفاظ ، فكان عملهم خاليا من كل صرامة علمية . فينبغي لنا اذن أن نتأوّل شهاداتهم هي الأخرى . من ذلك أن في التسميات التي أطلقوها على الأصوات اشارات غامضة في أغلب الأحيان ، تحتمل وجوها عديدة : فقد كان النحاة اليونانيون ينعتون الأصوات المجهورة (مثل b و d و g) بأنها حروف « متوسطة » (mésai) والأصوات المهموسة/(مثل p و t و k) بأنها *psilai* وهي الصفة التي كان اللّاتينيون يترجمونها بـ tenuës . 59

ثانيا : أنه يمكننا العثور على معلومات أقرب الى الصدق عندما نؤلف بين هذه المعطيات الأولية أي القرائن الخارجية ، **والقرائن الداخلية** . ونقترح ترتيب الاخيرة في بابين اثنين :

أ ــ قرائن نستخصلها من انتظام التطورات الصوتية واطرادها . فاذا تعلق الأمر بتحديد القيمة الصوتية لحرف من الحروف فمن الأهمية بمكان أن نعرف الصوت الذي كان يمثله ذلك الحرف في طور سابق . فقيمته الحالية انما هي نتيجة تطور يسمح لنا أن نطرح منذ البداية بعض الافتراضات . فنحن على سبيل المثال لا نعرف بالضبط قيمة حرف ç في اللغة السنسكريتية ، ولكن لمّا كان هذا الحرف هو الصورة التي تواصلت عليها الكاف الحنكية k التي في الهندية الأوربية فان معرفتنا لهذا الامر تحُدّ من مجال الافتراضات حَدّا .

أما اذا أمكننا أن نعرف ما مرت به بعض الأصوات المتجانسة التابعة لنفس اللغة من تطور متواز في نفس الحقبة من الزمن ، وذلك بالاضافة الى معرفتنا لصورتها الاولى ، فانه يتسنى لنا آنذاك أن نعمد إلى حجة القياس فنستخرج العلاقات التناسبية الخاصة بمثل هذا التطور .

والمسألة أيسر بطبيعة الحال عندما يكون الأمر متعلقا بتحديد نطق وسيط نعرف منطلقه ومنتهاه معا . فان الـ au في الفرنسية (كما في sauter) كانت بالضرورة حركة مزدوجة في القرون الوسطى لانها كانت مرحلة وسطى بين صورة أقدم منها هي al وصورة من الفرنسية الحديثة هي الضمة نصف المنغلقة o.واذا عرفنا من مصدر آخر وفي وقت معلوم أن الحركة المزدوجة au ما زالت موجودة آنذاك فمن الثابت جدا أنها كانت موجودة أيضا في الحقبة السابقة . فنحن لا نعرف بالضبط الصوت الذي يمثل حرف z في كلمة مثل wazer في الالمانية العليا القديمة لكن لنا في سبيل الاهتداء الى ذلك أمارتين هما water من جهة وهي أقدم ، و wasser من جهة أخرى وهي الصيغة الحالية . فلا بدّ اذن أن حرف z هذا قد كان يمثل صوتا وسطا بين صوت التاء وصوت السين . فيمكننا اذن أن نرفض كل افتراض لا يوافق الا مراعاة التاء وحدها أو مراعاة السين وحدها . فمن المستحيل مثلا أن نعتقد أن حرف الـ z هذا ، قد كان يمثل صوتا حنكيا اذ لا
يمكننا أن نفترض بين نطقين/أسنانيين الا نطقا أسنانيا . 60

ب — قرائن معاصرة وتنقسم الى اضرب متعددة الأنواع منها تعدد الصور الخطية : فانت تجدهم كتبوا في عصر ما من عصور الألمانية العليا القديمة wazer esan, zehan ولكنهم لم يكتبوا البتة wacer ولا cehan الخ . فان نحن وجدنا من جهة أخرى أنهم كتبوا أيضا esan و essan و waser و wasser الخ استنتجنا آنذاك أن حرف z يمثل صوتا قريبا جدا من صوت السين s ولكنه يختلف اختلافا لا بأس به عن الصوت الذي كان يمثله حرف c في ذلك العصر وإذا صادفنا في طور لاحق صيغا من قبيل wacer وغيرها قام ذلك دليلا على أن هذين الصوتين قد استوى أحدهما في الآخر إن قليلا وإن كثيرا بعد أن كانا قديما متميزين تميّزا واضحا .

والنصوص الشعرية من الوثائق الثمينة لمعرفة صور النطق . وسواء قامت قواعد نظم الشعر على عدد المقاطع أو على الكمية الصوتية أو على تجانس الأصوات من جناس وسجع وقافية فان هذه الوثائق الشعرية توفر لنا معلومات عن مختلف هذه النقاط . فلئن ميّز اليونانيون بين صورة بعض الحركات الطويلة وصورة اخوتها القصيرة (من ذلك رسمهم للضّمة نصف المنغلقة الطويلة بواسطة (w) فانهم لم

يفعلوا ذلك بالنسبة الى بعضها الآخر . ولهذا اذا أردنا أن نعرف متى تكون الفتحة والكسرة والضمة طويلة ومتى تكون قصيرة فعلينا أن نلتمس ذلك في الشعر . ومن ذلك أيضا أن القافية في اللغة الفرنسية القديمة تمكننا من أن نعرف الى أي عصر تواصل اختلاف النطق بالحرفين الاخيرين من كلمتي gras و faz (التي أصلها في اللاتينية faciō أي أفعلُ) ثم متى كان تقاربهما فاستواء احدهما في الآخر . وبالقافية والسجع نعرف كذلك أن الـ e في الفرنسية القديمة المتولد عن الـ a في اللاتينية (كما في père وأصلها patrem ، و tel وأصلها talem و mer وأصلها mare) كان لها جرس مختلف عن جرس الـ e التي ليس أصلها الـ a اللاتينية . والدليل عليه ان الكلمات المذكورة لم تجتمع قط مع elle (وأصلها illa) ولا مع vert (وأصلها viridem) ولا مع belle (وأصلها bella) وغيرها في نفس القافية ولا في نفس الجناس .

ولنختم حديثنا في هذا السياق بدور الكلمات الدخيلة ومختلف أنواع التلاعب بالالفاظ وكذلك ما يعرض في الحديث من استطرادات غير منتظرة من ذلك أن kawtsjo في اللغة القوطية تخبرنا عن صورة نطقهم لـ cautiō في اللاتينية المتأخرة . ومن ذلك أيضا أن نطقهم لكلمة roi على الصورة التالية rwé نطق
تشهد بوجوده / في أواخر القرن الثامن عشر النادرة التالية وقد ذكرها 61
« نيروب » Nyrop في كتابه : نحو اللغة الفرنسية التاريخي Grammaire historique de la langue française (ج 1 ص 178) . وصورة ذلك أن امرأة سئلت عند مثولها أمام المحكمة الثورية ان كانت صرحت أمام الشهود بأن الأمر يقتضي وجود roi فأجابت بأنها لم تقصد من كلمة roi الاسم الذي يطلق على سلالة فلان من آل « كابي » Capet أو غيره ولكنها قصدت rouet maître وهو آلة لغزل الصوف .

ان جميع ما ذكرنا من وسائل الاخبار يساعدنا إلى حدّ ما على معرفة النظام الفنولوجي التابع لعصر من العصور وعلى تعديل شهادة المكتوب مع الاستفادة منه كل الاستفادة .

أما اذا تعلق الامر بلغة حية فان المنطلق الوحيد يتمثل في :

أ — أن نستخرج نظام الأصوات كما نتعرف عليه عن طريق الملاحظة المباشرة .

ب ــ ان نضع قبالته نظام العلامات الخطية المستعملة لتصوير تلك الأصوات تصويرا منقوصا . على أن عددا كبيرا من النحاة ما زالوا متمسكين بالمنهج القديم الذي نقدناه أعلاه والمتمثل في أنهم يقولون لنا كيف ينطق كل حرف من الحروف في اللغة التي يريدون وصفها والحال أنها طريقة يتعذر معها أن نبرز النظام الفنولوجي للسان من الالسن بوضوح .

ورغم ذلك فمن الثابت اننا قد قطعنا في هذا المضمار أشواطا كبيرة وأن علماء الفنولوجيا قد أسهموا اسهاما ذا بال في تعديل ما كان لنا من آراء عن الكتابة وقواعد الرسم .

تذييل : مبادئ في الفنولوجيا

63

الباب الأوّل
الأجناس الفنولوجية

الفصل الأول : حدّ الصوتم

[تمكنّا بالنسبة الى هذا القسم من اعتماد تقييدات بخط الاختزال لثلاث محاضرات ألقاها فردينان دي سوسير سنة 1897 موضوعها **نظرية المقطع** ، وتعرّض فيها كذلك إلى المبادىء العامة التي في القسم الأول من هذا الكتاب ، أضف الى ذلك أن قسما هاما من تقييداته الشخصية له مساس بالفنولوجيا. وتوضّح هذه التقييدات نقاطا عديدة ممّا نجده في الدرسين الأول والثالث وتتممها] الناشرون .

يكاد كثير من علماء الفنولوجيا يقتصرون على الاهتمام بعملية التصويت أي احداث الأصوات بواسطة الأعضاء (كالحنجرة والفم الخ ...) ويهملون الجانب الاكوستيكي . وليس هذا بالمنهج السليم . فنحن لا ندرك الانطباعات الحاصلة في أسماعنا مباشرة بمثل صفة المباشرة التي ندرك بها صورة عمل الأعضاء بالعين فقط،بل ان ذلك الانطباع هو الأساس الطبيعي لكل نظرية .

64

فالجانب الاكوستيكي موجود بعدُ بصورة ضمنيّة عندما نتناول الوحدات الفنولوجية بالدرس ، اذ بالاذن/نميّز صوت الباء من صوت التاء الخ ... ولئن استطعنا أن نصوّر بآلات التصوير السنمائي جميع حركات الفم والحنجرة أثناء احداثها لسلسلة من الأصوات فانه يستحيل علينا الوقوف على أجزاء هذه الطائفة من عمليات تقطيع النطق : فلا نعلم مبدأ هذا الصوت ولا منتهى ذلك . ثم من أين لنا أن نجزم — ان نحن لم نعتمد على الانطباع الاكوستيكي — بأن كلمة (قُلْ) مثلا تتكون من ثلاث وحدات لا اثنتين أو أربع ؟ إننا لا نستطيع أن نتبين على الفور إن كان صوت من الأصوات قد بقي كما هو أو تغير إلّا في سلسلة اللفظ المسموع . فما دمنا نشعر عن طريق الانطباع بشيء منسجم فالصوت صوت واحد . ثم إن الذي يهمنا من الصوت ليس طوله أو قصره من حيث المدى الزمني (قارن بين ضمّتي قُلْ وقُولِي) بل الذي يهمنا هو نوعية الانطباع . فالسلسلة الاكوستيكية لا تنقسم الى وحدات زمنية متساوية بل الى وحدات زمنيّة منسجمة تتميز بوحدة الانطباع [الحاصل في السمع] ؛ وهنا يكمن المنطلق الطبيعي للدراسة الفنولوجيّة .

والالفبائيّة اليونانية من هذه الناحية جديرة بالاعجاب ، إذ يوافق كل صوت بسيط فيها علامة واحدة في الخطّ،والعكس بالعكس أي إن كل علامة توافق صوتا هو هو على الدوام . وهو لعمري اكتشاف من العبقرية بمكان قد ورثه عنهم اللاّتينيون . ففي كتابتهم لكلمة *bârbaros* أي « متوحش »: BAPBAPOΣ تطابق كل علامة في الخط وحدة زمنية منسجمة . ويمثل الخط الافقي في الرسم السابق السلسة الصوتية بينما تمثل الخطوط العمودية الصغيرة عمليّات الانتقال من صوت الى آخر . وأنت لا تجد في الالفبائيّة اليونانية في أول عهدها علامات خطية مركبة مثل الشين الفرنسية التي تكتب بواسطة علامتين مجتمعيتين ch ؛ كما لا تجد علامتين خطيتين مختلفتين تتناوبان لرسم صوت واحد مثل c و s بالنسبة الى صوت السين ؛ كما أنك لا تجد علامة بسيطة تمثل صوتا مزدوجا مثل x بالنسبة الى الكاف والسين (كْس) . وقد كاد اليونانيون يحققون بصورة كاملة هذا المبدأ الضروري والكافي للكتابة الفنولوجية السليمة (1)/.

65 ولم تهتد الشعوب الأخرى الى هذا المبدأ . فلم تحلّل السلسلة المنطوقة في ألفبائيّاتها الى أطوارها الاكوستيكية المنسجمة : فقد اقتصر القبارصة على ملاحظة وحدات أكثر تشعبا من قبيل pa(پ) وti(تِ) وko (كُ) الخ . وتسمى هذه الطريقة في الرسم بالكتابة المقطعية . وهي تسمية تعوزها بعض الدقة إذ يمكن أن يصاغ المقطع حسب نماذج أخرى مثل pak (پَكْ) وtra(تْرَ) الخ . أما الساميّون فلم يرسموا في كتاباتهم الا الحروف ، والمثال السابق ***bárbaros*** يرسم عندهم بربرس (BRBRS) .

فلا يمكن تعيين حدود الأصوات في السلسلة المنطوقة إلّا بالاعتماد على الانطباع الاكوستيكي أما وصفها فالأمر فيه مختلف : فهو لا يمكن أن يتم إلّا على أساس عملية التقطيع النطقي لأنّ الوحدات الاكوستيكية اذا اعتبرت في سياق السلسلة المسموعة الخاصة بها بدت غير قابلة للتحليل ، لذلك وجب الركون إلى سلسلة حركات التصويت ؛ وعندها نلاحظ أن نفس الصوت يوافق نفس العملية أي ب (طور أكوستيكي) = ب^1 (طور تقطيعي) . فتكون الوحدات الأولى التي نتحصل عليها من تجزئة السلسلة المنطوقة مركبة من ب و ب^1 وقد أطلقنا عليها اسم phonèmes أي **صوائم** ؛ والصوتم هو جملة الانطباعات الاكوستيكية والحركات التقطيعية للوحدة [الصوتية] المسموعة والوحدة [الصوتية] المنطوقة . وتكيّف كل منهما الأخرى . ويبدو الصوتم من الآن وحدة متشعبة لها اتصال بكلتا السلسلتين .

وستكون العناصر التي نحصل عليها في المرحلة الأولى بفضل السلسلة المنطوقة بمثابة الحلقات من هذه السلسلة ، وهي فترات غير قابلة لمزيد من التجزئة ولا 66 يمكن اعتبارها خارج/الزمان الذي تمتد فيه . وبهذه الصورة فان مجموعة من الأصوات مثل ta (تَ) ستكون دائما فترة تضاف الى فترة أخرى أو جزءا له امتداد معيّن يضاف الى جزء آخر أما اذا أخذنا الجزء الذي لا يتجزأ ، على حدة ، نحو التاء t فيمكن اعتباره في المستوى التجريدي وبقطع النظر عن الزمن . فلنا أن نعتبر التاء بصورة عامة t ممثلة لجنس التاء T (وسنرسم الأجناس بحروف التاج) ولنا أن نعتبر الكسرة i ممثلة لجنس الكسرة I ، وأن لا نهتمّ من ذلك إلّا بالصفات

المميزة ، مهملين كل ما يتصل بالتعاقب في الزمان . وهذ الأمر شبيه بما في الموسيقى . فلا يمكن أن نتناول مجموعة من الترقيمات الموسيقية مثل دو ، ري ، مي،إلا باعتبارها سلسلة ملموسة ممتدة في الزمان . فاذا نظرنا في عنصر غير قابل للتجزئة من عناصرها على حدة استطعنا حينئذ أن نعتبره في المستوى التجريدي .

وبعد الفراغ من تحليل عدد كاف من السلاسل المنطوقة من لغات متنوعة نتوصل الى معرفة العناصر التي تقوم عليها كل لغة ونتمكن من تبويبها ، وندرك عندئذ — ان نحن أهملنا بعض الجزئيات التي لا أهمية لها من الناحية الاكوستيكية — أن عدد تلك الأجناس محدود مضبوط . وثمة كتب خاصة (2) تضم قائمات لتلك العناصر ووصفا ضافيا لها.أما هنا فسنسعى إلى بيان ما يقوم عليه كل تبويب من هذا القبيل من مبادئ ثابتة في غاية البساطة .

ولنمهد قبل ذلك في عجالة بالحديث عن الجهاز الصوتي وعن عمل مختلف الأعضاء فيه وعن الدور الذي تقوم به تلك الأعضاء باعتبارها محدثة للصوت .

الفصل الثاني : جهاز التصويت وقيامه بعمله (3)

سنكتفي في وصفنا لجهاز التصويت برسم مبسط يمثل فيه الرقم الروماني I 67 الغار الخيشومي والرقم II/الغار الفموي والرقم III الحنجرة وتشتمل على المزمار (م^1) الواقع بين الأوتار الصوتية (4) .

ومن المهم أن نميز بين أجزاء الفم الشفتين (ش) و (ش^1) واللسان (ل^1) و (ن^1) (وتمثل ل^1 طرفه ون^1 سائره) والاسنان العليا (س) والحنك ويحتوي على قسم أمامي عظمي لا يتحرك (ح — ك) وقسم خلفي رخو متحرك يسمى غشاء الحنك (غ) وينتهي باللهاة (هـ^1) .

وترمز الحروف المتبوعة برقم الى الأعضاء الناشطة عند عملية تقطيع النطق ، بينما ترمز الحروف غير المتبوعة برقم الى الأعضاء الساكنة غير الناشطة .

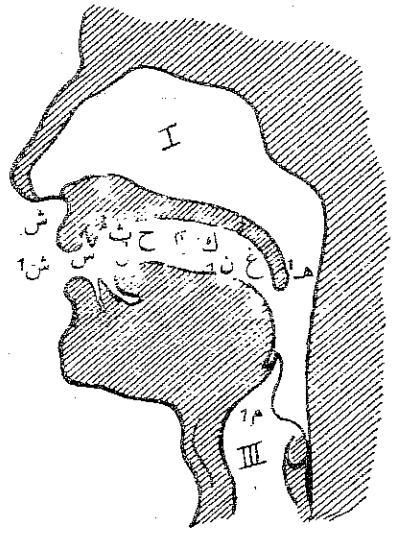

وينفتح المزمار (م^1) المتكون من عضلتين متوازيتين هما الأوتار الصوتية بانفراج ما بين هاتين العضلتين وينغلق بانضمامهما . أما انغلاقهما التام فلا يكاد يدخل فيما نحن فيه ؛ وأما انفتاحهما فيكون واسعا تارة وضيقا تارة أخرى . وفي الحالة الأولى يمر الهواء حرا طليقا فلا تنز الأوتار الصوتية . أما في الحالة الثانية فان مروره يحدث نزيزا صوتيا مجهورا . ولا وجود لامكانية ثالثة عند إصدار الأصوات إصدارا عاديّا .

والغار الخيشومي عضو يابس لا يتحرك ؛ ويمكن منع الهواء من المرور منه برفع
68 اللهاة (هـ^1) لا غير . فهو منفذ لا يكون إلّا منفتحا أو منغلقا . /

أما الغار الفموي فانه يمكننا من القيام بعدد كبير من العمليات الشديدة التنوع : فبوسعنا أن نطيل قناة الفم بـ [مطّ] الشفتين وأن نجعل الخدّين منتفخين أو مرتخيين ،وقد يضيق هذا الغار بل وينغلق تماما بفضل ما للشفتين واللسان من حركات متنوعة تنوعا لا حصر له .

وتدور هذه الأعضاء نفسها في إحداث الأصوات متعلق تعلقا مباشرا بمدى قدرتها على الحركة . فنلاحظ نفس الوحدة في وظيفة الحنجرة والغار الخيشومي ونفس التنوع في وظيفة الغار الفموي .

ويعبر الهواء المندفع من الرئتين المزمار أولا ، وثمة يمكن أن يحدث صوت محنجر باقتراب الأوتار الصوتية بعضها من بعض . لكن ليس عمل الحنجرة هو الذي يستطيع أن يُحدث الفوارق الفنولوجية التي تمكن من تمييز مختلف أصوات اللغة وتبويبها ؛ اذ الصوت المحنجر من هذه الزاوية صوت ذو صورة واحدة . ولو سمعناه مباشرة كما يصدر عن المزمار لبدا لنا قارا لا يتغير من حيث الكيف أو يكاد .

وتقوم القناة الخشيومية بمجرد دور المرنان للنزيز الصوتي الذي يخترقها فليس لها كذلك دور العضو المحدث للصوت .

أما الغار الفموي فانه بخلاف ذلك يجمع بين وظيفة احداث الصوت ووظيفة المرنان . فاذا انفتح المزمار انفتاحا كبيرا لم يحدث أي نزيز حنجري وليس للصوت الذي يسمع عندئذ من مصدر سوى الغار الفموي (ونحن نترك للعالم الفيزيائي مهمّة البتّ في شأنه : هل هو صوت أم مجرد دوّي) . أما اذا تسبب تقارب الأوتار الصوتية في نزيز المزمار فان الفم سيقوم خاصة بدور المحوّر للصوت الحنجري .

وهكذا فان العوامل التي يمكن أن تساهم في احداث صوت من الأصوات هي الزفير وتقطيع النطق في الفم ونزيز الحنجرة والرنين الخيشومي .

لكن تعداد عوامل احداث الصوت هذه لا يعني أنّنا قد حدّدنا ما للصواتم من عناصر مميزة . وذلك أن تبويب هذه الصواتم عمل لا يستدعي معرفة ماهيتها
69 في حدّ ذاتها بقدر ما يستدعي/معرفة ما يميز بعضها عن بعض . فقد يكون للعامل السلبي في عملية التبويب من الأهمية أكثر مما للعامل الايجابي : فالزفير مثلا عنصر ايجابي لكنه لما كان له دخل في جميع عمليات التصويت فإنه قد خلا من كل قيمة تمييزية . بينما يمكّننا انعدام الرنين الخيشومي-وهو عامل سلبي-أو وجوده على حدّ سواء من تعيين خصائص بعض الصواتم . فالامر الأساسي اذن

هو أن عاملين من العوامل التي ذكرت آنفا قارّان ولازمان وكافيان لأحداث الأصوات وهما :

أ — الزفير .

ب — تقطيع النطق في الفم .

بينما يمكن للعاملين الآخرين أن لا يوجدا أو أن ينضافا إليهما وهما :

ج — نزيز الحنجرة .

د — الرنين الخيشومي .

ونحن نعلم من ناحية أخرى أن العوامل الأول والثالث والرابع ذات صور ثابتة بينما يتضمن العامل الثاني صورا متنوعة لا تحصى .

وينبغي أن نذكر فضلا عن ذلك أن تحديد هوية الصوتم يحصل عندما نكون قد ضبطنا عملية التصويت [المتعلقة به] والعكس بالعكس أيضا . فاذا ضبطنا جميع عمليات التصويت تمكّنا من تحديد جميع أجناس الصواتم . وقد سبق أن بيّنا أثناء ترتيبنا للعوامل التي تساهم في احداث الأصوات أن عمليات التصويت لا يتميز بعضها عن بعض إلّا بتدخل العوامل الثلاثة الأخيرة (ب ، ج ، د) . فيتحتم علينا اذن أن نعرف بالنسبة الى كل صوتم ما هو تقطيع نطقه في الفم وهل يتضمن صوتا محنجرا (〰) أم لا [] وهل يحتوي على رنين خيشومي (......) أم لا [] . فاذا بقي أحد هذه العناصر غير معلوم ظل تحديدنا لهوية الصوت ناقصا مبتورا ؛ لكننا بمجرد التعرف على ثلاثتها كاملة نتمكن من الوقوف على صور ائتلافاتها المختلفة التي تحدّد جميع الأنواع الأساسية من عمليات
التصويت ./ 70

وبناء على ما تقدم نتحصل على جدول مختلف الامكانيات التالي :

	I	II	III	IV
أ	زفير	زفير	زفير	زفير
ب	تقطيع فموي	تقطيع فموي	تقطيع فموي	تقطيع فموي
ج	[]	〰	[]	〰
د	[]	[]	......	......

ويمثل الوادي الأول بالترقيم الروماني الأصوات المهموسة والوادي II الأصوات المجهورة والوادي III الأصوات المهموسة المخيشمة والوادي IV الأصوات المجهورة المخيشمة .

لكن عنصرا فيما تقدم ظل مجهولا وهو طبيعة التقطيع الفموي فمن المهم اذن ضبط وجوهه الممكنة .

الفصل الثالث : تبويب الأصوات حسب تقطيعها الفموي

تبوّب الأصوات عادة حسب مواضع تقطيع النطق بها ، إلّا أننا سننطلق من منطلق آخر . فمهما يكن موضع التقطيع فان له دائما **انفتاحا** ما أي درجة معينة من الانفتاح بين حدّين متطرفين هما الانغلاق التام والانفتاح الأقصى . وعلى هذا الأساس سنُبوِّبُ الأصوات في سبعة أصناف متدرجين فيها من الانفتاح الأدنى الى الانفتاح الأقصى ، وسنشير إليها بالأرقام التالية : 0، 1، 2، 3، 4، 5، 6 . أما توزيع الصواتم الى أنواع مختلفة بحسب مواضع تقطيع النطق الخاصّ بكل واحد منها فلن يكون إلّا داخل كل صنف من تلك الأصناف [القائمة على درجة الانفتاح] .

وسنتقيد بالمصطلحات الشائعة رغم ما فيها من نقص ومن خطإ في نقاط عديدة . فتسميات من قبيل guttural (أي حلقي) و palatal (أي حنكي) و dental (أي اسناني) و liquide (أي مائع) الخ ... كلها تسميات غير منطقية بنسبة تقل وتعظم . فمن الأقرب الى المنطق أن نقسم الحنك الى عدد معين من الحيّزات . فاذا أضفنا الى ذلك عمل اللسان استطعنا على هذا النحو أن نضبط
71 النقطة التي يحدث أمامها/التضييق الأساسي في كل حالة . وسنستعين بهذه الفكرة [في تبويبنا للصواتم] وسنستعمل الحروف المدرجة في صورة جهاز التصويت (بصفحة 74) لنرمز الى كل عملية تقطيعية بصيغة يكون فيها الرقم الدّال على درجة الانفتاح بين الحرف المرقم المشير الى العضو الناشط (على اليمين) والحرف غير المرقم المشير الى العضو غير الناشط (على اليسار) . وهكذا فان الصيغة (ل^1 0 ث) مثلا تعني أن طرف اللسان (ل^1) ينطبق على مغارز الأسنان العليا أي اللثة (ث) مع درجة انفتاح توافق الانغلاق التام .

وفي الختام فان مختلف أنواع الصواتم تتميز داخل كل تقطيع بصفتي الصوت المنحجر والرنين الخيشومي ، المتزامنتين واللتين يمثل وجودهما وانعدامهما على السواء عنصرا من عناصر التمييز .

وسنبّوب الأصوات على ضوء هذا المبدإ . وهو مجرد شكل مبسّط لتبويب منطقي معقول . ولا ينبغي اذن أن يعتقد المرء أنه واجد فيه صواتم ذات صبغة مركبة أو طابع خاص مهما كانت أهميتها العملية مثل الصواتم المنفّسة (ph (پ ͪ) و dh (د ͪ) الخ) أو الشديدة فالرخوة ts (ت ͠س) و dz د ͫ و pf (پ ͨ) الخ ...) والحروف الملينة والحركات الضعيفة مثل e أي الفتحة الصامتة في الفرنسية الخ ...) ؛ وكذلك لا ينبغي أن نبحث فيه عن الصواتم البسيطة الخالية من كل أهمية عملية والتي لا تعتبر أصواتا متميّزة .

أ ــ درجة الانفتاح الصفر = الصواتم الشديدة .

يضم هذا الصنف جميع الصواتم التي تحصل بانغلاق الغار الفموي انغلاقا تاما محكما لكنه مؤقت . وليس لنا في هذا المجال أن نبحث عما اذا كان الصوت يحدث زمن الانغلاق أو زمن الانفتاح اذ يمكن أن يحدث في الواقع بهذه الطريقة أو بتلك (انظر ص 87 وما بعدها) .

ويمكن أن نميز ثلاثة أنواع أساسية من الصواتم الشديدة بحسب موضع تقطيع النطق بها . وهي النوع الشفوي (الباء المهموسة p والباء والميم) والنوع الاسناني (التاء والدال والنون) ، والنوع الذي يقال له guttural أي حلقي (الكاف والكاف المهجورة g والنون الخفية أي الأقصى حنكية ŋ) (5) .

72 وتقطّع أصوات النوع الأول بواسطة الشفتين معا ؛ وفي النوع الثاني ينطبق طرف اللسان على مقدمة الحنك ./أما النوع الثالث فيتصل فيه ظهر اللسان بمؤخر الحنك .

وفي كثير من اللغات وخاصة في الهندية الأوروبية منها، يمكن أن نميّز بوضوح بين تقطعين حلقيين : أحدهما حنكي ويقع عند الجزء (ح ــ ك) من رسمنا لجهاز التصويت والآخر غشائي ويقع عند الجزء (غ) من نفس الرسم . على أن هذا الفارق يهمل في لغات أخرى مثل الفرنسية حيث تعتبر الاذن الكاف الخلفية كالتي في كلمة court صوتا مماثلا للكاف الامامية كالتي في كلمة qui .

ويبين الجدول التالي صيغ هذه الصواتم على اختلافها .

شفوية			أسنانية			حلقية		
p پ	b ب	(m م)	t ت	d د	(n ن)	k ك	g ق	(ن خفية ŋ)
ش 0 1 ش	ش 0 1 ش	ش 0 1 ش	ل 1 0 ث	ز 1 0 ث	ل 1 0 ث	ن 1 0 ك	ن 1 0 ك	ن 1 0 ك
[] []	~~~ []	~~~	[] []	~~~ []	~~~ []	[]	~~~ []	~~~ ......

والأصوات الخيشومية (م ، ن ، ن خفية) هي أصوات شديدة مجهورة مخيشمة بأتم معنى الكلمة . فعندما ننطق كلمة عَمْبَرْ ترتفع اللهاة فتسدّ الغار الخيشومي وذلك عند انتقالنا في النطق من الميم الى الباء .

ولكل نوع من الأنواع الثلاثة ــ نظريا ــ صوت خيشومي لا يصاحبه نزيز الأوتار الصوتية أي مهموس . من ذلك أننا نجد في اللغات الاسكندنافية ميما مهموسة ترد بعد حرف مهموس . ويمكن أن نجد أيضا في الفرنسية أمثلة من همس الميم ولكن جمهور المتكلمين لا يرون في ذلك عنصرا مميزا .

وقد جعلنا الأصوات الخيشومية في الجدول السابق بين قوسين وذلك أن تقطيع النطق بها وان كان يقتضي انغلاقا تاما في مستوى الفم فان انفتاح القناة الخيشومية يكسبها درجة انفتاح أكبر من درجة انفتاح اخواتها (انظر القسم ج) .

ب : درجة الانفتاح رقم 1 = الصواتم الدعكية أو الرخوة :

تختص هذه الصواتم بانغلاق الغار الفموي انغلاقا غير تام يسمح بمرور الهواء

73 ولفظة spirante أي رخوة تسمية/عامة جدا . أما لفظة fricative أي دعكيّة فهي وان كانت لا تنبئنا بدرجة الانفتاح فانها توحي بما يحدث عند مرور الهواء من احتكاك (وفعلا فان أصل المصطلح الفرنسي fricative في اللاتينية هو fricare ومعناه حكّ ودعك) .

ولن نستطيع أن نقتصر في هذا القسم على ثلاثة أنواع مثل ما فعلنا في القسم الأول . ومرد ذلك أولا الى أن الأصوات الشفوية [الرخوة] بالمعنى الحقيقي

للكلمة وهي التي توافق الصوتين الشديدين (پ) و (ب) نادرة جدا في الاستعمال ، ولذلك فقد أهملناها . والواقع أنها تعوض عادة بالأصوات الشفوية الاسنانية التي تحصل باقتراب الشفة السفلى من الاسنان العليا (أي الفاء والفاء المجهورة v) ، ثم ان الاصوات الاسنانية تنقسم الى أنواع عديدة بحسب الهيئة التي يكون عليها طرف اللسان عند عملية التضييق ، وبدون أن ندخل في التفصيل سنشير الى مختلف الهيئات التي يكون عليها طرف اللسان بالعلامات التالية : ل^1 ، ل^2 ، ل^3 . أما الأصوات المتعلقة بالحنك فان الاذن تميز عادة بين تقطيع أمامي (الأصوات الحنكية) وآخر خلفي (الأصوات الغشائية) (6) .

شفوية أسنانية		أسنانية						حنكية		حلقية	
ف f	ڤ v	ث ṯ	ذ ḏ	س s	ز z	ش š	ج ž	خ' x'	غ' γ'	خ x	غ γ
ش^{1}س	ش^{1}س	ل^{1}ك	ل^{1}س	ل^{2}س	ل^{2}س	ل^{3}س	ل^{3}س	ن^{1}ح	ن^{1}ح	ن^{1}غ	ن^{1}غ
[ ]	—	[ ]	—	[ ]	—	[ ]	—	[ ]	—	[ ]	—
[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]

ڤ : v = مقابل الفاء في الجهر كالتي في الفرنسية (v) ، في كلمة va .
ج = ž = الجيم التونسية الشديدة التعطيش .
خ' = x' (خاء أمامية) كالتي في الالمانية ch في كلمة ich .
غ' = γ' = (غين أمامية كالتي في الالمانية g في كلمة liegen /. 74

وقد يتبادر الى أذهاننا السؤال التالي : هل يمكن للأصوات الدعكية أن تدخل عليها صفة الخيشومية مثلما أمكن ذلك في الأصوات الشديدة كنحو نظير الباء المخيشمة أي الميم ونظير والدال المخيشمة أي النون ونظير الكاف المجهورة المخيشمة أي النون الخفية . وبعبارة أخرى هل نجد « فاء مجهورة » خيشومية وزايا خيشومية الخ ؟ من اليسير أن نفترض وجود هذه الأصوات فنحن نسمع في الكلمة الفرنسية

inventer فاء مجهورة خيشومية ؛ لكن الأصوات الدعكية الخيشومية بصورة عامة ليست من الأصوات التي يدركها شعورنا اللغوي .

ج ـــ **درجة الانفتاح رقم 2 = الصواتم الخيشومية** (انظر أعلاه ص 79)

د ـــ **درجة الانفتاح رقم 3 = الصواتم المائعة** . وفي هذا القسم نوعان من التقطيع :

1) التقطيع **الجانبي** وفيه ينطبق اللسان على الجزء الامامي من الحنك لكنه يبقى على انفتاح ذات اليمين وذات الشمال . وأشرنا في الجدول الى اللسان على هذه الهيئة بجيم صغيرة . وسنميز حسب موضع التقطيع بين اللام الاسنانية (ل) واللام الحنكية أو « الملينة » (ل ي) واللام الحلقية أو الغشائية (ڶ) . وهذه الصواتم مجهورة في جميع اللغات تقريبا مثلها في ذلك كمثل الباء والزاي الخ . إلا أن المهموس منها ليس أمرا مستحيلا . ويوجد حتى في الفرنسية حيث تنطق اللام خالية من الصوت المخنجر اذا وردت بعد صوت مهموس (مثل اللام المهموسة في كلمة pluie وتقابلها اللام المجهورة في كلمة bleu)لكننا لا نشعر بهذا الفارق بينهما .

ولا فائدة في الحديث عن اللام الخيشومية لندرتها وعدم تميزها ، وان كنا نجدها بعد الأصوات الخيشومية خاصة (مثل اللام في الكلمة الفرنسية branlant) .

2) التقطيع **المكرر** : وفيه يقترب اللسان من الحنك أقل من اقترابه منه عند النطق باللام لكنه يختلج فيقوم بتكريرات يختلف عددها من حالة الى أخرى (وقد أشرنا الى هذه العملية في الجدول براء صغيرة) . وتكتسب هذه الصفة الأصوات المكررة درجة من الانفتاح مساوية لدرجة انفتاح الأصوات الجانبية . ويمكن أن يحدث هذا التكرير حسب طريقتين : الأولى بطرف اللسان منطبقا على مغارز الاسنان (مثل الراء في العربية) والثانية الى الخلف بمؤخر اللسان (مثل الغين في العربية) . وينطبق على الأصوات المكررة ما قلناه بشأن انهماس الأصوات الجانبية أو تخشيمها /. 75

ل ا	ل ي م	ل ✗	و	غ (7)
ل ـِ 3 ث	ن ـِ 3 ح ك	ن ـِ 3 غ	ل ـِ 3 ث	ن 3 ه
~	~	~	~	~
[]	[]	[]	[]	[]

وبعد الدرجة الثالثة من الانفتاح ندخل ميدانا آخر ونمرّ من الحروف الى الحركات . ولم تسبق الاشارة الى هذا التمييز وذلك لأن عملية التصويت فيهما واحدة لا تتغير . والصيغة التي تمثل الحركات في جداولنا شبيهة كل الشبه بصيغة أي حرف مجهور . ولا وجود لأي فارق بين الحرف والحركة من حيث التقطيع العضوي وكل ما في الأمر هو اختلاف في الانطباع الاكوستيكي . فاذا تجاوزنا درجة معينة من الانفتاح أصبح للفم دور المرنان أساسا فيبرز جرس الصوت الحنجري على أكمل وجه ويتضاءل الدوي الفموي . فكلما ازداد الفم انغلاقا ازداد الصوت الحنجري ابهاما وخفاء . وكلما ازداد الفم انفتاحا ازداد الدوي تضاؤلا . ولذلك كان الصوت الحنجري طاغيا في الحركات بصورة آلية .

هـ ـــ درجة الانفتاح رقم 4 = الكسرة والضمة والكسرة المستديرة :

ان درجة انفتاح هذه الأصوات الحركية بالنسبة الى سائر الحركات الأخرى لا تزال على قدر عظيم من الأهمية يكاد يبلغ ما للحروف من انغلاق . وتنجرّ عن هذه الميزة نتائج معينة سنُبْدِيهَا في محلها ، وهي نتائج تبرر اطلاقنا عليها اسم أشباه الحركات .

وتنطق الكسرة بالشفتين منفرجتين (وسنشير الى الانفراج بمطّة) وبتقطيع امامي . أما الضمة فتنطق بالشفتين مستديرتين (وسنشير الى الاستدارة بالعلامة التالية ⬭) وبتقطيع خلفي . وأما الكسرة المستديرة ü فتكون باستدارة الشفتين كالضمة وبتقطيع أمامي كالكسرة .

وللكسرة والضمة والكسرة المستديرة (ü, u, i) كما لجميع الحركات الأخرى صور خيشومية لكنها نادرة ويمكن أن نهملها والملاحظ أن الأصوات التي ترسم في الفرنسية على النحو التالي in و un/توافق امرا آخر . (انظر أسفله) .

ولسائل أن يسأل : هل توجد كسرة مهموسة أي نُطقها خال من الصوت الحنجر ؟ يمكن أن نطرح نفس السؤال بالنسبه الى الضمة والكسرة المستديرة وجميع الحركات الأخرى ؛ ان هذه الظواهر التي من شأنها أن تقابل الحروف المهموسة موجودة لكن ينبغي أن لا يختلط علينا أمرها بأمر الحركات الخافتة أي تلك التي تقطّع بالمزمار مرتخيا . ويمكن أن تعتبر الحركات المهموسة مماثلة للهاءات المنفسة التي تنطق قبلها فاذا قلنا hi (هِـ) سمعنا أولا كسرة خالية من النزيز ثم كسرة عادية .

الكسرة i	الضمة u	الكسرة المستديرة ü
ـــ ن [4 ح	⬭ ن 4 غ	⬭ ن 4 ح
~	~	~
[]	[]	[]

و ـــ درجة الانفتاح رقم 5 = الحركات : e و o و ö

ويوافق تقطيع هذه الحركات على التوالي تقطيع الكسرة والضمة والكسرة المستديرة . [ومقابلاتها من] الحركات الخيشومية كثيرة الوجود (ẽ و õ و ö̃ من ذلك في الفرنسية pin و pont و brun) . والصور المهموسة من هذه الحركات هي الهاءات المنفسة التي نسمعها في he و hö و hö .

تنبيه :

تميّز كثير من اللغات في هذا المجال بين درجات من الانفتاح عديدة . فللغة الفرنسية مثلا سلسلتان على أقل تقدير تسمى أولاهما منغلقة وتضم ẹ و ọ و ö̤ (مثل الحركات التي في dé و dos و deux) وتسمى الثانية منفتحة وتضم ę و ǫ و ǫ̈ ، (مثل الحركات التي في mer و mort و meurt) .

e	o	ö	ẽ	õ	ṏ̃
ن 1 5 ح	ن 1 5 غ	ن 1 5 ح	ن 1 5 ح	ن 1 5 غ	ن 1 5 ح
〰	〰	〰	〰	〰	〰
[]	[]	[]	......	......	......

ز — درجة الانفتاح رقم 6 = الفتحة . وتوافق درجة انفتاح قصوى ولها مقابل خيشومي يكون في الحقيقة أضيق قليلا (ã) (مثل الحركة في الكلمة الفرنسية grand) ولها أيضا صورة مهموسة مثل الهاء في قولنا ha .

الفتحة a	الفتحة الخشيومية ã
ن 1 6 ك	ن 1 6 ك
[]	......

77

الباب الثـاني

الصوتم في السلسلة المنطوقة

الفصل الأول : ضرورة دراسة الأصوات في السلسلة المنطوقة

يجد الباحث في الكتب المختصة وخاصة منها كتب علماء الأصوات الانقليز تحاليل لأصوات الكلام في منتهى الدقة .

لكن هل تكفي تلك التحاليل حتى تستجيب الفنولوجيا لما قدّر لها أن تكونه أي علما مساعدا للالسنية ؟ ان هذه الكثرة من الجزئيات المتراكمة فيها لا قيمة لها في حدّ ذاتها . والمهم إنّما هو التأليف بينها دون سواه . فليس على الألسني أن يكون عالما متبحرا في الفنولوجيا بل حسبه أن يتوفر له قدر معين من المعطيات اللازمة لدراسة اللغة .

وفي المنهج المتبع في هذا النوع من الدراسات الفنولوية عيب واضح يبرزُ في نقطة معينة منه . فكثيرا ما غاب عن الدارسين أن اللغة لا تقوم على مجرد الأصوات [منعزلة] بل على امتدادات ما من الأصوات الملفوظة ؛ ولم يولوا ما بين تلك الأصوات من علاقات متبادلة قدرا كافيا من الاهتام : والحال أن الصوت المنعزل ليس أول ما نقف عليه [عند التحليل] بل إننا نتبين المقطع بصورة مباشرة قبل أن نتبين الأصوات التي تكوّنه . وقد سبق أن رأينا أن بعض الكتابات البدائية رسمت الوحدات المقطعية ولم تتوصل الى النظام الالفبائي إلّا في عصر لاحق .

وعلاوة على ذلك فليست الوحدات الصوتية البسيطة هي التي تثير الشك والحيرة في ميدان الألسنية . فاذا افترضنا مثلا أن صوت الفتحة في لغة ما وفي زمن معين انقلب ضمة نصف منغلقة (o) فلن ينجر عن ذلك التغير أيّ شيء ؛ ويمكن أن نقتصر على ملاحظة وجود الظاهرة دون أن نبحث لها عن تفسير 78
فنولوجي . ولن يكون علم الأصوات مفيدا إلّا اذا قامت بين عنصرين [صوتيين] فأكثر علاقة تبعية داخلية ؛ لأن تغيرات احدهما تكون مقيّدة وتحدها تغيّرات العنصر الآخر ؛ إذ أن مجرد وجود عنصرين معا ينتج عنه قيام علاقة ما وقاعدة ما ، وهذا أمر يختلف كثيرا عن مجرد ملاحظة وجود الظاهرة . فالعالم بتفضيله معالجة الأصوات منعزلة — أثناء بحثه عن المبدإ الفنولوجي العام — ينحو إذن بالعلم منحى معاكسا للمنحى الصحيح . ويكفي أن يتعلق الأمر بصوتين اثنين حتى تختلط علينا الامور. ففي الالمانية العليا القديمة مثلا تغيرت الكلمات التالية hagl و balg و wagn و lang و donr و dorn وأصبحت في زمن لاحق : hagal و balg و wagan و lang و donnar و dorn فكانت النتيجة مختلفة بحسب نوع التتابع في كل مجموعة من هذه المجموعات الصوتية وبحسب ترتيب عناصر تلك المجموعة . فقد برزت حركة بين حرفين تارة وبقيت المجموعة الحرفية على حالها تارة أخرى . ولكن كيف نصوغ قانون هذا التغيّر ؟ وترى ما هو مصدر اختلافه ؟ لا شكّ أن مصدره هو المجموعات الحرفية (gl و lg و gn الخ) التي تضمها هذه الكلمات . ومن الواضح الجلي أنها تتركب من حرف شديد تارة مسبوق وأخرى متبوع بحرف مائع أو خيشومي . ولكن ما الذي ينجر عن ذلك ؟ لن نفهم لماذا أحدث اتصال الصوت g بالصوت n نتائج مخالفة لما أحدثه اتصال الصوت n بالصوت g طالما رأينا في g أو في n كمية [صوتية] منسجمة [لا تتغير من سياق الى آخر] .

فالى جانب فنولوجيا الأجناس الصوتية [المنعزلة] ينبغي اذن أن نفسح المجال لقيام علم منطلقه المجموعات الصوتية الثنائية وتتالي الصوائم . وهو أمر يختلف كل الاختلاف عن سابقه لأن دراسة الأصوات منعزلة يمكن أن تقتصر على مجرد ملاحظة هيئة أعضاء النطق . وأما نوعيتها الاكوستيكية فلا غبار عليها لأنها تحدّد بالأذن ؛ وأما عملية تقطيع النطق فللمرء أن يؤديها كما يشاء . ولكن ما ان يتعلق الأمر بنطق صوتين مجتمعين حتى تصبح المسألة أقل بساطة ، اذ ينبغي أن نراعي

ما قد يحدث من اختلاف بين الاثر المنشود والأثر الذي يحدث بالفعل ، لأننا لا نستطيع في جميع الأحوال أن ننطق بما نريد . فحرية الجمع بين مختلف أجناس الصوائم مقيدة بامكانية الربط بين مختلف حركات تقطيع النطق . ولبيان ما يحدث 79
داخل المجموعات الصوتيّة علينا أن نضع فنولوجيا نختبر فيها هذه المجموعات بمثابة المعادلات الجبرية ؛ فالمجموعة الثنائية تقتضي عددا معينا من العناصر الآلية والأكوستيكية يكيّف بعضها بعضا فاذا أصاب احد هذه العناصر تغيّر كان له على العناصر الأخرى انعكاس حتميّ يمكن تقديره وضبطه .

واذا كان في ظاهرة التصويت أمر ذو طابع عالمي من شأنه أن يتجاوز جميع الاختلافات المحلية للصوائم في مختلف اللغات فغالب الظن أنه يكمن في هذه الآليّة المضبوطة التي أشرنا إليها آنفا . ومن هنا ندرك ما ينبغي أن تكون عليه فنولوجيا المجموعات الصوتية من أهمية في الألسنية العامة . فقد كانت الدراسات بصفة عامة تقتصر على مدّنا بقواعد تقطيع النطق بجميع الأصوات من حيث هي عناصر متغيرة عرضية في اللغات . أما الفنولوجيا التعاملية فانها تضبط حدود مختلف امكانيات [الجمع بين الصوائم] وتثبّت ما بين الصوائم المقيدة بعضها ببعض من علاقات قارة . فـ [التغيرات الصوتية في] hagl و balg الخ (انظر ص 86) تثير مشكلة الأصوات الصائتة الهندية الأوروبية وما أكثر ما خاضوا فيها ! بيد أن هذا الميدان هو من أكثر الميادين افتقارا الى فنولوجيا تعاملية من هذا القبيل وذلك أن المَقْطَعَةَ تكاد تكون الامر الوحيد الذي تتصرف هذه الفنولوجيا في استعماله من البداية الى النهاية . وليست الأصوات الصائتة المشكل الوحيد الذي ينبغي أن نحله بواسطة هذا المنهج ؛ لكننا واثقون من أمر وهو أن الخوض في مسألة الأصوات الصائتة يصبح أمرا يكاد يكون مستحيلا إن هو لم يقم على تقدير دقيق للقوانين العاملة في كيفية ائتلاف الصوائم .

الفصل الثاني : الانحباس والانفجار

سننطلق في هذا الشأن من ملاحظة أساسية ، وهي أننا عندما ننطق بمجموعة الأصوات التالية habba (هَبَبَ) ندرك فرقا بين ما يحدثه كلا الباعين [من انطباع سمعي] . اذ توافق أولاهما انغلاق [جهاز التصويت] بينما توافق الثانية انفتاحه .

80 ولهذين الانطباعين من التماثل/ما كان كافيا لجعل بعضهم يرسم تتابع الباءين بباء واحدة (انظر هامش ص 66) [وكذلك الشأن في الخط العربي في مثل مدّ وشدّ] على أن الانطلاق من هذا الفارق ـــ وسنشير اليه بالعلامتين الخاصتين التاليتين (< >) (8) هو الذي يمكننا من التمييز بين الباءين في هبّ habba ومن تخصيصها عندما تردان غير متتاليتين في السلسلة المنطوقة (في مثل أبتُ ubtu واتبع itbaʿ).ويمكن أن نقوم بنفس التمييز في غير الأصوات الشديدة . فهو ينطبق على الأصوات الدعكية (أفف affa) والخيشومية (أمـم amma) والمائعة (مَلل malla وعلى جميع الصواتم بصورة عامة بما في ذلك الحركات aooa)

ولقد سموا الانغلاق **انحباسا** implosion والانفتاح **انفجارا** explosion واعتبروا الباء مثلا انحباسية (بَ<) أو انفجارية (بَ>) . ويمكن أن نطلق عليها بنفس المعنى تسمية الأصوات **الغالقة** fermants والأصوات **الفاتحة** ouvrants .

ولا شك أننا نميز في مجموعة من الأصوات مثل (هَبّبَ)-فضلا عن الانحباس والانفجار-طور سكون يمتدّ فيه الانغلاق بحسب ارادة المتكلم ؛ أما اذا تعلق الأمر بصوتم درجةُ الانفتاح فيه أكبر كما هو الشأن في (ألّا) فان اصدار ذلك الصوت بعينه هو الذي يتواصل بينما تكون أعضاء التصويت في حالة سكون . وبصورة عامة تضم كل سلسلة منطوقة عددا من هذه الاطوار الانتقالية وسنسميها **أطوار المسك** أو **تقطيعا تعطيليّا** (9) لكنه يمكننا أن نعتبرها مماثلة لطرق النطق الانحباسية لأن وقعهما متشابه ؛ ولن نعتبر في تتالي عمليات النطق الا الانحباسات والانفجارات (10) .

وقد لا تُقبل هذه الطريقة في دراسة فنولوجيّة شاملة إلا أن لها ما يبررها في عرض يقدم ظاهرة المقطعية باعتبار عاملها الأساسي ، في أبسط صورة ممكنة .
81 ونحن لا ندعي/أننا قد أوجدنا بهذه الطريقة حلولا لجميع ما تثيره مسألة تقسيم السلسلة المنطوقة الى مقاطع من صعوبات انما حسبنا أن نرسي أساسا منطقيا لدراسة هذه المسألة .

واليك ملاحظة أخرى : ينبغي أن لا نخلط بين ما يتطلبه اصدار الاصوات من حركات فاتحة وأخرى غالقة وبين مختلف درجات الانفتاح والانغلاق لتلك

الأصوات نفسها . ويمكن أن يكون كل صوتم انحباسيّا أو انفجاريا ؛ لكن درجة الانفتاح والحق يقال تؤثر في الانحباس والانفجار وذلك أن التمييز بين هاتين العمليتين يزداد عسرا بقدر ما تزداد درجة الانفتاح أهمية . فنحن ندرك الفرق بين الانحباس والانفجار بوضوح مع الكسرة والضمة والكسرة المستديرة. وبامكاننا أن نقف في قولنا (a i i a) على كسرة غالقة وأخرى فاتحة وكذلك الأمر بالنسبة الى (a u u a) و (a ü ü a) حيث نميز بكل وضوح الصوت الانحباسي من الصوت الانفجاري الذي يليه مما جعلنا أحيانا نخالف العادة ونرسم هذه الفوارق في الخط [بعلامات خاصة] (11) . فعلامات من قبيل (w) في الانقليزية و (j) في الالمانية وكذلك (y) في الفرنسية في كثير من الأحيان (كما هو الشأن في كلمة yeux وما اليها) تمثل أصواتا فاتحة (u و i) مقابلة بذلك العلامتين u و i المستعملتين للضمة والكسرة الغالقتين (u و i) . لكن الانتقال الى درجة انفتاح أكبر يجعل التمييز بين الانحباس والانفجار أمرا عسيرا في التطبيق وإن كان تصوره ممكنا نظريا (انظر a e e a و a o o a) . وفي النهاية وكما سبق أن رأينا أعلاه فانه لا يظهر في الفتحة (a) ـــ وهي تناسب أكبر درجات الانفتاح ـــ لا انحباس ولا انفجار لأنّ [أهمية درجة] الانفتاح في هذا الصوتم تزيل كل فارق من هذا القبيل .

وعلينا إذن أن نجعل من جدول الصواتم باستثناء الفتحة ، جدولين وأن نضع قائمة الوحدات غير القابلة لمزيد من التجزئة على النحو التالي :

بَ< بَ> ـ الخ
فَ< فَ> الخ
مَ< مَ> الخ
غَ< غَ> الخ
اِ< يِ> الخ
82 ـَ (أي الفتحة)/

ونحن لن نلغي ما كرسه الاستعمال في الخط من علامات تميز الأصوات الغالقة من الأصوات الفاتحة (w و y) بل سنحتفظ بها بكل عناية ؛ وسنبرر موقفنا هذا أسفله (انظر الفصل السابع من هذا الباب) .

وللمرة الأولى نخرج هنا من التجريد ؛ وللمرة الأولى كذلك تظهر العناصر الملموسة التي تمثل كلّا لا يتجزأ محتلة مكانا ما وممثلة لوحدة زمنية ما في السلسلة المنطوقة ؛ ولنا أن نقول إن جنس الباء (B) مثلا ليس سوى وحدة مجردة تجمع الخصائص المشتركة بين الباء الغالقة بّ والباء الفاتحة بَ اللتين لهما وحدهما وجود حقيقي في الواقع . وهذه العملية هي بالضبط نفس العملية التي تخول لنا ــ في مستوى أعلى من التجريد ــ الجمع بين جنس الباء والباء المهموسة والميم (B P M) في مجموعة الأصوات الشفوية . فحديثنا عن جنس الباء (B) شبيه بحديثنا عن نوع من أنواع الحيوان نجد فيه صنف الذكور وصنف الاناث لكننا لا نجد فيه صنفا أمثل يمثل النوع بأكمله . وقد اهتممنا الى حدّ الآن بضبط هذه الأجناس المجردة وتبويبها ، إلّا أنه كان من اللازم أن نتجاوز ما هو مجرد وأن نقف على الجانب الملموس منها ونهتم به .

وقد أتى علماء الفنولوجيا خطأ فادحا لما اعتبروا هذه الأمور المجردة وحدات موجودة في الواقع بدون أن يمعنوا النظر في تعريف الوحدة الفنولوجية . فلئن توصلت الالفبائية اليونانية الى تمييز تلك العناصر المجردة بعضها من بعض وهو عمل يتطلب ، كما أسلفنا ، قدرة على التحليل هي ما هي [نفاذا ودقة] ؛ فان تحليلهم كان مع ذلك تحليلا مبتورا توقف في مرحلة معينة لم يتجاوزها .

فما عسى أن تكون الباء خالية من كل تخصيص آخر ؟ ان انت اعتبرتها جارية في الزمان من حيث هي جزء من أجزاء السلسلة المنطوقة استحال أن تكون باء فاتحة (بَ) بالذات أو باء غالقة (بّ) ؛ ومن باب أولى وأحرى أن لا تكون باء غالقة تليها باء فاتحة (بّ بَ) . وذلك لأن هذه المجموعة الأخيرة مجموعة يمكن تفكيكها بيسر ؛ أما اذا اعتبرتها بقطع النظر عن السلسلة المنطوقة وخارج الزمان فانها تضحي أمرا ليس له وجود خاص ولا ندري ما نفعل به . فترى ماذا يكون لمجموعة من قبيل (ل + ك) في حدّ ذاتها من المعنى ؟ والحال أن كل مجردين لا يمكن أن يكوّنا فترة معينة في الزمان . فالأولى بنا اذن أن نتحدث عن مجموعات مثل لّكَ ولّكّ ولَكَ و لَكّ فنجمع هكذا بين العناصر الحقيقية الموجودة في اللفظ . ومن هنا نتبين كيف يشتبه الأمر على الدارس في الفنولوجيا التقليدية وكيف تمتلكه الحيرة بمجرد أن يجابه أكثر من عنصر واحد ؛ وفي هذا دليل على استحالة/ 83

الانطلاق من وحدات فنولوجية مجردة كالتي ينطلقون منها في الفنولوجيا التقليدية .

وقد قال بعضهم بأن كل صوتم بسيط اذا اعتبرناه في السلسلة [المنطوقة] مثل الباء في قولنا بـ (ba) أو في ـَـ بـ ـَـ (aba) يتضمن تباعا انحباسا فانفجارا (ـّـ بَـ ـَـ) . ومن المؤكد أن كل عملية انفتاح ينبغي أن تكون مسبوقة بعملية انغلاق ؛ ولنأخذ مثالا آخر : فاذا قلنا غْ پْ (r p) وجب علينا أن نتبع ما تتطلبه الغين من انغلاق بنطق غين فاتحة بواسطة اللهاة في نفس الحين الذي يحدث فيه انغلاق في مستوى الشفتين للنطق بالباء . وللرّد على القائلين بهذا القول يكفي أن نحدّد وجهة نظرنا بالتدقيق : فلن نأخذ بعين الاعتبار في عملية التصويت التي سنقوم بتحليلها إلّا العناصر الفارقة البارزة للسمع والقادرة على المساهمة في تعيين حدود الوحدات الاكوستيكية داخل السلسلة المنطوقة . فلن نهتم مثلا إلّا بتلك الوحدات الاكوستيكية ــ التحركية ؛ أما نطق الغين الانفجاري الذي يصاحب نطق الباء الانفجاري فهو أمر لا وجود له عندنا لأنه لا يحدث صوتا تدركه الاذن ، أو قل إنه لا يحسب له حساب في سلسلة الصواتم . ويمثل ما تقدم فكرة أساسية ينبغي أن نتشبع بها كل التشبع لنتمكن من فهم ما سنبسط فيه القول أسفله .

الفصل الثالث : مختلف التوليفات بين الانفجارات والانحباسات في السلسلة [المنطوقة]

ولنستعرض الآن ما قد ينجم عن تعاقب الانفجارات والانحباسات ضمن التوليفات الأربع الممكنة نظريا وهي : 1 ــ <> أي انفجار فانحباس ، 2 ــ >< أي انحباس فانفجار ، 3 ــ << أي انفجاران متتاليان ، 4 ــ >> أي انحباسان متتاليان .

1 ــ المجموعة الانفجارية ــ الانحباسية (< >)

يمكننا أن نربط بين صوتمين أولهما انفجاري وثانيهما انحباسي ؛ و ذلك في جميع الحالات وبدون أن يحدث انقطاع في السلسلة المنطوقة مثل قولنا kr(كر) وki(كِـ) وym (يم) الخ . انظر krta(كرتَ) في السنسكريتية وkite (كِـ تِـ) وترسم quitter في الفرنسية و ymto (يـمتُ) (12) في الهندية الأوروبية [بضمة نصف منغلقة

84 بعد التاء] . ولا شك أن بعض التوليفات من قبيل كْ تْ الخ/ليس لها أثر أكوستيكي يمكن للمرء أن ينجزه بالفعل انجازا عمليّا ومع ذلك فحقيقة الأمر أن الأعضاء بعد نطق كاف فاتحة تكون في هيئة ملائمة لأحداث انقباض في أي موضع من مواضع النطق الأخرى . فبوسع هاتين المرحلتين التصويتيتين أن تتعاقبا بدون أن تعرقل إحداهما الأخرى .

2 ــ المجموعة الانحباسية ــ الانفجارية (> <)

اذا أخذنا بعين الاعتبار نفس الملابسات ونفس الاحترازات الحافة بالمجموعة السابقة فاننا لا نجد أي مانع للجمع بين صوتين أولهما انحباسي وثانيهما انفجاري مثل ـِـمْ im و كْ تْ kt الخ (انظر haîma هـ ـَ ـِـمْ ــ في اليونانية و actif ــ كْ تْ ـِ ف في الفرنسية واكْتفى في العربية) .

ولا شك أن مراحل التقطيع المتوالية هذه لا تتتابع بصورة طبيعية مثلما هو الشأن بالنسبة الى الحالة السابقة . فبين الانحباس اذا وقع أولا والانفجار اذا وقع أولا فرق يتمثل في أن الانفجار ينزع الى جعل الفم في وضع محايد ، ولا يتطلب الدخول في الطور الموالي ، أما الانحباس فيجعل الأعضاء في وضع معين لا يمكن أن يكون نقطة انطلاق لأي انفجار مهما كان . ولذلك فمن اللازم أن يتوفر دوما ضرب من التعديل غايته جعل الأعضاء في الوضع الملائم لتقطيع النطق بالصوتم الثاني . وبهذه الصورة ينبغي علينا أثناء إحداث صوت السين في مجموعة سـْ ب مثلا أن نضم الشفتين استعدادا لأصدار الباء الفاتحة . لكن التجربة تبين أن عملية التعديل هذه لا تحدث أمرا ذا بال سوى أصوات من تلك الأصوات المختلسة التي لا ينبغي أن نعيرها أي اعتبار والتي لا تعرقل في شيء تتابع عناصر السلسلة .

3 ــ الحلقة الانفجارية (> >)

يمكن أن نحدث انفجارين متتالين . لكن اذا كانّ الانفجار الثاني متعلقا بصوتم أقل انفتاحا من الأول أو ذي انفتاح مساو له فلن نشعر بذلك الانطباع الاكوستيكي الموحّد الذي نشعر به في الحالة المعاكسة [أي عندما يكون الصوتم الأول أكثر انفتاحا من الثاني] والذي وجدناه في المجموعتين المذكورتين أعلاه (< > و > <) . فيمكن أن ننطق الصوتين pk (پْ كْ) متبوعين بفتحة (پْ كْ ـَ) لكنهما على هذه الصورة لا يكوّنان سلسلة لأن جنس الباء P وجنس الكاف K لهما درجة انفتاح واحدة . وهذا النطق الذي فيه بعض التكلّف

85 هو ما يحصل ان نحن وقفنا بعد الفتحة الأولى التي في كلمة/ cha-pka (شَ ـ پـ كَ) (13) . أما تعاقب الباء والراء الفاتحتين (پْ رْ) فانه بخلاف ذلك يحدث في أسماعنا شعورا بالتواصل (انظر قولهم في الفرنسية prix (بْرِي) ؛ وليس تعاقب الراء والباء الفاتحتين رْ بِي بأعسر في الانجاز (انظر نطقهم بكلمة rier أو نطقنا في دارجة تونس بكلمة ربّال براء ساكنة) فما السبب يا ترى ؟ ذلك انه في الوقت الذي يحدث فيه الانفجار الأول تكون الأعضاء قد استطاعت أن تتخذ الوضع الملائم لأداء الانفجار الثاني ، بدون أن يكون ذلك قد أخل بالاثر الاكوستيكي للانفجار الأول . ففي كلمة prix مثلا نجد الأعضاء أثناء نطقنا بالباء قد اتخذت موضع النطق بالراء . فاذا عكسنا الترتيب وتقدمت الراء على الباء (رْ بْ) استحال علينا النطق بهما نطقا متواصلا . ولا يعود هذا الى استحالة ميكانيكية تجعل الأعضاء عاجزة عن اتخاذ الهيئة الملائمة لأداء الباء في نفس الوقت الذي يقع فيه تقطيع النطق بالراء الفاتحة ؛ انما يعود الى تعذر ادراكنا للأثر الحاصل عن تقطيع الراء وذلك لالتقاء هذه الراء بالباء وهو صوتم أقل انفتاحا منها . فاذا رمنا النطق بـ رْ بْ نطقا يدركه السامع وجب أن نقوم بذلك على فترتين وقطعنا بذلك اصدار الصوتين قطعا .

ويمكن للحلقة الانفجارية المتواصلة أن تضم أكثر من عنصرين شريطة أن يتقدم العنصر الأقل انفتاحا على العنصر الأكثر انفتاحا دائما (مثل krwa (كروا). وبقطع النظر عن بعض الحالات الخاصة التي لا تستدعي منا كثيرا من الالحاح (14) يمكن أن نقول إن عدد الانفجارات الممكنة محدود بصورة طبيعية بعدد درجات الانفتاح التي يمكن أن نميز بينها بالفعل ./

86 **4 ــ الحلقة الانحباسية (< <) :**

تخضع هذه الحلقة للقانون المعاكس . فما دام الصوتم المتقدم أكثر انفتاحا من الذي يليه شعرنا بتواصل في الانطباع (كما في ـِ رْ = ir و رْتْ = rt) وإن لم يتوفر هذا الشرط وكان الصوتم اللاحق أكثر انفتاحا من الصوتم المتقدم أو ذا درجة انفتاح مساوية لدرجة انفتاحه ظل النطق بهما ممكنا لكن شعورنا بالتواصل يزول . وبهذه الصورة يكون للسين والراء الغالقتين سْ رْ في ــ سْـ رْ ت ـَ asrta نفس الطابع الذي للمجموعة پـ كْ في قولنا cha-pka ش ـَ ــ بـ كَ=(انظر أعلاه ص 92 وما بعدها) . وهذه الظاهرة موازية تماما للظاهرة التي حللناها في الحلقة

الانفجارية . فالتاء الغالقة تّ في رّتّ تعفي الراء الغالقة رّ من الانفجار لكون التاء أقل انفتاحا من الراء ؛ واذا أخذنا حلقة أخرى فيها صوتمان ليسا من نفس المخرج مثل رّمّ فان الميم الغالقة مّ لا تعفي الراء الغالقة رّ من الانفجار ، لكنها تحجب هذا الانفجار بواسطة تقطيعها الأكثر انغلاقا وتطمسه طمسا تاما، ومنع الانفجار أو حجبه أمر واحد . أما في الحالة المعاكسة أي في صورة تقدم الصوت الأقل انفتاحا مثل مْر فان الانفجار المختلس الضروري من الناحية الميكانيكية يحدث انقطاعا في السلسلة الملفوظة . ونلاحظ أن الحلقة الانحباسية يمكن أن تضم،مثل الحلقة الانفجارية،أكثر من عنصرين وذلك اذا كانت درجة انفتاح كل عنصر أكبر من درجة انفتاح العنصر الذي يليه (انظر ــَ ر س ت arst) .

ولنترك الآن جانبا ما يحدث في الحلقات من انقطاعات ولنتناول السلسلة المتواصلة الطبيعية التي يمكن أن نطلق عليها اسم سلسلة « فيزيولوجية » كما تمثلها الكلمة الفرنسية particulièrement أي partikülyermã وخاصيتها أنها تشتمل على سلسلة من الحلقات الانفجارية والانحباسية المتدرجة الموافقة لسلسلة من الانفتاحات والانغلاقات في أعضاء التصويت الفموية .

ان السلسلة العادية كما حددناها أعلاه تفضي بنا الى سوق الملاحظات البالغة الأهمية التالية :

الفصل الرابع :ضبط حدود المقطع وموقع النواة الحركية

اذا انتقلنا في سلسلة من الأصوات من انحباس الى انفجار (>|<) حصل في أسماعنا اثر خاص هو علامة **حد المقطع** frontière de syllabe كما في
87 ik(يـلْـكْ) من كلمة particulièrement/ . وان هذا التواجد المطرد بين عملية ميكانيكية واثر أكوستيكي معين يضمن للمجموعة الانحباسية الانفجارية كيانا قائما بذاته ضمن النظام الفنولوجيّ . وهي خاصية تلازم هذه المجموعة مهما كانت أجناس الأصوات التي منها تتكون . وتمثل جنسا جامعا يحوي من تلك الأجناس بقدر عدد التوليفات الممكنة بينها .

وفي حالات معنية يمكن أن نجعل الحد المقطعي في نقطتين مختلفتين من

سلسلة واحدة من الصوائم وذلك بحسب السرعة التي نمر بها من الانحباس الى الانفجار ففي المجموعة التالية ardra (ــَ ردر ــَ) لا يحدث انقطاع في السلسلة سواء قطّعنا ــَ ر د رَ ــَ أو ــَ ر د ر ــَ وذلك أننا نجد في الحلقة الانحباسية ــَ ر دْ نفس التدرج (من حيث درجة الانفتاح) الذي نجده في الحلقة الانفجارية دْ رْ . وكذلك الأمر بالنسبة الى المجموعة ــُ ل ي ــَ ülyə في كلمة particulièrement أي (ــُ ل يـ ــَ أو ــُ ل يْ ــَ) إذ يجوز أن نجعل حد المقطع قبل اللام أو بعدها .

ونلاحظ في مرحلة ثانية أن الموضع الذي تمرّ فيه من حالة صمت الى انحباس أول (>) مثل ārt في كلمة artiste أو من انفجار الى انحباس (< >) مثل ما في قولهم pārt (پـَـ ر ت) من كلمة particulièrement يكون فيه الصوت الذي يحدث عنده الانحباس الأول متميزا عن بقية الأصوات المجاورة له بأثر خاص هو الأثر الحركي . ولا يتعلق هذا الأثر بالمرة بكون الفتحة صوتما ذا انفتاح أكبر . ألا ترى أن صوت الراء في قولنا پْ رْ تْ prt يُحدث ذلك الأثر بنفس الدرجة من الوضوح واليسر . وهذا الأثر عالق بالانحباس الأول مهما كان جنسه الفنولوجي ، أي بقطع النظر عن درجة انفتاحه ؛ ولا ضير كذلك في أن يحدث هذا الانحباس بعد فترة صمت أو بعد انفجار . ويمكن أن نطلق على الصوت الذي يُحدث فينا هذا الانطباع من حيث هو أول صوت انحباسي اسم **النواة الحركية** point vocalique .

كما أنهم أطلقوا على هذه الوحدة الصوتية أيضا اسم sonante أي صائت في حين أنهم سموا جميع الأصوات السابقة له أو اللاحقة به من نفس المقطع consonantes أي **أصواتا صامتة** (15).وكما سبق أن رأينا (ص 82) تعني كلمتا : حركات وحروف جنسين مختلفين من الأصوات . أما كلمتا : صائت وصامت فانهما تعنيان على العكس ، وظائف [تؤديها الأصوات] في المقطع . ويمكّننا هذا الازدواج في المصطلح من تجنب خلط طالما كان سائدا [في هذه
88 المسألة] . وبناء على هذا فان الجنس I (أي الكسرة) هو نفسه لا يتغير/في كلمة fidèle وفي كلمة pied . فهو حركة لكنها صائتة في الحالة الأولى وصامتة في الحالة الثانية . وقد بين التحليل أن الأصوات الصائتة تكون انحباسية دائما .

وأما الصامتة فهي انحباسية تارة كما في قولهم في الانقليزية boi وترسم boy أي «طفل» وكما في قولنا في العربية ب ـَـ ـِـ غٌ وترسم « بَيْغٌ » ، وانفجارية تارة أخرى (مثل y في الكلمة الفرنسية pye وترسم pied والياء من كلمة رْيَالْ في الدارجة التونسية)وليس في هذا إلّا تدعيم لذلك التمييز الذي أقمناه بين النّوعين . ولئن صحّ في الواقع أن الفتحة الممالة (e) والضمة نصف المنغلقة (o) والفتحة (a) تكون أصواتا صائتة بصورة منتظمة فان ذلك يرجع الى محض الصدفة : اذ مرد ذلك أن درجة انفتاحها التي تفوق درجات انفتاح جميع الأصوات الأخرى جعلتها دائما تقع في بداية حلقة انحباسية . وبخلاف ذلك فان الأصوات الشديدة التي تختص بأدنى درجات الانفتاح تكون دائما صامتة . وفي واقع الامر نتبين أن الصواتم ذات الدرجة الثانية والثالثة والرابعة من الانفتاح [أي الأصوات الخيشومية والمائعة وأشباه الحركات] هي التي تكون صائتة تارة وصامتة تارة أخرى وذلك بحسب الجوار الصوتي وبحسب طبيعة تقطيعها في النطق .

الفصل الخامس : نقد النظريات المتعلقة بالمقطعة

تدرك الاذن في كل سلسلة منطوقة انقسام تلك السلسلة الى مقاطع كما تدرك في كل مقطع منها صوتا صائتا . وهاتان الظاهرتان معروفتان . لكن قد يتساءل المرء عن الغاية من وجودها . لقد اقترحت للجواب عن هذا التساؤل تفاسير شتّى :

1 ـــ اعتمادا على أن بعض الصواتم أشد جهرا من غيرها ، حاول بعضهم أن يجعل المقطع قائما على درجة جهر الصواتم . ولكن ان كان ذلك كذلك فلماذا لا تكوّن صواتم مجهورة مثل الكسرة والضمة مقاطع بالضرورة ؟ ثم أين تقف درجة هذا الجهر [اللازم لقيام المقطع] اذا علمنا أن أصواتا دعكية [مهموسة] مثل صوت السين يمكن أن تكوّن مقطعا كالذي في قولنا (ب س ت pst) ؟ واذا كان وجود المقطع قائما على مجرد الجهر النسبي للأصوات المتجاورة فكيف نفسر مجموعات من قبيل و ل : wl (كما في الكلمة الهندية ـــ الاوروبية wlkos * أي « ذئب ») حيث نلاحظ أن العنصر الأقل جهرا هو الذي يكوّن المقطع .

2 ـــ وكان م . سيفارس M. Sievers أول من قال بان صوتا مرتّبا ضمن الحركات قد لا يحدث الإنطباع الذي تحدثه الحركات (وقد رأينا مثلا أن الياء y والواو w ليستا سوى/الكسرة والضمة) ولكننا اذا تساءلنا عن سبب ظهور هذه 89 الوظيفة المزدوجة أو هذا الأثر الأكوستيكي المزدوج (وكلمة « وظيفة » انما تعني ذلك دون سواه) يجيب بعضهم بأن الصوت تكون له هذه الوظيفة أو تلك بحسب كونه يحمل النبرة المقطعية أو لا .

والملاحظ أن هذا التعليل يدور في حلقة مفرغة . [وهو لا يخلو من أمرين] : فإمّا أن يكون لنا الخيار في جميع الحالات في أن نوزع النبرة المقطعية التي تنشئ الأصوات الصائتة كما نشاء ؛ ولا داعي في هذه الحالة لتسميتها بالنبرة المقطعية عوضا عن تسميتها بالصائتية (sonantique) ؛ وإمّا أن نقول انّ للنبرة المقطعية معنى حقيقيا وفي هذه الحالة لا بدّ لها أن تخضع لقوانين المقطع . إلّا أنهم لم يسكتوا عن الاتيان بهذه القوانين فحسب بل أطلقوا على صفة الصائتية هذه اسم «silbenbildend» أي «مكونة المقطع» كما لو كان احداث المقطع خاضعا بدوره لهذه النبرة .

وهكذا ندرك ما تختلف فيه طريقتنا عن الطريقتين السالفتي الذكر : فقد تمكنا بواسطة تحليل المقطع كما نجده في السلسلة المنطوقة من الحصول على الوحدة التي لا تقبل مزيدا من التجزئة وهي الصوت الفاتح والصوت الغالق . ثم اننا بتوليفنا بين هاتين الوحدتين توليفات مختلفة توصلنا الى ضبط حدود المقطع و [بيان موقع] النواة الحركية : وعرفنا عندها الملابسات الفيزيولوجية التي يجب أن ترافق حدوث تلك الآثار الأكوستيكية . أما النظريتان اللّتان نقدناهما أعلاه فقد اتبعتا الاتجاه المعاكس اذ انطلق أصحابهما من أجناس فنولوجية منعزلة وادعوا أنهم قد استنبطوا من تلك الأصوات حدود المقطع وموقع الصوت الصائت . بيد أنه اذا اعتبرنا سلسلة ما من الصواتم لاحظنا أنه قد توجد طريقة في تقطيع النطق بها تكون أيسر وأشدّ ملائمة للطبيعية [البشرية] ؛ لكن قدرتنا على الاختيار بين التقطيعات الفاتحة والتقطيعات الغالقة تبقى ممكنة الى حدّ بعيد ، وستكون المقطعة متعلقة بهذا الاختيار لا بالأجناس الفنولوجية مباشرة .

ولا شك أن هذه النظرية لا تستفرغ كل المسائل ولا تقدم الحل الملائم

لجميعها . فالتقاء الحركتين (hiatus) مثلا وهو أمر شائع الاستعمال جدا ، ليس سوى **حلقة انحباسية مقطوعة** سواء تعمّد المرء ذلك أو لم يتعمّده . وذلك
90 مثل ـدِ ـيَـ (ia) في قولهم il cria . أو مثل ـجِـ ـيِـ ai (في قولهم ébahi)/وهي ظاهرة حدوثها أيسر في الأجناس الفنولوجية ذات الانفتاح الكبير .

وهنالك أيضا مسألة **الحلقات الانفجارية المقطوعة** التي تدخل ضمن السلسلة الصوتية دخول المجموعة العادية وذلك رغم انعدام صفة التدرج منها . وقد أشرنا الى هذه الحالة عندما تعرضنا الى الكلمة اليونانية kteino بهامش (ص 93) . واليك مثالا آخر : خذ لك مجموعة الأصوات التالية pzta ب ز ت= فلا يمكن النطق بها نطقا عاديا إلّا على الصورة التالية pzta ب ز تـ ـَـ (16) فيكون فيها اذن مقطعان ، وهو ما نجده بالفعل ان نحن عمدنا الى نطق الصوت المحنجر المجهور الذي في الزاي نطقا واضحا . أما اذا انهمست الزاي-وبما أنها من الأصوات التي تتطلب أدنى درجات الانفتاح-فان التقابل بين الزاي والفتحة سيجعلنا لا نميز إلّا مقطعا واحدا ، فنسمع المجموعة على الصورة التالية تقريبا pzta ب ز ت ـَـ .

وفي جميع الحالات التي من هذا القبيل يستطيع المتكلم — متى أراد ذلك وقصد إليه — أن يراوغ ويحتال لتجنب متطلّبات الضرورات الفيزيولوجية . وغالبا ما يعسر علينا أن نحدّد بالضبط نصيب كلا هذين النوعين من العوامل [أي الضرورات الفيزيولوجية من ناحية وارادة المتكلم وقصده من ناحية أخرى] . ومهما يكن من أمر فان عملية التصويت تقتضي تعاقب سلسلة من الانحباسات والانفجارات وذلك هو شرط المقطعة الاساسيّ .

الفصل السادس : مدى الانحباس والانفجار

يقودنا تفسيرنا للمقطع بمختلف عمليات الجمع بين الانحباسات والانفجارات الى الوقوف على ملاحظة هامة ، وهي ليست سوى تعميم لظاهرة من الظواهر العروضية . فقد ميزوا في الكلمات اليونانية واللاتينية بين نوعين من المقاطع الطويلة : نوع من المقاطع الطويلة الاصلية (كما في mater) ونوع من المقاطع الطويلة طولها ناتج عن موقعها (كما في făctus) فلماذا اعتبروا fac من كلمة factus

مقطعا طويلا ؟ يجيب العروضيون بأنه يعتبر كذلك لوجود مجموعة [الأصوات] ك ت kt . ولكن لو كان الأمر راجعا الى تلك المجموعة في حدّ ذاتها لكان كل مقطع مبدوء بحرفين مقطعا طويلا . والحال أننا لا نجد شيئا من ذلك (انظر كلمة clĭens وغيرها [حيث يعتبر المقطع الأول cli مقطعا قصيرا]).

91 والسبب الحقيقي في ذلك هو أن الانفجار والانحباس/يختلفان اختلافا جوهريا من حيث المدى . فالانفجار يحدث دائما بسرعة كبيرة تبلغ درجة لا تستطيع الاذن معها أن تقدره حق قدره من حيث الكم . ولذلك أيضا فهو لا يحدث الانطباع الخاص بالحركات أبدا . وبخلاف ذلك فالانحباس وحده هو الذي يُمكن أن نقدره . ومن هنا كان شعورنا بأننا نتوقف مدة أطول عند النطق بالحركة التي بها يبدأ الانحباس .

ونحن نعلم من جهة أخرى أن الحركات الواقعة قبل مجموعة مكونة من حرف شديد أو دعكيّ وحرف مائع يمكن أن تعالج على نحوين مختلفين : فالفتحة في كلمة patrem يمكن أن تكون طويلة أو قصيرة وذلك بالاعتماد على نفس المبدأ السابق . والدليل على ذلك أننا نستطيع أن ننطق إمّا ب ت ر (tr) أو ب ت ر (tr) (17) *أي بتاء فاتحة أو غالقة على حدّ سواء . فالنطق الأُول يمكننا من الابقاء* على الفتحة (a) قصيرة ، أما الثاني فإنّه يمكننا من احداث مقطع طويل . لكن يتعذر علينا أن نعالج الفتحة الواقعة في كلمة من قبيل factus نفس المعالجة المزدوجة . وذلك لأنّ التاء وحدها يمكن أن تنطق نطقا انفجاريا (تَ t) بينما لا يمكن نطقها كذلك — أي انفجارية — اذا وقعت في مجموعة مثل كَ ت ct .

الفصل السابع : صواتم الدرجة الرابعة من الانفتاح
الحركات المزدوجة
بعض المسائل المتعلقة بالخط

ينتهي بنا الحديث الى صواتم الدرجة الرابعة من الانفتاح . وهي صواتم تثير بعض الملاحظات . فقد رأينا بالصفحة(89)أن الاستعمال قد خص هذه الأصوات بصورتين مختلفتين في الخط ؛ (w : صورة الضمة المنفتحة ŭ ؛ u صورة

الضمة المنغلقة ŭ y صورة الكسرة المنفتحة î ؛ i صورة الكسرة المنغلقة î . ويماثل ذلك في الخطّ العربي : و : صورة الضمّة المنفتحة ـُـ ؛ ـُـ صورة الضمة المنغلقة ـُـ ؛ ي صورة الكسرة المنفتحة ـِـ صورة المكسرة المنغلقة ـِـ) ، بخلاف ما نلاحظه مع الأصوات الأخرى حيث خص كل واحد منها بعلامة واحدة (بدون أن نميز بين الغالق والفاتح منها في الخط) . ففي مجموعات من قبيل aiya (أي ـَـ ي ـَـ) و auwa (أي ـَـ ـُـ و ـَـ) ندرك بصورة أوضح مما ندركه في جميع الحالات الأخرى الفرق بين [الصوت الفاتح] المشار اليه بالعلامة < و(الصوت الغالق) المشار اليه بالعلامة > ؛ فالكسرة الغالقة ـِـ (î) والضمة الغالقة ـُـ (û) تحدثان بكل وضوح الانطباع الخاص بالحركات . أما الكسرة الفاتحة ـِـ (î) والضمة الفاتحة ـُـ (û) فتحدثان الانطباع الخاص بالحروف (18) ونحن نلاحظ ـــ وان كنّا لا ندّعي تفسير هذه الظاهرة ـــ أن الكسرة اذا كانت حرفا لا تكون في صورة الصوت الغالق ابدا . لذلك فاننا لا نجد فتحة وكسرة متعاقبتين ai يكون للكسرة الغالقة î منهما نفس الأثر الذي للياء في aiya (أي ـَـ ـِـ ي ـَـ) (قارن بين الكلمة الانقليزية boy والكلمة الفرنسية pied) .
92 فبمقتضى الموقع تكون الياء حرفا والكسرة i حركة وذلك لأن هذين النوعين/من جنس الكسرة I لا يمكن أن يظهرا في جميع المواقع عل حدّ سواء . وتنطبق نفس الملاحظة على الضمة u والواو w والكسرة المستديرة ü والياء المستديرة (ẅ) .

ويوضح ما تقدم أمر الحركة المزدوجة . فهي ليست سوى حالة خاصة من حالات الحلقة الانحباسية ؛ والمجموعتان ârta (ـَـ ر ت ـَـ) و âuta (ـَـ ـُـ ت ـَـ) هما مجموعتان متوازيتان تمام التوازي ؛ ولا نجد بينهما إلّا فارقا في درجة انفتاح العنصر الثاني من كليهما : فالحركة المزدوجة حلقة انحباسية مكونة من صوتين ثانيهما منفتح نسبيّا فينشأ عن ذلك انطباع أكوستيكي خاص : فكأن الصوت الصائت يتواصل في العنصر الثاني من المجموعة . وبالعكس فان مجموعة بمثل tya = تْ يْ ـَـ لا تختلف في شيء عن مجموعة من قبيل tra = تْ رْ ـَـ اللهم اذا استثنينا درجة انفتاح الصوت الانفجاري الثاني في كليهما . وهذا يعني بعبارة أخرى أن المجموعات التي سماها علماء الفنولوجيا بالحركات المزدوجة الصاعدة ليست حركات مزدوجة انما هي مجموعات انفجارية ـــ انحباسية، العنصر الأول منها متفتح نسبيا لكن بدون أن ينجر عن ذلك أي أثر

خاص من الناحية الأكوستيكية (كما في îya = تْ يْ ـَـ) . أما المجموعات التي من قبيل ûo (ـُـ ـُـ) (الضمة الثانية نصف منغلقة) و îa (ـِـ ـَـ) بتنبير الضمة والكسرة الانحباسيتين مثل ما نجده في بعض اللهجات الالمانية (انظر قولهم buob و liab) فانها ليست أيضا سوى حركات مزدوجة مفتعلة لا تحدث في السمع شعورا بوحدة الانطباع كالذي تحدثه ûo (ـُـ ـُـ) و âi (ـَـ ـِـ) الخ . فلا نستطيع أن ننطق بـ ûo (ـُـ ـُـ) بحدوث انحباس يليه انحباس آخر بدون أن يحدث انقطاع في السلسلة ، اللهم إلّا اذا فرضنا على هذه المجموعة ـــ بضرب من الحيلة ـــ وحدة ليست فيها بالطبع .

ان هذا التعريف للحركة المزدوجة الذي يرجعها الى المبدإ العام للحلقات الانحباسية يبين أنها ليست ـــ كما قد يتبادر الى الذهن ـــ أمرا شاذا ناشزا لم يقع ترتيبه ضمن الظواهر الفنولوجية . فلا فائدة في أن نفرد لها قسما بذاته في الترتيب اذ ليس لخصائصها الذاتية في الواقع أية فائدة أو أهمية : إذ الذي يهم ليس ضبط نهاية الصوت الصائت بل المهم هو ضبط بدايته .

وقد ميز م . سيفرس M. Sievers وجماعة من الالسنيين في الخط بين i و u و ü و r̥ و n̥ الخ باعتبارها مكونة لمقطع «silbisches» وبين i̯ و u̯ و ü̯ و r و n باعتبارها
93 غير مكونة لمقطع «unsilbisches» وكتبوا : mirta / و mai̯rta و mi̯arta بينما نرسم نحن تلك الكلمات على النحو التالي : mirta و mairta و myarta . فقد لاحظوا أن الكسرة i والياء y من جنس فنولوجي واحد فأرادوا أن يجعلوا لهما أولا وبالذات نفس العلامة في الخط (مدفوعين الى ذلك بنفس تلك الفكرة القائلة بأن السلسلة المنطوقة تتكون من أجناس [صوتية] متعاقبة !) لكن هذه الطريقة في الخط رغم قيامها على ما تشهد به الاذن فانها تناقض المعقول بل انها تطمس بالذات ما ينبغي القيام به من تمييز . فيترتب عن ذلك : 1) أنهم خلطوا بين الكسرة والضمة الفاتحتين (أي الياء والواو = w, y) والكسرة والضمة الغالقتين ؛ فلا نستطيع مثلا أن نقوم بأي تمييز بين newo و neuo ، 2) أنهم بخلاف ما تقدم قسموا الكسرة والضمة الغالقتين الى جزءين اثنين (انظر كلمتي mirta و máirta) . واليك بعض الأمثلة عن عيوب هذه الطريقة في الخط : فاذا اعتبرنا من اليونانية القديمة كلمة dwis و dusi من جهة وكلمتي rhéwō و rheûma من

جهة أخرى فان هذين المتقابلين يحدثان في نفس الملابسات الفنولوجية بالضبط ويعبر عنهما بصورة عادية بنفس المقابلة الخطية : فبحسب تفاوت الصوتم اللاحق من حيث درجة الانفتاح تكون الضمة تارة فاتحة أي واوا وتارة غالقة أي ضمة صريحة . أما اذا رسمنا تلك الكلمات على النحو التالي duịs و dusi و rheụδ و rheụma فان كل علامة على ما ذكرناه من تمييزات ممكنة تزول وتمحى . وكذلك الأمر في اللغة الهندية الاوروبية ، فان سلسلتي الكلمات mãter و mãtrai و mãteres و mãtrsu من ناحيــــــــــــة و sũneu و sũnewai و sũnewes و sũnusu من ناحية أخرى سلسلتان متوازيتان كل التوازي من حيث معالجة الراء من جهة والضمة u من جهة أخرى ؛ ويبرز التقابل بين الانحباسات والانفجارات واضحا جليا في الخط ضمن السلسلة الثانية من هذه الكلمات على الأقل ، بينما تطمس طريقة الخطّ التي نحن بصدد نقدها ذلك التقابل (sũnụe (sũnusu, sũneụes, sũneụai . فينبغي لا أن نحتفظ بالعلامات التي جعلها الاستعمال للتمييز بين الأصوات الفاتحة والأصوات الغالقة فحسب بل علينا أن نعمم ذلك في كل النظام وأن نرسم مثلا : mãter و mãtᶈai و mãteᶈes و mãtrsu [أي بجعل علامة الراء في الخط اللاتيني (r) لصوت الراء غالقا وعلامة الراء في الخط اليوناني (ρ) لنفس الصوت فاتحا] ؛ وبهذه الصورة تتجلى مختلف مظاهر المقطعة بصورة بديهية ؛ وتبرز النواة الحركية والحدود الفاصلة بين المقاطع من تلقاء نفسها .

تعليق الناشرين : ان هذه النظريات تزيد في توضيح كثير من المشاكل وقد
تعرض ف . دي . سوسير الى بعضها/في دروسه . وإليك منها بعض النماذج : 94

1) لقد أورد م . سيفرس كلمة beritnnn (من الالمانية berittenen) معتبرا إياها مثالا نموذجيا عن امكانية أداء نفس الصوت بالتناوب ، دور الصائت مرتين ودور الصامت مرتين (والواقع أن النون لا تقوم في هذا المثال بدور الصامت إلّا مرة واحدة ، وينبغي أن نرسم الكلمة على النحو التالي beritnnn ؛ لكن هذه الجزئية ليس لها كبير أهمية) . وبالتدقيق فانه لا وجود لأي مثال آخر يبرز أن « الصوت » و « الجنس » [الفنولوجي] ليسا كلمتين مترادفين على نحو أوضح مما يبرزه في هذا المثال . وبالفعل ، اذا اقتصرنا على احداث نون من نوع

واحد أي نون انحباسية ذات تقطيع تعطيلي فاننا لن نحصل إلا على مقطع واحد طويل . ولكي نحدث سلسلة تتناوب فيها نون صائتة فنون صامتة مرتين يجب أن نتبع الانحباس (أي النون الأولى) بالانفجار (أي النون الثانية) ثم نحدث الانحباس ثانية (أي النون الثالثة) . وبما أن الانحباسين لم يسبقهما انحباس آخر فسيكون لهما صفة الصائتية .

2) لم يكن الجزء الأخير من الكلمات الفرنسية التي من قبيل meurtrier و ouvrier أي trier – و vrier – يمثل في السابق سوى مقطع واحد (وذلك مهما كانت طريقة النطق به ، قارن هذا بما جاء في هامش (93) . وفي زمن لاحق أصبحت نهاية تلك الكلمات تنطق في صورة مقطعين اثنين meur-tri-er بالتقاء الحركتين أي trie — أو بعدم التقائهما أي triye) . ولم يحدث هذا التغيّر بوضع « نبرة مقطعية » على عنصر الكسرة i انما بجعل تقطيعها الانفجاري تقطيعا انحباسيا .

وتنطق العامة من الفرنسيين بكلمة ouvrier على النحو التالي ouvérier : وهي ظاهرة شبيهة كل الشبه بما سبق ، غير أن العنصر الثاني هو الذي تغيّر تقطيعه لا الثالث وأصبح صائتا uvrye ← uvrye ثم ظهرت فتحة ممالة (e) في مرحلة لاحقة قبل الراء الصائتة .

3) ولنذكر كذلك تلك الحالة المشهورة وهي حالة حركات الاتكاء التي تقع قبل السين المتبوعة بحرف في الفرنسية : فقد آلت الكلمة اللاتينية scūtum إلى iscūtum ثم في الفرنسية القديمة إلى escu ثم في الفرنسية الحديثة إلى écu . وقد رأينا بالصفحة 93 أن المجموعة sk (س كْ) تمثل حلقة مقطوعة ، فالمجموعة sk (س كْ) أشد ملائمة للطبيعة البشرية . لكن يجب أن تكون هذه السين الانحباسة النواة المقطعية كلما كانت في بداية جملة أو كانت الكلمة التي قبلها
منتهية/بحرف درجة انفتاحه ضعيفة . فليس للكسرة i أو الكسرة الممالة e 95
الاتكائيتين من دور سوى تقوية صفة الصائتية ؛ وكل خاصية فنولوجية طفيفة الأهمّية تنزع الى التضخم كلما تعمدنا الاحتفاظ بها تعمدا . وتحدث هذه الظاهرة بعينها في كلمة esclandre وفي نطق العامة من الفرنسيين بكلمتي squelette و statue على النحو التالي : esquelette و estatue [بادخال فتحة

ممالة في بداية كل منهما] (19) ونجد أيضا نفس الظاهرة في نطق العامة بالكلمة الأداة de على النحو التالي: ed(مثل un œil ed tanche) فقد أصبحت de tanche عن طريق الحذف d'tanche (بسقوط الحركة التي بعد الدال) . ولكن لكي تكون الدال واضحة في السمع في هذا الموقع ينبغي أن تكون انحباسية d̂ tanche فتكونت حركة قبلها مثلما هو الشأن في الحالات السابقة .

4) ان اعادة النظر في مسألة الأصوات الهندية الأوروبية الصائتة والتساؤل مثلا لماذا أصبحت كلمة hagl في الألمانية العليا القديمة hagal بينما بقيت كلمة balg على حالتها أمر يكاد لا يكون العود اليه ضروريا . فاللام في الكلمة الثانية أي balg تمثل العنصر الثاني من حلقة انحباسية وتقوم بدور الصوت الصامت . فلا موجب لتغيير وظيفتها . أما لام hagl — وهي أيضا لام انحباسية — فانها على العكس تمثل نواة حركية . فلما كانت صائتية فقد أمكنها أن تحدث بعدها حركة فاتحة أكثر (وهي فتحة ، هذا ان صح لدينا ما تشهد به طريقة الرسم المتبعة) . على أن هذه الحركة قد تلاشت بمرور الزمان لأن كلمة hagel أصبحت تنطق اليوم من جديد hagl وهذا بالذات ما يميز نطق الالمانيين بهذه الكلمة عن النطق الفرنسي بكلمة aigle ؛ فاللام صوت غالق في الكلمة الجرمانية وهي صوت فاتح بعده فتحة صامتة وقعت آخرا في الكلمة الفرنسية ègle

---

(1) صحيح أن اليونانيين قد رسموا الأصوات التالية kh و th و ph(أي ك هـ وت هـ وي هـ) على التوالي X و Θو Φ وكلمة مثل phérō ترسم على النحو التالي : ΦΕΡΩ ؛ لكن هذه الطريقة في الرسم تمثل تجديد وقع في عصر متأخر ؛ اذ نجد في النقوش العتيقة الطريقة الاولى KHAPIΣ لا الثانية XAPIΣ . وتضم نفس النصوص علامتين لرسم الكاف : علامة تسمى Kappa وأخرى تسمى koppa . لكن هذه الظاهرة ليست من نفس القبيل ، اذ تتعلق برسم فويرقين حقيقيين في النطق وذلك أن صوت الكاف يكون حنكيا تارة وغشائيا تارة أخرى . على أن النطق الثاني (المسمى koppa) قد انقرض في مرحلة لاحقة . ونلاحظ أخيرا أمرا أشد دقة يتمثل في أن أقدم ما لدينا من النصوص المنقوشة اليونانية واللاتينية ، غالبا ما يرسم فيها حرف مزدوج بواسطة علامة بسيطة . فقد رسمت الكلمة اللاتينية fuisse كما يلي FUISE . وفي هذا اخلال بالمبدأ الذي يجعل لكل صوت علامة متميزة في الخط خاصة به ، لأن هاتين السينين تدومان وحدتين زمنيتين منسجمتين كما سنرى وتحدثان في الاذن انطباعين اثنين أحدهما متميز عن الاخر . لكن لهذا الاخلال ما يبرره لأن في هذين الصوتين — وان لم يتحدا — خاصية مشتركة (انظر ص 87 وما بعدها) . (المؤلف) .

(2) انظر كتاب سيفارس Sievers : مبادىء في علم الأصوات Grundzüge der Phonetik ط 5 ، 1902 . وكتاب يسبرسن Jespersen : كتاب علم الأصوات Lehrbuch der Phonetik ط 2 ، 1913 . وكتاب رودي Roudet : مبادىء في علم الأصوات العام Eléments de phonétique générale ، 1910 (الناشرون) .

(3) لقد أكملنا وصف دي سوسير الموجز لجهاز التصويت بالاعتماد على كتاب « دروس في علم الأصوات » لصاحبه يسبرسن كما أخذنا عنه المبدأ الذي سنعتمده أساسا لوضع صيغ نمثل بها الصواتم في الصفحات الموالية . وهي مجرد أمور متعلقة بتقديم هذه المسائل تقديما شكليا أوضح ، وسيتبيّن القارىء انها لا تخلّ في شيء بآراء فردنان دي سوسير (الناشرون) .

(4) وردت عبارة « الأوتار الصوتية » في النص الفرنسي في « صيغة » المثنى (المترجمون) .

(5) كان اللغويون القدامى يعتبرون أقصى الحنك جزءا تابعا للحلق . (المترجمون) .

(6) لم ير ف . دي سوسير أنه من اللازم القيام بنفس التمييز [بين الأصوات الامامية والأصوات الخلفية] في القسم السابق — أ — جريا على منهجه في التبسيط وذلك بالرغم مما للمجموعتين الامامية والخلفية ك ¹ و ك ² من أهمية كبرى في الهندية الاوروبية . فنحن اذن بإزاء اهمال مقصود متعمّد . (الناشرون) .

(7) r : لʼ = لام حنكية أو ملينة .
: لام أقصى حنكية أو غشائية كما في الروسية والانقليزية .

= رسمت الرّاء والغين في الأصل بعلامة واحدة هي (r) لانهما يمثلان في اللغة الفرنسية صورتين لصوتم واحد . وهما صوتمان متميزان في العربية (المترجمون) .

(8) الأولى للانحباس والثانية للانفجار هذا متى كانت مرسومة فوق الحروف العربية أما إذا كانت فوق الحروف اللاتينية فالعلامة > للانفجار والعلامة < للانحباس (المترجمون) .

(9) sistante من اللاتينية sistere ومن أهمّ معانيها عطل ومنع وقمع (المترجمون) .

(10) هذه النقطة من أكثر نقاط النظرية اثارة للنقاش . ولدفع بعض الاعتراضات يمكن أن نلفت الانتباه الى أن كلّ عملية تقطيع تعطيلي مثل النطق بالفاء انما هو حصيلة قوتين اثنين : 1 ـ ضغط الهواء على جوانب الحاجز التي تعترض مروره و2 ـ ممانعة تلك الجوانب التي تحدث بانقباضها توازنا ضدّ ضغط الهواء . فما المسك إذن الاّ انحباس متواصل . ولذلك فإننا اذا أتبعنا دفعة ما بمسك من نفس القبيل كان الوقع وقعا واحدا متواصلا من البداية الى النهاية . وبهذا الاعتبار يصبح من المعقول أن نجمع هذين النوعين من التقطيع في وحدة واحدة آلية اكوستيكية في آن . وبخلاف ذلك يقابل الانفجار هذين النوعين من التقطيع اذ هو بحكم تعريفه بالذات ارتخاء وانفراج . انظر كذلك الفصل السادس (الناشرون) .

(11) اذا حاولنا أن نطبق هذا على العربية لاحظنا أن الكسرة الفاتحة والضمة الفاتحة ترسمان ياءً وواوًا وكذلك الأمر بالنسبة اليهما غالقتين . ويضاف الى هذا استعمالها لرسم الكسرة الطويلة والضمّة الطويلة (المترجمون) .

(12) يتعذّر وجود مقابل للمثال الأوّل والثالث في العربية الفصحى لاستحالة تتابع حرفين ساكنين في بداية المقطع (المترجمون) .

(13) لاشكّ أن بعض اللغات تكثر من استعمال بعض المجموعات من هذا الصنف (مثل وقوع الكاف ثم التاء مجتمعتين في أوّل الكلمة في اليونانية انظر كلمة kteinō) لكن هذه المجموعات رغم سهولة النطق بها لا تمثّل وحدة اكوستيكية (انظر الملاحظة الموالية) الناشرون .

(14) سعيا الى تبسيط المسألة لم يُعتبر في هذا المجال مثل الصوتم الا درجة انفتاحه أي بقطع النظر عن مخرجه وخصائص تقطيعه الاخرى (من جهر وهمس وتكرير وجانبية الخ) . لذلك لا يمكن أن تنطبق الاستنتاجات القائمة على درجة الانفتاح وحدها على جميع الحالات الحقيقية بدون استثناء . في مجموعة من قبيل trya (تريَــ) يصعب النطق بالأصوات الثلاثة الأولى بدون أن يحدث انقطاع في السلسلة : trya (تريَــ) (اللهمّ إذا وقع انصهار الياء الفاتحة ي في الراء الفاتحة ر (بتحنيكها) وهذا بالرغم من أن هذه الأصوات الثلاثة تمثّل حلقة انفجارية =

تامة الشروط (انظر كذلك ما جاء بالصفحة 103 بشأن كلمة meurtrier الخ). أمّا قولنا *trwa* ت ر و ء فلا يثير أية مشكلة . ولنذكر كذلك حلقات أخرى [لا تنطبق عليها الاستنتاجات القائمة على مجرد درجة الانفتاح] من قبيل pmla الخ حيث يعسر علينا كثيرا عدم النطق بالصوت الخيشومي نطقا انحباسيا pmla ب م ل ء وتظهر هذه الحالات الشاذة خاصة في الانفجار . تلك العملية الحينية التي لا تقبل تأجيلا بطبيعتها .

(15) الترجمة الحرفية لهذه الكلمة هي : ما يحتاج الى غيره ليكون صائتا (المترجمون) .

(16) ورد في الأصل pzta وهو خطأ (المترجمون) .

(17) ورد بالأصل : إمّا بـ tr أو بـ tr وهو خطأ . (المترجمون) .

(18) لا ينبغي أن نخلط بين أصوات الدرجة الرابعة من الانفتاح والصوت الدعكي الحنكي الليّن (كالذي في كلمة Liegen في الألمانية الشمالية) [أي ما يوافق غينا حنكية لا لهوية معقفة . انظر وصف هذا الصوت (غ y') بالجدول الوارد ص 80] وذلك أنّ هذا الجنس الفنولوجي ينتمي الى الحروف وله جميع خصائصها . (سوسير) .

(19) هذه الظاهرة شبيهة بما حدث في كلمة إصْطِبْل ʔiṣṭibl التي أصلها في اللاتينية stabulum (المترجمون) .

القسم الأول

مبادئ عامة

الباب الأول
طبيعة الدليل اللغوي

الفصل الأول : الدليل والمدلول والدال

تمثل اللغة في نظر بعضهم ، اذا أرجعت الى مبدئها الأساسي ، مصطلحيّة أي قائمة من الكلمات موافقة لعدد مماثل من الأشياء . مثل :

شجرة

فرس

الخ ...

لكن هذا التصور قابل للانتقاد من عدة أوجه . فهو يفترض وجود أفكار جاهزة سابقة لوجود الكلمات (انظر في هذا الشأن ، أسفله ص 172) ، وهو لا يخبرنا ان كانت الكلمة ذات طبيعة صوتية أو نفسيّة ، اذ يمكن أن نعتبر في (**شجرة**) الوجه الأول أو الثاني على حدّ سواء ، وهو يجعلنا أخيرا نفترض أن الرابط

الذي يجمع بين اسم ما وشيء ما هو عملية في منتهى البساطة وهذا أمر بعيد جدّا عن الواقع . غير أنه يمكن لهذه النظرة المفرطة في التبسيط أن تقرّبنا من الحقيقة اذ
98 هي تبيّن لنا ان /الوحدة اللغوية شيء مزدوج يتكون من التقريب بين عنصرين .

وقد سبق ان رأينا بالصفحة 31 بشأن دورة الخطاب ان العنصرين اللذين ينطوي عليهما الدليل اللغوي انما هما عنصران نفسيّان معا ويصل بينهما في دماغ الانسان صلة الجمع والترابط ، ولنؤكد على هذا الأمر .

ان الدليل اللغوي لا يجمع بين شيء واسم بل بين متصوّر ذهني وصورة أكوستيكية (1) وليست الصورة الأكوستيكية هي الصوت المادي أي ذلك الأمر الفيزيائي المحض بل هي الأثر النفسي لهذا الصوت أي الصورة التي تصوّرها لنا حواسنا ، وهي صورة حسيّة وان صادف أن نعتناها فقلنا إنها « مادية » فبالمعنى الذي ذكرناه فقط وللمقابلة بينها وبين الطرف الآخر من عملية الترابط أي المتصوّر الذهني ، وهو غالبا ما يكون أبعد في التجريد .

ويظهر الطابع النفسي للصور الأكوستيكية بصورة جلية عندما يتأمل المرء كلامه الشخصي . فباستطاعته أي يناجي نفسه أو أن يستعرض ذهنيا مقطوعة من الشعر بدون أن يتحرك له شفة او لسان . وبما أن الكلمات التي منها تتكوّن اللغة هي بالنسبة إلينا صور أكوستيكية وجب علينا أن نتجنّب الحديث عن الصوائم ، التي تتكوّن منها الكلمات . وذلك لان هذا المصطلح يتضمّن معنى العمليّة الصوتية ولا يوافق اذن إلّا الكلمة المنطوقة ولا ينطبق إلّا على انجاز الصورة النفسية في صلب الخطاب . أما اذا استعملنا كلمتي **الأصوات والمقاطع** التي تتكوّن منها كلمة ما فاننا نتجنب الوقوع في هذا الالتباس شريطة أن لا يغيب
99 عنّا أن الأمر يتعلق بالصورة الأكوستيكية ./

فالدليل اللغوي اذن كيان نفسي ذو وجهين يمكن تمثيله بالشكل التالي :

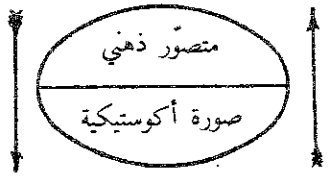

وهذا العنصران ملتحمان التحاما شديدا ويستدعي وجود أحدهما وجود الآخر . وسواء بحثنا عن معنى الكلمة العربية **شجرة** أو عن الكلمة التي تشير بها اللغة العربية الى المتصوّر « شجرة » فمن الواضح أن التقريبات التي شاعت واطّردت في اللغة هي التي تبدو لنا دون سواها مطابقة للواقع بينما نطرح كل تقريب يمكن أن نتخيله نحن طرحا :

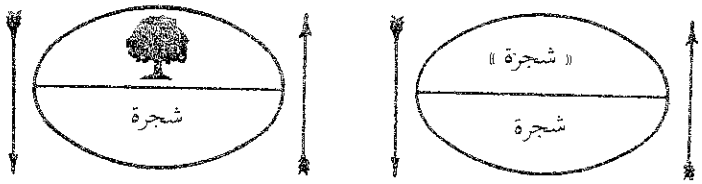

ويثير هذا التعريف مشكلة هامة تتعلق بالمصطلحات فقد أطلقنا كلمة signe أي **دليل** على التوليف بين المتصوّر الذهني والصورة الأكوستيكية . لكن هذه الكلمة أي دليل غالبا ما تطلق في الاستعمال الشائع على الصورة الأكوستيكية وحدها مثل (شَجَرَةٌ الخ ...) وذلك لأنه يغيب عن أذهاننا أن **شجرة** لم تسمّ دليلا إلّا من حيث أنها تضمّ المتصوّر الذهني « شجرة » بصورة تجعل فكرة الجزء الحسي متضمنة لفكرة المجموع .

ويزول الالتباس ان نحن أطلقنا على هذه المفاهيم الثلاثة المذكورة هنا أسماء يدعو بعضها بعضا مع تقابلها . فنقترح الاحتفاظ بكلمة **دليل** للدلالة على المجموع وتعويض **المتصور الذهني** بـ signifié أي مدلول و**الصورة الأكوستيكية** بـ signifiant أي **دال** وللمصطلحين الأخيرين فضل ابراز التقابل الذي يفصل بينهما أو بينهما وبين المجموع الذي ينتميان إليه . أما signe (أي دليل) (2) فهو مصطلح أن نحن
100 رضينا به فلأننا لم/نجد له بديلا نعوضه به فيما هو مستعمل من الكلام .

وللدليل اللغوي — كما حدّدناه — خاصّيتان أساسيتان ، ونحن بعرضهما نضع مبادىء كل دراسة من هذا القبيل .

الفصل الثاني : المبدأ الأوّل : اعتباطية الدليل اللغوي

ان الرابط الذي يجمع بين الدّال والمدلول رابط اعتباطي أو بعبارة أخرى وبما أننا

نعني بكلمة دليل المجموع الناتج عن الجمع بين الدّال والمدلول يمكننا أن نقول بصورة أبسط : ان **الدليل اللغوي اعتباطيّ** .

وهكذا فان المتصوّر الذهني « أخت » لا تربطه أية علاقة داخليّة بتتابع الأصوات التالي : الهمزة والضمّة والخاء والتاء والتنوين الذي يقوم له دالّا ، ومن الممكن أن تمثله أية مجموعة أخرى من الأصوات : ويؤيد ذلك ما يوجد بين اللغات من فوارق في تسمية الأشياء بل واختلاف اللغات نفسه . فالمدلول « بقرة » دالّه بقرة (الباء والفتحة الخ ...) في العربية و boeuf (بوف) في الفرنسية و Ochs (أوكس) في الألمانية .

واعتباطية الدليل مبدأ لم ينازع فيه أحد . لكن غالبا ما يكون اكتشاف حقيقة من الحقائق أقل عناء من احلالها المحل الذي يليق بها . ويسيطر المبدأ السابق على جميع ألسنية اللغة ونتائجه لا تحصى . وهي والحق يقال لا تبدو من أول وهلة وبنفس الدرجة من البداهة ؛ ولا تنكشف إلّا بعد عناء ومراوغة ، ولكن بانكشافها ندرك ما لهذا المبدأ من أهمّية أساسية .

ملاحظة عابرة : ينبغي أن يتساءل أصحاب علم الدلائل sémiologie عندما ينتظم أمره : ان كانت طرق التعبير التي تقوم على دلائل طبيعية صرفة — كالتعبير الكلي بالاشارات-هي من مشمولات علمهم الشرعية أم لا . فاذا افترضنا أنّه يشملها فان موضوعه الأساسي سيبقى لا محالة مجموع الأنظمة القائمة على اعتباطية الدليل . وبالفعل فان كل وسيلة من وسائل التعبير يرثها المرء في مجتمع من المجتمعات تعتمد مبدئيا على عادة جماعية أو بعبارة/مرادفة على التواضع . فالاشارات الدّالة على آداب السلوك مثلا وهي محمّلة غالبا بصيغة تعبيرية طبيعية (ألا ترى أن الصينيين مثلا اذا خيوا أَبَاطِرَتَهُمْ سجدوا لهم تسعا) تبقى لا محالة مضبوطة بقاعدة [جماعية]،والذي يفرض استعمال تلك الاشارات هو هذه القاعدة وليس قيمة تلك الاشارات في حدّ ذاتها . فنستطيع أن نقول اذن : ان الدلائل المتصفة بالاعتباطية التامة تؤدي أحسن من غيرها العملية الدلائلية في أمثل صورة لها . ولذلك كانت اللغة وهي أكثر أنظمة التعبير تعقّدا وأوسعها انتشارا هي أيضا أشدّها تمثيلا للخصائص الدلائلية . وفي هذا المعنى يمكن للألسنية أن تصبح منوالا عاما لكل علم دلائل وذلك رغم أن اللغة ليست سوى نظام خاص من بين هذه الأنظمة الدلائلية .

وقد استعمل بعضهم كلمة symbole آي رمز ويعني بها الدليل اللغوي أو بعبارة أدقّ ما سميناه الدّال . لكنّ فيه عيوبا تحول دون قبوله وترجع بالذات الى مبدئنا الأول . فالرمز يتميز بكونه ليس دائما اعتباطيا تماما،فهو ليس خاويا بل نجد فيه شيئا طفيفا من الربط بين الدّال والمدلول : فلا يمكن أن نعوّض الميزان رمز العدالة بما اتفق من الأشياء الأخرى كالعربة مثلا .

ثم ان كلمة **اعتباطي** تستوجب كذلك إبداء ملاحظة : فلا ينبغي أن يفهم منها أن الدال خاضع لمحض اختيار المتكلّم اذ سنرى فيما يلي أنه ليس بوسع الفرد أن يلحق أي تغيير بدليل قد اتفقت عليه مجموعة لغوية ما . انما تعني ان الدال أمر غير مبرر أي أنه اعتباطي بالنسبة الى المدلول وليس له به أي رابط طبيعي موجود في الواقع .

ولنشر في النهاية الى اعتراضين قد يعترض بهما بعضهم على وضع هذا المبدأ الأول :

1) قد يعتمد بعضهم على الكلمات **المحاكية للصوت** فيقول : ان اختيار الدّال ليس دائما اعتباطيا . لكن هذه العناصر ليست أبدا عناصر عضوية في أي نظام من الأنظمة اللغوية . ثم ان عددها أقل بكثير/مما نعتقده . فكلمتان من قبيل fouet أي « سوط » و glas أي « صور » قد تقرع بعض الآذان بجرس موح لكن يكفي أن نعود الى أصلها في اللّاتينية لنعلم أن هذه الميزة ليست متأصلة فيها (فكلمة fouet مشتقة من «fagus» أي « شجر الزان أو خشبه » و glas من classicum أي « صور »)،ثم ان خصائصها الصوتية الحالية أو بالأحرى ما ننسبه إليها من تلك الخصائص إنما هو نتيجة عرضية عفوية لتطوّرها الصوتي .

أما الكلمات المحاكية للصوت الحقيقية (مثل glou-glou و tic-tac وغر غر ويق بق الخ ...) فليست قليلة العدد فحسب بل ان اختيارها أمر اعتباطي بمقدار . اذ أنها ليست سوى محاكاة تقريبية وبالتالي شبه تواضعية لبعض الأصوات . (لنقارن بين قولنا في العربية لمحاكاة صوت الكلب : (هب هب) وقولهم في الفرنسية أُوَا أُوَا (ouaoua) والألمانية وَاوْ وَاوْ (wauwau) . أضف الى

ذلك أنها بعد دخولها في اللغة يجرها تيار التطور الصوتي والصرفي الخ ان قليلا وان كثيرا (انظر كلمة «pigeon» « أي حمامة » من اللاتينية العامّية : pipiō المشتقة نفسها من كلمة محاكية للصوت) : وهذا دليل قاطع على كونها قد فقدت بعض الشيء من طابعها الأول فاكتست طابع الدليل اللغوي بالمعنى العام الذي يختصّ بكونه غير مبرّر .

2) صيغ التعجب : وهي قريبة جدا من الكلمات المحاكية للصوت وتثير ملاحظات مماثلة لكنها ليست بأكبر خطرا بالنسبة الى مبدئنا . فقد نميل إلى اعتبارها طرقا تلقائية للتعبير عن الواقع تمليها علينا الطبيعة ان صحّ هذا التعبير ، لكنه باستطاعتنا أن ننفي وجود رابط ضروري بين الدّال والمدلول بالنسبة الى معظمها . ويكفي لبيان ذلك أن نقارن في هذا المضمار بين لغتين لندرك مدى اختلاف طرق التعبير عن التعجب فيهما (مثلا في الفرنسية aïe (آيْ) ويوافقها في الالمانية ! au (آوْ) (3) ونحن نعلم من ناحية أخرى أن عددا كبيرا من عبارات التعجب كانت في البداية كلمات ذات معان مضبوطة (انظر قولنا في التعجب الله ! وقولهم ! diable « شيطان »و mordieu المنقلبة عن mortDieu أي « موت الرّب » الخ ...) .

وخلاصة القول ان الكلمات المحاكية للصوت وصيغ التعجب قيمتها قيمة ثانوية في اللغة وأن ما كان فيها من صبغة الرمز في البداية أمر قابل للنقاش جزئيا.

103

الفصل الثالث : المبدأ الثاني : الصفة الخطّية للدّال

لمّا كان الدّال ذا طبيعة سمعية فانه يجري في الزمن وحده وله بالتالي خصائص الزمن — أ) **فهو يمثل امتدادا** ، ب) **ويمكن أن نقيس هذا الامتداد من حيث بعد واحد هو الخطّ** .

وهذا المبدأ بديهي لكن يبدو أن الدارسين قد أهملوا ذكره دائما اعتقادا منهم بدون شك — بأنه مبدأ بسيط مفرط في البساطة ، ومع ذلك فهو مبدأ أساسي لا تحصى نتائجه ، وهو مبدأ يضاهي القانون الأول أهمية،وإليه تخضع إواليّة اللغة كاملة (أنظر ص **186**) . فخلافا للدوالّ المرئية (مثل الاشارات البحرية

وغيرها ...) التي قد تمثل تشعّبات متزامنة ذات أبعاد متعدّدة فان الدوالّ الاكوستيكية ليس لها ما تتصرف فيه عدا خطّ الزمن فتأتي عناصرها الواحد تلو الآخر مكوّنة بذلك سلسلة . وتبرز هذه الخاصية للعيان فورا بمجرد أن ترسم تلك العناصر بالكتابة وتعوّض التتابع في خط الزمان بالتتابع في خط المكان بواسطة علامات الكتابة .

ولا يبدو هذا الأمر بصورة بديهية في بعض الحالات . من ذلك أنك اذا نبّرت مقطعا مثلا فانه يخيل إليك أنك كدّست في نفس النقطة عناصر معنوية مختلفة . وما ذلك إلّا وهم : فالمقطع ونبرته لا يمثلان سوى عملية تصويتية واحدة ، وليس في صلب هذه العملية ثنائية بل كل ما فيها تقابلات متنوعة بينها وبين ما يحاذيها في سلسلة الكلام (أنظر في هذا الشأن ص **196**) .

104

الباب الثاني
اللاتحوّل والتحوّل في الدليل

الفصل الأول : الـلاتحـوّل

لئن بدا الدّال بالنسبة الى الفكرة التي يصوّرها موضوع اختيار حرّ في الظاهر فانه بالنسبة الى المجموعة البشرية اللغوية التي تستعمله مخالف لذلك أي مفروض عليها لا حرّية لها في اختياره . وذلك أنه لا يقع استفتاء الجمهور في شأنه البتّة ، ولا يمكن أن يعوّض دالّا اختارته اللغة دال آخر . وعلى هذا الأمر الذي يبدو وكأن فيه تناقضا تصدق عليه العبارة المأثورة : لا بدّ مما ليس منه بدّ . فنحن نقول للغة : « اختاري ! » ، لكننا نردف « ولن تختاري إلّا هذا الدليل دون سواه » . وليس الفرد بعاجز — حتى ولو رام ذلك — عن الحاق أي تغيير بالاختيار الذي وقع فقط ، بل وكذلك الجمهور نفسه.فانه عاجز عن أن يسلّط نفوذه وإن على كلمة واحدة ، فهو مرتبط باللغة كما هي .

فلا يمكن اذن أن نعتبر اللغة مجرّد عقد بسيط فحسب . وهذا ما يجعل الدليل اللغوي جديرا جدا بالدراسة من هذه الوجهة بالذات ، لأنه اذا أردنا أن نبرهن على أن القانون المعترف به في مجموعة بشرية ما أمر يفرض عليها من الخارج وليس قاعدة وقع الاتفاق عليها بحرية فان اللغة تقدم لنا أوضح برهان على ذلك .

فلننظر اذن كيف أن الدليل اللغوي لا يخضع لمشيئتنا ولنستخلص بعد ذلك
105 ما ينجم عن هذه الظاهرة من نتائج هامة/.

تبدو اللغة دائما إرثا ورثناه عن العصر السابق ، وذلك مهما كان العصر الذي نهتمّ بالنظر فيه ومهما أوغلنا في الرجوع الى الماضي. ثم ان العملية التي بفضلها قد تكون الأسماء وزعت على الاشياء في وقت ما والتي بفضلها أقيم عقد بين المتصوّرات الذهنية والصّور الاكوستيكية انما هي عمليّة يمكن أن نتصوّرها وان لم نشاهدها مشاهدة قطّ . وكون الأمور قد تكون حدثت على هذا النحو أمر يوحي لنا به شعورنا القوي باعتباطية الدليل .

وفي الواقع فان جميع المجتمعات لم تعرف اللغة ولا تعرفها إلّا في صورة نتاج موروث عن الأجيال السابقة ، عليها أن تقبله كما هو . لذلك فان مسألة أصل اللغة ليس لها من الأهمية ما يسند اليها عادة بل هي مسألة لا تستحقّ حتى مجرّد الطّرح . اذ موضوع الالسنية الحقيقي الوحيد انما هو : دراسة الحياة العاديّة المنتظمة للسان حاصل التكوين . فأية حالة من حالات اللغة هي دائما حصيلة عوامل تاريخية وتلك العوامل هي التي تفسّر لنا لم كان الدليل ثابتا أي لم وقف في وجه كل تعويض اعتباطيّ .

وقولك : « ان اللغة ارث » قول لا معنى له ان أنت لم تتخطّه الى ما هو أبعد منه . أفليس من الممكن تحوير القوانين الموجودة من حين الى آخر ؟

ويجرّنا هذا الاعتراض الى وضع اللغة في اطارها الاجتماعي والى طرح المسألة كما تطرح بالنسبة الى سائر المؤسسات الاجتماعية الأخرى ، فأن نعرف كيف تتوارث الأجيال بعضها عن بعض سائر المؤسسات الاجتماعية ، هذا هو السؤال الأشمل الذي يضم مسألة اللاتحوّل . ينبغي في البداية أن نقدّر مدى ما تتمتّع به المؤسسات الأخرى من حريّة ، وسنرى أن لكل واحدة منها موازنة مختلفة بين القسط الذي تمليه عليهما التقاليد المفروضة والقسط الذي للمجتمع حريّة العمل فيه . وبعد ذلك نبحث في نطاق نوع بعينه من هذه المؤسسات لم كانت العوامل التابعة للصنف الأول أي ضغط التقاليد أقوى أو أضعف من العوامل التابعة للصنف الثاني أي حرّية المجتمع . ثمّ نعود الى ميدان اللغة ونتساءل في نهاية

106 المطاف لم كان العامل التاريخي في انتقال/اللغة [من جيل الى جيل] مهيمنا على هذه المؤسسة بأكملها ولم ينتفي معه حدوث كل تغير لغوي عام مفاجيء.

يمكن أن يقدم المرء حججا عديدة للاجابة عن هذا السؤال كان يقول مثلا : ان ما يطرأ على اللغة من تغيرات لا يرتبط مباشرة بتعاقب الأجيال ، لأن الأجيال لا تتراكم على بعضها تراكم ادراج الصوان بل تتداخل وتتشابك ويضمّ كل جيل منها أفرادا متفاوتي الأعمار . وقد يذكّر بعضهم بجملة الجهود التي يتطلبها تلقين اللغة الأولى للطفل ليستنتج من ذلك استحالة حصول تغير عام في اللغة . وقد يضيف بعضهم أن لا دخل للتفكير في استعمال الناس للغة ما ، أي أن الذين يستعملونها لا يدركون قوانين تلك اللغة الى حدّ كبير . فاذا كان الأمر كذلك فكيف يستطيعون تحويرها ؟ وهبهم أدركوها فينبغي أن لا يغيب عنا أن الظواهر اللغوية قلّما تثير الانتقاد اذ تجد كل شعب بصورة عامة راضيا عن اللغة التي تلقاها .

ان هذه الاعتبارات هامة إلّا أنها ليست ملائمة لهذا المقام ، ونحن نفضّل عليها الاعتبارات التالية لأنها أهم وأنفذ الى ما نحن فيه ، وبها تتعلق جميع الاعتبارات الأخرى .

1) **اعتباطية الدليل** : قد بينت لنا هذه الخاصيّة كما تقدم — أن التغيير اللغوي ممكن نظريا . وبمزيد من التعمّق نرى في الواقع أن اعتباطية الدليل نفسها تجعل اللغة في مأمن من كل محاولة ترمي الى تحويرها . وحتى لو كانت درجة وعي الجمهور للقوانين اللغوية أعظم مما هي عليه في الواقع فانه عاجز عن مناقشة تلك القوانين وذلك لأن الشيء لا يمكن أن يصبح محل نظر إلّا متى قام على معيار عقلي . فبوسعنا مثلا أن نتناقش ونتساءل هل أن الزّواج بامرأة واحدة أنسب عقليا من تعدّد الزوجات وأن نقدم الأدلة لصالح هذا أو ذاك . ويمكننا أيضا أن نتجادل في شأن نظام من الرّموز لوجود علاقة عقلية تربط بين الرمز وما يدل عليه
107 (أنظر ص 112) لكن هذا الأساس منعدم في اللغة وذلك لأنها نظام من الدلائل/ الاعتباطية وبانعدامه تزول كل أرضية متينة للنقاش/. فلا موجب لتفضيل كلمة « أخت » على « سستر » sister أو « بقرة » على أوكس Ochs الخ ..

2) **وفرة الدلائل اللازمة لتكوين أية لغة من اللغات** : ولهذا الاعتبار أثر كبير الاهمية . فأنت تستطيع على أقصى تقدير إن شئت أن تعوّض نظاما من أنظمة الكتابة يتكون من 30 الى 40 حرفا بنظام آخر، ولو كانت اللغة محدّدة العناصر لأمكنك أن تعالجها نفس المعالجة لكن الدلائل اللغوية لا يحصرها عدّ .

3) **تشعب النظام اللغوي تشعّبا مفرطا** : ان اللغة عبارة عن نظام ، ولئن كانت هذه الخاصية — كما سنتبين ذلك — هي ما يجعل اللغة غير اعتباطية تماما اذ نلاحظ فيها صبغة عقلية نسبية فانها كذلك تمثّل النقطة التي يظهر فيها عدم كفاءة الجمهور لالحاق أي تغيير باللغة . وذلك أن هذا النظام يمثل إواليّة معقدة ولا يمكن ادراكه إلّا بإعمال الفكر . وحتى أولئك الذين يستعملون اللغة يوميا يجهلونه كل الجهل. فلا يمكن أن نتصوّر حدوث مثل هذا التغيير إلّا بتدخّل المختصين من نحاة ومناطقة وغيرهم . لكن التجربة بيّنت أن جميع التدخلات من هذا القبيل قد باءت الى حدّ الآن بالفشل .

4) **مقاومة المجموعة وممانعتها لكل تجديد لغوي** : إنّ اللغة في كل حين وآونة من حياتها قضية تهم جميع أفراد المجموعة . وهذا الاعتبار أهمّ من أي اعتبار آخر . فهي بانتشارها بين الجمهور وبممارسته لها ، تشكل شيئا يستعمله كل الأفراد طوال اليوم . ومن هذه الناحية لا يمكن أن نقيم أية مقارنة بينها وبين غيرها من المؤسسات . فالقواعد التابعة لقانون من القوانين والطقوس الخاصة بديانة من الديانات والاشارات البحرية وغيرها انما هي أمور لا يشتغل بها البتة إلّا عدد معين من الافراد يستعملونها في نفس الوقت وفي زمان محدود . أما اللغة فهي على عكس ذلك اذ يشارك كل فرد في استعمالها في كل آونة . وهي لذلك عرضة لتأثير الجميع فيها على الدوام . وهذه الملاحظة الأساسية كافية لبيان استحالة حدوث أي انقلاب فيها . فاللغة — من بين جميع المؤسسات الاجتماعية — هي المؤسسة
108 الوحيدة الأشد صمودا في وجه بوادر التغيير. فهي تلتحم بحياة المجموعة الاجتماعية التحاما . ولما كانت المجموعة ذات جمادية بالطبع فانها تبدو أولا وبالذات في مظهر عامل من عوامل المحافظة .

على أنه لا يكفي أن نقول ان اللغة نتاج لعمل القوى الاجتماعية لكي ندرك بوضوح أنها ليست حرة [في تطوّرها] ، فإن تذكرنا أنها دائما إرث ورثناه عن

عصر سابق وجب أن نضيف الى ذلك أن هذه القوى الاجتماعية تعمل باعتبار الزمان . ولئن اتصفت اللغة بطابع الاستقرار فليس ذلك لانها ترزح تحت عبء [جمادية] المجموعة فحسب بل لأنها أيضا تحتل مكانا ما في الزمن . وهذا الأمران متلازمان تلازما . فارتباط اللغة بالماضي يجعل من حرّية الاختيار أمرا فاشلا في كل آن . ونحن نقول « رجل » و « كلب » لانهم قالوا قبلنا « رجل » و « كلب » ولا يمنع هذا من قيام رابط في مستوى الظاهرة الجملية بين هذين العاملين المتناقضين وهما التواضع الاعتباطي الذي بمقتضاه كان الاختيار حرا وعامل الزمن الذي بمقتضاه كان الاختيار مقيدا .

فلئن لم يخضع الدليل لأي قانون آخر سوى قانون اتّباع الموروث فذلك لأنه اعتباطي . ولئن أمكنه أن يكون اعتباطيا فذلك لأنه يقوم على اتباع الموروث .

الفصل الثاني : التحـــوّل

للزمن الذي يحقّق استمراريّة اللغة مفعول آخر مناقض للأول في الظاهر وهو تغيير الدلائل اللغوية ويحدث ذلك بدرجات متفاوتة من السرعة ، ويمكن من بعض الأوجه أن ننسب الى الدليل اللغوي صفتي اللاتحوّل والتحوّل في آن (4) .

109 والأمران في نهاية المطاف مرتبط أحدهما بالآخر /. فالدليل قابل للتحوّل لأنه متواصل [في الزمن] . وما يسود في كل عمليّة تغيّر هو بقاء المادة القديمة ودوامها . فعدم مطابقة اللغة لصورتها الماضية لا يكون إلا أمرا نسبيًّا . وهذا ما يفسّر لنا كيف أن مبدأ التغيّر يقوم على مبدأ الاستمراريّة .

وللتغيّر في الزمن صور شتّى يمكن أن توفّر كل واحدة منها مادة تكون موضوعا لباب هام من أبواب الألسنية . وبدون أن نغرق في التفاصيل اليك ما ينبغي استخلاصه من أمور هامة في هذا الشأن .

ينبغي بادىء ذي بدء أن لا نخطىء في فهم المعنى المسند الى كلمة تغيّر في هذا المجال . فقد تحمل هذه الكلمة على الاعتقاد بأن الأمر يتعلّق خاصة بما يصيب الدّال من تغييرات صوتية وما يحلق المتصوّر المدلول عليه من تغييرات

معنوية . وفي هذه النظرة بعض القصور ، فمهما كانت عوامل التغيير وسواء أعمل كل واحد منها على حدة أم عملت معا فانها تفضي دائما الى **تزحزح في العلاقة القائمة بين الدّال والمدلول** .

واليك بعض الأمثلة : فقد تغيّرت الكلمة اللاّتينية necāre ومعناها « قتل » وأصبحت في اللغة الفرنسية noyer ومعناها « أغرق » . وقد أصاب التغيير في هذا المثال الصورة الأكوستيكية والمتصور معا . إلّا أنه ليس من الضروري أن نميّز بين جزءي هذه الظاهرة ، بل يكفي أن نلاحظ بصورة جمليّة أن الرابط بين الفكرة والدّال قد ضعف وأن تزحزحا في العلاقة التي بينهما قد حدث . ولكن هب أننا عوض أن نقارن بين كلمة necāre من اللاتينيــة القديمة الفصحى وكلمة noyer الفرنسية ، قارنّا بين هذه الكلمة الفرنسية وكلمة necare من اللاّتينية العامّية المستعملة في القرنين الرابع والخامس ومعناها « أغرق » فان هذه الحالة تختلف بعض الشيء عن الحالة السابقة . لكن وفي هذا المثال أيضا لئن لم يحدث تغيّر ذو بال في المدلول فاننا نلاحظ تزحزحا في العلاقة بين الفكرة والدّال .

110 وفي الألمانية القديمة تغيرت كلمة dritteil ومعناها « الثلث » وأصبحت في الألمانية الحديثة Drittel ورغم بقاء المتصور على حاله في هذا المثال فان العلاقة بين الدّال والمدلول قد تغيرت وذلك بطريقتين : فقد تغير الدّال لا من حيث مظهره المادي فحسب بل وكذلك من حيث صيغته النحوية ، فلم يعد يتضمّن معنى Teil أي « جزء » . وأصبح كلمة بسيطة [بعد أن كان كلمة مركبة من dri و teil] . ومهما/ يكن من حال فان الذي يحدث هو دائما تزحزح في العلاقة.

أما في اللغة الانقلوسكسونية فلم تتغير الصيغة ما قبل الأدبية لكلمة fōt أي « قدم » وبقيت على حالها fōt (وصورتها في الانقليزية الحديثة foot) بينما تغيرت صيغة الجمع منها fōti * أي « أقدام » وأصبحت fēt (وصورتها في الانقليزية الحديثة feet) . ومهما كانت التغييرات التي تفترضها هذه العملية فنحن على يقين من الأمر التالي : ألا وهو أن تزحزحا في العلاقة قد حدث ، وبرزت موافقات أخرى بين المادة الصوتية والفكرة .

واللغة عاجزة كل العجز عن حماية نفسها من العوامل التي تزحزح حينا فحينا علاقة الدال بالمدلول . وهذه احدى نتائج اعتباطية الدليل .

أما المؤسسات الانسانية الأخرى مثل العادات والقوانين وغيرها ، فانها تقوم كلها وبنسب متفاوتة على العلاقات الطبيعية بين الأشياء ، وهي تتضمّن تناسبا لازما بين ما تستعمله من وسائل وما ترمي إليه من غايات . ألا ترى أن الموضة نفسها التي تقيد أزياء الناس ليست اعتباطية كل الاعتباطية اذ لا نستطيع أن نحيد أكثر من قدر معيّن عما يمليه شكل جسم الانسان من قيود . وعلى العكس من ذلك فان اللغة ليست مقيّدة بشيء في اختيار وسائلها ، اذ ليس ثمّة ما يمنع أيّة فكرة من الأفكار من أن تقترن بأية سلسلة من الأصوات .

وقد كان وتني Whitney محقا جدا في إلحاحه على صفة الاعتباطية التي للدلائل إلحاحا أراد به أن يبيّن بجلاء أن اللغة انما هي مؤسسة اجتماعية محض ، وهو بذلك قد أنزل الألسنية المنزلة الصحيحة . إلّا أنه في هذه المسألة لم ينته الى الغاية المنشودة ولم يدرك أن صفة الاعتباطية هذه تميز اللغة عن سائر المؤسسات تمييزا جذريا . ونحن نلمس ذلك بوضوح في طريقة تطوّر اللغة . فلا شيء أكثر منه تشعبا . فوجود اللغة بين جمهور المستعملين وفي الزمن معا أمر يمنع من أن نلحق بها أي تغيير . ومن ناحية أخرى فان اعتباطية دلائل اللغة ينجرّ عنها نظريّا حرية التصرّف في اقامة أية علاقة بين المادة الصوتية والأفكار . ويتولد عن هذا أن كل واحد من هذين العنصرين المجتمعين في الدلائل يحتفظ بحياته الخاصة بنسبة لا
111 عهد لنا بها في سائر الميادين الأخرى ، وان اللغة تتغير أو بالاحرى تتطوّر بتأثير جميع العوامل التي من شأنها أن تؤثر إمّا في الأصوات وإمّا في المعاني . وهذا التطوّر حتميّ لا مناص منه اذ ليس ثمة مثال واحد للغة صمدت في وجهه . ويمكن للمرء ، بعد مضي فترة معينة من الزمن ، أن يلاحظ دائما حدوث تزحزحات محسوسة في اللغة .

ولهذا المبدإ من الصحة ما يجعله ينطبق حتى على اللغات الاصطناعية . فمن يخترع منها واحدة يبقى زمامها بيده ما دامت لم تصبح متداولة بين الناس ، لكن بمجرّد أن تبدأ تلك اللغة في القيام بدورها وتصبح ملكا مشاعا للجميع فإن زمامها يفلت من يده . وان اللغة الاصطناعية المسماة بالاسبرنتو محاولة من هذا

القبيل ، فترى هل ستفلت من تأثير هذا القانون الحتميّ ان كتب لها النجاح يوما ؟ ان اللغة بعد مرور الفترة الأولى من نشأتها ستدخل على الأرجح في طور حياتها الدلائلية وستتوارثها الأجيال حسب قوانين لا تمتّ بصلة الى قوانين عمليات الخلق القائمة على التفكير والرويّة . وعندئذ تنعدم امكانية العودة بها الى الوراء . وان مثل الذي يدّعي انشاء لغة ثابتة على الخَلَف أن يقبلها كما هي ، لكمثل الدجاجة تحضن بيضة البطّ ، فاللغة التي وضعها واخترعها سيجرفها تيّار التطوّر الذي يجرف جميع اللغات أحبّ ذلك أم كرهه .

فاستمرارية الدليل في الزمن وتغيّره فيه يمثلان مبدأ من مبادىء علم الدلائل العامّ . وقد نجد ما يؤيد ذلك في أنظمة الكتابة وفي لغة الصمّ البكم وغيرها .

لكن على أي شيء تقوم ضرورة التغيّر ؟ وقد يؤاخذنا بعضهم على عدم توضيحنا لهذه النقطة توضيحنا لمبدإ اللاتحوّل . وذلك اننا لم نميّز الى حدّ الآن مختلف عوامل التغيّر بعضها عن بعض . فينبغي اذن أن ننظر فيها في تنوعها لندرك مدى ضرورتها .

ان أسباب الاستمراريّة هي مبدئيًا في متناول الملاحظ . وليس الأمر كذلك بالنسبة الى أسباب التغيّر عبر الزمن . ويحسن أن نعدل مؤقتا عن تفصيل الحديث عنها بصورة مضبوطة وأن نقتصر على التعرّض بصورة مجملة الى ما يحدث في 112
العلاقات من تزحزح ، اذ من المعلوم ان الزمن ينال من كلّ شيء فيغيره.فلا مبرّر اذن لعدم خضوع اللغة لهذا الناموس الكوني .

ولنلخّص مراحل استدلالنا على هذا الأمر بالرجوع الى المبادىء التي أقمناها في المقدمة .

1) تجنّبا لتعريف الكلمات تعريفات عقيمة ميّزنا أولا في نطق الظّاهرة الكلية التي يمثلها **الكلام** langage بين أمرين اثنين هما : **اللغة** langue و**اللفظ** parole . واللغة بالنسبة إلينا هي الكلام اذا طرحْت منه اللفظ . وهي مجموع العادات اللغوية التي تمكّن المتكلم من الفهم والافهام .

2) إلّا أن اللغة بهذا التعريف لا تزال خارج اطار حقيقتها الاجتماعية ، لأن

هذا التعريف يجعل منها أمرا تخياليا اذ أنه ، أي التعريف ، لا يشمل سوى جانب واحد من جوانب الواقع اللغوي هو الجانب الفردي والحال أن وجود اللغة متوقف على وجود جمهور المتكلمين . وخلافا للظاهر ومهما كان العصر لا يمكن أن توجد اللغة خارج اطار الظاهرة الاجتماعية وذلك لأنها ظاهرة دلائلية . ويمثل طابعُها الاجتماعي احدى خصائصها الداخلية . ولهذا فان تعريفها الكامل يبرز لنا أمرين متلازمين لا ينفصلان كما يظهر ذلك من الترسيمة التالية :

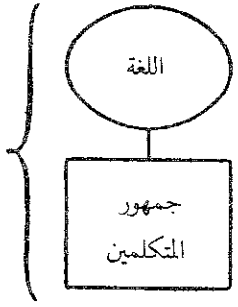

إلّا أن اللغة في مثل هذه الظروف ممكنة الحياة لكنها ليست بحيّة . وذلك لأننا لم نعتبر الى حدّ الآن إلا الواقع الاجتماعي مهملين الظاهرة التاريخية .

3) بما أن الدليل اللغوي اعتباطي فانه يبدو أن اللغة كما سبق أن حدّدناها عبارة عن نظام حرّ يمكن أن نرتب عناصره حسب مشيئتنا ولا يخضع إلّا الى مبدإ منطقي . أما طابعه الاجتماعي اذا اعتبرناه في حدّ ذاته فانه لا يعارض وجهة النظر هذه بالتدقيق . صحيح أن العمليات النفسية في مستوى الجماعات لا تقع على مادة منطقية صرف وأنه ينبغي أن نقرأ لكل ما من شأنه أن يضعف عمل المنطق في العلاقات العملية بين الأفراد حسابه ./وبالرغم من ذلك فليس هذا هو ما يمنعنا 113
من اعتبار اللغة مجرّد عملية تواضع قابل للتغيّر بحسب مشيئة من يهمهم أمرها ، انما ذلك هو عمل القوة الاجتماعية . وما لم نعتبر عمل الزمن فان حقيقة الواقع اللغوي تبقى ناقصة ويتعذّر علينا استنتاج أيّة نتيجة في هذا الصدد .

وان نحن اعتبرنا اللغة في الزمن بقطع النظر عن جمهور الناطقين — كأن نتصوّر شخصا عاش منفردا طوال قرون عديدة — فاننا قد لا نلاحظ أي تغيّر في

اللغة ولا أي عمل للزمن فيها . وان نحن على عكس ذلك اعتبرنا جمهور الناطقين بقطع النظر عن الزمن فلن نرى آثار القوى الاجتماعية عاملة في اللغة ولكي ندرك الواقع اللغوي على حقيقته ينبغي أن نضيف الى الترسيمة السابقة علامة تدل على مسيرة الزمن :

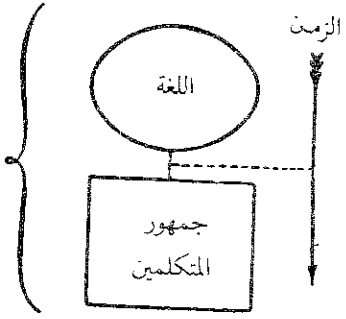

وعندها لن تكون اللغة حرّة اذ سيخوّل الزمن للقوى الاجتماعية العاملة فيها أن تعزز تأثيرها فيها ويؤول بنا الأمر الى مبدإ الاستمراريّة الذي يلغي مبدأ الحريّة . لكن الاستمراريّة تقتضي حتما التغيّر أي تزحزح العلاقات تزحزحا يقل ويعظم .

الباب الثالث 114

الألسنية القارّة والألسنية التطوّرية

الفصل الأوّل : الثنائية الدّاخلية ميزة جميع العلوم المباشرة للقيم

قليل هم الألسنيون الذين تفطنوا الى أن تدخل عامل الزمان من شأنه أن يخلق صعوبات من نوع خاص في الألسنية وأن يجعل علمهم أمام اتجاهين متباينين كل التباين .

وأما أغلب العلوم الأخرى فانها خالية من هذه الثنائية الجذريّة اذ ليس للزمان فيها تأثيرات خاصّة. فقد لاحظ الفلكيون أن الكواكب تتعرّض لتغييرات ذات بال لكن ذلك لم يدفع بعلم الفلك إلى الانقسام الى مادتين اثنتين . ويكاد علماء الجيولوجيا لا ينظرون إلّا في المتعاقبات ، لكنهم عندما يهتمون بالحالات القارة لطبقات الأرض ، لا يجعلون منها في دراستهم موضوعا مستقلا استقلالا جذريا ولئن كان هناك علم وصفي للحقوق وتاريخ للحقوق فلا أحد من الدارسين جعل منهما علمين متقابلين . ثم ان التاريخ السياسي للدول تجري أحداثه في الزمان تماما ، ورغم ذلك فعندما يقوم مؤرخ بوصف عصر من العصور فاننا لا نشعر بأنه خرج بنا عن ميدان الزمان والتاريخ . وعكس هذا صحيح : فعلم المؤسسات السياسية علم وصفي في جوهره ، لكنّه بوسع أصحابه أن يعالجوا عند الاقتضاء نقطة معيّنة منه عبر التاريخ بدون أن تختلّ لذلك وحدة موضوع هذا العلم .

115 وعلى عكس هذا فان الثنائية التي نحن بصدد الحديث عنها تفرض نفسها/ في العلوم الاقتصادية فرضا . ففي هذه العلوم وخلافا لما لاحظناه في الأمثلة السابقة فان علم الاقتصاد السياسي وعلم التاريخ الاقتصادي يمثّلان مادتين متميزتين تميزا واضحا في نطاق علم واحد . وتدّعم المؤلفات التي صدرت مؤخرا في هذا الميدان هذا التميّز . وان نحن سلكنا مثل هذا المسلك فاننا نخضع بدون أن نشعر بذلك الى ضرورة داخليّة : وما يدفعنا الى تقسيم الألسنية الى قسمين لكل منهما مبادؤه الخاصة به انما هو ضرورة من نفس القبيل . وذلك أن الألسنية كما هو الشأن في ميدان الاقتصاد السياسي تجابه مفهوم **القيمة** ، ففي هذين العلمين يتعلّق الأمر **بنظام من الموافقات بين أشياء من أضرب مختلفة** أي في الأول بين العمل والأجر وفي الثاني بين المدلول والدّال .

ومن المؤكد أنّه من صالح جميع العلوم أن يحدّد المهتمون بها بمزيد من التحري المحاور التي يوجد عليها ما تهتمّ به من مسائل ، وينبغي أن يقع التمييز في جميع الميادين ـــ حسب الرّسم الموالي ـــ بين :

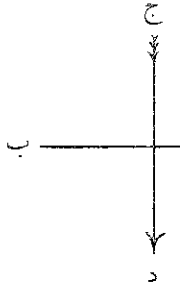

1 ـــ **محور المتواجدات** (أ ـــ ب) المتعلق بالعلاقات بين الأمور المتواجدة التي لا دخل للزمن فيها البتّة .

2 ـــ **ومحور المتعاقبات** (ج ـــ د) الذي لا نستطيع أن نعتبر عليه إلّا أمرا واحدا في نفس الوقت،لكننا نجد فيه جميع الأمور المتعلقة بالمحور الأول مع ما يطرأ عليها من تغييرات .

وبالنسبة الى العلوم المباشرة للقيم فان هذا التمييز يصبح ضرورة عملية بل ضرورة مطلقة في بعض الحالات . ففي هذا الصدد يمكن أن نتحدّى العلماء فنقول لهم : 116 ترى من منكم قادر على أن ينظّم بحوثه تنظيما محكما بدون أن يقع اعتبار/ هذين المحورين أي بدون أن يقع التمييز بين نظام القيم في حدّ ذاتها وبين هذه القيم نفسها ناظرين فيها باعتبار الزمان ؟

واذا تحتّم هذا التمييز على دارس أكثر من تحتّمه على غيره فانّما يتحتّم على الألسني : ذلك أن اللغة نظام من القيم المحض التي لا يحدّد حقيقتها شيء باستثناء الوضع الذي تكون عليه عناصر ذلك النظام في زمن معين . فما دامت قيمة من القيم ضاربة بجذورها من بعض وجوهها في الأشياء وفيما بين تلك الأشياء من علاقات طبيعية (كما هو الشأن في علم الاقتصاد حيث تكون قيمة العقار مثلا مناسبة طردا لمردوده) فانه يبقى بامكاننا إلى حدّ ما أن نتتبّع تطوّر هذه القيمة في الزمن بدون أن يغيب عنا أنها خاضعة في كل حين وآونة لنظام القيم المزامن لها . ومهما يكن من أمر ، فان علاقة القيمة بالأشياء تجعلها قائمة على أساس طبيعي ما ، وهذا ما يجعل تقديراتنا لها لا تتصف أبدا بالاعتباطية التّامة ، وبالتالي فان درجة تغيّرها درجة محدودة ، لكننا رأينا منذ حين أن لا محلّ للمعطيات الطبيعيّة في الألسنيّة .

أضف الى ذلك أنه كلما ازداد نظام من أنظمة القيم تشعّبا ودقّة وصرامة في الانتظام ازدادت الحاجة — بسبب تشعّبه ذاته — الى دراسته على التوالي حسب هذين المحورين . ونحن نعلم أن لا وجود لنظام يختصّ بهذه الخاصيّة — أي التشعب والدقّة — بقدر ما يختصّ به ميدان اللغة . فأنت لا تلاحظ في أي ميدان آخر مثل هذه الدقّة في القيم المتعاملة ولا مثل هذا العدد العديد من العناصر ولا مثل هذا التنوّع فيها ولا مثل هذا الضبط في ارتباطها المتبادل . ثم ان وفرة الدلائل التي اعتمدناها حجّة لتفسير استمرارية اللغة تمنعنا منعا باتّا من القيام بدراسة العلاقات عبر الزمان ودراستها داخل النظام في نفس الوقت .

ولكل ما سبق فانا قد ذهبنا الى التمييز بين ألسنيّتين اثنتين :فترى ماذا سنطلق عليهما من الأسماء ؟ ان الكلمات التي تتبادر الى أذهاننا ليست كلها متساوية في قدرتها على التعبير عن هذا التمييز . فلا يمكن استعمال كلمة histoire أي « تاريخ » وعبارة linguistique historique أي«ألسنية تاريخية » لأنهما تثيران في الذهن أفكارا مغرقة في الابهام وعدم الدقّة ؛ فبما أن التاريخ السياسي يتضمّن وصف العصور الى جانب /سرد الوقائع فقد يذهب الظّن ببعضهم الى أنه اذا 117
وصف الحالات اللغوية المتتالية فانه يكون بذلك قد درس اللغة حسب محور الزمن ، لكن لتحقيق هذه الغاية ينبغي أن يباشر بالنظر الظواهر التي تحوّل اللغة

من حالة الى أخرى كلا على حدة . أما كلمة evolution أي **تطوّر** وعبارة linguistique évolutive أي **ألسنية تطوّرية** فانهما أكثر دقة ولهذا فاننا سنستعملهما في أغلب الأحيان، وفي مقابل ذلك يمكن أن ننعت النوع الثاني من الدراسة اللغوية بـ science des états de langue أي **علم حالات اللغة** أو linguistique statique أي **الألسنية القارّة** . ولكي يزداد هذا التقابل وهذا التقاطع بين هذين الضربين من الظواهر المتعلقة بنفس الموضوع وضوحا وجلاء فقد فضلنا استعمال عبارتي : linguistique synchronique أي **ألسنية آنية** و linguistique diachronique أي **ألسنية زمانية** . ويعتبر آنيا كل ما يتعلق بالمظهر القارّ من علمنا هذا ، ويعتبر زمانيا كل ما له مساس بالتطورات . وسنطلق كذلك اسم synchronie أي **آنية** و diachronie أي **زمانية** — على الترتيب — على أية حالة من حالات اللغة وأية مرحلة من مراحل التطوّر .

الفصل الثاني : الثنائية الداخلية وتاريخ الألسنية

إن أول ما يشدّ الانتباه عند دراسة الظواهر اللغوية هو أن تعاقبها في الزمن أمر لا وجود له بالنسبة الى المتكلّم : فالمتكلم يجد نفسه دائما تجاه حالة لغوية ما . ولذلك يجب على الألسني الذي يريد أن يدرك حقيقة هذه الحالة اللغوية أن يضرب صفحا عن جميع الأمور التي أحدثتها ، أي أن يتجاهل الزمانية . وهو لا يستطيع أن يدرك ما في أذهان المتكلمين إلّا اذا ألغى الماضي الغاء . وذلك أنه ليس من شأن تدخّل التاريخ والزمن إلّا أن ينحرفا باحكامه عن الصواب . فكما أنه يكون من قبيل العبث أن تحاول رسم منظر جامع لسلسلة جبال الألب بالتقاطه وأنت تنظر إليها في نفس الوقت من قمم متعدّدة من جبال « الجورا » ، إذ ينبغي أن يرسم المنظر الجامع من نقطة واحدة،فكذلك الأمر بالنسبة الى اللغة فأنت لا تستطيع وصفها ولا ضبط قواعد استعمالها إلّا اذا قصرت نظرك على حالة معينة من حالاتها . ومثل الألسني يتتبّع تطوّر اللغة كمثل الملاحظ يتحرّك متنقلا من طرف جبال الجورا إلى طرفها الآخر لملاحظة ما يحدثه تغير موضع
الملاحظة من تحوّل في أبعاد عمق الصورة ./ 118

ويمكن أن نقول : إن الألسنية الحديثة منذ وجدت قد غرق أصحابها غرقا في

بخر الدراسة الزمانية فحسب . فقد استعمل دارسو النحو المقارن في اللغات الهندية الأوروبية ما لديهم من معطيات لاعادة بناء نموذج لغوي سابق عن طريق الافتراض ، وليست المقارنة بالنسبة اليهم سوى وسيلة لاعادة بناء رسم لغوي قديم . وقد استعملوا نفس هذا المنهج حتى في الدراسات الخاصة بمجموعات لغوية فرعية (مثل اللغات الرومنية واللغات الجرمانية وغيرها) ، ولم يعتمدوا الحالات اللغوية الآنية إلّا في شكل أجزاء مبتورة وبصورة منقوصة لا تفي بالحاجة بتاتا . وتلك هي النزعة التي سنها بوب Bopp فكان تصوره للغة تصورا هجينا فيه خلط وتردّد .

ولنتساءل الآن من ناحية أخرى كيف نهج الذين درسوا اللغة قبل نشأة الدراسات الألسنية أي أولائك « النحاة » الذين استلهموا مناهجهم من المناهج التقليدية ؟ من العجيب أن نلاحظ أن رأيهم في المسألة هذه مصيب كل الاصابة . فأعمالهم تبيّن بوضوح أنهم أرادوا وصف حالات لغوية ، فكان برنامجهم برنامجا آنيا صرفا . فقد حاول نحاة « بور روايال » Port Royal مثلا وصف حالة اللغة الفرنسية وضبط قيمها كما كانت عليه في عهد لويس الرابع عشر ، ولم يحتاجوا للقيام بذلك العمل الى لغة القرون الوسطى بل اتبعوا المحور الأفقي بأمانة (انظر ص 127) دون أن يحيدوا عنه البتة . فهذا المنهج اذن منهج مصيب صحيح لكن صحته لا تعني أن تطبيقه كذلك كان خاليا من كل عيب . فالنحو التقليدي قد أهمل من اللغة جوانب بأكملها مثل صياغة الكلمات وله غاية تقعيدية ، ويرى أن من واجبه فرض القواعد عوضا عن ملاحظة واقع اللغة . وهو نحو يعوزه بلوغ النظرة التأليفية الشاملة ، وغالبا ما لا يهتدي الى تمييز الكلمة المكتوبة من الكلمة الملفوظة الخ ...

وقد عاب بعضهم النحو الكلاسيكي بخلوّه من صفة العلميّة ومع ذلك فانّ
أساسه أقل قابليّة للطّعن وموضوعه أكثر ضبطا من الألسنية التي كان «بوب»
رائدها الأول . فالأمر لا يتبيّن بوضوح الغاية التي ترمي اليها هذه الألسنية وذلك
لأنّ صاحبها قد أقامها على أرضيّة لم يحكم ضبط حدودها ، ذلك أنها/ضاربة 119
بسهم في ميدانين اثنين معا لأنها لم تتوصّل الى التمييز بين الحالات القارّة والأطوار
المتعاقبة تمييزا واضحا .

وبعد أن أفرط الدارسون في الاهتمام بالجانب التاريخي أي الزماني للغة فانهم قد عادوا بالألسنية الى وجهة النظر القارّة التي كان يقوم عليها النحو التقليدي .

لكن هذه العودة كانت بعقليّة جديدة وبطرق أخرى . وبذلك فقد ساهم المنهج التاريخي اذن في تجدّد الألسنية هذا ، اذ جعلنا نفهم حقيقة الحالات القارّة في اللغة وذلك بصورة غير مباشرة .

وهكذا فان أصحاب النحو التقليدي لم يكونوا يدركون من ظواهر اللغة إلّا الصنف الآني ، أما الألسنية فقد كشفت لنا عن صنف جديد من الظواهر . إلّا أن هذا لا يكفي بل ينبغي أن نبرز المقابلة بين هذين الصنفين ابرازا كافيا حتى نتمكّن من استخلاص كل ما تتضمنه هذه المقابلة من نتائج .

الفصل الثالث : الثنائية الداخلية مفسرة من خلال بعض الأمثلة

ان التقابل بين وجهتي النظر — الآنية والزمانية — تقابل مطلق لا محيد عنه البتّة . وستبيّن لنا بعض الظواهر اللغوية فيم يتمثّل هذا الاختلاف ولم لا يمكن الحياد عنه ولا التراجع فيه .

ان crép- جذر ورثته اللغة الفرنسية عن الكلمة اللّاتينية crispus ومعناها « مجعّد » ومنه اشتق الفعلان crépir ومعناه « طلى الجدار بالملاط » و décrépir ومعناه « نزع عنه الملاط » . ثم استعارت الفرنسيّة من ناحية أخرى وفي زمن ما من اللّاتينية كلمة décrepitus ومعناها « هَرِم » المجهولة الأصل ، ومنها صاغت كلمة أخرى هي décrépit . ومع ذلك فنحن على يقين اليوم من أن جمهور المتكلمين بالفرنسية يقيمون علاقة بين عبارتي «un mur décrépi» أي حائط منزوع الملاط و «un homme décrépit» أي « رجل هَرِم » رغم أن الواحدة لا تمت الى الأخرى تاريخيا بصلة ، وكثيرا ما يقال عن واجهة البيت انها décrépite بمعنى منزوعة الملاط . وهذه ظاهرة لغوية تنتسب الى الظواهر القارة اذ يتعلّق الأمر
ههنا بعلاقة بين كلمتين متواجدتين في اللغة . واستوجب حدوث هذه الظاهرة
تضافر بعض الظواهر التطوّرية ، فقد تطلّب ذلك أن يتغيّر النطق بـ -crisp
ليصبح -crép وأن تستعار لفظة جديدة من اللّاتينية في وقت ما ، فنرى بوضوح
أن ليس لهاتين/الظاهرتين الزمانيتين أية صلة بالظاهرة القارّة التي تولّدت عنهما 120
وانهما من قبيل آخر .

واليك شاهدا آخر ذا مغزى عام للغاية : كانت كلمة gast ومعناها « ضيف » في الألمانية العليا القديمة تجمع في الأول على gasti وكلمة hant أي « يد » تجمع على hanti الخ . وأحدثت الكسرة i-في وقت لاحق إمالة (umlaut) أي أنه كان من تأثيرها ان انقلبت الفتحة (a) في المقطع السابق لها الى فتحة ممالة (e) فآلت gasti الى gesti و hanti الى henti الخ ثم ان تلك الكسرة i فقدت جرسها فتحوّلت gesti إلى geste الخ . ونتيجة لذلك فانك تجد اليوم Gaste وجمعها Gäste و Hand وجمعها Hände كما تجد بابا كاملا من الكلمات فيه نفس الفرق بين المفرد والجمع . وقد حدث أمر قريب الشبه بهذا في اللغة الانقلوسكسونية : فقد كانت كلمة fot أي « رجل » في مرحلة أولى تجمع على fōti* وكانت كلمة tōt أي « سنّ » تجمع على tōti * وكلمة gōs أي « إوزّة » على gōsi * الخ . ثم طرأ على هذه الكلمات تغير صوتي أول هو الامالة فآلت fōti * بمقتضاه الى fēti * ثم تغير صوتي ثان هو سقوط الكسرة النهائية فآلت fēti * الى fēt ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة fōt تجمع على fēt و tōt على tēt و gōs على gēs (ويقابل ذلك في الانقليزية المعاصرة foot : feet و tooth : teeth و goose : geese) .

لقد كانت علامة الجمع في البداية مجرّد اضافة كسرة (i) في جمعهم gast على gasti و fōt على fōti ؛ أما كيفية صياغة الجمع فيما بعد ، كجمعهم gast على gäste و fōt على fēt فانها تدل على ظهور طريقة جديدة في صوغ علامات الجمع . وهذه الطريقة ليست طريقة واحدة في كلتا الحالتين : ففي الانقليزية القديمة لا نجد سوى تقابل بين الحركات أما في الألمانية فثمّة علاوة على ذلك إما وجود الحركة النهائية (e) أو انعدامها . لكن هذا الفارق لا يهمنا فيما نحن فيه .

ويمكن دائما أن نعبّر عن العلاقة بين المفرد وجمعه مهما تكن صيغتهما بمحور أفقي على النحو التالي

ومهما تكن الأحداث اللغوية التي تسبّبت في الانتقال من صيغة الى أخرى فاننا بالعكس سنرسمها على محور عمودي وبذلك نحصل على الرّسم الجامع التالي :

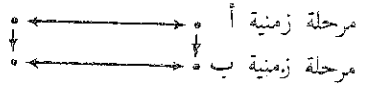

ومثالنا النموذجي هذا يوحي بعدد كبير من الخواطر المتصلة بصلب موضوعنا اتصالا مباشرا :

1) ان هذه الظواهر الزمانية ليست الغاية منها البتة التعبير عن قيمة من القيم بواسطة دليل آخر جديد : فأن تكون gasti قد آلت الى gesti ثم الى geste (وترسم في الالمانية Gäste) أمر لا يمت الى صيغ جمع الأسماء بصلة . ألا ترى أن نفس الظاهرة الصوتية أي الامالة في قولهم tragit التي آلت الى trägt تتعلّق بتصريف الأفعال ، وهكذا دواليك . فالظاهرة الزمانية اذن انما هي حدثٌ شرعيةُ وجودِهِ كامنة في ذاته أمّا ما يترتّب عنها من نتائج آنية خاصة فهي غريبة عنها ولا تمت اليها بصلة .

2) اننا لا نلاحظ في هذه الظواهر الزمانية أدنى نزعة ولو الى تغيير نظام اللغة : فليست الغاية منها المرور من نظام من العلاقات الى نظام آخر ، وذلك لأن التغير لا يتعلّق بترتيب العناصر بالذات وانما بالعناصر المرتّبة نفسها .

ونقف هنا مرّة أخرى على مبدإ سبق ذكره وهو أن النظام لا يتغيّر البتّة بصورة مباشرة ، فهو في حدّ ذاته ثابت لا يتغير انما يلحق التغيّر بعض العناصر دون بعض بصرف النظر عما يربطها بكامل النظام من تضامن . وهذا الأمر شبيه بما قد يحدث لو أنّ كوكبا من الكواكب التي تحوم حول الشمس تغير حجمه ووزنه ، فقد يحدث هذا الحدث المنعزل نتائج عامة وتحوّل توازن النظام الشمسي بأكمله . وللتعبير عن الجمع لا بدّ من وجود مقابلة بين صيغتين : فإمّا fōti : fōt * وإمّا fēt : fōt وهاتان الطريقتان في صوغ الجمع متساويتان في امكان الوجود ، بيد أن الانتقال من الأولى الى الثانية قد وقع بدون أية ممارسة ان صحّ هذا التعبير . فليس المجموع بأكمله هو الذي تحول ولم يُحدث نظامٌ نظاما

آخر بل ان عنصرا من عناصر النظام الأول قد تغيّر ، وكان هذا كافيا لأن يولّد عنه نظام جديد .

3) ان هذه الملاحظة تجعلنا ندرك على نحو أحسن من ذي قبل أن الحالة
122 اللغوية ذات طابع عفويّ دوما. فاللغة خلافا لتلك الفكرة الخاطئة الحاصلة لدينا عنها غالبا ليست إوالية خلقت ونسقت عناصرها للتعبير عن المتصوّرات بل نلاحظ على عكس ذلك ان الحالة اللغوية الناتجة عن التغيّر لم يكن القصد منها التعبير عما تتضمّنه تلك الحالة من معان . فقد تحدث حالة لغوية عفوية عن طريق الاتفاق وتصبح معطى من المعطيات كنحو حدوث fēt : fōt فنغتنمها لنحمّلها دور التمييز بين المفرد والجمع . ولكن هذا لا يعني أن الحالة اللغوية fēt : fōt أوفق للتعبير عن ذلك المعنى من fōt : fōti * (5) انما ينفخ فكر الانسان ــ بالنسبة الى كل حالة لغوية ــ في مادة معيّنة ويبعث فيها الحياة . لكن هذه النظرة التي أوحت الينا بها الألسنية التاريخية ظلّت مجهولة في النحو التقليدي ، ولم يكن أصحابه ليصلوا اليها البتّة بمناهجهم الخاصة . كما أن معظم فلاسفة اللغة يجهلون هذه النظرة كذلك ، والحال أنه لا وجود لفكرة أهم منها من الناحية الفلسفية .

4) هل يمكن على الأقل اعتبار سلسلة الظواهر الزمانية وسلسلة الظواهر الآنية من نفس القبيل ؟ كلا لأنه سبق أن قررنا أن التغييرات تحدث بدون أن يكون لحدوثها أي مقصد . أما الظاهرة الآنية فهي على عكس ذلك ذات دلالة دائما ، وتستوجب دائما وجود عنصرين متزامنين ، فالذي يعبّر عن الجمع ليس كلمة Gäst بمفردها انما تعبّر عنه المقابلة بين الكلمتين Gast وGäste. أما الظاهرة الزمانية فالامر فيها على عكس ذلك تماما فهي لا تتعلق إلّا بعنصر واحد : فلكي تظهر صيغة جديدة Gäste مثلا) يجب أن تتنازل لها الصيغة القديمة (gasti)عن مكانها .

واذن فان محاولة الجمع بين ظواهر متنافرة كل هذا التنافر في علم واحد لمن باب الاقدام على عمل من الأعمال الوهمية اذ نحن نباشر في وجهة النظر الزمانية ظواهر ليس لها أية علاقة بالأنظمة رغم أنها تكيف تلك الأنظمة .

واليك شواهد أخرى تدعّم ما استنتجناه من الأمثلة الأولى وتكمّله :

تقع النبرة في اللغة الفرنسية دائما على المقطع الأخير إلّا اذا كان يضمّ فتحة
123 صامتة (e muet) وهذه ظاهرة آنية تمثلها العلاقة بين مجموعة الألفاظ الفرنسية والنبرة . فما هو مصدرها ؟ انها متأتية عن حالة لغوية سابقة . فقد كان النظام النبري في اللّاتينية مخالفا وأشدّ تشعبّا : ذلك أن النبرة فيها تقع على المقطع قبل الأخير اذا كان طويلا ، أما اذا كان قصيرا فانها تتقدم الى الذي قبله (مثل amícus أي « صديق » و ánĭma أي « روح ») . ويوحي هذا القانون بعلاقات ليس لها أدنى صلة بقاعدة وقوع النبرة في اللغة الفرنسية . وقد يكون من الصحيح أنها نفس النبرة اذ أنها بقيت في نفس الموضع من الكلمة وهي تلحق دائما في اللغة الفرنسية نفس المقطع الذي كان يحملها في اللغة اللّاتينية مثل : amícum ← ami و ánimam ← âme. ومع ذلك فان صورتي التنبير مختلفتان في هذه المرحلة وفي تلك لأن صيغة الكلمات قد تغيرت : فنحن نعلم أن كل ما كان واقعا بعد النبرة في اللّاتينية اما أنه قد سقط في الفرنسية أو آل الى فتحة صامتة (e muet) . ونتيجة لهذا التغير الذي طرأ على الكلمات لم يبق موضع النبرة هو هو بالنسبة الى المجموعة . ومنذ ذلك الحين شعر المتكلمون بهذه العلاقة الجديدة فوضعوا النبرة بصورة فطريّة على المقطع الأخير حتى في الكلمات الدخيلة في الفرنسية عن طريق الكتابة (مثل facile أي « سهل » و consul أي « قنصل » و ticket أي « تذكرة » و burgrave أي « سيّد » وغيرها) . ومن البديهي أنهم لم يقصدوا بذلك الى اتخاذ نظام جديد ولا الى تطبيق قاعدة تنبيرية أخرى اذ أن النبرة في كلمة مثل amícum ← ami قد بقيت دائما على المقطع نفسه ومع ذلك فقد تدخلت في هذه العملية ظاهرة زمانية اذ تحوّل موضع النبرة بدون أية ممارسة . فقانون النبرة ــ شأنه في ذلك شأن كل ما يتعلّق بالنظام اللغوي ــ عبارة عن نسق من العناصر ونتيجة عفويّة غير ارادية من نتائج التطوّر .

واليك مثالا آخر أكثر جلاء ووضوحا : ففي اللغة الصقلبية القديمة أصبحت slovo ومعناها « الكلمة » في حالة الدلالة على الواسطة في صيغة المفرد : slovemь وفي حالة الفاعلية في صيغة الجمع slova وفي حالة الاضافة في صيغة الجمع slovъ الخ . ولكل حالة من حالات الاعراب هذه علامتها الخاصة بها . لكن الحركتين الضعيفتين ь و ъ الممثلتين في اللغات السلافية للحركتين ĭ و ŭ (أي الكسرة والضمة) في اللغة الهندية الاروبية قد اندثرتا اليوم فلذلك نجد في

اللغة التشيكيّة مثلا : slovo و slovem و slova و slov . وكذلك كلمة : žena أي « امرأة » وهي في حالة المفعولية في صيغة المفرد ženu وفي حالة الفاعلية في صيغة الجمع ženy وفي حالة الاضافة في صيغة الجمع žen . فعلامة الاضافة (في هذين المثالين slov و žen) هي انعدام العلامة أي الدرجة الصفر . فنلاحظ اذن أن العلامة المادية ليست ضرورية/ للتعبير عن فكرة ما من الأفكار ويمكن 124
للغة أن تكتفي بالمقابلة بين شيء ولا شيء . فنحن نميّز هنا على سبيل المثال حالة الاضافة في الجمع žen لمجرّد كونها ليست žena ولا ženu ولا أية صيغة أخرى . وقد يستغرب المرء لأول وهلة كيف أن التعبير عن فكرة دقيقة دقة حالة الاضافة في صيغة الجمع يقع بواسطة انعدام العلامة لكن هذا بالذات هو الحجة على أن كل شيء انما يحدث عن محض الصدفة . فاللغة إوالية يتواصل عملها رغم ما يُلحقه بها المستعملون من التغيير والاختلال .

كل هذا يدعم ما سبق أن وضعناه من مبادىء نلخصها كما يلي :
ـــ ان اللغة نظام يمكن بل يجب أن تعتبر جميع أجزائه في تضامنها آلآني .

ـــ لما كانت التغيرات لا تلحق البتة النظام برمّته بل تلحق هذا العنصر أو ذاك من عناصره فقط فانه لا يمكن دراسة هذه التغيرات إلّا خارج هذا النظام ولا شك أن لكل تغير من هذه التغيرات صداه في النظام لكن التغيّر الأول قد أصاب عنصرا واحدا فقط وليس له أية صلة داخلية بالنتائج التي قد تترتّب عنه بالنسبة الى مجموع النظام . وهذا الفرق من حيث الجوهر، بين عناصر متعاقبة وعناصر متواجدة أي بين ظواهر جزئية وظواهر تمس كامل النظام، يمنعنا من أن نجعل من هذه وتلك مادة لعلم واحد .

الفصل الرابع : الفرق بين المستويين الآني والزماني كما يتجلّى من خلال بعض المقارنات

لكي نبين أن كلا من الدراسة الآنية والدراسة الزمانية قائم بذاته وأنهما في نفس الوقت مترابطان يكفي أن نشبه الدراسة الآنية بإسقاط جسم من الاجسام على سطح ما : وذلك ان كل اسقاط يتعلّق مباشرة بالجسم الذي وقع اسقاطه ،

وهو مع ذلك يختلف عنه ويمثل شيئا موجودا على حدة . ولولا ذلك لما وجد علم كامل هو علم الاسقاطات ولاكتفينا بالنظر في الأجسام نفسها . ونحن نجد في الألسنية/نفس العلاقة بين الواقع التاريخي وحالة من حالات اللغة وهذه الحالة هي 125
بمثابة الاسقاط لذلك الواقع التاريخي في نقطة معينة من الزمن . فليست دراستنا للاجسام أي الوقائع الزمانية هي التي بها نتمكن من معرفة الحالات الآنية كما أنه لا يمكن أن تحصل لدينا فكرة ما عن الاسقاطات الهندسية بدراسة مختلف الأجسام وذلك مهما بلغت هذه الدراسية من الدّقة .

وكذلك الأمر إن نحن قطعنا ساق احدى النباتات قطعا أفقيا ، فاننا نلاحظ على مساحة هذا القطع رسما معقدا تقل درجة تعقده وتعظم . وليس ذلك إلّا رِثَايَة لألياف الطول ، ويمكن مشاهدتها ان نحن عمدنا الى قطع ساق النبتة ثانية قطعا عموديا أي في اتجاه رأسي بالنسبة الى القطع الأول . وفي هذا المثال كذلك فان احدى الحالتين متعلقة بالأخرى : فالقطع العمودي يكشف لنا عن الألياف نفسها التي تكوّن النبتة ، أما القطع الأفقي فيكشف لنا عن صورة تجمعها على سطح معيّن ، لكن عملية القطع الثانية متميزّة عن الأولى لأنها تمكننا من ملاحظة بعض ما بين الألياف من علاقات لن نستطيع ادراكها البتة من خلال المستوى العمودي فقط .

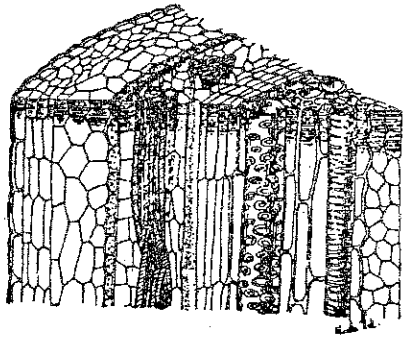

ولكن من بين كل ما يمكن تصوّره من المقارنات فان أشدها بيانا وأسطعها برهانا هي تلك التي يمكن أن نقيمها بين كيفية قيام اللغة بعملها وكيفية اللعب

أثناء مباراة من مباريات الشطرنج . فنحن في كلتا الحالتين أمام نظام من القيم ونشهد ما يلحقها من تغيرات . فمقابلة من مقابلات الشطرنج هي بمثابة انجاز اصطناعي لما تقدمه لنا اللغة في صورة طبيعية .

ولننظر في هذه المقابلة عن كثب .

فالذي نلاحظه أولا أن أيّة مرحلة من مراحل هذه اللعبة توافق كل الموافقة حالة من حالات اللغة . فقيمة كل قطعة بالنسبة الى بقية القطع هي رهينة [موقعها] من الرقعة وذلك كما أن كل عنصر من عناصر اللغة [illegible] قيمته بمقابلته مع جميع العناصر الأخرى .

والثاني نلاحظه ثانيا أن النظام [illegible] إلا نظاما مؤقتا اذ هو عرضة للتغير [illegible] أن قيمة القطع هي رهينة كذلك بالخصوص [illegible] الثابت لا يتغير [illegible] قانون هذه اللعبة ، وهو قانون موجود قبل بداية المقابلة ، [illegible] من [illegible] ومثل هذا القانون المتفق [illegible] اتفاقا لا [illegible] في [illegible] المبادئ [illegible] الدلائلي .

ونلاحظ في النهاية أننا اذا أردنا أن نمرّ من حالة توازن في اللعب الى أخرى أو — باستعمال مصطلحاتنا الخاصة — من حالة آنية الى أخرى فانه يكفي لذلك نقل قطعة واحدة لا غير، لا أن نحدث اضطرابا عاما في ترتيب القطع . ولنا في هذه العملية النظير المقابل للظاهرة الزمانية بجميع خصائصها ؛ وفعلا :

أ — فان لاعب الشطرنج لا يحرّك عند القيام بكل عملية إلا قطعة واحدة وكذلك الشأن في اللغة اذ لا تطرأ التغييرات إلّا على عناصر منعزلة .

ب) وعلى الرغم من ذلك فان لكل عملية تأثيرا على كامل النظام ويستحيل على اللاعب أن يتنبأ بالضبط بالحدود التي يقف عندها ذلك التأثير . وتكون التغيرات في القيم بعد كل عملية اما منعدمة أو هامة جدا أو متوسطة الأهمية وذلك حسب الظروف . فيمكن لعملية من العمليات أن تحدث انقلابا في سير المقابلة بأسرها وأن يلحق تأثيرها حتى القطع التي كانت لوقت ما خارج نطاق انعكاسات اللعب . وقد رأينا منذ حين أن هذا الأمر ينطبق تماما على اللغة .

ج) ان تحويل قطعة من مكان الى آخر لَعمليّة متميزة تميزا مطلقا عن حالة التوازن السابقة وحالة التوازن اللاحقة لها مباشرة . والتحويل الحاصل هكذا لا ينتمي الى هذه الحالة ولا إلى تلك : ونحن نعلم ان الحالات هي الشيء الهام الوحيد .

ولكلّ وضع تكون عليه القطع أثناء مقابلة في الشطرنج طابعه الذي تنفرد به وهو أنه وضع قد تخلّص من ربقة ما سبقه من الأوضاع الأخرى . وليس يهمّنا أن نكون وصلنا إليه من هذه السبيل أو من تلك ، وليس للذي يكون قد تتبّع جميع أطوار المقابلة أدنى فضل في فهمها على أحد الفضوليين جاء ينظر ما وصلت اليه 137
حالة اللعبة في الفترة الحاسمة . واذا أردنا أن نصف وضع القطع في هذه المرحلة لم نكن في حاجة البتة الى أن نذكّر بما حصل قبل ذلك بلحظات معدودات . وكل هذا ينطبق كذلك على اللغة ويقرّ نهائيا مبدأ التمييز الجذري بين الدراسة الزمانية والدراسة الآنية اقرارا . فاللفظ لا يقوم أبدا إلّا على أساس حالة من حالات اللغة ، أما التغيرات التي تطرأ بين حالة وأخرى فلا محلّ لها فيه .

ولا نجد إلّا نقطة واحدة تختل فيها صحة وجه الشبه بين اللغة ولعبة الشطرنج : فلاعب الشطرنج يحول القطع ويحدث في النظام أثرا عن قصد ؛ أما التغير الحاصل في اللغة فهو خال من كل قصد وكل سابق اضمار ، اذ تتحوّل قطعها أي عناصرها أو بالأحرى تتغير تلقائيا وبحكم الصدفة والاتفاق . فإمالة فتحة hanti في قولهم Hände وكذلك Gäste : gasti (انظر ص 132) قد نتجت عنها صورة جديدة لصياغة الجمع ولكنها أحدثت أيضا صورة جديدة من صور تصريف الفعل كما في قولهم trägt عوضا عن tragit الخ . ولكي تشبه مقابلة الشطرنج قيام اللغة بعملها شبها كليا ينبغي أن نفترض وجود لاعب لا وعي له ولا ذكاء . على أن هذا الفرق الوحيد بين اللغة ولعبة الشطرنج يجعل المقارنة أكثر افادة للناظر اذ هو يبيّن كيف أنه من الضروري أن نميّز في الألسنية بين هذين الضربين من الظواهر تمييزا مطلقا ؛ اذ لئن تعذّر علينا حصر الظواهر الزمانية وردّها الى النظام الآني الذي تكيفه تلك الظواهر عندما يقصد المرء الى أن يقوم بتغيير من هذا القبيل، فمن باب أولى وأحرى أن يستحيل ذلك عندما تسلّط تلك الظواهر الزمانية قوة عمياء على صورة انتظام أحد الأنظمة الدلائلية .

الفصل الخامس : تقابل الألسنية الآنية والألسنية الزمانية من حيث مناهجها ومبادئهما

يظهر التقابل بين وجهة النظر الزمانية ووجهة النظر الآنية واضحا جليّا في جميع النقط .

من ذلك مثلا — وحتى نبدأ بأشد الفوارق بروزا —/أنهما لا تتساويان من حيث الأهمية . فمن البديهي في هذه النقطة أن المظهر الآني يطغى على المظهر الزماني اذ يمثل عند جمهور المتكلمين الواقع اللغوي الحقيقي الوحيد (انظر ص 129) . وهو كذلك بالنسبة الى الألسني : فاذا نظر في اللغة من الوجهة الزمانية فان ما يلوح له ليس اللغة إنما سلسلة من الأحداث التي تسبّبت في تغييرها . وكثيرا ما سمعناهم يؤكدون على أن ليس ثمة ما هو أهم من معرفة ظروف نشأة حالة لغوية معينة،وهو لعمري أمر صحيح من بعض الأوجه : فالظروف التي كوّنت هذه الحالة تكشف لنا بكل وضوح عن طبيعتها الحقيقية وتجعلنا في مأمن من الوقوع في بعض الأوهام (انظر ص 133 وما بعدها) ، لكن هذا الأمر يدل بالذات على أن الدراسة الزمانية ليست غايتها في حدّ ذاتها . ويصدق عليها قولهم في مهنة الصحافة بأنها تؤدي بصاحبها الى كل ما يمكن تصوّره بشرط أن يعرف كيف يتخلص منها .

128

ثم ان مناهج هذا وذاك من قسمي الألسنيّة يختلف بعضها عن بعض وذلك على نحوين اثنين :

أ — ليس للدراسة الآنية إلّا وجهة نظر واحدة هي وجهة نظر جمهور المتكلمين ، ويقوم منهجها بأكمله على جمع شهاداتهم . واذا أردنا أن نعرف الى أي حدّ يكون الأمر أمرا واقعا بالفعل يجب بل يكفي أن ننظر إلى أي حد هذا الأمر موجود في وعي المتكلمين . أما الألسنية الزمانية فيتحتّم على أصحابها بخلاف ذلك أن يميّزوا بين وجهتي نظر اثنتين : احداهما **استقباليّة** prospective تتبع مجرى الزمن والاخرى **استذبارية** rétrospective تعود فيه الى الماضي . وينجر عن هذا الاعتبار ثنائيّة في المنهج سنتعرّض اليها في القسم الخامس .

ب — وينجرّ عن تحديدنا لمجال كل من هذين الميدانين اختلاف ثان : فالدراسة الآنية ليس موضوعها جميع الظواهر المتزامنة بل هو مجموع الظواهر المتعلقة بكل لغة من اللغات فقط ، وقد نذهب في زيادة التقسيم الى حدّ اللهجات واللهجات الفرعيّة متى دعت الضرورة الى ذلك . والواقع أن كلمة synchronique أي آني ليس لها من الدقّة ما يفي بالحاجة وينبغي أن نعوضها بكلمة أخرى وان كانت أطول والحقّ يقال هي idiosynchronique » أي آني خاص » .

أما الألسنية الزمانية فهي بخلاف ذلك ليست/تستغني عن تخصيص من هذا القبيل فقط بل ترفضه ، فما يهتم به أصحابها من عناصر لا ينتمي بالضرورة الى لغة واحدة (قارن بين فعل الكينونة في اللغة الهندية الأوروبية esti * وفي اليونانية ésti وفي الألمانية ist وفي الفرنسية est) بل ان تتابع الظواهر الزمانية وتكاثرها على وجه البسيطة هما بالذات سبب اختلاف الألسن وتنوعها . ولاقامة الدليل على وجود قرابة بين صيغتين لغويتين يكفي أن نجد بينهما رابطا تاريخيا زمانيا مهما بعد ذلك الرابط ومهما كان غير مباشر .

129

وليس ما ذكرناه أبرز المقابلات ولا أبعدها غورا : اذ ينجرّ عن التقابل الجذري بين الظاهرة التطوّرية والظاهرة القارّة أن جميع المفاهيم المتعلقة بهذه أو بتلك تتساوى في أنه لا يمكن ردّ بعضها الى بعض . ويمكن أن نبرهن على هذه الحقيقة باعتماد أي مفهوم من هذه المفاهيم . وهكذا فان « الظاهرة » الآنية لا تمتّ الى الظاهرة الزمانية بصلة (انظر ص 134) . فالأولى عبارة عن علاقة بين عناصر متزامنة أما الثانية فهي عبارة عن تعويض عنصر بعنصر آخر عبر الزمان أي أنها حدث . وسنرى أيضا ص 167 ان اتحاد العناصر في المستوى الزماني واتحادها في المستوى الآني شيئان مختلفان شديد الاختلاف : ففي اللغة الفرنسية ومن الوجهة التاريخية تعتبر أداة النفي pas والاسم pas أي « خطوة » كلمة واحدة ، أما اذا اعتبرناهما في اللغة الفرنسية اليوم أي بصورة آنية فانهما يمثلان عنصرين متميزين كل التميّز . ولعل في هذه الملاحظات ما يكفي لأن ندرك ضرورة عدم الخلط بين وجهتي النظر المتقدمتي الذكر،لكن هذه الضرورة لا تبرز على نحو أشد بداهة من كيفية بروزها فيما سنقيمه الآن من تمييز .

الفصل السادس : القانون الآني والقانون الزماني

كثيرا ما تراهم يتحدّثون عن وجود قوانين في الألسنية ، ولكن هل ان الظواهر اللّغوية خاضعة حقا للقوانين وما عسى أن تكون طبيعة تلك القوانين ؟ لما كانت اللغة مؤسسة من المؤسسات الاجتماعية فانه يجوز لنا أن نذهب ــ مسبّقا ــ الى أن اللغة/تخضع لتقنيات مماثلة لتلك التي تخضع لها المجموعات البشرية.ونحن نعلم 130 أن كل قانون اجتماعي يتميّز بخاصيتين أساسيتين هما اللزومية والشمولية : فهو يفرض نفسه ويشمل جميع الحالات وذلك في نطاق حدود زمانية ومكانية طبعا .

فهل تستجيب قوانين اللغة لهذا التعريف ؟ اذا أردنا أن نعرف الجواب فأول ما ينبغي أن نقوم به ــ عملا بما قلنا منذ حين ــ هو أن نفصل مرة أخرى مجال ما هو آني عن مجال ما هو زماني . فنحن هنا بازاء مسألتين لا ينبغي الخلط بينهما ، وان الذي يتحدث عن القانون اللغوي بصورة عامة لكمن يحاول القبض على شبح .

واليك بعض الأمثلة المقتبسة عن اليونانية وقع فيها خلط « القوانين » من المجالين عمدا :

1) أصبحت الأصوات المجهورة المنفّسة الهندية الاروبية أصواتا مهموسة مُنفّسة في اليونانية وذلك مثل dhūmos * thūmós ومعناها « نفس » ومثل bherō ← pherō ومعناها « أحمل » الخ ...

2) لا تنتقل النبرة الى ما قبل المقطع السابق للمقطع الذي قبل الأخير أبدا .

3) تنتهي جميع الكلمات بحركة أو باحدى الحروف التالية : السين والنون والرّاء لا غير .

4) اذا وقعت السين في بداية الكلمة قبل حركة قلبت هاء (بنفس شديد) مثل septm * (وتوافق septem في اللّاتينية) ومنها تولّدت heptá ومعناها « سبعة »

5) انقلبت الميم الواقعة في آخر الكلمة نونا مثل jugom * التي أصبحت zugón (وهي في اللّاتينية jugum (6) ومعناها « النّير ») .

6) اذا وقعت الأصوات الشديدة في آخر الكلمة [illegible] مثل :
[illegible]

الأول [illegible] قانون زماني إذ [illegible] أما القانون الثاني [illegible]

[illegible]

[illegible]

فالقانون الآني عام لكنه ليس بلزومي ولا شك أنه قانون يفرض نفسه على المتكلمين عن طريق ضغط الاستعمال الجماعي (انظر ص 119) ولكننا لا نقصد هنا اللزوم المسلط على المستعملين انما نعني أنه اذا كانت نقطة من اللغة خاضعة لاطراد قانون ما فلا وجود في اللغة لأية قوة تضمن المحافظة على ذلك الاطراد . فالقانون الآني هو مجرّد تعبير عن وجود نظام ما ويقتصر على ملاحظة حالة من الحالات في اللغة ، وطبيعته كطبيعة ذلك القانون الذي يقتضاه بلاحظ الملاحظ أن أشجارا مثمرة قد غرست في أحد البساتين في صورة خمسات . فالنظام الذي يحدّده القانون الآني نظام عابر غير ثابت ، وذلك بالذات لأنه ليس أمرا لزوميا . فأنت ترى أنه ليس ثمّة قانون أكثر انتظاما واطرادا من ذلك القانون الآني الذي تخضع له النبرة في اللاتينية (وهو قانون يشبه القانون الثاني المذكور أعلاه تماما) ومع ذلك فان نظام التنبير هذا لم يصمد أمام عوامل التغيير وتغلب عليه قانون جديد هو قانون التنبير في الفرنسية (انظر أعلاه ص 134 وما بعدها) . وخلاصة القول أننا عندما نستعمل كلمة قانون في المجال الآني فانما نعني بذلك معنى التنظيم أي معنى مبدإ يقوم عليه انتظام أو اطراد ما .

أما وجهة النظر الزمانية فتقتضي بخلاف ذلك وجود عامل حركيّ ، به يحدث أثر ما وينجز عمل ما . لكن هذه الخاصية اللزومية غير كافية لاطلاق مفهوم القانون على الظواهر التطورية اذ لا نقول بوجود قانون إلّا اذا خضعت مجموعة من الظواهر لقاعدة واحدة . ورغم وجود بعض الأمور المخالفة لما سنقوله فان للأحداث
132 الزمانية دائما طابعا عرضيا وخصوصيا ./

ففي الظواهر الدلالية مثلا يتجلى لنا هذا الطابع في الحين . فان أصبح للكلمة الفرنسية poutre ومعناها « فرس » معنى « القطعة من الخشب والعارضة » فذلك راجع الى أسباب خاصة ولا صلة له بالتغيّرات الأخرى التي قد تكون حدثت في نفس الفترة الزمنية . فليس ذلك سوى حادث طارىء من جملة الأحداث التي يسجلها تاريخ لغة من اللغات .

وأما التغيّرات التركيبية والصرفية فلا تدرك بنفس الدرجة من الوضوح لأول وهلة . ففي زمن ما انقرضت من اللغة الفرنسية معظم علامات حالة الفاعلية القديمة . أفليس في هذا الأمر مجموعة من الظواهر الخاضعة لنفس القانون ؟ كلا لأن جميع هذه الظواهر ليست سوى صور عديدة لحادث واحد منعزل اذ ما أصيب هنا هو مفهوم الفاعلية في حدّ ذاته ، وبصورة طبيعية اخرّ عن زواله زوال سلسلة كاملة من الصيغ . وكل من لا يرى من اللغة إلّا مظاهرها الخارجية تبدو له هذه الظاهرة الوحيدة مغمورة تحجبها عديد الصور المختلفة التي تتجلى فيها ، إلّا أن تلك الظاهرة هي واحدة في أصل طبيعتها وتمثل حدثا تاريخيا له من الانعزال في مجاله الخاص ما لذلك التغيّر الدلالي الذي أصاب كلمة poutre ؛ وهي لا تظهر في مظهر « القانون » إلا لأنها تتحقّق في صلب نظام ما : فالذي يجعلنا نتوهّم أن الظاهرة الزمانية تخضع لنفس القيود التي تخضع لها الظاهرة الآنية انما هو ذلك التنسيق المحكم الدقيق لذلك النظام .

وأما بالنسبة الى التغيرات الصوتية فان ما سبق يصح عليها تماما . وبالرغم من ذلك فكثيرا ما يقول الدارسون بوجود قوانين صوتية . وفعلا فاننا نلاحظ أن جميع الكلمات التي لها خاصية صوتية مشتركة قد أصابها نفس التغيّر وذلك في وقت معيّن وفي منطقة معينة ، فمن ذلك أن القانون الأول المذكور بالصفحة 142 (الذي بمقتضاه آلت dhūmos * الى thūmós في اللغة اليونانية) قد انطبق على

جميع الكلمات اليونانية التي تتضمن صوتا مجهورا منفسا (نحو néphos * nebhos و méthu ← * medhu و ánkhō ← * anghō وغيرها) . أما القاعدة الرابعة (heptá ← septm) فتنطبق على كلمتي hérpo ← * serpō و hûs ← * sus وعلى جميع الكلمات المبدوءة بحرف السين . ويبدو لنا هذا الاطراد الذي تنازعوا في شأنه أحيانا أمرا قائما على أساس صحيح . أما ما شذّ في الظاهر عن ذلك فانه لا ينال
133 في شيء/من حتمية التغيّرات التي من هذا القبيل لأن مثل هذه الشواذ تفسر أسبابها إمّا بقوانين صوتية أكثر خصوصية (انظر المثال triksí : tríkhes (ص 149) أو بتدخل أحداث لغوية من قبيل آخر (كالقياس وغيره) . فلا شيء — فيما يبدو — اذن أكثر من ميدان التغيرات الصوتية موافقة للتعريف الذي به عرفنا أعلاه كلمة قانون ؛ ومع ذلك فمهما يكن عدد الحالات التي تثبت فيها صحة انطباق قانون من القوانين الصوتية فان جميع الشواهد التي في كنف هذا القانون ليست سوى صور مختلفة تابعة لظاهرة خاصة واحدة .

ويتمثل المشكل الحقيقي في معرفة ما اذا كانت التغيّرات الصوتية تطرأ على الكلمات أو الأصوات فقط ، الجواب عن ذلك لا مجال للشك فيه : فالذي تغير في الكلمات التالية (néphos و méthu و ánkhō وغيرها) انما هو صوتم معيّن وهو صوت مجهور منفّس هندي أوروبي أصبح صوتا مهموسا منفّسا ، والذي تغيّر انما هو حرف السّين الواقع في بداية الكلمة في اللغة اليونانية الاصلية فأصبح هاء ، وهلم جرّا . وكل ظاهرة من هذه الظواهر منعزلة ومستقلة عن سائر الظواهر الأخرى التي من نفس القبيل وهي مستقلة أيضا عن الكلمات التي فيها حدث ذلك التغيّر (8) . فقد تغيرت هذه الكلمات بصورة طبيعية من حيث مادتها الصوتية ولكن هذا لا ينبغي أن يجعلنا نغترّ فنخطىء في شأن الحكم على الطبيعة الحقيقية لهذه الظاهرة .

فما هي الحجة التي عليها نعتمد عندما نقول ان الكلمات في حدّ ذاتها ليست هي المعنية بالأمر عند حصول التغيرات الصوتية ؟ حجتنا هي ملاحظة بسيطة للغاية مفادها أن مثل تلك التغيرات لا صلة لها في الواقع بالكلمات ولا يمكن أن تنال منها في جوهرها . فوحدة الكلمة لا تتكون من مجموع صوائتها
134 فحسب بل هي موقوفة أيضا على خصائص أخرى دون صفتها/المادية . فهب أن

وترا من أوتار آلة « البيانو » قد نشز ، فكلما لمسنا ذلك الوتر أثناء عزف لحن ما سمعنا صوتا ناشزا . ولكن ترى أين حدث ذلك ؟ أهو في "ميلوديا" القطعة ؟ كلّا . فليست هي التي اختلّت بل ان آلة البيانو وحدها هي التي أصابها العطب . وكذلك الأمر تماما في علم الأصوات . فنظام الصواتم هو الآلة التي عليها نعزف لتقطيع الكلمات التي منها تتكوّن اللغة . فاذا اتفق أن تغير عنصر من هذه العناصر الصوتية فقد تنجرّ عن ذلك نتائج شتى ؛ لكن عملية التغير في حدّ ذاتها لا تتعلق بالكلمات التي هي — ان صحّ التعبير — بمثابة الميلوديا في الموسيقى .

وهكذا فان الظواهر الزمانية ظواهر خصوصية وما يصيب نظاما من الأنظمة من تحوّل انما يقع بفعل أحداث ليست غريبة عن ذلك النظام فحسب (انظر ص 133) بل ومنعزلة ولا تكوّن نظاما فيما بينها .

وخلاصة القول ان للظواهر الآنية مهما كانت نوعا من الانتظام والاطراد ولكنها خالية من كل طابع لزومي. أما الظواهر الزمانية فانها بخلاف ذلك تفرض نفسها على اللغة إلّا أنها لا تتصف البتة بأي طابع شمولي .

وخلاصة القول — وهو بيت القصيد — فلا الظواهر الآنية ولا الظواهر الزمانية خاضعة لقوانين بالمعنى الذي سبق أن حدّدناه أعلاه . وان نحن رمنا رغم ذلك القول بوجود قوانين لغوّية فاننا نعني بهذه العبارة مدلولات مختلفة كل الاختلاف وذلك حسب تعلقها بظواهر تابعة للمجال الآني أو بظواهر تابعة للمجال الزماني .

الفصل السابع : هل يمكن أن ندرس اللغة دراسة سرمدية

لقد استعملنا إلى حدّ الآن كلمة قانون بالمعنى الذي لها في ميدان القضاء . لكن ترى هل يمكن أن نجد في اللغة قوانين بالمعنى الذي لهذه الكلمة في العلوم الفيزيائية والطبيعية أي هل فيها علاقات تثبت صحتها في كل مكان وزمان ؟ وباختصار أفليس يمكننا أن ندرس اللغة من وجهة نظر سرمدية ؟

لا شك أن مثل هذه الدراسة أمر ممكن . فبما أن التغييرات الصوتية ظاهرة

135 حدثت وستحدث دائما فانه يمكن/اعتبار هذه الظاهرة بصورة عامة مظهرا من المظاهر القارة في الكلام البشري . فهي اذن قانون من قوانينه . وفي الألسنية كما في لعبة الشطرنج (انظر ص 138 وما بعدها) قواعد تبقى قائمة مهما كانت الأحداث لكن تلك القواعد ليست سوى مبادىء عامة ، وجودها مستقل عن الظواهر الملموسة ، ولكن ما ان يتعلق الأمر بظواهر خاصة ملموسة حتى يتعذر القول بوجود وجهة نظر سرمدية . فكل تغيّر صوتي مهما كان امتداده مقيد بزمان ومكان معلومين ولا يمكن لأي منها أن يحدث في جميع الأزمنة وفي جميع الأمكنة . فوجوده وجود زماني لا غير . ويمثل هذا الأمر بالذات معيارا به يمكن أن نميز ما هو من اللغة مما ليس منها . فكل ظاهرة ملموسة من شأنها أن تفسّر تفسيرا سرمديا لا يمكن أن تنتسب الى اللغة . ولنضرب لك مثالا : تُقابل الكلمة الفرنسية chose، من وجهة النظر الزمانية،أصلَها اللاتيني causa؛وتُقابل،من وجهة النظر الآنيّة،جميعَ الكلمات التي يمكن أن تقترن بها في الفرنسية المعاصرة . فالأصوات التي منها تتكون كلمة (sŏz) الشين والضمة نصف المنغلقة والزاي) هي وحدها دون غيرها التي يمكن أن تكون موضوعا للملاحظة السرمدية ، إلّا أنه ليست لها أية قيمة لغوية . وحتى من وجهة النظر الزمانية فان أصوات هذه الكلمة أي sŏz اذا نظرنا فيها في مثل قولهم : «une chose admirable» وترسم ün soz admirablə» ليست وحدة بل هي كتلة مبهمة المعالم لا يحدّ حدودها شيء . فترى لمَ صحّ فيها soz ولمْ يصحّ oza ولا nso ؟فليست هذه المجموعة من الأصوات بقيمة لأنها خالية من المعنى . فوجهة النظر السرمدية لا تنطبق أبدا على الظواهر اللغوية الخاصة .

الفصل الثامن : عواقب الخلط بين الآني والزماني

قد تعترضنا حالتان اثنتان :

أ — تبدو الحقيقة الآنية وكأنها نفي للحقيقة الزمانية ويخيّل الى الناظر السطحي الذي لا يتعمق في باطن الأمور أنه يجب أن نختار أحداهما دون الأخرى . والواقع أن مثل هذا الخيار ليس بالأمر الضروري لأنهما لا تتنافيان البتة .
136 فكلمة «dépit» كانت تدل/في الفرنسية القديمة على معنى « الاحتقار » ، على أن ذلك لم يحل دون أن يكون لها في أيامنا هذه معنى آخر مختلف عن الأول تمام

الاختلاف فـ [القيمة] الابيتمولوجية والقيمة الآنية أمران متميزان . واليك مثالا آخر: جاء في كتب النحو التقليدي الخاص باللغة الفرنسية الحديثة أن اسم الفاعل تتغير أواخره في بعض الحالات وذلك لمطابقة الاسم الذي يعود عليه كما يطابق النعت منعوته . (انظر قولهم : une eau courante « ماء جار ») ويبقى آخره على حاله لا يتغير في حالات أخرى (كما في قولهم : une personne courant dans la rue «شخص يجري في الطريق») لكن النحو التاريخي يبين لنا أن الأمر لا يتعلق بصيغة واحدة بعينها في كلتا الحالتين . فالصيغة الأولى انما هي تواصل لصيغة اسم الفاعل اللاتيني : currentum وهي صيغة معربة . أما الصيغة الثانية فهي متولدة عن اسم الفاعل المعبّر عن الحال اذا كان في حالة الأبلتيف (9) currendō وهي صيغة مبنية لا تتغير (10) . فهل إنّ الحقيقة الآنية مناقضة للحقيقة التاريخية ؟ وهل يصح أن ندين النحو التقليدي باسم النحو التاريخي ؟ كلّا لأن ذلك يكون بمثابة ادراكنا لنصف الحقيقة فقط . فلا ينبغي أن نعتقد أن الواقع التاريخي هو وحده الذي يهم وأنه كاف بمفرده لتكوين لغة من اللغات . صحيح أنك اذا نظرت في اسم الفاعل courant من حيث أصله الاشتقاقي وجدت أمرين اثنين مختلفين إلّا أن حسّنا اللغوي يقرّب بينهما حتى يصبحا في الذهن شيئا واحدا . وهذه الحقيقة الآنية حقيقة مطلقة لا نزاع فيها شأنها في ذلك شأن الحقيقة الأخرى أي الزمانية .

ب) إن بين الحقيقة الآنية والحقيقة التاريخية من التطابق ما يجعلنا نخلط بينهما ، ونعتبر الفصل بينهما أمرا زائدا لا يُحتاج اليه . فمن ذلك انهم يحسبون أنهم قد فسروا معنى كلمة père في فرنسية اليوم إذ هم قالوا : إن كلمة pater اللاتينية لها نفس المعنى . ومن ذلك أيضا قول بعضهم ان الفتحة القصيرة (a) اذا وقعت في مقطع منفتح ولم يكن ذلك المقطع في أول الكلمة انقلبت كسرة (i) : كما في faciō و confico وفي amīcus و inimīcus الخ . وغالبا ما صاغوا هذا القانون بقولهم : إن الفتحة (a) في كلمة faciō أصبحت كسرة (i) في conficio لانها لم تعد في المقطع الأول . وهو خطأ لان فتحة faciō لم « تنقلب » الى كسرة conficiō بتاتا . واذا أردنا الرجوع الى ما هو الصواب في هذه المسألة وجب علينا أن نميّز بين عهدين وأربعة/عناصر : فقد نطقوا في بادئ الأمر faciō - confaciō 137

ثم تحوّلت confaciō الى conficiō بينما ظلت facio على حالتها لم تتغير فنطقوا : faciō - conficiō ونمثل لك ذلك كما يلي :

confaciō ⟷ *faciō* عهد « أ »
↓ ↓
conficiō ⟷ *faciō* عهد « ب »

فان صحّ أنه قد حدث « تغيّر » ماءفلا يمكن أن يكون إلا بين confaciō conficiō . بيد أن القاعدة السابقة لم تشر الى confaciō حتى مجرّد الاشارة ، وذلك لأنهم لم يوفقوا في صياغتها صياغة حسنة . ثم اننا نجد الى جانب هذا التغير الزماني بطبيعة الحال ، أمرا آخر يتميز عن الأول كل التميّز . ويتعلّق بالتقابل الآني المحض بين faciō و conficiō . فقد يميل المرء الى القول بأنه ليس ظاهرة انما هو نتيجة ومع ذلك فهي ظاهرة في صعيدها الآني بالذات بل ان جميع الظواهر الآنية انما هي من هذا القبيل . والذي يحول دون ادراك القيمة الحقيقية للتقابل بين faciō و conficiō هو أنه تقابل ليس له كبير معنى . ولكن اذا اعتبرنا الزوجين التاليين Gäste-Gast « ضيف — ضيوف » و gibt-gebe «أعطى — يعطي ») رأينا أن هذين التقابلين هما كذلك من باب النتائج الاتفاقية المتولدة عن التطوّر الصوتي . لكن ذلك لا يمنع من أنها تمثل على الصعيد الآني ظواهر نحوية جوهرية . ولما كان هذان الصعيدان بما فيهما من ظواهر مترابطين من جهة أخرى ترابطا وثيقا — اذ يُكيّف كل واحد منهما الآخر — فقد انتهى الأمر ببعضهم الى الاعتقاد بأن التمييز بينهما أمر لا حاجة لنا به . وفعلا فقد ظلوا يخلطون في الألسنية بين هذين الصعيدين طيلة عشرات السنين وغاب عنهم ان منهجهم هذا منهج لا خير فيه .

إلّا أن هذا الخطأ يبرز بصورة جلية في بعض الحالات : فقد يذهب الظن ببعضهم الى أنه يكفي لتفسير ما حدث في كلمة phuktos اليونانية أن نقول : إن الحرفين (g) أو (kh) ينقلبان كافا (k) اذا وقعا قبل حروف مهموسة ، وأن نعبّر عن هذا التغيّر بتطابقات آنية من قبيل phugeîn : phuktós و lékhos : léktron الخ . لكننا نصطدم بحالات من قبيل tríkhes : thriksí نلاحظ فيها تعقدا يتمثل في/ 138 « لمرور» من (t) الى (th) فلا يمكن أن نفسر صيغ هذه الكلمة إلّا تفسيرا تاريخيا بالاعتماد على تسلسلها النسبي في الزمان . فقد تولد عن أصل الكلمة الأول

thrikh* مع اللاحقة الاعرابية si- صيغة thriksí وهي ظاهرة قديمة جدا مماثلة لتلك التي تولدت عنها صيغة lektron انطلاقا من الجذر- lekh ثم في مرحلة لاحقة آل كل صوت منفس متبوع في نفس الكلمة بصوت منفس آخر الى صوت مهموس فآلت thríkhes * الى tríkhes بينا شذت thriksí بطبيعة الحال عن هذه القاعدة فلم تسلك نفس المسلك .

الفصل التاسع : خواتم هذا الباب

وهكذا فان الألسنية تواجه ها هنا تفرّعها الثاني ؛ فقد وجب علينا في البداية أن نختار بين اللغة واللفظ (انظر ص 36) وها نحن الآن أمام مفرق طريقين أحدهما يفضي الى الزمانية والآخر الى الآنية .

واذ قد استقر لدينا هذا المبدأ المزدوج في التبويب يمكننا أن نضيف : **ان كل ما هو زماني في اللغة ليس كذلك إلّا بواسطة اللفظ** . فبذور جميع التغيرات انما تكمن في اللفظ ، وكل تغير انما منطلقه الأول عدد محدود من الأشخاص قبل أن يدخل في الاستعمال العام . فأنت تراهم يصرّفون فعل الكينونة في الألمانية المعاصرة (مع ضميري المتكلم المفرد والجمع) فيقولون : ich war و wir waren بينا كان يصرف في الألمانية القديمة حتى القرن السادس عشر على نحو آخر هو : ich was و wir waren (ونحو ذلك ما نجده في اللغة الانقليزية الى الآن في قولهم we wered was) . فترى كيف تم ابدال war بـ was ؟ الجواب أن بعضهم تأثر بـ waren فأنشأ war قياسا عليها فكانت هذه الصيغة في بداية الأمر تابعة للفظ ثم كثر ترددها في الاستعمال وارتضتها المجموعة اللغوية فأصبحت تابعة للغة . لكن ليس كل ما يجدّ في اللفظ من ابتكارات يكتب له نفس القدر من النجاح . وما دامت هذه الابتكارات مقصورة على بعض الأفراد فلا فائدة في أخذها بعين الاعتبار وذلك لأننا انما ندرس اللغة ، فلا يمكن أن تدخل هذه الابتكارات مجال دراستنا وملاحظتنا إلّا متى قبلتها المجموعة .

139 ان كل ظاهرة من ظواهر التطوّر تكون دوما مسبوقة بظاهرة بل بعدد كبير من الظواهر المماثلة الحاصلة في مجال اللفظ . ولا يبطل هذا الاعتبار شيئا من ذلك

التمييز الذي أقمناه آنفا بين الآني والزماني بل ان ذلك لمما يدعمه . ألا ترى أن تاريخ كل ابتكار لغوي يوجد فيه دائما طوران متمايزان :

1 — طور أول يبرز فيه الابتكار لدى الأفراد .

2 — طور ثان يصبح فيه الابتكار ظاهرة تابعة للغة ، مماثلة في مظهرها الخارجي لما هي عليه في الطور الأول إلّا أن المجموعة قد بنّتها .

ويبيّن الجدول التالي الصورة المنطقية التي ينبغي أن تكون عليها الدراسة الألسنية :

- الكلام
  - اللغة
    - الآنية
    - الزمانية
  - اللفظ

وينبغي الاعتراف ها هنا بأن الصورة النظرية المثلى لعلم من العلوم ليست دوما تلك التي تفرضها عليه مقتضيات التطبيق . وهذه المقتضيات أكثر إلزاما في الألسنية منها في أي ميدان سواها . وهي تبرر الى حدّ ما ما يسود الأبحاث الألسنية في الوقت الراهن من خلط واضطراب . وحتى اذا افترضنا ان الناس قد تبنوا ما أقمناه ها هنا من تمييزات تبنيا نهائيا لا رجعة فيه فقد لا نستطيع أن نفرض على الأبحاث اللغوية اتجاها معينا باسم التصوّر المثالي الذي تصوّرناه أعلاه .

وعلى هذا النحو يستعمل الألسني الدارس للغة الفرنسية القديمة دراسة آنية ظواهر ومبادىء لا تشترك في شيء مع الظواهر والمبادىء التي قد يكشف له عنها تاريخ نفس هذه اللغة — أي الفرنسية — في الفترة الممتدة من القرن الثالث عشر الى القرن العشرين . وبخلاف ذلك فان تلك الظواهر وتلك المبادىء تكون شبيهة بما قد تكشف لنا عنه دراسة وصفية للغة من اللغات البَنْطُوِيّة المعاصرة أو اللغة اليونانية الأتّيكية في الصورة التي كانت عليها سنة 400 ق . م. أو في نهاية الأمر اللغة الفرنسية المعاصرة . وذلك أن مختلف هذه الدراسات تقوم على علاقات مماثلة ، ولئن كان كل لسان من هذه الألسن يكوّن نظاما مغلقا فانها جميعها تفترض وجود جملة من المبادىء القارة نجدها كلما انتقلنا من لسان الى آخر ،

وذلك لأننا نبقى على نفس الصعيد من الدراسة أي الصعيد الآني . أما الدراسة التاريخية فالأمر فيها ليس كذلك . فسواء استعرضنا طورا معينا من أطوار اللغة الفرنسية (من القرن الثالث عشر الى القرن العشرين مثلا) أو طورا من أطوار اللغة الجاوية أو طورا من أطوار أية لغة أخرى مهما كانت فاننا نعالج في كل هذا ظواهر متماثلة يكفي أن نقرن بينها لنستخرج الحقائق العامة الخاصة بالمستوى الزماني . ولعل الأفضل والأمثل أن يتفرغ كل عالم لأحد هذين الصعيدين من الدراسات فحسب،فيشمل عمله أكبر عدد ممكن من الظواهر التابعة لصعيده . ولكن من العسير كل العسر أن يحذق المرء حذقا علميا لغات مختلفة عن بعضها كل هذا الاختلاف . ومن ناحية أخرى فان كل لغة تمثل وحدة دراسية على حدة أو تكاد ، فنحن مضطرون بحكم الواقع إلى أن نباشرها مباشرة آنية ومباشرة زمانية بالتداول . ومهما يكن فلا ينبغي البتة أن يغيب عنّا من الناحية النظرية أن هذه الوحدة وحدة سطحية بينما يحجب اختلاف الألسن وجود وحدة باطنية . وسواء وجهنا الملاحظة في دراسة لغة من اللغات وجهة آنية أو زمانية فانه يلزم أن نحلّ كل ظاهرة من الظواهر صعيدها الخاص بها وأن لا نخلط بين المنهجين كلفنا ذلك ما كلفنا .

140

وسنجعل هذين القسمين من الألسنية كما حدّدناهما أعلاه موضوعا لدراستنا الواحد بعد الآخر .

أما **الألسنية الآنية** فنهتم فيها بالعلاقات المنطقية والنفسية الرابطة بين عناصر متواجدة مكونة لنظام قائم كما يدركها وعي جماعي واحد .

وأما الألسنية الزمانية فنهتم فيها على عكس ذلك بالعلاقات الرابطة بين عناصر متتالية لا يدركها وعي جماعي واحد . ويعوض بعضها بعضا بدون أن تكون فيما بينها نظاما قائما .

---

(1) قد تبدو عبارة صورة اكوستيكية مفرطة في الضيق والقصور اذ أننا نجد بالاضافة الى الصورة التي يتمّ بها تمثيل الأصوات المكوّنة للكلمة ، الصورة التي يتمّ بها تمثيل تقطيع النطق بها أي الصورة العضلية لعملية التصويت . لكن اللغة في نظر ف . دي سوسير انما هي وديعة ودعت فينا ونتلقاها من الخارج (انظر ص 34) . فالصورة الاكوستيكية هي التصوير الطبيعي الأمثل للكلمة من حيث هي ظاهرة لغوية موجودة بالقوّة وبتقطع =

=النظر عن كلّ تحقيق لها في اللفظ وبالتالي يمكن أن نعتبر الجانب الفيزيولوجي الحركي في احداث الصوت مقدّرا مضمرا ، وكيف ما كان ، يجب أن لا نحله الا محلا ثانويا بالنسبة الى الصورة الاكوستيكية (الناشرون) .

(2) اخترنا هذه التسمية كي نربط بين الدليل والدال والمدلول من الناحية الاشتقاقية . ولأن الدليل في اللغة العربية يفيد فيما يفيد هذا المعنى (المترجمون) .

(3) انظر كذلك : آه في العربيّة الفصحى وأحْ في الدارجة التونسية (المترجمون) .

(4) نكون مخطئين ان نحن رمينا ف . دي سوسير بالخلط المنطقي والشذوذ في القول في استناده الى اللغة صفتين متناقضتين . فقد أراد بجمعه بين هذين الضدين المتقابلين تقابلا صارخا محرّد ارساء الحقيقة التالية بقوة : وهي أن اللغة تتحوّل بدون أن يستطيع الناس تغييرها ويمكن أن نقول أيضا : أن النيل منها من الخارج متعذر الا أنها قابلة للتغيّر (الناشرون) .

(5) في النص الفرنسي jot وهو خطأ .

(6) يرى ماييMeillet (انظر Mém . de la société de linguistique مجموعة أعمال الجمعية الألسنية عدد 9 ص 365 وما بعدها) وقوتيوGauthiot (أنظر مؤلفه La fin de mot en indo-européen آخر الكلمة في اللغة الهندية الأوروبية ص 158 وما بعدها) انه لم يكن يظهر في آخر الكلمات الهندية الاوروبية الا حرف النون وان حرف الميم لا يظهر هناك أبدا ، وإذا قلنا بهذه النظرية فإنه يكفي ان نصوغ القانون الخامس على النحو التالي : لقد احتفظت اللغة اليونانية بكلّ حرف نون وقع آخرا في اللغة الهندية الاوروبية ، وهي صيغة لا تنقص شيئا من القيمة الاستدلالية لهذا القانون اذ أن الظاهرة الصوتية التي تؤدّي الى الحفاظ على حالة لغوية قديمة هي من نفس طبيعة الظاهرة الصوتية التي يتولّد عنها تغيّر ما (انظر ص 220) الناشرون .

(7) ورد بالأصل : serpo بدون علامة (*) .

(8) لاشكّ أن الأمثلة الواردة أعلاه ذات طابع عامّ مبسّط بحت . فأصحاب الدراسات الألسنية المعاصرة يحاولون جاهدين ــ وهم محقون في ذلك ــ ارجاع سلاسل من التغييرات الصوتية يتوسعون فيها قدر المستطاع الى مبدإ أصلي واحد . من ذلك أن ماييMeillet يفسّر جميع التغيرات التي أصابت الأصوات الشديدة في اليونانية بضعف لحق بصورة تدريجية طريقة تقطيعهم اياها (انظر: Mém . de la société de linguistique مجموعة أعمال الجمعية الالسنية عدد 9 ص 163 وما بعدها) . وفي نهاية الأمر تنطبق هذه الاستنتاجات المتعلقة بطبيعة التغييرات الصوتية بصورة طبيعية على هذه الظواهر العامة حيثما وجدت (الناشرون) .

(9) ablatif إحدى إلحالات الاعرابية في اللغة اللاتينية وتفيد المفعول عنه .

(10) هذه النظرية نظرية مقبولة على العموم الا أنّ أ . لارشE. Lerch تصدى لها منذ زمن غير بعيد وقاومها في مؤلفه : Das invariable participium praesenti . اسم الفاعل المبني ط . إرلنغن 1913) لكنه فيما نعتقد لم يوفق في ذلك فلا داعي إذن لحذف هذا المثال الذي من شأنه أن يحتفظ بقيمته التعليمية مهما كانت الحال (الناشرون) .

القسم الثاني

الألسنية الآنية

الباب الأول : عموميات

141

ان موضوع الألسنية الآنية العامة هو وضع المبادىء الأساسية التابعة لكل نظام آني خاص وضبط العوامل المكوّنة لكل حالة من حالات اللغة . ثم ان عددا كبيرا من المسائل التي قدّمناها آنفا هي بالألسنية الآنية أعلق . من ذلك أن الخصائص العامّة التابعة للدليل يمكن اعتبارها جزءا لا يتجزّأ من الألسنية الآنية رغم اننا اعتمدناها للبرهنة على ضرورة التمييز بين باني الألسنية .

وكل ما أطلقوا عليه اسم «grammaire générale» أي «النحو العام» انما هو تابع الى الآنية . لأن مختلف العلاقات التي هي من مشمولات النحو لا تقوم إلّا بالاعتماد على حالات اللغة . وسنقتصر فيما يلي على بعض المبادىء الأساسية التي قد يتعذر علينا بدونها مباشرة مسائل أكثر خصوصية هي مسائل [الألسنية] القارة كما يتعذر علينا تفسير دقائق أية حالة من حالات اللغة .

وعلى العموم فان مباشرة الألسنية القارة أشد عسرا من مباشرة الألسنية التاريخية ذلك أن ظواهر التطوّر ظواهر ملموسة أكثر من غيرها وصورتها أشدّ إثارة لمخيلتنا ، وما نلاحظه فيها من علاقات انما هي علاقات تنعقد بين عناصر متتالية 142
في الزمان ندركها بدون مشقة أو عناء ، كما أنه من اليسير علينا بل ومن الممتع في أحايين كثيرة ان نتتبع تطور سلسلة من التحوّلات . أما الألسنية التي مجالها القيم والعلاقات المتواجدة في الزمان فان صعوباتها أشد وأضنى بكثير .

ومن الناحية العملية فان ما يسمى بحالة من حالات اللغة ليس بنقطة في الزمان انما هو مدّة زمانية قد تطول وقد تقصر ويكون مجموع ما طرأ أثناءها من تغيرات طفيفا جدّا . فقد تبلغ تلك المدة عشر سنوات أو جيلا أو قرنا بل وأكثر من ذلك . وقد لا تتغير لغة من اللغات إلّا قليلا وذلك خلال حقبة طويلة من الزمن ثم اذا بك تراها قد أصابتها بعد ذلك تغيرات هامة في بضع سنوات . فخذ لك لغتين متعايشتين في فترة زمانية واحدة،فقد تتطوّر إحداهما تطورا كبيرا بينما لا يكاد يحدث في الأخرى شيء من ذلك . لذا تكون الدراسة بالضرورة آنية في الحالة الثانية وزمانية في الحالة الأولى . ولما كان حدّ الحالة اللغوية المطلقة هو انعدام التغيّرات ، ولما كانت اللغة تتغير رغم ذلك — مهما يكن ذلك التغير ضئيلا — فان دراسة حالة من حالات اللغة يؤول بنا عمليا الى أن نهمل تلك التغيرات الطفيفة على غرار ما يفعل الرياضيون عندما يهملون في بعض عملياتهم الحسابية الكميات المتناهية في الصغر كما هو الشأن في حساب انساب الأعداد (أي الخوارزمات) .

وأنت تراهم يميزون في ميدان التاريخ السياسي بين قولهم époque أي **عهد** ويعنون بها نقطة في مجرى الزمان وقولهم période أي **فترة** ويعنون بها امتدادا زمانيا معينا . إلّا أننا نجد المؤرخين يتحدّثون عن عهد الأنطونيين (1) وعهد الحروب الصليبية يعنون بذلك مجموعة من الخصائص ظلت ثابتة لم تتغير طوال ذلك الوقت . ولنا أن نقول أيضا : إن الألسنية القارة تهتم بالعهود (époques) إلّا أن كلمة état أي **حالة** أفضل وأحسن . ذلك أن بداية العهد ونهايته تتسمان عادة بحدوث ثورة مفاجئة بنسبة تقل أو تعظم وترمي الى تغيير الحالة التي استقرّت عليها الأمور . أما كلمة حالة فانها تجنبنا مغبة الاعتقاد بانه قد يحدث في اللغة شيء مماثل لذلك . وبالاضافة الى هذا فان كلمة عهد — لكونها بالذات مستعارة من مصطلحات المؤرخين — تجعلنا نفكر في الظروف التي تحيط باللغة وتكيّفها أكثر
143 مما نفكر في اللغة ذاتها /.وباختصار فان هذه الكلمة ، أي عهد ، توحي اليك بمعنى ما أسميناه بالألسنية الخارجية (انظر ص 44) أكثر مما توحي إليك بالألسنية الآنية .

على أن التحديد في الزمان ليس الصعوبة الوحيدة التي تعترض سبيلنا في

تعريف حالة من حالات اللغة . فالمشكلة هنا تماثل مشكلة المكان كذلك . وباختصار فان مفهوم الحالة اللغوية لا يمكن أن يكون إلّا تقريبيا تقريبا ذلك أن القيام بأي استدلال في الألسنية القارة كما هو الشأن في أغلب العلوم الأخرى أمر لا يكون ممكنا إلّا متى قمنا بتبسيط المعطيات ... التواضع والاصطلاح عليه/.

144

الباب الثاني
الكيانات الملموسة في اللغة

الفصل الأول : الكيانات والوحدات : تعريفها

ليست الدلائل التي تتكوّن منها اللغة من المجردات بل هي أشياء حقيقية (انظر ص 32) . وتلك الدلائل مع ما بينها من علاقات هي موضوع الدراسة الألسنية ويمكن أن نطلق عليها اسم **الكيانات الملموسة** لهذا العلم .

ولنذكّر قبل كل شيء بمبدأين اثنين تخضع لهما المسألة بأكملها .

1) لا وجود للكيان اللغوي إلّا بفضل اقتران الدال بالمدلول (انظر ص 99) . وما ان نقتصر على أحدهما دون الآخر حتى يتلاشى ذلك الكيان ويضمحل فيخرج عن كونه شيئا ملموسا ويدخل في عداد محض المجرّدات . والمرء عرضة في كل آونة لأن لا يدرك إلا جزءا من ذلك الكيان ، معتقدا أنه قد أحاط به بأكمله . وهو ما يحدث مثلا ان نحن قطّعنا السلسلة المنطوقة الى مقاطعها . فالمقطع لا قيمة له إلّا في الفنولوجيا ، كما أن المجموعة من الأصوات المتتالية لا تعتبر ذات قيمة لغوية إلّا متى كانت عمادا لفكرة من الأفكار . أما اذا اعتبرناها في حدّ ذاتها فانها لا تكون عندئذ سوى مادة لدراسة فيزيولوجية .

وكذلك الشأن تماما بالنسبة الى المدلول متى فصلته عن دالّه . فان متصوّرات

من قبيل « دار » و « أبيض » و « رأى » وغيرها اذا اعتبرناها في حدّ ذاتها هي من مشمولات علم النفس ولا تصبح كيانات لغوية إلّا اذا اقترنت بصور أكوستيكية . فالمتصوّر الذهني في اللغة هو صفة من صفات المادة الصوتية، كما أن تصويتا معينا من التصويتات هو صفة من صفات المتصوّر الذهني .

وكثيرا ما شبهوا هذه الوحدة التي لها وجهان بوحدة الذات البشرية المركبة من الجسد والروح . لكن هذا التشبيه بين الأمرين لا يرضينا كل الرضا . ولعل الذهاب الى تمثيلها بمادة كيمياوية مركبة كالماء مثلا يكون أقرب الى الصواب . فالماء انما هو توليف بين الهيدروجين والاكسجين إلّا أنك اذا اعتبرت كل عنصر من هذين العنصرين على حدة لم تجد له أية خاصية من خصائص الماء .

2) لا يتسنى لنا ضبط الكيان اللغوي ضبطا تاما ما لم **نعيّن حدوده تعيينا** أي ما لم نفصل بينه وبين كل ما يحيط به في السلسلة الصوتية . وهذه الكيانات المعينة حدودها أو **الوحدات** هي التي تتقابل في إوالية اللغة .

وقد يميل المرء من أول وهلة الى أن يعتبر الدلائل اللغوية بمثابة الدلائل المرئية التي يمكنها أن تتواجد في نفس المكان بدون أن يختلط بعضها ببعض فيتوهم أن الفصل بين العناصر الدالة يمكن أن يتم على نفس النحو ، أي بدون أن يضطر في ذلك الى القيام بأية عملية ذهنية . وكلمة forme أي «صيغة» التي غالبا ما تطلق على تلك العناصر في مثل قولنا « صيغة فعلية » و « صيغة اسمية » تساهم في استمرار ذلك الخطإ في أذهاننا . لكننا نعلم أن أول صفة من صفات السلسلة الصوتية أنها خطية (انظر ص 114) . فهي ان اعتبرناها في حدّ ذاتها ليست سوى خط أو شريط متواصل لا تدرك فيه الاذن أي تقسيم واضح الأجزاء دقيقها ولبلوغ ذلك يجب أن نستعين بالدلالات . فعندما نسمع لغة لا نعرفها يتعذر علينا أن نعرف كيف يجب أن نحلل سلسلتها الصوتية المتتالية . وذلك لأن هذا التحليل أمر لا سبيل إليه ان نحن اقتصرنا على الجانب الصوتي من الظاهرة اللغوية حتى اذا عرفنا ما ينبغي أن نسنده الى كل جزء من أجزاء تلك السلسلة من معنى ودور شاهدنا عندئذ انفصال تلك الأجزاء بعضها عن بعض شيئا فشيئا ولاحظنا تجزُّؤ ذلك الشريط المبهم جزءا جزءا ، وهو تحليل [ذهني] ليس من باب الماديات في شيء ./

146 وخلاصة القول ان اللغة لا تبدو لنا في صورة مجموعة من الدلائل المعينة الحدود سلفا يكفينا أن ندرس دلالاتها وصور انتظامها ، إنما هي كتلة غير واضحة المعالم لا يمكن أن نقف فيها على عناصر بأعيانها إلّا عن طريق الانتباه والعادة . وليس للوحدة اللغوية أي طابع صوتي خاص ولا يمكن أن نعرفها إلّا بالتعريف التالي : **الوحدة كل مقطوعة صوتية هي ، بقطع النظر عن كل ما قبلها وعن كل ما بعدها في السلسلة الملفوظة ، دال خاص لمتصوّر من المتصوّرات الذهنية .**

الفصل الثاني : طريقة تعيين حدود الوحدات

ان الحاذق للغة من اللغات يعيّن حدود وحداتها بتوخي طريقة بسيطة للغاية ــ وذلك على الأقل في المستوى النظري ــ وتتمثل تلك الطريقة في الانطلاق من مجال اللفظ باعتباره وثيقة عن اللغة وفي تمثيله بواسطة سلسلتين متوازيتين هما : سلسلة المتصوّرات الذهنية (I) وسلسلة الصور الأكوستيكية (II) . ويقتضي التحديد الصحيح أن تطابق أقسام السلسلة الأكوستيكية (أ ــ ب ــ ج ...) أقسام سلسلة المتصوراتّ الذهنية (أ1 ، ب 1 ، ج 1 ...) .

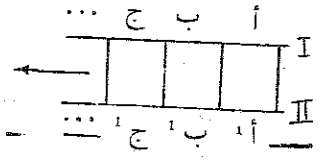

ولنتأمل العبارة الفرنسية التالية : sižlaprã فهل يجوز أن نقطع هذه السلسلة بعد اللام وأن نعتبر أنّ sižl تمثل وحدة من الوحدات ؟ كلا اذ يكفي أن نعود الى المتصورات الذهنية لندرك خطأ هذا التقطيع . وكذلك التقسيم المقطعي siž-la-prã فهو لا يمت مبدئيا الى الألسنية بصلة . والتقسيمان الوحيدان الممكنان هما si-ž-la-prã أي(« إن أخذتها») و si-ž-l-aprã أي :(« إن حفظتها») لا غير . وهما وقف على ما نسنده الى هذه الألفاظ من معان (2) .

وللتثبّت من صحة نتيجة هذه العملية وللتيقن من حصولنا على وحدة لغوية 147 حقيقية ينبغي لنا ــ ونحن نقارن/بين طائفة من الجمل تضمّ وحدة ما بعينها ــ ان نتمكن في كل حالة من فصل تلك الوحدة عن باقي سياقها ملاحظين في كل ذلك أن المعنى يخوّل لنا مثل هذا الفصل والتحديد . فلنأخذ العبارتين الفرنسيتين التاليتين باعتبارهما جزءين من جملتين وهما : lafǫrsdüvã وترسم«la force du vent » أي « قوة الريح » و abudfǫrs وترسم «à bout de force» أي : « خائر القوى » . ففي العبارة الأولى كما هو الشأن في الثانية يوافق المتصوّر الذهني نفس **المقطوعة الصوتية** fǫrs وذلك دليل على أنها تمثّل وحدة لغوية بعينها ، لكن كلمة force في قولنا ilməforsaparlẹ وترسم «il me force à parler» أي « يرغمني على الكلام » لها معنى مختلف كل الاختلاف فهي اذن وحدة لغوية أخرى (3) .

الفصل الثالث : الصعوبات العملية في تعيين حدود الوحدات

ولكن هل ان هذه الطريقة التي تبدو بسيطة كل البساطة على الصعيد النظري قابلة لان تطبّق بسهولة على الصعيد العملي ؟ قد يميل المرء الى القول بذلك اذا انطلق من فكرة مفادها أن الوحدات التي نروم تقطيعها هي الكلمات . وذلك لأن الجملة لا تعدو أن تكون توليفا ما بين عدد من الكلمات . وهل ثمة أمر يمكن ادراكه إدراكا مباشرا على نحو أسرع من ادراكنا للكلمات؟ من ذلك أننا اذا رجعنا المثال السابق قلنا إن السلسلة الملفوظة : sižlaprà تنقسم الى أربع وحدات يمكّننا التحليل من تعيين حدودها ، وعددها يساوي عدد الكلمات بالضبط أيsi-je-l-apprends ولكن سرعان ما يعترينا شيء من الاحتراز والحذر وذلك بمجرّد أن نلاحظ أن الدراسين قد اختلفوا في تعريف طبيعة الكلمة اختلافا كبيرا وطال نزاعهم في ذلك . ثم ان نحن أنعمنا النظر في المسألة قليلا تبيّن لنا أن ما ذهبوا اليه في تعريف الكلمة لا يتماشى مع ما ذهبنا اليه في تعريفنا لمفهوم الوحدة الملموسة ويناقضه .

ويكفي للاقتناع بهذا أن يفكر المرء في قولهم cheval أي فرس وجمعه chevaux . فالرأي الشائع انهما صيغتان تابعتان لاسم واحد بعينه والحال اننا اذا نظرنا في كل

واحدة منهما باعتبارها كلا ثبت لدينا أنهما شيئيان متمايزان سواء من حيث المعنى أو من حيث الأصوات المكوّنة لهما . واذا نظرنا في mwa (كما في قولهم «mois de decembre»أي « شهر ديسمبر » وفي mwaz (كما في قولهم «un mois après» أي بعد شهر،تبين لنا كذلك أنهما كلمة واحدة برزت في صورتين مختلفتين . ولا يمكن بحال اعتبارهما وحدة ملموسة . فلئن كان المعنى واحدا فان مقطوعاتها الصوتية مختلفة . وهكذا ما ان يروم المرء انزال الوحدات الملموسة منزلة الكلمات/ 148
حتى يواجه اختيارا عسيرا : فاما أن يتجاهل تلك العلاقة التي تجمع بين cheval و chevaux وبين mwa و mwaz وغيرها على ما فيها من بداهة فيعتبرها كلمات مختلفة ، وإمّا أن لا يروم الحصول على الوحدات الملموسة فيقنع بذلك المفهوم المجرّد الذي يجمع بين مختلف الصيغ التابعة لنفس الكلمة . واذن فعلى من يلتمس الحصول على الوحدة الملموسة أن لا يبحث عنها في اطار الكلمة . ومن جهة أخرى فان طائفة كبيرة من الكلمات تكوّن وحدات مركبة نميز فيها بسهولة وحدات فرعية (من لواحق وسوابق وأصول) . فالكلمتان المشتقان التاليتان مثلا : désir-eux (أي راغب) و malheur-eux (أي شقي) تنقسم كلتاهما الى جزءين متميزين لكل منهما معنى ودور بديهيان ، وبعكس ذلك نجد وحدات أكبر من الكلمات وهي المركبات (التي من قبيل porte-plume (أي قلم حبر) والعبارات المركبة (مثل s'il vous plait أي من فضلك) وصيغ التصريف (مثل il a été أي قد كان) . إلّا أننا نجابه في تعيين حدود هذه الوحدات نفس المصاعب التي نجابهها في تعيين حدود الكلمات ذاتها ، ومن العسير جدا اذن ان نتبين بوضوح صور تعامل الوحدات في سلسلة صوتية ما ، وان نعين العناصر الملموسة التي تعتمدها اللغة عند القيام بوظيفتها .

وصحيح أن المتكلمين لا تعترضهم مثل هذه الصعوبات وذلك لأن كل ما كان ذا دلالة — في أيّ مستوى من المستويات — يمثل في نظرهم وحدة ملموسة ، فلا يفوتهم تمييزها من غيرها في الخطاب البتّة . ولكن شتّان بين الشعور بذلك التعامل السريع اللطيف الذي يحصل بين الوحدات وبين وصفه وتفسيره بواسطة تحليل منهجي مضبوط .

وهناك نظرية لها بعض الانتشار ، يزعم أصحابها أن الوحدات الملموسة انما

هي الجمل لا غير . وذلك أن كلامنا لا يكون إلّا بواسطة الجمل ، ثم اننا نستخرج منها الكلمات بعد ذلك . ولكن لنتساءل في البداية الى أي مدى يصح القول بأن « الجملة تابعة للغة» (انظر ص 188) ؟ فاذا كانت الجملة من مشمولات اللفظ فلا يمكنها أن تمثل الوحدة اللغوية بأية حال من الأحوال . وهب مع ذلك اننا أزحنا هذه الصعوبة . فاذا تصوّرنا مجموع الجمل التي يمكن التلفظ بها ، لاحظنا أن أبرز خصائصها هو انعدام كل شبه بينها انعدام تاما . فقد يميل المرء لأول وهلة الى اعتبار ذلك التنوع العظيم الذي بين الجمل بمثابة ذلك التنوع الذي لا يقل عنه أهمية والذي يوجد بين الحيوانات التي تكوّن/ فصيلة حيوانية 149
واحدة . إلّا أن ذلك من باب الوهم فالخصائص المشتركة بين حيوانات من نفس الفصيلة أكثر أهمية من الفوارق التي تميز بعضها عن بعض .وأما الجمل فالأمر فيها بخلاف ذلك اذ ما يسود فيها إنما هو التنوع والاختلاف . وبمجرّد أن نبحث عبر ذلك التنوع عما يربط بينها عدنا — وان عن غير قصد — الى الكلمة وما لها من خصائص نحوية،وتردّدنا ثانية في نفس الصعوبات .

الفصل الرابع : الخـــاتمـــة

ان قضية الوحدات في أغلب الميادين التي هي موضوع علم من العلوم لا تطرح حتى مجرّد الطّرح وذلك لأنها من المعطيات الحاصلة سلفا . من ذلك أنك في علم الحيوانات مثلا تظفر بالحيوان منذ البداية . وفي علم الفلك أيضا تباشر وحدات منفصلا بعضها عن بعض في الفضاء هي الكواكب ، وفي علم الكيمياء يمكنك أن تدرس طبيعة ثاني كرومات البوطاس ومكوناته دون أن يخامرك أدنى شك ولو لحظة واحدة في أنه شيء معيّن محدد أحسن تحديد .

واذا تعذر علينا الوقوف على وحدات ملموسة يمكن ادراكها ادراكا فوريا في علم من العلوم فمعنى ذلك أنه ليس لها أهمية أساسية في ذلك العلم . فهل الوحدة في علم التاريخ مثلا هي الفرد أم العهد أم الأمة ؟ لسنا ندري لكن لا ضير ، اذ بوسعنا أن نقوم بعمل المؤرخ بدون أن تكون هذه النقطة قد اتضحت في أذهاننا .

فكما أن لعبة الشطرنج تنحصر بأكملها في ما يكون بين مختلف القطع من

توليفات،فكذلك اللغة ، فهي تتصف بكونها نظاما يقوم بأسره على التقابل الذي بين وحداته الملموسة . فلا يمكننا أن نستغني عن معرفة تلك الوحدات ولا أن نتقدّم خطوة واحدة بدون أن نعمد الى استعمالها ؛ ومع ذلك فاننا نجد في تعيين حدودها من اللطف والدقّة ما يجعلنا نتساءل ان كانت من المعطيات الحاصلة بالفعل .

فللغة اذن صفة غريبة تسترعي الانتباه وهي أنها لا توفّر لنا كيانات يمكن ادراكها من أول وهلة،مع أنه لا يمكننا أن نشك في وجود هذه الكيانات وفي أن تعاملها هو الذي تتكوّن منه اللغة . ولعل هذه الخاصّية هي ما به تتميّز اللغة عن سائر المؤسسات الدلائلية .

الباب الثالث
الاتحاد والحقيقية والقيمة

ان مالاحظناه آنفا يجعلنا نواجه مسألة ذات أهمية بالغة لا سيما اذا علمنا ان كل مفهوم أساسي في الألسنية القارة انما يتوقف مباشرة على الفكرة الحاصلة لدينا بشأن الوحدة اللغوية بل قد تستوى فيها . وهذا ما نريد بيانه تباعا بشأن مفهوم الاتحاد الآني والحقيقة الآنية والقيمة الآنية .

أ ـــ ما هو **الاتحاد** الآني ؟ لا يتعلق الأمر هنا بالاتحاد الذي يصل أداة النفي في اللغة الفرنسية pas بأصلها في اللاتينية passum . فهو اتحاد على المستوى الزماني ـــ وسنتعرض اليه في موضع آخر ص 271 ـــ انما يتعلق بذلك الاتحاد الذي ليس دون الأول أهمية والذي بمقتضاه نقول إن جملتين مثل «je ne sais pas» (أي لا أعلم) و «ne dites pas cela» (أي لا تقل هذا) تشتملان على نفس العنصر وهو pas . ولقائل أن يقول : إنها مسألة لا طائل من ورائها . فمن البديهي أن هناك بينهما اتحادًا لأنّ نفس المقطوعة الصوتية/pas/لها نفس الدلالة في الجملتين . إلّا أن هذا التفسير تفسير لا يفي بالحاجة.فلئن صح ان المطابقة بين المقطوعات الصوتية والمتصوّرات الذهنية تدل على الاتحاد (انظر المثال السالف الذكر la force du vent و à bout de force) فالعكس لا يصح . فقد يوجد الاتحاد بدون أن يوجد مثل ذلك التطابق . ألا ترى أنك اذا سمعت محاضرا يعيد كلمة Messieurs أي(« سادتي ») مرّات عديدة خيّل اليك أنك في كل مرة تسمع نفس العبارة ، والحال ان اختلاف سرعة التلفّظ بها وتنوع النغمة فيها

151 يضفيان عليها من سياق الى آخر/فوارق صوتية ذات بال لها من الأهمية ما لتلك الفوارق التي تصلح في مواضع أخرى للتمييز بين كلمات مختلفة كما في قولهم في الفرنسية pomme(أي تفاحة) و paume (أي راحة اليد) و goutte (أي قطرة) و je goûte (أي أذوق) و fuir (أي أهرب) و fouir (أي «حفر» للحيوان) (4) وبالاضافة الى ذلك فان هذا الشعور بالاتحاد يبقى قائما رغم أنه لا وجود كذلك لاتحاد مطلق من وجهة النظر الدلالية بين ما تفيده كلمة Messieurs من فقرة الى أخرى من خطبة خطيبنا ؛ تماما كما يمكن للكلمة الواحدة أن تدل على معان تختلفه شيئا ما بدون أن ينال ذلك كثيرا من هويتها أي من كونها كلمة واحدة (نحو قولنا : « تبنّى فكرة » و « تبنّى طفلا » أو قولنا « زهرة التفاح » و « زهرة العمر ») .

فإواليّة اللغة تدور كلها على طائفة من الاتحادات والفروق ، وليست هذه سوى الوجه المقابل لتلك . فقضيّة الاتحادات اذن قضيّة تعترضنا في كل نقطة لكنها من ناحية أخرى تختلط اختلاطا جزئيا بمشكل الكيانات والوحدات ، وما هي إلّا تعقيد لهذا المشكل ، على أنه تعقيد خصب . وتبرز هذه الخاصية بوضوح من خلال المقارنة التالية مع بعض الوقائع نستمدها من مجالات خارجة عن مجال الكلام : من ذلك أننا نعتبر أن هناك اتحادا بين قطارين سريعين من نوع : « جنيف — باريس الساعة الثامنة وخمس وأربعون دقيقة مساء » يفصل بين انطلاق هذا وانطلاق ذاك أربع وعشرون ساعة . فيخيل الينا أنه نفس القطار السريع ومع ذلك من المحتمل أن يكون قد وقع تغيير القاطرة والعربات والطاقم بأكمله . واليك مثالا آخر : قد يهدم شارع هدما تاما ثم يعاد بناؤه ومع ذلك فنحن نعتبره نفس الشارع في حين أنه قد يكون لم يبق من مادة الشارع القديم أي أثر . فترى لماذا يجوز اعادة بناء شارع بصورة جذرية ويبقى الشارع مع ذلك هو هو ؟ ذلك أن الكيان الذي يمثله هذا الشارع ليس كيانا ماديا صرفا بل هو كيان يقوم على وجود ظروف معيّنة لا تمتّ إليها مادته العرضية بصلة،من ذلك مثلا موقعه من غيره من الشوارع الأخرى . وكذلك الأمر بالنسبة الى القطار السريع فحدّه ساعة انطلاقه ومساره وبصورة عامة جميع الظروف التي تميزه عن سائر القطارات السريعة . فكلما توفرت نفس الظروف كانت لنا نفس

الكيانات . ومع ذلك فان هذه الكيانات ليست من المجرّدات اذ يتعذر علينا أن
152 نتصوّر/شارعا أو قطارا سريعا ان لم يتحققا تحققا ماديا ما .

ولنقارن المثالين السابقين بمثال آخر يختلف عنهما تمام الاختلاف وصورته أن ثوبا سرق منك ثم تجده معروضا عند بائع الاطمار ، فالأمر يتعلق هاهنا بكيان مادي يتمثل في مادة الثّوب الجامدة وحدها كالقماش والبطانة والزركشة وغيرها . وأي ثوب آخر لن يكون ثوبك مهما عظم شبهه به . فالاتحاد اللغوي ليس شأنه شأن الثوب انما شأنه شأن القطار السريع أو الشارع . فكلما استعملت كلمة « سادتي » جدّدت مادتها ، ذلك انها عملية تصويت جديدة وعملية نفسية جديدة أيضا . فالرابط بين استعماليك للكلمة نفسها لا يقوم على اتحادهما في المادة الصوتية ولا على تماثلهما التام من حيث المعنى انما يقوم على عناصر ينبغي البحث عنها ، وهي التي بفضلها نقترب من معرفة كنه الوحدات اللغوية الحقيقي اقترابا كبيرا .

ب) ما الحقيقة الآنية ؟ وما هي العناصر اللغوية الملموسة أو المجرّدة التي يمكن أن نطلق عليها هذه التسمية ؟

لنأخذ مثلا مسألة تمييزهم بين أقسام الكلام . فعلى أي أساس صنفوا الكلمات الى أسماء وصفات وغيرها ؟ وهل تمّ ذلك بالاعتماد على مبدا منطقي بحت خارج عن نطاق اللغة طبقوه على النحو من الخارج كما طبّق الجغرافيون درجات الطول والعرض على الكرة الأرضية ؟ أم ان ذلك التصنيف يوافق أمرا له محلّه في نظام اللغة ويكون مكيفا بهذا النظام ؟ وباختصار هل ان الأمر يتعلق فعلا بحقيقة آنية ؟ يبدو هذا الافتراض الثاني قابلا للاحتمال ، إلّا أنه قد يجوز الدفاع عن الافتراض الأول أيضا ، فهل تعتبر bon marché في قولهم في الفرنسية : «ces gants sont bon marché» أي « هذان القفازان ثمنهما زهيد » بمثابة الصفة ؟ ان لهذه العبارة معنى الصفة من الوجهة المنطقية إلّا أن اعتبارها صفة من الوجهة اللغوية ليس على نفس الدرجة من الصحة من الوجهة النحوية . ذلك أن تصرّف عبارة bon marché في اللغة الفرنسية ليس تصرف الصفة (ودليل ذلك أنها تلازم صورة واحدة وأنها لا تتقدم على الاسم أبدا الخ ..) وهي الى ذلك متكونة من كلمتين اثنتين ، وحقّ التمييز بين أقسام الكلام أن يفضي الى تبويب الكلمات

المفردة التابعة للغة . فكيف يجوز لمجموعة من الكلمات أن تحشر ضمن أحد تلك ١٥٤
« الأقسام » ؟ وبالعكس من ذلك فاننا ان قلنا ان bon صفة و marche اسم لم
نصفها وصفا صحيحا . فالأمر يتعلق هنا اذن بتصنيف إما مختل أو غير تام ،
وتقسيم الكلمات الى أسماء وأفعال وصفات الخ .. ليس حقيقة لغوية ثابتة لا نزاع
فيها .

وهكذا فإن الألسنية تعتمد في عملها على الدوام متصوّرات اصطنعها النحاة ، ولا نعلم ان كانت توافق بالفعل مكوّنات من مكوّنات نظام اللغة . لكن كيف السبيل الى معرفة ذلك ؟ واذا كانت تلك المتصوّرات من نسج الوهم فترى ما هي الحقائق التي يمكن أن نكافحها بها ؟

ولتجنب مثل هذه الأوهام ينبغي أن نقتنع منذ البداية بأن الكيانات الملموسة في اللغة لا تبرز للعيان من تلقاء أنفسها . فلا نلمس الواقع اللغوي إلّا متى اجتهدنا في طلب تلك الكيانات ، وانطلاقا من ذلك يمكننا ان نضع جميع التصنيفات التي تحتاجها الألسنية لترتيب الظواهر والأحداث التي من مشمولاتها . ثمّ انّنا اذا أقمنا هذه التصنيفات على غير قاعدة الوحدات الملموسة ـــ كأن نقول مثلا ـــ ان أقسام الكلام هي من مقومات اللغة لمجرد أنها توافق مقولات منطقية يكون قد غاب عنا أنه لا وجود لأحداث لغوية مستقلة عن مادة صوتية ما ، تقطّع الى عناصر دلالية .

ج) وأخيرا فان جميع المفاهيم التي تعرضنا اليها في هذا الباب لا تختلف عما
سميناه في موضوع آخر بالقيم valeurs اختلافا جذريا . ونحن نفهم ذلك اذا قمنا
بمقارنة أخرى بلعبة الشطرنج (انظر ص ٥٥ وما بعدها) . ولنأخذ قطعة هي
الفرس . فهل هو بمفرده عنصر ما من عناصر اللعبة ؟ من المؤكد أنه ليس
كذلك . ألا ترى أنك اذا اعتبرت منه جانبه المادي المحض وأخرجته من مربّعه في
الرقعة وعزلته عن بقية قيود اللعبة أصبح لا يمثل شيئا في نظر اللاعب . ولن
يصبح عنصرا حقيقيا ملموسا إلّا متى استعاد قيمته والتحم بها . وهب أن تلك
القطعة أصابها عطب أو ضاعت أثناء اللعب فهل يمكن تعويضها بقطعة أخرى ١٥٥
معادلة لها ؟ أجل ، ولا يمكننا أن نعوضها بفرس آخر فقط بل حتى اذا استعملنا
شكلا آخر لا يشبه الفرس في شيء فاننا نعتبره والفرس شيئا واحدا شريطة ان

نسند اليه نفس القيمة . فنحن نلاحظ اذن ـــ في نطاق النظم الدلالية مثل نظام اللغة حيث يقوم التوازن على ترابط العناصر بعضها ببعض حسب قواعد معلومة ـــ ان مفهوم الاتحاد يستوي في مفهوم القيمة والعكس بالعكس . لهذا فان مفهوم القيمة يشمل في نهاية الأمر مفهوم الوحدة ومفهوم الكيان الملموس ومفهوم الحقيقة . لكن اذا انعدم شكلنا كل فارق أساسي بين مختلف هذه المظاهر فانه يجوز لذلك طرح المشكلة على صيغ مختلفة على التوالي . فسواء حاولت تعيين الوحدة أو الحقيقية أو الكيان الملموس أو القيمة فان الأمر يؤول دائما الى طرح نفس السؤال الأساسي الذي يهيمن على الألسنية القارة بأكملها .

ولعله من المفيد من وجهة النظر التطبيقية ان نبدأ بالنظر في الوحدات فنحددها ونشرح تنوعها بتصنيفها . ولعله ينبغي أن نبحث عن الأسس التي يقوم عليها تقسيم اللغة الى كلمات ـــ لأن الكلمة رغم صعوبة تحديدها وحدة تفرض وجودها في الأذهان وهي أمر أساسي في آلية اللغة ـــ إلّا أن هذا موضوع واسع يمكن أن نفرد له وحده بحثا كاملا . وبعد الفراغ من ذلك علينا أن نرتب الوحدات الفرعية ثم الوحدات الأكبر من ذلك الخ ... فاذا تمّ لهذا العلم تعيين العناصر التي يباشرها فانه يكون بذلك قد قام بمهمته على أكمل وجه ، لأنه أرجع كل الظواهر التي هي من بابه الى مبادئها الأساسي الأولي . ان هذه المسألة الجوهرية بالحق يقال لم تستوقف الدارسين فقط بلا هم جابهوها أو فهموا ابعادها وصعوبتها فقد اقتصروا على الدوام في ميدان اللغة على استعمال وحدات لم يحسنوا تعريفها .

إلّا أنه بالرغم مما للوحدات من أهمية أساسية فمن الأفضل أن نتناول المسألة من وجهة القيمة وذلك لأن القيمة تمثل في نظرنا من هذه المسألة مظهرها الرئيسي .

155

الباب الرابع
القيمة اللغوية

الفصل الأول : اللغة من حيث هي فكر منتظم في صلب المادة الصوتية

اذا أردنا أن نتبيّن ان اللغة لا يمكن أن تكون إلّا نظاما من القيم المحض يكفي أن ننظر في العنصرين الذين لهما دور في قيام اللغة بعملها ، وهما الأفكار والأصوات .

ان فكرنا من الناحية النفسية وبقطع النظر عن التعبير عنه بالكلمات لا يعدو أن يكون كتلة مبهمة الشكل غامضة الملامح . وقد اتفق جميع الفلاسفة واللغويين في كل العصور على الاعتراف بأنه لولا الاستعانة بالدلائل لكنا عاجزين عن التمييز بين فكرتين تمييزا واضحا ، دائما . فمثل الفكر اذا اعتبرناه في حدّ ذاته كمثل السديم حيث لا شيء معين الحدود بالضرورة ، فلا أفكار موجودة سلفا ، ولا وجود لأي شيء متميّز قبل ظهور اللغة .

وبازاء هذا العالم المتقلّب السابح هل بامكان الأصوات في حدّ ذاتها ان تمثل كيانات معينة الحدود سلفا ؟ كلا ، فشأن الأصوات في ذلك ليس بأفضل من شأن الفكر . اذ المادة الصوتية ليست أكثر ثبوتا ولا أشد صلابة . فهي ليست قالبا على الفكر أن يتشكل بأشكاله بالضرورة انما هي مادة لدنة تنقسم بدورها

156

الى أجزاء متميز بعضها عن بعض ، فتوفر بذلك الدوالّ التي يحتاج اليها الفكر . فبوسعنا اذن أن نمثل الحدث اللغوي في جملته — أي اللغة — بواسطة سلسلة من الأجزاء الفرعية/المتلاصقة مرسومة ، في نفس الوقت على المستوى غير المعيّن للافكار المبهمة (أ) وعلى مستوى الأصوات الذي لا يقل عنه غموضا وابهاما (ب) . وهو ما يمكن أن نمثله لك بصورة تقريبية جدا بالترسيمة التالية :

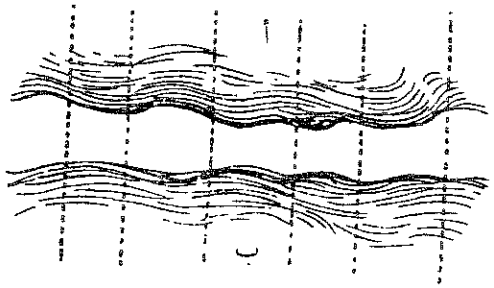

ولا يتمثل الدور الخصوصي للغة ازاء الفكر في خلق أداة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار انما هو ان تكون واسطة تصل بين الفكر والصوت في نطاق ظروف تجعل اتحادهما يفضي بالضرورة الى تعيين متبادل لحدود الوحدات . فالفكر وهو شيء مشوش بالطبع لا بدّ له من التجزّؤ لكي يصبح دقيقا مضبوطا . فالأمر هنا لا يتعلق اذن بتجسيد مادي للأفكار ولا بتجريد ذهني للأصوات انما يتعلق بتلك الظاهرة الغريبة نوعا ما والمتمثلة في أن «الفكر — الصوت » يقتضي وجود تجزيئات ، وفي أن اللغة تنشئ وحداتها وذلك بأن تنشئ نفسها بين كتلتين مبهمتين غير واضحتي المعالم . فخذ لك مثلا الهواء في اتصاله بسطح ماء من المياه : فاذا تغير الضغط الجوي تجزّأ سطح الماء الى مجموعة من الأجزاء هي الأمواج ، وتلك التموجات هي التي تعطينا فكرة عن اتصال الهواء بالماء ، وكذلك ان صحّ التعبير ، عن التحام الفكر بالمادة الصوتية .

ويمكن أن نطلق على اللغة اسم ميدان التقطيعات بالمعنى الذي ضمناه هذه الكلمة ص 30 . فكل عنصر لغوي هو بمثابة عضو صغير أو قطعة articulus فيه تستقرّ فكرة ما في صوت ما ، وفيه يصبح صوت ما دليلا على فكرة ما /

157 ويمكننا كذلك أن نشبه اللغة بورقة يمثل الفكر وجهها والصوت قفاها ، فلا نستطيع أن نقطع الوجه بدون أن نقطع في نفس الوقت القفا . وكذلك الأمر بالنسبة الى اللغة . فلا نستطيع فيها عزل الصوت عن الفكر ولا عزل الفكر عن الصوت . وبلوغ ذلك يقتضي منا القيام بعملية ذهنية تجريدية من شأنها أن تفضي بنا الى طرق الموضوع من وجهة علم النفس البحت أو علم الفولوجيا البحت .

فالمجال الذي تعمل فيه الألسنية اذن مجال ذو حدود مشتركة فيه تأتلف العناصر التابعة للصعيدين أي صعيد الفكر وصعيد الصوت ، **والذي يحدث عن مثل ذلك التوليف انما هو شكل وليس مادة .**

وتزيد هذه الاعتبارات في توضيح ما قلناه بشأن اعتباطية العلامة بالصفحة المائة . فليس هذان الصعيدان اللذان يربط بينهما الحدث اللغوي مبهمين وغير واضحي المعالم فقط بل ان الاختيار ، الذي يستدعي تخصيص مقطوعة أكوستيكية ما لفكرة ما ، انما هو اختيار اعتباطي كل الاعتباطية . ولو لم يكن الأمر كذلك لفقد مفهوم القيمة شيئا من صفته اذ إنه عندئذ يكون متضمنا لعنصر قد فرض عليه من الخارج فرضا لكن القيم تبقى في الواقع نسبية تماما ، ولذلك كان الرابط بين الفكرة والصوت اعتباطيا من أساسه .

ثم ان اعتباطية الدليل بدورها تجعلنا نفهم بصورة أوضح لم كانت الظاهرة الاجتماعية بتفردها قادرة على انشاء نظام لغوي ما . فوجود المجموعة البشرية أمر ضروري لوضع عدد من القيم ليس لوجودها من مبرّر إلّا في الاستعمال وفي ارتضاء عموم الناس لها ، أما الفرد فانه عاجز وحده عن أن يضع أية واحدة من هذه القيم .

وبالاضافة الى هذا فان مفهوم القيمة كما حددناه آنفا يبيّن لنا أنه من فادح الوهم اعتبار عنصر ما مجرّد اتحاد صوت ما بمتصوّر ما ففي تعريفنا له على هذا النحو عزل له عن النظام الذي اليه ينتمي ، وظن بأنه يمكننا أن ننطلق من العناصر فنجمعها ونجملتها نبني النظام ، والحال أنه ينبغي على العكس أن ننطلق من الكل متضامنا لكي نحصل بواسطة التحليل على ما يضمه من عناصر .

158 وليسط لهذه النظرية فاننا سنتناولها من جهات ثلاث تباعا/: جهة المدلول أو

المتصوّر (في الفصل الثاني) وجهة الدال (في الفصل الثالث) وجهة الدليل في مجموعه (في الفصل الرابع) .

ولما كنا لا نستطيع ادراك الكيانات الملموسة أو وحدات اللغة ادراكا مباشرا فاننا سنعتمد الكلمات لمعالجة هذه القضية . فالكلمات وان لم يطابق تعريفها تعريف الوحدة اللغوية بالضبط (انظر ص 163) توفر لنا عنها — على الأقل — صورة تقريبية من مزاياها أنها صورة ذات طابع ملموس . ولهذا فاننا سنعتبر الكلمات نماذج تساوي العناصر الحقيقية التابعة لنظام آني ما ، وما سنستخلصه من مبادىء بخصوص الكلمات نعتبره صحيحا أيضا بخصوص الكيانات على العموم .

الفصل الثاني :النظر في القيمة الألسنية من حيث مظهرها المتصوّري

ان أول ما يتبادر الى أذهاننا عادة عندما نذكر قيمة الكلمة هو بالذات تمثيلها لفكرة ما . ولنا في هذه الميزة بالفعل مظهر من مظاهر القيمة اللغوية . لكن ان كان الأمر كذلك فما الفرق بين هذه القيمة وبين ما نسميه **بالدلالة** signification ؟ وهل هاتان الكلمتان مترادفتان ؟ نحن لا نعتقد ذلك رغم سهولة الخلط بينهما ، لا سيما أن هذا الخلط ليس ناتجا عن تشابه الكلمتين بقدر ما هو ناتج عن لطيف التمييز الذي تدلان عليه .

فالقيمة اذا اعتبرناها من حيث مظهرها المتصوري هي ولا شك عنصر من عناصر الدلالة ، ومن العسير جدا أن ندرك كيف تتميّز الدلالة عن القيمة مع كونها في الآن نفسه خاضعة لها . ومع ذلك فمن اللازم توضيح هذه المسألة ، والا انحصرت اللغة في مجرّد قائمة من الالفاظ (انظر ص109) .

ولنبدأ بالنظر في الدلالة كما نتصوّرها وكما مثلناها لك في الترسيمية الموجودة ص 111 . فهي ليست سوى الطرف المقابل للصورة السمعية كما يوضحه السهمان في هذه الترسيمية فكل شيء يتم/ بين الصورة السمعية والمتصور الذهني في حدود الكلمة باعتبارها ميدانا مغلقا موجودا لذاته .

159

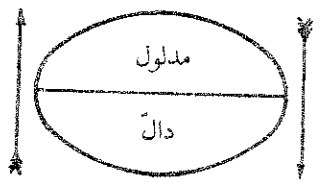

لكن إليك وجه الغرابة في هذه المسألة . فمن ناحية يبدو لنا المتصوّر الذهني الطرف المقابل للصورة السمعية في صلب الدليل ، ومن ناحية أخرى فان هذا الدليل نفسه أي العلاقة التي تربط بين عنصريه هو الآخر وبنفس الدرجة،الطرف المقابل للدلائل الأخرى الموجودة في اللغة .

ولما كانت اللغة نظاما متضامن العناصر جميعها فإن قيمة أي عنصر منها لا تنجرّ إلّا عن تواجد العناصر الأخرى حسب الترسيمة التالية :

فما الذي جعل القيمة ــ كما سبق ان عرفناها ــ تستوي في الدلالة أي في الطرف المقابل للصورة السمعية ؟ انه يبدو من المستحيل أن نعتبر العلاقات المشار اليها بواسطة سهام أفقية بمثابة العلاقات المشار إليها آنفا بواسطة سهام عمودية . وبعبارة أخرى اذا عدنا الى مثال الورقة تُقَطَّعُ (انظر ص 174) فاننا لا نرى لماذا لا نستطيع أن نميّز العلاقة التي نلاحظها بين قطع مختلفة مثل أ ــ ب ــ ج ــ د الخ عن تلك العلاقة التي نلاحظها بين وجه القطعة الواحدة وقفاها مثل أ/أ' وب/ب' الخ .

ولنلاحظ قبل الاجابة عن هذا السؤال ان جميع القيم ، حتى تلك التي نجدها خارج ميدان اللغة تبدو كأنها خاضعة لهذا المبدإ الغريب . فهي تتكوّن دائما من :

1 ــ شيء **مخالف** يمكن **ابداله** مقابل الشيء الذي نريد تحديد قيمته .

2 ــ من أشياء **متماثلة** يمكن **مقارنتها** بالشيء الذي نحن بصدد النظر في تحديد قيمته .

وهذان العاملان ضروريان لوجود قيمة من القيم . من ذلك أنك اذا أردت أن تحدّد قيمة قطعة/نقدية ذات خمسة فرنكات مثلا،وجب أن تعرف أمرين اثنين : 160

الأول أن يكون بامكانك اعطاؤها مقابل كمية معينة من شيء آخر مختلف عنها كالخبز مثلا . والثاني أن يكون بامكانك مقارنتها بقيمة مماثلة من نفس نظامها كالقطعة ذات الفرنك الواحد مثلا أو بعملة من نظام نقدي آخر (كالدولار أو غيره) . وكذلك الشأن بالنسبة الى الكلمة : اذ يمكن تعويضها بشيء مختلف عن طبيعتها : أي بفكرة ، وبالاضافة الى ذلك يمكن أن نقارنها بشيء آخر مماثل : أي بكلمة أخرى . فقيمة الكلمة اذن تظل غير محدّدة طالما اقتصرنا على ملاحظة انه يمكن « تعويض » تلك الكلمة بمتصوّر ذهني ما ، أي أن لها دلالة ما . وينبغي بالاضافة الى ذلك أن نقارن تلك الكلمة بالقيم المماثلة أي بالكلمات التي يمكن أن تقابلها ، ولا يمكن أن نعيّن محتوى الكلمة تعيينا حقيقيا إلّا بالاستعانة بما يوجد خارجها . فلما كانت الكلمة جزءا من نظام ما،فهي لا تكتسي دلالة فحسب بل تكتسي أيضا وبالخصوص قيمة . وهو أمر جد مختلف .

واليك بعض الامثلة التي تبين أن الأمر كما قلنا تماما : فلئن كان للكلمة الفرنسية mouton أي « خروف » نفس الدلالة التي للكلمة الانقليزية sheep فانه ليس لهما نفس القيمة . وذلك لأسباب عديدة نذكر منها بالخصوص انهم يسمون في الانقليزية القطعة من اللحم تُطبخ وتُقدّم للآكلين mutton لا sheep . فالاختلاف بين sheep و mouton من حيث القيمة راجع الى أن لهم في الانقليزية بازاء كلمة sheep كلمة أخرى ، وليس الأمر كذلك بالنسبة الى الكلمة الفرنسية .

وفي نطاق اللغة الواحدة تحدد جميع الكلمات المعبّرة عن أفكار متقاربة بعضها بعضا من حيث القيمة . فمترادفات من قبيل redouter أي « هاب » و craindre أي « خشي » و avoir peur أي « خاف » ليس لها قيمة خاصة بها إلّا بتقابلها ولو انعدمت كلمة redouter من اللغة الفرنسية لانتقل محتواها الى منافستيها . وفي اللغة على عكس ما تقدّم كلمات اتّسع معناها عن طريق اتصالها بكلمات أخرى مثل ذلك العنصر الذي جدّ في كلمة décrépit (من قولهم في الفرنسية un vieillard décrépit أي شيخ هرم (انظر ص 131) فهو نتيجة لتواجدها مع décrépi (في قولهم un mur décrépi أي تقريبا « حائط نزع عنه الملاط»). وهكذا فان قيمة أي عنصر لغوي تحدّد بما يحيط به. وخذ لك حتى

[illegible] أي « شمس » ، فلا يمكنك أن تضبط قيمتها من أول وهلة الا أنت [illegible] من الاعتبار ما يحف بها . ألا ترى أنه من اللغات ما يستحيل فيها قولهم [illegible] الفرنسية assis au soleil أي حرفيا « جلس في الشمس » .

[illegible] ما قلناه بشأن الكلمات ينطبق كذلك على أي عنصر من عناصر اللغة [illegible] النحوية مثلا . فقيمة صيغة من صيغ الجمع في الفرنسية على سبيل [illegible] لا تطابق تماما قيمة صيغة من صيغ الجمع في السنسكريتية رغم أن دلالتهما [illegible] . وذلك أن للغة السنسكريتية ثلاثة أعداد للتعبير عن [illegible] المفرد والمثنى والجمع لا اثنين أي المفرد والجمع فقط كما في اللغة [illegible] mes yeux و les oreilles و mes bras و mes jambes يعبر [illegible] بصيغة المثنى لا الجمع . فلا يكون من [illegible] صيغة الجمع في السنسكريتية نفس القيمة التي لها في [illegible] لأن صيغة الجمع لا يمكن استعمالها في اللغة السنسكريتية في جميع [illegible] التي يجب أن تستعمل فيها في الفرنسية . فقيمة صيغة الجمع ، اذن [illegible] عنها ومحيط بها .

[illegible] الكلمات مهمة تمثيل متصوّرات ذهنية معطاة سلفا لكان لكل [illegible] من لغة الى أخرى ما يوافقها في المعنى بالضبط . وليس الأمر كذلك [illegible] louer في الفرنسية ويعبرون بها على السواء [illegible] « اكترى » بينما تراهم في الألمانية يستعملون كلمتين مختلفتين [illegible] vermieten . فليس ثمة اذن تطابق تام بين القيم . وكذلك [illegible] لهما جملة من الدلالات توافق على سبيل [illegible] الفرنسيين [illegible] juger وأي حكم [illegible] هذا التطابق ينعدم في عدد هام من النقاط .

[illegible] أمثلة تتعلق بالأسماء فالتمييز بين الأزمنة — وهو أمر [illegible] في اللغة الفرنسية [illegible] عن أصحاب اللغات [illegible] ذلك أن [illegible] حتى [illegible] التمييز بين زمن الماضي وزمن الحاضر وزمن [illegible] أيضا أن اللغة الجرمانية الأصلية ليس [illegible] للتعبير عن المستقبل وقول بعضهم [illegible] تعبّر عن ذلك بواسطة

صيغة الحاضر تعبير ليس في محلّه ، لأن قيمة صيغة الحاضر في الجرمانية ليست قيمتها في اللغات التي لها صيغة تدل على المستقبل بالاضافة الى صيغة الحاضر . ومن ذلك أنهم يميزون في اللغات الصقلبية بصورة مطردة بين مظهرين اثنين في
162 الفعل أحدهما هو المنقضي/perfectif ويمثل الحدث من حيث هو كلّ باعتباره نقطة ويقطع النظر عن كل صيرورة ، وثانيهما المستمر imperfectif ويمثل الحدث من حيث هو بصدد الوقوع على خط الزمان . وهذا التصنيف مما يستعصي فهمه على الفرنسيين لانعدامه في لغتهم . فلو كان هذا التصنيف معرّفا بأمور موجودة بصورة مسبقة لاختلف الأمر . فالذي ينكشف لنا اذن في جميع هذه الحالات ليس جملة من الافكار الموجودة سلفا انما هي قيم نابعة عن النظام . فقولنا ان القيم توافق متصوّرات ذهنية قول تقديره أن تلك المتصوّرات تفاضلية محضة ، لا تعرّف ايجابيا بمحتواها بل تعرّف تعريفا سلبيا بما لها من علاقات مع بقية عناصر النظام الأخرى . فأدق خصائص المتصوّر الذهني كونه يمثل ما لا تمثله المتصوّرات الأخرى .

وعندئذ تتبيّن المعنى الحقيقي الذي ينبغي أن نذهب اليه في تأويلنا للترسيمة التي جعلناها للدليل . فهذه الترسيمة

تدل على أن المتصور «juger» في اللغة الفرنسية مقترن بصورة أكوستيكية هي juger أو قل انها ترمز الى الدلالة . ولكن من المفروغ منه أن هذا المتصور ليس له قبليا في شيء وأنه لا يعدو أن يكون قيمة محددة بعلاقاتها مع قيم أخرى مجانسة لها ولولاها لانعدمت الدلالة . فاذا اكتفينا بقولنا ان كلمة من الكلمات تفيد معنى ما ، واذا اقتصرنا على مجرّد اقتران صورة أكوستيكية بمتصور ذهني نكون قمنا بعملية قد تكون صحيحة الى حد ما ، وحرية باعطائنا فكرة عن الواقع ، إلّا أننا نعبّر بذلك البتة عن الحدث اللغوي من حيث جوهره واتساعه .

163 الفصل الثالث : النظر في القيمة اللغوية من حيث مظهرها المادي

لئن كان الجانب المتصوّري من القيمة اللغوية التابعة لعنصر ما متكوّنا فقط مما لذلك العنصر من علاقات واختلافات مع سائر عناصر اللغة فان هذا الأمر يصح أيضا بالنسبة الى الجانب المادي منها . فالذي يهمنا من الكلمة ليس الصوت ذاته إنما هو الفوارق الصوتية التي تمكننا من تمييز هذه الكلمة عن جميع الكلمات الأخرى ، وذلك لأن تلك الفوارق هي الحاملة للدلالة .

وقد يكون هذا الأمر باعثا على الاستغراب . ولكن هل يمكننا في الحقيقة أن نتصوّر عكس هذا ؟ فبما أنه لا وجود البتة لصورة صوتية تكون ملائمة أكثر من غيرها لأداء ما وضعت لأدائه فمن البديهي أن نسلم حتى بصورة ما قبليّة بأنه لا يمكن ، في نهاية المطاف لأي جزء من أجزاء اللغة ان يقوم إلّا على عدم مطابقته لبقية الأجزاء الأخرى . **فالاعتباطية والتخالف** صفتان متعالقتان

وأفضل دليل على هذا التعالق هو تغيّر الدلائل اللغوية . فبما أنه يستحيل أصلا على عنصرين مثل أ ــ و ب ــ أن يبلغا على صورتهما تلك ــ أي كل على حدة ــ مجالات وعينا وادراكنا ــ اذ أننا لا ندركهما دوما إلا في صورة مقابلة أحدهما للآخر على النحو التالي أ / ب ، لذلك بالذات كان كل عنصر منهما قابلا للتغيّر حسب قوانين لا تمتّ الى وظيفتهالدلالية بصلة . من ذلك ان المضاف اليه في اللغة التشيكية اذا كان في صيغة الجمع لا يتميز بأية علامة ايجابية (انظر ص 123) ومع ذلك فان الصيغتين žena : žen تتقابلان الآن تقابل اختيهما السابقتين žena : žena وتعملان نفس العمل بدون خلل ، وذلك راجع الى أن اختلاف الدلائل هو المدار الوحيد في هذه القضية . فقيمة žen (6) لا تحصل إلّا لكونها مختلفة عن غيرها .

واليك مثالا آخر يزيد في توضيح ما في عمل هذه الاختلافات الصوتية من انتظام . فلكلمة éphēn في اليونانية ومعناها « كان يقول » قيمة الماضي المستمرّ (imparfait) بينما لكلمة éstēn ومعناها « انعقد » قيمة الماضي المبهم (أي aoriste) رغم تماثل صورة صياغتهما . ومردّ ذلك ان/الأولى موجودة ضمن ما

يسمى بصيغة الاخبار في الزمن الحاضر (indicatif présent) وهي phēmi أي « أقول » بينما لا يصرّف الفعل الثاني في الزمن الحاضر فلا يقال : * stēmi والحال ان العلاقة بين phēmi و éphēn هي التي توافق بالذات العلاقة بين زمن الحاضر وزمن الماضي المستمرّ (انظر العلاقة الموجودة بين deíknumi ومعناها « أرى » و edeíknūn ومعناها « أريت ») الخ . فهذه الدلائل لا تعمل اذن بما لها من قيمة داخلية في ذاتها انما تعمل بمقتضى تقابل بعضها مع بعض .

على أنه يستحيل أن ينتمي الصوت ــ ذلك العنصر المادي ــ بذاته وحده الى اللغة ، انما هو بالنسبة اليها شيء ثانويّ ومادة تستخدمها فحسب . ولجميع القيم التواضيعة هذه الخاصية المتمثلة في أنها لا تستوي بالعنصر الملموس الذي هو العماد الحامل لها . من ذلك أن الذي يحدّد قيمة قطعة من النقود ليس المعدن الذي منه سكت . فالريال الفرنسي قديما (écu) الذي قيمته الاسمية خمسة فرنكات ليس فيه من معدن الفضة الا نصف هذه القيمة ، وقيمته تزيد وتنقص حسب الصورة المنقوشة عليه وباختلاف البلاد التي يُتعامل به فيها . ويصح ذلك أكثر في الدال اللغوي ، فهو في جوهره ليس أمرا صوتيا البتة انما أمر مجرّد لا يتجسّد . وهو يتكوّن لا من جوهره المادي انما من مجرد الفروق التي تميز صورته الاكوستيكية من سائر الصور الاكوستيكية الأخرى .

ولهذا المبدإ من الأهمية ما يجعله ينطبق على جميع العناصر المادية التابعة للغة بما في ذلك الصوائم . فكل لسان تركّب فيه الكلمات على أساس مكوّن من نظام من العناصر الصوتية عددها مضبوط ضبطا ، ويكوّن كل عنصر منها وحدة معينة الحدود بوضوح . إلّا أن ما تختصّ به هذه العناصر ليس ما في طبيعتها من خصائص ذاتية ايجابية كما قد يتبادر الى الذهن بل هو مجرّد كونها لا تختلط فيما بينها ولا يستوي بعضها في بعض . فالصوائم هي قبل كل شيء كيانات تقابلية تعالقية سالبة .

والذي يدل على ذلك ما يتمتع به المتكلم من حرية نسبية في صورة نطقه ببعض الأصوات ما دامت تلك الأصوات متميزة بعضها عن بعض . فالاستعمال الشائع المتمثل في نطق الفرنسيين للرّاء كالغين لم يمنع عددا كبيرا منهم من نطقها راء مكررة بدون أن يضطرب لذلك عمل اللغة البتة اذ هي لا تتطلب إلّا وجود

١٦٥ الاختلافات . ونعني لا تفرض علينا — كما قد يتبادر الى بعض الأذهان — أن تكون للصوت صفة قارّة ثابتة فأنت تستطيع في الفرنسية حتى أن تنطق الرّاء كالخاء الألمانية التي في نحو Bach و doch وغيرهما . ولو رحت تنطق الراء خاء في الألمانية لما استطعت لأن الراء والخاء فيها عنصران ينبغي التمييز بينهما (٢) . وكذلك الشأن في اللغة الروسية . فأنت لا تستطيع أن تنطق التاء نطقاً مليّناً (تـ) لأن ذلك يفضي الى الخلط بين صوتين تميز بينهما اللغة الروسية (قارن govorit [illegible] govorit [illegible]) بينما تستطيع أن تنطق [illegible] ذلك أن هذا الصوت لا يدخل في عداد الأصوات الثابتة لنظام الصوائت في اللغة الروسية .

وبما أننا نلاحظ وجود حالة مماثلة لما سبق في نظام آخر من أنظمة الدلائل هو الكتابة فإننا سنتخذه قدوة في المقارنة لننطلق منه لتوضيح هذه المسألة برمتها . فالذي نلاحظه في الواقع هو :

١) أن علامات الكتابة علامات اعتباطية فلا علاقة بين صورة حرف التاء في [illegible] مثلاً وبين الصوت الذي تدل عليه .

٢) أن قيمة الحروف الكتابية قيمة سالبة وتخالفية محضة . من ذلك أنه يمكن للشخص الواحد أن يكتب التاء بأشكال مختلفة على النحو التالي : [illegible] والمهم أن لا يلتبس في الكتابة بين صورة التاء وصورة اللام أو الدال الخ .

٣) لا تعمل القيم الدالة للكتابة عملها إلا بتقابلها بعضها ببعض ضمن نظام محدد يتكون من عدد محدود من الحروف المكتوبة . وهذه الخاصية خاصية الاختلاف [illegible] أن تكون مماثلة لها تماماً . وذلك لأنهما معاً تابعتان للخاصية الأولى . ولما كانت العلامة الكتابية اعتباطية لم يكن لصورتها كبير أهمية أو قل لا أهمية لها إلا ضمن الحدود التي يفرضها النظام .

١٦٦ ٤) إن وسيلة انتاج العلامة المكتوبة ليس لها أي اعتبار إذ لا دخل لها في النظام ولا أثر [illegible] وهذا أمر مترتب كذلك عن الخاصية الأولى . [illegible] فسواء رسمت الحروف المكتوبة باللون الأبيض أو الأسود محفورة أو بارزة بواسطة ريشة أو [illegible] فليس لكل ذلك أي وزن في دلالتها .

الفصل الرابع : النظر في الدليل من حيث هو كل

يمكننا أن [illegible] ما تقدم بأن نقول : ليس في اللغة إلا الاختلافات . بل [illegible]

[illegible]

ولكن القول بأن كل شيء سالب في اللغة قول لا يصح إلا على [illegible]

[illegible]

[illegible]

الصوتي (مثل décrépit = decrepitus و décrépi = crispus) نزع معنياهما الى الاستواء أيضا ، شريطة أن يتوفر فيهما ما يدعو الى ذلك (8) . وأما اذا أصبح للكلمة صورة ثانية متميّزة عن صورتها الأولى (مثل chaise و chaire) فان هذا التميّز الحاصل سينزع في جميع الحالات الى اكتساب دلالة خاصة (9) ، على أن ذلك لا يتحقق دائما ولا من أوّل وهلة . وبعكس ذلك فان كل اختلاف معنوي يدركه الذهن،يسعى المرء الى التعبير عنه بدالات متميزة ، وكل معنيين لم يعد الذهن يميّز بينهما ينزع المرء الى الخلط بينهما والتعبير عنهما بنفس الدال

وبمجرّد أن نقارن الدلائل ـــ باعتبارها عناصر ايجابية ـــ فيما بينها ـــ يصبح القول بوجود الاختلافات أمرا مستحيلا ، اذ تصبح هذه العبارة في غير محلها لأنها لا تنطبق تماما إلّا على المقارنة بين صورتين صوتيتين مثل / أبّ / و / أخّ / أو بين معنيين مثل « أب » و « أخ » . فأي دليلين يتضمّن كل واحد منهما دالا ومدلولا لا يعتبران مختلفين بل هما متميّزان فحسب ، ولا يكون بينهما إلّا **التقابل** . فإوالية الكلام البشري ـــ التي سنتعرّض اليها فيما يلي ـــ تقوم بأكملها على تقابلات من هذا القبيل وعلى ما تقتضيه من اختلافات صوتية وأخرى متصوّرية .

وما صحّ في القيمة يصحّ أيضا في الوحدة اللغوية (انظر ص 171) . فالوحدة جزء من السلسلة المنطوقة يوافق متصوّرا ما ، وكلاهما ذو طبيعة تخالفية صرف .

168 ولنا أن نصوغ مبدأ التخالف اذا طبقناه على الوحدة اللغوية/على النحو التالي : **ان خصائص الوحدة تستوي في الوحدة ذاتها** . والأمور التي بها يتميّز دليل ما من الدلائل في اللغة ـــ وكذلك الشأن بالنسبة الى الدلائل في جميع الأنظمة الدلائلية ـــ هي قوامه الوحيد لا غير . فالاختلاف هو الذي تتحدّد به خاصية الدليل وكذلك قيمته وكذلك وحدته .

واليك نتيجة أخرى غريبة بعض الغرابة منجرّة عن نفس المبدإ : إنّ ما شاعت تسميته بـ « الظاهرة النحوية » يوافق في نهاية المطاف تعريفنا للوحدة لأنه يعبّر دائما عن تقابل ما بين العناصر . إلّا أن هذا التقابل يصادف دائما تقابلا ذا دلالة هامة ، مثل صورة صياغة الجمع في الالمانية التي من قبيل Nächte : Nacht فكلا العنصرين في هذه الظاهرة النحوية (المتمثلة في تقابل صيغة المفرد خالية من

الامالة ومن الحركة /e/ في آخرها،مع صيغة الجمع المشتملة على الأمالة وعلى /e/ في آخرها) مكوّن من مجموعة كاملة من التقابلات في صلب النظام . ولا تفيد Nacht أو Nächte ـــ اذا اعتبرت كل واحدة منهما على حدة ـــ شيئا يذكر. فكل شيء إذن انما هو تقابل ، أو بعبارة أخرى نستطيع أن نعبّر عن العلاقة Nächte : Nacht بصيغة جبرية هي أ / ب لا يمثل فيها « أ » و « ب » عنصرين بسيطين انما كلاهما ناتج عن مجموعة من العلاقات . فاللغة ـــ ان صحّ التعبير ـــ علم جبر لا يتضمّن إلّا عناصر متشعبة . ومن بين التقابلات التي تتضمنها تقابلات أكثر دلالة من غيرها . لكن الوحدة النحوية والظاهرة النحوية ليستا سوى تسميتين مختلفتين للتعبير عن وجهين مختلفين من نفس الظاهرة العامة ، وتلك الظاهرة هي تعامل التقابلات اللغوية . ولهذه المسألة من الصحة ما يخوّل لنا أن نلج باب الوحدات انطلاقا من الظاهرة النحوية . فاذا انطلقنا من تقابل مثل Nächte : Nacht تساءلنا عن الوحدات المتعاملة في صلب هذا التقابل : هل هي هاتان الكلمتان فقط أم جميع الكلمات المماثلة لهما ؟ أم انعدام الامالة ووجودها ؟ أم جميع صيغ الأفراد وجميع صيغ الجمع ؟ الخ .

ولو كانت الدلائل اللغوية قائمة على شيء آخر غير الاختلافات لما اختلطت الوحدة بالظاهرة النحوية . ولكن لما كانت اللغة هي ما هي ،/فاننا لن نقف فيها 169
على أي أمر بسيط وذلك مهما كان الجانب الذي منه نباشرها . فلا وجود في جميع الأثناء والأنحاء إلّا لذلك التوازن المتشعّب بعينه القائم على عناصر يكيّف بعضها بعضا . **فاللغة بعبارة أخرى شكل وليست بمادة** (انظر ص 174) . ويجب علينا أن نتشبع بهذه الحقيقة بما فيه الكفاية ولكن أنّى لنا ذلك والحال أن جميع ما في مصطلحاتنا من خلل وجميع طرقنا الفاسدة في نعت الأمور التابعة الى اللغة منجرّة عن ذلك الافتراض اللاإرادي القائل بوجود جانب ماديّ في الظاهرة اللغوية .

170

الباب الخامس
العلاقات السياقية والعلاقات الترابطية

الفصل الأول : بعض التعريفات

وهكذا فان كل شيء في حالة لغوية ما انما يقوم على العلاقات . فكيف تقوم هذه العلاقات بوظيفتها ؟

ان العلاقات والاختلافات القائمة بين عناصر اللغة تدور في نطاق دائرتين متميزتين تولّد كل واحدة منهما نوعا معينا من القيم . وان التقابل بين هذين النوعين يزيد في تبيان طبيعة كل منهما . فهما يوافقان صورتين من صور نشاطنا الذهني لازمتين معا ، ولا غنى لحياة اللغة عنهما .

فمن ناحية نلاحظ أن الكلمات تعقد فيما بينها في صلب الخطاب وبمقتضى تسلسلها علاقات قائمة على الصفة الخطية للغة . وهي صفة ينتفي معها امكان النطق بعنصرين معا في نفس الوقت (انظر ص 114) . وتنتظم هذه العناصر الواحد تلو الآخر في سلسلة اللفظ . ويمكن أن نسميّ هذه التوليفات التي تتخذ لها من الامتداد حاملا سياقات (1) . فالسياق اذن يتركب دائما من وحدتين متتاليتين فأكثر (مثل أ مال ، رغم ذلك ، ال ـ حياة ـ ال ـ البشرية ، الله كريم ، إذا
171 كان الطقس جميلا خرجنا الخ) والكلمة اذا وقعت في/سياق ما ، لا تكتسب قيمتها إلّا بفضل مقابلتها لما هو سابق ولما هو لاحق بها أو لكليهما معا .

ومن ناحية أخرى نلاحظ خارج الخطاب أن الكلمات المتضمنة لشيء ما مشترك بينها تترابط في الذهن ، فتكوّن بذلك مجموعات تقوم في صلبها علاقات شتى شديدة التنوع . فكلمة تعليم مثلا تثير في الذهن بصورة لا شعورية طائفة من الكلمات الأخرى (من قبيل علّم وأعلم الخ أو من قبيل تسليح وتبديل الخ أو من قبيل تربية وتمرّن وتفقه الخ) ولكل هذه الكلمات شيء ما تشترك فيه بوجه أو بآخر .

والملاحظ أن هذه الصور في التنسيق بين الكلمات تختلف تماما عن النوع السابق . فهي لا تتخذ من الامتداد حاملا انما مقرها الدماغ وهي جزء من ذلك الكنز الباطني الذي يكوّن اللغة لدى كل فرد . وسنسميها **علاقات ترابطية** .

والعلاقة السياقية علاقة حضورية (in praesentia) تقوم على عنصرين فأكثر كلها متواجدة في نفس الوقت ضمن سلسلة من العناصر موجودة بالفعل . وبخلاف ذلك فان العلاقة الترابطية تجمع بين عدد من العناصر بصورة غيابية (in absentia) ضمن سلسلة وهمية موجودة بالقوة مجالها الذاكرة .

والوحدة اللغوية ـــ من وجهة النظر المزدوجة هذه ـــ شبيهة بجزء ما من أجزاء أحد المباني كالسارية مثلا . فللسارية من ناحية علاقة معينة بالسنادة الموجودة فوقها . وهذا الانتظام بين وحدتين معماريتين متواجدتين في المكان يذكرنا بالعلاقة السياقية ؛ ومن ناحية أخرى اذا كانت السارية من النوع الدُّوري (11) فانها ستوحي الينا بمقارنتها ذهنيا بسائر أنواع السواري (الايونية منها (12) والكورنتية (13) وغيرها) وكلّها أنواع غير متواجدة في المكان ، واذن فالعلاقة هنا علاقة ترابطية :

ويستدعي كلا هذين الصنفين من صور التنسيق بين العناصر اللغوية بعض الملاحظات الخاصة/.

172 الفصل الثاني : العلاقات السياقية

ان في الأمثلة التي قدمناها ص 186 ما يشير بعد الى أن مفهوم السياق لا

ينطبق على الكلمات فرادى فحسب بل وكذلك على مجموعات الكلمات والوحدات المركبة مهما بلغت من الطول والتنوع (كالكلمات المركبة والمشتقات وأجزاء الجمل والجمل الكاملة) .

وينبغي أن لا نقتصر على اعتبار العلاقة التي تربط بين مختلف أقسام السياق (مثل تلك التي بين « رغم » و« أنفه » في قولنا « رغم أنفه » والتي بين « عبد » و « الله » في قولنا « عبد الله ») بل يجب أن نعتبر كذلك العلاقة التي تربط الكل بأجزائه (مثل قولنا : « رغم أنفه » في تقابلها مع « رغم » من ناحية وأنفه من ناحية أخرى أو مثل « عبد الله » في تقابلها مع « عبد » ومع « الله ») .

وقد يعترض بعضهم على هذا بأن يقول : ان الجملة أحسن نموذج يمثل السياق ، إلّا أنها من مشمولات اللفظ لا اللغة (انظر ص 34) أفلا ينجرّ عن ذلك أن يكون السياق أيضا من مشمولات اللفظ . اننا لا نقول بهذا الرأي لأن أخصّ خصائص اللفظ هو ما يتمتع به المرء من حرية في التوليف بين مختلف العناصر . فينبغي أن نتساءل اذن هل أن جميع السياقات متساوية في درجة حرية التوليف بين عناصرها ؟

يجد المرء أولا عددا كبيرا من العبارات المنتمية الى اللغة ؛ وهي عبارات جاهزة يمنعنا الاستعمال من الحاق أي تغيير بها وان تيسر لنا أن نقف فيها — بعد التأمّل — على عناصر دلالية (مثل طالما وليت شعري الخ) . كما نلاحظ نفس الظاهرة وان كانت أقل بروزا في عبارات من قبيل : « اغبرّ وجهه » أو « هام على وجهه » أو « رغم أنفه » أو « لفظ أنفاسه » أو « رجع بخفي حنين » أو « الله أعلم » . فكلها عبارات شاع استعمالها لما فيها من خصائص المعنى أو التركيب وليس بوسع المرء أن يرتجل مثل هذه العبارات بل يتلقاها عن العرف . ويمكن أن نورد في هذا المجال كلمات قابلة لان تحلل تمام القابلية وهي مع ذلك/تتميز بشيء من الشذوذ الصرفي احتفظ به فيها بحكم سلطان الاستعمال وحده (انظر « يَوْجَلُ إزاء : « يَقِفُ » الخ أو صيغة التفضيل « شرّ » ازاء « أكرم » الخ) . 173

وليس هذا كل ما في الامر ، بل يجب أن نسند جميع أنماط السياقات التي

تصاغ على منوال صيغ مطردة الى اللغة لا إلى اللفظ . وفعلا فانه لما كانت اللغة خالية تماما من المجردات فان تلك الانماط لا توجد إلّا اذا سجلت اللغة عددا كافيا من النماذج التابعة لها . واذا جاء في اللفظ على لسان بعضهم كلمة من قبيل : « أَخْيَرُ » وكذلك الأمر في الفرنسية بالنسبة الى indécorable (انظر ص 250 وما بعدها) فإنّ ذلك يقتضي وجود نمط معيّن . وذلك النمط بدوره يتوقف وجوده على تذكر عدد كاف من الكلمات المماثلة الموجودة في اللغة (مثل أعظم ، أحسن الخ) وكذلك الشأن تماما بالنسبة الى الجمل والى مجموعات الكلمات المصوغة على أنماط مطردة فقولنا « السماء زرقاء » أو « ماذا تقول؟» الخ .. توليفات تطابق أنماطا عامة لها بدورها في اللغة حامل يحملها،صورته ما نتذكره من نماذج ملموسة .

ولكن يجب أن نعترف بأنه لا وجود في ميدان السياق — لحدّ فاصل فصلا مطلقا بين الحدث المنتمي الى اللغة الذي هو علامة من علامات الاستعمال الجماعي والحدث المنتمي الى اللفظ الخاضع لحرية الفرد . ويعسر علينا في عدد كبير من الحالات أن ندرج توليفة ما من الوحدات في هذا الصنف أو ذاك ، وذلك لأن كلا العاملين — الجماعي والفردي — قد ساهما في انشائها مساهمة يستحيل تحديد نسبتها .

الفصل الثالث : العلاقات الترابطية

ان المجموعات التي تتكوّن عن طريق الربط بين عناصرها ذهنيا لا يقتصر فيها الانسان على التقريب بين العناصر التي تشترك في بعض الخصائص ، بل يدرك الذهن بالاضافة الى ذلك طبيعة العلاقات التي تربط بينها في كل حالة من الحالات فينشيء بذلك عددا من السلاسل الترابطية يوافق عددا من العلاقات المختلفة . ففي الكلمات التالية (تعليم ، علّم ، تعلّم الخ) عنصر مشترك بينها هو الجذر ، لكن/قد تدخل كلمة تعليم ضمن مجموعة تعتمد عنصرا مشتركا آخر كالصيغة مثلا (انظر تعليم وتسليح وتبديل الخ) وقد يقوم الترابط أيضا على مجرد ما بين المدلولات من تشابه (انظرا تعلم وتربية وتمرّن الخ) أو بالعكس على مجرد تشابه الصور الأكوستيكية (مثل تعليم وملّيم)(14) فأنت تجد تارة اشتراكا مزدوجا في 174

المعنى وفي الصغية معا وتارة أخرى اشتراكا يقتصر على أحدهما فقط . فيمكن لأي كلمة من الكلمات أن توحي الينا في كل حين بجميع ما من شأنه أن يرتبط بها بوجه من الوجوه .

وبينما يوحي إلينا كل سياق بوجود ترتيب تعاقبي ما وعدد معلوم من العناصر فان عناصر المجموعة الترابطية ليست معلومة العدد ولا خاضعة لترتيب معين . فاذا ربطنا بين الكلمات التالية : بحريّ وبرّي وشوكيّ الخ .. لم نستطع التكهّن بعدد ما ستستحضره ذاكرتنا من كلمات ولا التنبّؤ بالترتيب الذي ستظهر حسبه تلك الكلمات . فاذا اعتبرنا كلمة معينة ، كانت بمثابة المركز في كوكبة من النجوم أو النقطة التي تلتقي عندها كلمات أخرى مرتبطة بها لا يمكن تحديد عددها (انظر الترسيمة التالية) :

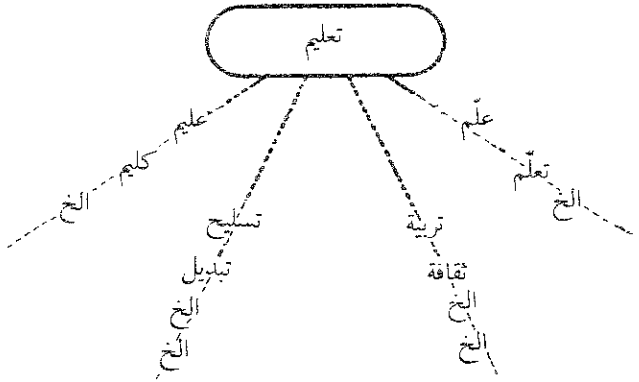

ومع ذلك فمن بين هاتين الخاصيتين التابعتين للسلسلة الترابطة — أي الترتيب غير المعلوم والعدد غير المحدّد — فان الأولى فقط هي التي تتحقق في جميع الحالات وأما الثانية فقد لا تتحقّق . وذلك/ما يقع بالذات في نوع متميز تميزا خاصا من أنواع تجمع الكلمات على النحو المذكور أي مختلف حالات الاعراب . فاذا اعتبرنا في العربية الحالات التالية : الرجلُ والرجل والرجلِ ورجل الخ . كان ذلك بالتأكيد مجموعة ترابطيّة تقوم على عنصر مشترك بينها هو الاسم : رجل . لكن عناصر السلسلة ليست غير محددة كما هو الشأن بالنسبة الى عناصر

سلسلة : « تعليم » ، « تبديل » الخ ، وذلك لأن عدد حالات الاعراب عدد محدّد ، أما تعاقبها فانه لا يخضع لترتيب معين في المكان ولئن اختار لها النحاة من الترتيب ما اختاروا فبحكم عملية اعتباطية تمام الاعتباط . فحالة الرفع لم تكن أبدا في وعي جمهور المتكلمين أول حالة في قائمة حالات الاعراب ، ويمكن أن تظهر الحالات الاعرابية على هذا الترتيب أو غيره حسب الصدفة والاتفاق .

17

الباب السادس
إواليّة اللغة

الفصل الأول : التضامنات السياقية

ان جملة الاختلافات الصوتية والمتصوّرية التي تتكوّن منها اللغة انما هي إذن نتيجة نوعين من التقريبات بين العناصر . وعمليّات التقريب هذه عمليات ترابطية تارة وسياقية تارة أخرى . واللغة هي التي تحدث الى حدّ كبير التجميعات الناجمة عن كلا النوعين من التقريب اذ أن جملة تلك العلاقات المألوفة هي التي تكوّن اللغة وتتحكّم في سير عملها .

وأول ما يشد انتباهنا في هذا الإنتظام هو **التضامنات السياقية** . وجميع وحدات اللغة تقريبا خاضعة اما لما يحفّ بها ضمن السلسلة المافوظة واما للاجزاء المتتالية التي تتكوّن منها تلك الوحدات بالذات .

ويكفي أن ننظر في صورة صياغة الكلمات لنتبين ذلك . فاذا اعتبرنا وحدة من قبيل (بحريّ) لاحظنا أنها تنقسم الى وحدتين فرعيتين (هما بحر ــ ي) لكنهما ليستا جزءين مستقلّين أضيف أحدهما إلى الآخر مجرّد إضافة (بحر + ي) انما الأمر يتعلق بنتاج أو توليفة بين عنصرين متضامنين لا قيمة لهما إلّا بفضل تفاعلهما في صلب وحدة أكبر (بحر + ي) . فاللاحقة (أي ياء النسبة) لا وجود

لها في حدّ ذاتها منعزلة لأن ما يبوّئها منزلتها من اللغة انما هو وجود طائفة من الكلمات المألوفة في الاستعمال مثل برّي ووطنيّ الخ ... وأصل الكلمة بدوره ليس قائما بذاته ولا وجود له إلّا بفضل ائتلافه بلاحقة من اللواحق . ففي كلمة roul-is أي « التمايل ذات اليمين وذات الشمال » لا يمثل العنصر/roul-/ منعزلا عما يليه شيئا . فالكل يكتسب قيمته من الأجزاء التي يتكون منها كما تكتسب الأجزاء قيمتها بفضل منزلتها من الكل . وهذا ما يبيّن لماذا كان للعلاقة السياقية بين الجزء والكل نفس الأهمية التي لعلاقة الأجزاء بعضها ببعض .

وهذا مبدأ عام تظهر لك صحته في جميع أنواع السياقات السالفة الذكر ص 188 ، فالامر يتعلق دائما بوحدات أكبر ، تتركب بدورها من وحدات أصغر منها ، وتجمع بين هذه وتلك علاقة تضامن متبادل .

وصحيح أنك تجد في اللغة وحدات مستقلة ليس لها علاقات سياقية لا مع أجزائها الذاتية ولا مع وحدات أخرى . ومن أفضل الأمثلة في هذا الصدد تلك الكلمات التي تستعمل بمثابة الجمل التامة مثل : «نعم» و «لا» و«شكرا» وغيرها . إلا أن هذه الظاهرة ــ وهي في الواقع حالة استثنائية ــ غير كافية للنيل من صحة هذا المبدا العام . فنحن في الاستعمال العادي لا نتكلم بواسطة دلائل منعزلة بل بواسطة مجموعات من الدلائل وكتل منسقة تكوّن بدورها دلائل . فمردّ كل شيء في اللغة انما هو الى الاختلافات بيد أن مَرَدَّ كل شيء فيها انما هو الى التجميعات كذلك . فهذه الاوالية المتمثلة في تعامل عدد من العناصر المتعاقبة شبيهة بعمل آلة من الآلات تتعامل أجزاؤها تعاملا رغم أن هذه الأجزاء منظمة على امتداد واحد .

الفصل الثاني : عمل هذين النوعين من التجميعات في آن واحد

يقوم بين التجميعات السياقية ــ كما سبق ان ضبطنا تكوّنها ــ صلة تبعيّة متبادلة اذ يكيف بعضها بعضا . وفعلا فان تنسيق الوحدات في المكان يساهم في خلق تنسيقات ترابطية ، وهذه التنسيقات بدورها ضرورية لتحليل أجزاء السياق .

178 فقولنا مثلا ـــ از ـــ حلّ وهو صيغة مزيدة ، يمكن أن/نمثله لك على شريط أفقي يوافق السلسلة المنطوقة على النحو التالي :

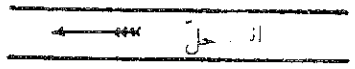

لكننا نجد في الآن نفسه وعلى محور آخر ـــ في مستوى اللاشعور ـــ سلسلة ترابطية أو أكثر من سلسلة تشتمل على وحدات لها عنصر مشترك مع هذا السياق مثل :

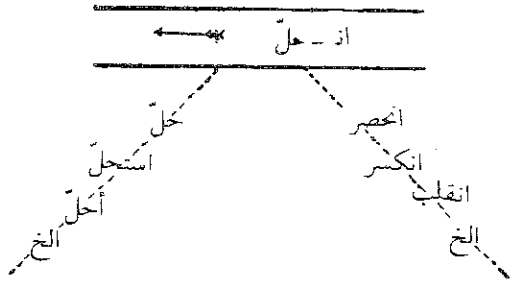

وكذلك الأمر بالنسبة الى الكلمة الفرنسية : défaire فهي أيضا تمثل سياقا لانها تقوم على سلسلتين ترابطيتين على النحو التالي :

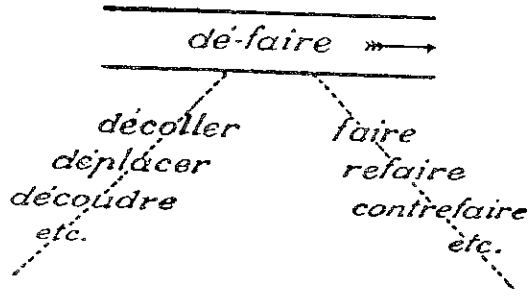

وهاتان الكلمتان انحلّ و défaire ان أمكن تقسيمهما الى وحدات فرعية أو بعبارة أخرى إن أمكن اعتبارهما سياقين فذلك تبعا لكونهما محفوفتين في الذهن بجميع ما ذكرناه من صيغ أخرى . ولو انعدمت من العربية سائر الصيغ المشتملة على (از) أو (حلّ) ومن الفرنسية سائر الصيغ المشتملة على (dé-) و (faire) 179 لاستحال تحليل انحلّ و défaire ،/ولاصبحت كل واحدة منهما مجرد وحدة بسيطة ولا ينتفي ما بين جزءي كل واحدة منهما من امكانية التقابل .

ومن ثمّة نفهم تعامل هذا النظام المزدوج في الخطاب .

فذاكرتنا تختزن جميع أنواع السياقات المتفاوتة في تشعبها مهما كان نوعها ومهما بلغت من الطول ، وعند استعمالنا اياها نستعمل المجموعات الترابطية لاختيار ما نختاره من سياقات . فاذا قال قائل : « قفوا » فانه يكون قد فكّر بصورة لا شعورية في مجموعات ترابطية متنوعة يوجد هذا السياق،أي « قفوا » ، في نقطة التقائها . فهذا السياق يوجد من ناحية ضمن السلسلة (قف ، قفي ، قفا ، قفن) . والذي مكننا من ضبط اختيارنا لقفوا ، انما هو التقابل الذي بين هذا السياق وبين سائر الصيغ المذكورة . وهذا السياق من ناحية أخرى يوحي بسلسلة : صِلوا وعِدوا الخ وقد اخترنا عنصرا من عناصرها بنفس الطريقة . فنحن نعرف ما ينبغي تغييره في كل سلسلة للحصول على التميّز الخاص بالوحدة التي ننشدها . فاذا غيّرنا المعني الذي نريد التعبير عنه لزمت تقابلات أخرى لكي تبرز قيمة أخرى الى الوجود فنقول مثلا : قف ، أو صلوا .

وهكذا نلاحظ أنه لا يكفي أن نقول ـــ انطلاقا من وجهة نظر ايجابية ـــ إننا إن اخترنا « قفوا » فذلك لانها تدل على ما نريد التعبير عنه . فالفكرة في الحقيقة لا تستدعي صيغة بل تستدعي نظاما كاملا بأكمله بفضله نتحصل على التقابلات اللازمة لتكوين الدليل . والدليل في حدّ ذاته ليس له أي دلالة خاصة . فلو كتب لـ « قف » و « قفي » و « قفا » و « قفن » أن تسقط من اللغة فتبقى « قفوا » وحدها لسقطت بعض التقابلات ولتغيرت قيمة « قفوا » بمجرّد وقوع ذلك .

وينطبق هذا المبدأ على جميع أنواع السياقات والجمل حتى أشدها تشعبا .

فعندما ننطق بجملة مثل قولنا :« ماذا قال **لكم** ؟ » نقوم بتغيير أحد العناصر من
180 نمط سياقي كامن مثل : « ماذا قال **لك** » أو « ماذا قال **لنا** » الخ ،/وبتلك الطريقة يستقرّ اختيارنا على الضمير المتصل **كم** ، وهكذا فان التجميعات الترابطية والأنماط السياقية جميعها لها دور تقوم به في آن واحد في هذه العملية المتمثلة في الاستغناء بصورة ذهنية عن كل ما ليس من شأنه أن يؤدي الى التميز المقصود المتصل بالنقطة المنشودة .

وبعكس ذلك فان هذه الطريقة في الضبط والاختيار تتحكم في أصغر الوحدات بل حتى في العناصر الفنولوجية عندما تكتسي قيمة ما . ولا يتعلق الأمر فحسب بحالات من قبيل /pətit/ (وترسم petite أي « صغيرة » ازاء /pəti/ (وترسم petit أي « صغير ») في الفرنسية أو من قبيل قولنا صغُر إزاء قولنا صغُرت في العربية ، حيث انحصر الاختلاف بين هذه الصيغ عن طريق الاتفاق والصدفة في صوتم واحد ، انما يتعلق كذلك بظاهرة أوضح دلالة وأشد لطفا تتمثل في أن الصوتم في حدّ ذاته قد يقوم بدور ما في نظام حالة لغوية ما . فاذا استحال ورود الميم والباء المهموسة /p/ والتاء وغيرها في آخر الكلمة في اللغة اليونانية فمعنى ذلك أن وجود هذه الأصوات في موضوع ما أو انعدامها منه له وزنه في بنية الكلمة وبنية الجملة . على أن الصوت المنعزل في جميع الحالات التي من هذا القبيل ، وكذلك الأمر بالنسبة الى الوحدات الأخرى ، يقع عليه الاختيار بعد اقامة تقابل ذهني مزدوج . فصوت الميم في مجموعة الأصوات الوهمية التالية ـَـ نْ م ـَـ : anma يرد في تقابل سياقي مع الأصوات المجاورة له وفي تقابل ترابطي مع كل ما يمكن أن يخطر ببالنا من الأصوات فيكون لنا :

ـَـ ن م ـــ	a n m a
ف	v
د	d

الفصل الثالث : الاعتباطية المطلقة والاعتباطية النسبية

يمكننا أن نقدم إوالية اللغة من زاوية أخرى ذات أهمية خاصة وهي التالية :

ان المبدأ الأساسي المتمثل في اعتباطية الدليل لا يمنعنا من أن نميّز في كل لغة من اللغات بين ما هو اعتباطي اطلاقا أي غير مبرّر ، وبين ما اعتباطيته نسبية
181 فقط . فالذي اعتباطيته مطلقة لا يمثل سوى قسم من الدلائل ،/وفي بعض الدلائل الأخرى تتدخل ظاهرة تمكننا من الوقوف على درجات من الاعتباطية متفاوتة ، ولكن بدون أن تنتفي بذلك الاعتباطية تماما : **فقد يكون الدليل مبرّرا نسبيا** .

فكلمة « مائة » غير مبرّرة ، أما « تسعة عشر » فليست غير مبرّرة بنفس الدرجة لأنها توحي الى الذهن بالعنصرين اللذين تتكون منهما وتوحي إلينا كذلك بعناصر أخرى مرتبطة بها مثل « تسعة » و « عشرة » و « تسعة وعشرون » و « ثمانية عشر » وغيرها . فاذا اعتبرنا « تسعة » و « عشرة » كلا على حدة استوتا في الاعتباطيّة « بمائة » أما « تسعة عشر » فهي حالة من حالات التبرير النسبي . وكذلك الشأن بالنسبة الى الكلمة الفرنسية poirier أي « شجرة اجاص » التي تذكرنا بالكلمة البسيطة : poire أي اجّاصة « كما تذكرنا اللاحقة ier- بـ cerisier أي « شجرة كرز » و pommier أي « شجرة تفاح » الخ . بينما لا نلاحظ شيئا من هذا القبيل بالنسبة الى كلمتي frêne أي « شجرة المران » و chêne أي « شجرة البلوط » الخ . ويمكن ان نقارن أيضا بين كلمة berger أي « راعي الغنم » غير المبررة البتة وكلمة vacher أي « راعي البقر » المبرّرة نسبيا . وكذلك الشأن بالنسبة الى أزواج الكلمات التالية [حيث تمثل الكلمة الأولى من كل زوج اعتباطية مطلقة بينما تمثل الثانية تبريرا نسبيا] :(15)

geôle « زنزانة » و cachot « مطبق »
hache « فأس » و couperet « فأس »
concierge « بواب » و portier « بوّاب »
jadis « قديما » و autrefois « قديما »
souvent « غالبا » و fréquemment « غالبا »
aveugle « ضرير » و boiteux « أعرج »
sourd « أصمّ » و bossu « أحدب »
second « الثاني » و deuxième « الثاني » .

وكذلك في الالمانية Laub أي « خميلة » ومرادفها في الفرنسية feuillage وفي الفرنسية métier ومرادفها في الالمانية : Handwerk « عمل يدوي » . وتذكرنا صيغة الجمع في الانقليزية ships أي « سفن » من حيث صياغتها بسلسلة الجموع التي من قبيل «flags» أي « رايات » و birds أي « عصافير » وbooks أي « كتب » . أما men أي « رجال » و sheep أي « خرفان » فانهما لا تذكراننا بشيء (16) . وتعبّر كلمة dősō أي « سأعطي » في اليونانية عن معنى الاستقبال بعلامة تستدعي ارتباطها بـ luso أي « سأحلّ » و steso أي «سأبقي »و tűpsō أي « سأضرب » الخ اما eîmi أي « سأذهب » فانها منعزلة عنها كل الانعزال (17) .

وليس المجال هنا مجالا للبحث عن العوامل التي تكيف التبرير في كل حالة . ويكفي أن نقول إن التبرير يكون دائما اتم كلما كان التحليل السياقي أيسر ومعنى الوحدات الفرعية أكثر وضوحا . فلئن وجدنا بالفعل بعض العناصر الصياغية الشفافة مثل : -ier في poir-ier بازاء ceris-ier و pomm-ier وغيرها ومثل يّ في بَحْريّ بازاء برّي وأرضيّ وغيرها فاننا نجد عناصر أخرى مضطربة الدلالة أو منعدمتها تماما . فنحن لا نعلم مثلا الى أي حدّ توافق اللاحقة -ot في قولهم cachot أو اللاحقة «ـوتْ» في قولنا (جبروت) عنصرا ذا معنى ثم إننا إذا هربنا بين كلمات من قبيل : coutelas أي « سكين كبير » و fatras أي « ركام » و platras أي « بقايا الجبس » و canevas أي « شبكة » شعرنا شعورا مبهما بأن اللاحقة -as عنصر صياغي خاص/بالاسماء بدون أن نظفر بتعريف أدقّ لها . 182
بل وليس التبرير مطلقا حتى في أحسن الحالات وأوضحها . فليست عناصر الدليل المبرّر اعتباطية فحسب (انظر « تسعة » و « عشرة » في قولنا « تسعة عشر ») بل ان قيمة الكلمة المركبة كاملة لا تساوي أبدا مجموع قيمة الأجزاء التي تكونها : poir x ier لا تساوي : poir + ier (انظر ص 192) .

أما هذه الظاهرة في حدّ ذاتها فيفسرها ما ورد في الفقرة السابقة من مبادىء : فمفهوم التبرير النسبي يقتضي :

1) تحليل العنصر المنظور فيه وبالتالي إقامة علاقة سياقية .

2) استحضار عنصر أو عدة عناصر أخرى وبالتالي إقامة علاقة ترابطية . ولا

يختلف هذا الأمر عن تلك الاوالية التي بمقتضاها تكون كلمة ما مؤهلة للتعبير عن فكرة ما . وقد ظهرت لنا الوحدات الى حدّ الآن في صورة قيم أي في صورة عناصر تابعة لنظام من الأنظمة ونظرنا فيها خاصة من حيث تقابلاتها . أما الآن فقد وقفنا على ما يربط بينها من تضامنات وهي من صنفين : صنف ترابطي وصنف سياقي ، وهذه التضامنات هي التي تحدّ من الاعتباطية . فكلمة « تسعة عشر » متضامنة ترابطيا مع « ثمانية عشر » و « أحد عشر » وسياقيا مع « تسعة » و « عشر » (انظر ص 193) ، وتكسبها هذه العلاقة المزدوجة جزءا من قيمتها .

ونحن نؤمن بأن كل ما يتعلق باللغة من حيث هي نظام يجب أن نتناوله من هذه الزاوية التي لم تستوقف علماء اللغة إلّا قليلا؛ وهي الحدّ من الاعتباطية. وفي ذلك أفضل المنطلقات الممكنة . فنظام اللغة كاملا يقوم على هذا المبدإ اللامعقول المتمثل في اعتباطية الدليل والذي يؤدي الى أقصى درجات التعقيد إن هو طُبّق تطبيقا مطلقا . لكن العقل قادر على ادخال مبدا نظام وانتظام في بعض أقسام كتلة الدلائل . وفي ذلك يكمن دور ما هو مبرّر نسبيا. ولو كانت إوالية اللغة منطقية تمام المنطقية لتسنت لنا دراستها في حدّ ذاتها ، لكن بما أن هذه الاوالية ليست سوى تعديل جزئي/لنظام فوضوي بالطبع فعلينا أن نتبنى وجهة النظر التي تمليها 183
طبيعة اللغة ذاتها وذلك بأن ندرس هذه الاوالية من حيث هي حدّ من الاعتباطية .

ولا وجود للغة خالية من كل عنصر مبرّر . أما أن نتصوّر لغة يكون فيها كل شيء مبرّرا فذلك أمر مستحيل بحكم تعريفنا للغة بالذات . وبين هذين الطرفين الاقصيين — أي حد أدنى من الانتظام وحدّ أدنى من الاعتباطية — نجد جميع أنواع الدرجات الممكنة . فمختلف الألسن تشتمل دوما على عناصر من هذين الصنفين — أي عناصر اعتباطية اطلاقا وأخرى مبرّرة نسبيا — ولكن بنسب تختلف اختلافا كبيرا من لسان الى آخر . وذلك لعمري ميزة هامة يمكن أن ندخلها في الحساب عند تبويب الألسن وتصنيفها .

ويمكن القول بوجه من الوجوه — وهو وجه لا ينبغي الافراط في اعتباره على حقيقته إلّا أنه يجعلنا ندرك صورة من صور التقابل الذي نحن بصدده — إن

اللغات التي يبلغ فيها انعدام التبرير أقصاه لغات أكثر **معجمية** وإن اللغات التي ينزل فيها الى حده الأدنى لغات أكثر **نحوية** . وهذا لا يعني أن كلمتي « معجم » و « اعتباطي » من ناحية وكلمتي « نحو » و « تبرير نسبي » من ناحية أخرى مترادفة دائما انما يعني ان هناك أمرا مشتركا [بين كل زوج من هذه الكلمات] من حيث المبدأ . فهما بمثابة قطبين يتحرّك بينهما النظام اللغوي بأجمعه أو تيارين متقابلين يتنازعان حركة اللغة : يتمثل أحدهما في النزوع الى استعمال الأداة المعجمية أي الدليل غير المبرر ويتمثل ثانيهما في تفضيل الاداة النحوية أي قواعد التركيب .

ويبدو أن اللغة الانقليزية مثلا تولي غير المبرر أهمية تفوق بكثير ما توليه اياه اللغة الالمانية . بيد أن أشد النماذج مغالاة في المعجمية هو اللغة الصينية . أما الهندية الأروبية والسنسكريتية فهما نموذجان من اللغات المغالية في النحوية . ويمكن أن تكون حركة التطوّر — في صلب اللغة الواحدة — مطبوعة بأكملها بطابع المرور المتواصل من المبرّر الى الاعتباطي ومن الاعتباطي الى المبرّر . وغالبا ما ينجرّ عن هذا المدّ والجزر تحوّل ملحوظ في نسب هذين الصنفين من الدلائل/في اللغة . 184
من ذلك أن اللغة الفرنسية تتميّز فيما تتميز به عن اللاّتينية بتضخم كبير في الاعتباطية : فالكلمة اللاّتينية inimicus تذكرنا بـ in- و amicus الذين يبرّرانها ، في حين الكلمة الفرنسية ennemi الموافقة لها في المعنى ليس لها ما يبرّرها بتاتا اذ هي قد دخلت ميدان الاعتباطية المطلقة التي هي في الحقيقة الشرط الأساسي لقيام الدليل اللغوي . ويمكننا أن نلاحظ نفس التحول في مئات من الأمثلة من قبيل :

— constāre (stāre) بازاء coûter أي « كلّف »
— fabrica (faber) بازاء forge أي « ورشة الحدادة »
— magister (magis) بازاء maître أي « سيّد »
— berbīcārius (berbīx) بازاء berger أي « راع » الخ .

ومثل هذه التغييرات تطبع اللغة الفرنسية بطابع خاص يميزها عن سواها .

185

الباب السابع

النحو وفروعه

الفصل الأول : بعض التعريفات ؛ التقسيمات التقليدية

يمكن أن نطلق على الألسنية القارة أي وصف حالة من حالات اللغة اسم : **نحو** grammaire بالمعنى الدقيق جدا لهذه الكلمة . وهو في الواقع ذلك المعنى المتداول الذي نجده في عبارات من قبيل « نحو لعبة الشطرنج » و « نحو البورصة » وغيرها ، حيث يتعلق الأمر بشيء متشعب ومنتظم يقوم على تعامل جملة من القيم المتواجدة .

ويهتمّ النحو بدراسة اللغة من حيث هي نظام متكوّن من وسائل التعبير . فقولك نحوي يضاهي قولك آني ودلاليّ . ولما كنا لا نجد أيّ نظام يتجاوز حدود العصر الواحد الى عصرين أو أكثر فانه لا وجود في نظرنا لما يسمى « نحوا تاريخيا » ، وما أطلقوا عليه هذا الاسم ليس في الواقع إلّا الألسنية الزمانية .

ولا يوافق تعريفنا للنحو ذلك التعريف الأضيق الذي عرفوه ، به عادة . فالذي اتفقوا على تسميته بالنحو انما هو **الصرف** morphologie **والتركيبية** syntaxe مقترنين ، بينما نراهم أخرجوا منه **المعجمية** lexicologie أي علم الكلمات .

ولكن هل تطابق هذه التقسيمات الواقع ؟ وهل تتلاءم مع ما وضعناه من مبادىء ؟

فالصرف يعالج مختلف أصناف الكلمات (من أفعال وأسماء وصفات وضمائر وغيرها) ومختلف صور تصريف الكلمات (كتصريف الأفعال واعراب الأسماء) .
ولفصل/الصرف عن التركيبية زعموا أن موضوع التركيبية هو دراسة الوظائف التابعة 186
للوحدات اللغوية بينما لا يعالج الصرف من تلك الوحدات إلّا صيغها . فأصحاب الصرف مثلا يقتصرون على القول بأن صيغة الكلمة اليونانية phulax أي « حارس » تصبح phúlaxos في حالة الاضافة ولأصحاب التركيبية ان يدلونا على طرق استعمال هاتين الصيغتين .

لكن مثل هذا التمييز تمييز وهمي . فقائمة صيغ الاسم phulax لا يمكن أن تصبح ممثّلة لصورة من صور الاعراب في اللغة اليونانية إلّا بواسطة المقارنة بين الوظائف التابعة لمختلف الصيغ التي تكون عليها . وبعكس ذلك فلا تعتبر تلك الوظائف من مشمولات الصرف إلّا اذا وافقت كل واحدة منها دليلا صوتيا معينا . فليس الاعراب بقائمة من الصيغ ولا هو بسلسلة من العمليات المنطقية المجرّدة انما هو توليف بينهما معا (انظر ص 160) : فالصيغ والوظائف من الأمور المتضامنة المتلاحمة من العسير ان لم نقل من المستحيل الفصل بينهما . وليس للصرف من الناحية الألسنية موضوع حقيقي قائم بذاته ، ولا يمكن أن يكوّن مادة متميزة عن التركيبية .

وهل يعقل من ناحية أخرى ان نسقط المعجمية من النّحو ؟ ان الكلمات كما سجلوها في المعاجم لا تبدو من أول وهلة قابلة للخضوع للدراسة النحوية التي حصروا موضوعها بصورة عامة في دراسة العلاقات القائمة بين الوحدات . لكن سرعان ما نلاحظ أن عددا كبيرا من تلك العلاقات يمكن أن نعبّر عنها بواسطة الكلمات أو بواسطة طرق نحوية على السواء . فالكلمتان اللّاتينيتان fio « فُعِلَ » و facio « أفْعَلُ » تتقابلان بنفس الطريقة التي تتقابل بها : dīcor « يُقَالُ » و dico « أقُولُ » وهما صيغتان نحويتان من كلمة واحدة بعينها . وتميز اللغة الروسية بين الزمن المنقضي والزمن المستمرّ بطريقة نحوية في قولهم sprosit : sprasıvat أي « طلب » وبطريقة معجمية في

قولهم : govorít′ : skazát′ أي « قال » وتراهم نسبوا الأدوات عادة الى ميدان النحو لكن العبارة المبدوءة بأداة en considération de أي « باعتبار ... » هي عبارة معجمية في جوهرها اذ أن كلمة considération « اعتبار » مستعملة فيها بمعناها الحقيقي . واذا قارنّا قولهم في اليونانية peíthō : peítomai أو قولنا في العربية
أَقْنَعُ : أقْتَنِعُ ، بقولهم في الفرنسية je persuade :/j'obéis لاحظنا أن التقابل الموجود 187
هنا قد عبروا عنه في اليونانية والعربيّة بطريقة نحوية بينما عبروا عنه في الفرنسية بطريقة معجمية ، ثم ان عددا كبيرا من العلاقات التي تعبّر عنها بعض اللغات باستعمال علامات الاعراب أو الأدوات تعبّر عنها لغات أخرى بكلمات مركبة ، هي أقرب ما تكون بعد ، الى الكلمة في معناها الحقيقي (قارن بين royaume des cieux في الفرنسية و Himmelreich (18) في الألمانية أي «مملكة السماوات») أو بمشتقات (قارن بين moulin à vent في الفرنسية وبين wiatr-ak في اللغة البولونية أي « طاحونة هوائيّة» ،) أو بكلمات بسيطة (قارن بين bois de chauffage و bois de construction في الفرنسية وبين drova و lês في الروسية وحطب وخشب في العربية) . كما أن تداول الكلمات البسيطة والعبارات المركبة أمر معمول به كثيرا في صلب اللغة الواحدة (انظر مثلا قولهم في الفرنسية : considérer و prendre en considération أو قولهم se venger و ... tirer vengeance de وقولنا في العربية « اعتبر » و « أخذ بعين الاعتبار » أو « ثأر » و « أخذ بالثأر من ... » .

فقد تبيّن لنا اذن أن الظاهرة المعجمية قد تختلط من حيث الوظيفة بالظاهرة التركيبية . كما نلاحظ من ناحية أخرى أن كل كلمة ـــ ما لم تكن وحدة بسيطة لا تقبل مزيدا من التجزئة ـــ لا تتميّز أساسا عن جزء من أجزاء الجملة أي عن ظاهرة تابعة للتركيبية . فانتظام الوحدات الفرعية المكوّنة للكلمة المركبة يخضع لنفس المبادىء الأساسية التي يخضع لها انشاء أية مجموعة من الكلمات .

وخلاصة القول إن صور تقسيمهم التقليدية للنحو قد يكون لها فائدتها العملية التطبيقية إلّا أنها لا توافق أسسا طبيعية في التمييز ولا تربط بينها أية علاقة منطقية . فالنحو لا يمكن أن يقوم إلّا على مبدا مخالف لما سبق تابع لمستوى أعلى .

الفصل الثاني : التقسيمات المنطقية

ان التداخل بين علم الصرف والتركيبية والمعجمية تداخل تفسره طبيعة جميع الظواهر الآنية ، وهي في واقع الأمر ذات طبيعة واحدة . فلا يمكن أن نقيم بينها أي حد فاصل سلفا . والتمييز الذي وضعناه آنفا بين العلاقات السياقية والعلاقات الترابطية هو وحده قادر على أن يوحي الينا بطريقة في تبويب الظواهر النحوية تفرض نفسها بنفسها وهي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن نتخذها أسّا نبني عليه النظام النحوي / .

188

ان جميع الظواهر التي تتكون منها حالة لغوية ما ينبغي في رأينا — أن يتسنّى لنا إرجاعها الى نظرية خاصة بالسياقات والى أخرى خاصة بالترابطات . فمنذ الآن يمكن أن نقول إن بعض أقسام النحو التقليدي تبدو قابلة لأن تصنّف بسهولة ضمن أحد هذين البابين . ولنا في الاعراب بطبيعة الحال نموذج عن صورة ترابط الصيغ في ذهن جمهور الناطقين . ومن ناحية أخرى فان التركيبية — وهي حسب أكثر التعريفات شيوعا نظرية صور اجتماع الكلمات — تدخل ضمن السياقية وذلك لأن صور الاجتماع تلك تقتضي دائما وحدتين موزعتين في المكان على أقل تقدير . فجميع ظواهره السياقية لا يمكن أن تبوّب ضمن التركيبية لكن جميع ظواهر التركيبية تنتمي الى السياقية .

ان أية نقطة من نقاط النحو لمن شأنها أن تبيّن لنا الأهمية التي تكتسيها دراسة كل مسألة من وجهة النظر المزدوجة هذه . فمفهوم الكلمة مثلا يثير مشكلتين اثنتين متميزتين ، وذلك بحسب نظرنا فيه من زاوية ترابطية أو من زاوية سياقية ، من ذلك أن كلمة grand في اللغة الفرنسية تمثل من الزاوية السياقية ازدواجا في الصيغة (قارن بين قولهم grɑ̃ garsõ / وترسم «grand garçon» أي « ولد كبير » وقولهم grɑ̃tɑ̃fɑ̃ وترسم grand enfant أي « طفل كبير ») بينما تمثل من الزاوية الترابطيّة ازدواجا من نوع آخر (قارن بين صيغة المذكر : / grɑ̃ / وترسم grand وصيغة المؤنث / grɑ̃d / وترسم «grande» (19) .

فمن الضروري اذن أن نتمكن على غرار ما تقدم — من ارجاع كل ظاهرة الى

بابها السياقي او الترابطي ومن تنسيق المادة النحوية باكملها على هذين المحورين الطبيعيين الخاصين بها . وهذا التوزيع وحده دون غيره قادر على أن يبيّن لنا ما ينبغي ان نغيّره من الأطر المألوفة في الالسنية الآنيّة . إلّا أنه لا يمكننا بطبيعة الحال أن نقوم بهذه المهمة لاقتصارنا هاهنا على وضع أهم المبادىء .

الباب الثامن
دور الكيانات المجرّدة في النحو

189

بقي موضوع هام لم نتناوله الى حدّ الآن . وهو يبيّن على وجه التحديد ضرورة النظر في كل مسألة نحوية من وجهتي النظر اللتين ميزنا بينهما سابقا وهذا الموضوع هو الكيانات المجرّدة في النحو . فلننظر فيها من الوجهة الترابطية أولا .

إنّ ربطنا بين صيغتين من الصيغ ليس معناه أن نشعر بشيء مشترك بينهما فقط بل ان نتبين كذلك طبيعة العلاقات التي تخضع لها الترابطات . فالمتكلمون يدركون واعي الادارك ان العلاقة التي تربط علّم بتعليم وحكّم بتحكيم ليست نفس العلاقة التي تربط بين تعليم وتحكيم (انظر ص 189 وما بعدها) . ومن هذه النقطة بالذات يتصل نظام الترابطات بنظام النحو . ويمكن أن نقول إن جملة التبويبات المنهجية التي يقوم بها النحويّ عن وعي ، عندما يدرس حالة من حالات اللغة بدون أن يدخل في حسابه عامل التاريخ ، ينبغي أن توافق جملة الترابطات (الشعورية) أو اللاشعورية العاملة في اللفظ. وتلك الترابطات هي التي تركّز في أذهاننا فصائل الكلمات وصور الاعراب وعناصر صياغة الكلمات من أصول ولواحق وعلامات اعراب وغيرها (انظر ص 253 وما بعدها) .

ولكن هل يقتصر الترابط على ابراز عناصر مادية فحسب ؟ كلا ، فقد سبق
190 أن رأينا أنه يقرّب بين كلمات لا يجمع بينها إلّا المعنى (مثل تعليم/وتربية ودربة وثقافة وغيرها) . ولا بدّ أن تكون الأمور في ميدان النحو على هذه الشاكلة . فاذا

تأملنا الكلمات اللاتينية التالية في حالة الاضافة domin-ī و rēg-is و ros-ārum(20) لم نلاحظ بين علامة الاعراب هنا أدنى شبه يمكننا به الربط بينها . ومع ذلك فهي مترابطة لشعورنا بأنها تشترك في قيمة واحدة تفرض علينا استعمالها نفس الاستعمال . وهذا وحده كاف لايجاد الترابط رغم انعدام كل عماد مادي له وهكذا يحتل مفهوم الاضافة مكانه في اللغة . وتترابط علامات الاعراب التالية -us و -ī و -ō (في مثل قولهم : dominus و dominī و dominō الخ ..) في الذهن فتُبرز مفاهيم أعم هي مفاهيم حالات الاعراب وعلاماته . وهناك ترابطات أخرى من نفس القبيل إلّا أنها أعم بكثير وهي التي تربط بين جميع الأسماء وجميع الصفات وغيرها وتضبط مفهوم أقسام الكلام .

وهذه الأمور توجد كلها في اللغة ولكن من حيث هي **كيانات مجرّدة** . ودراستها عسيرة لأننا لا نستطيع ان نعرف بالضبط هل إن ادراك جمهور المتكلمين يبلغ من البعد والعمق ما يبلغه النحوي في تحاليله . على أن الأهم هنا هو **أن الكيانات المجرّدة تقوم في نهاية المطاف دوما على كيانات ملموسة** . ولا وجود للمجرّدات في النحو ما لم تتوفر طائفة من العناصر المادية هي لها بمثابة الحامل والعماد . وعلينا أن نعود دائما الى تلك العناصر بالذات في نهاية المطاف .

ولننظر الآن في الأمر من الوجهة السياقية . ان قيمة مجموعة من الكلمات كثيرا ما تكون مرتبطة بصورة ترتيب عناصرها . فعندما يحلّل المتكلم سياقا من السياقات فانه لا يقتصر على تمييز العناصر التي تكوّنه بل يلاحظ كذلك بين تلك العناصر ترتيبا معينا . فمعنى الكلمة العربية بَحْر — يّ أو الكلمة الفرنسية désir-eux أو الكلمة اللاتينية signi-fer رهين موقع الوحدات الفرعية التي تكونها اذ لا معنى لقولك يّ — بحر أو eux-désir أو fer-signum) بل وقد لا تكون لقيمة من القيم أية صلة بأحد العناصر الملموسة (كياء النسبة و eux- و fer-) وأن تكون ناتجة عن مجرد ترتيب العناصر : فان اختلفت العبارتان الفرنسيتان : je dois أي « يجب عليّ » و ? dois-je أي « هل يجب
191 عليّ ؟» (21) في المعنى/فمردّ ذلك ترتيب الكلمات لا غير . فأنت تجد أحيانا لغة تؤدي بواسطة تعاقب العناصر فكرة تؤدّيها لغة أخرى بواسطة عنصر ملموس أو أكثر . فاللغة الانقليزية تعبّر في النموذج السياقي الذي من

قبيل gooseberry wine أو gold watch الخ بمجرّد نظم الكلمات على نسق معيّن عن علاقات تعبر عنها اللغة العربية بتركيب الاضافة وبحرف الجرّ أو النعت (انظر قولنا : « خمرة الكشمش » ، و « ساعة من ذهب » أو « ذهبيّة ») وتعبر عنها اللغة الفرنسية الحديثة بواسطة بعض الأدوات (انظر قولهم : «vin de groseilles» و «montre en or») . والفرنسية الحديثة بدورها تعبّر عن مفهوم المفعول به بمجرّد وضع الاسم بعد الفعل المتعدي مثل قولهم je cueille une fleur بينما تعبر عنه اللاتينية والعربية ولغات أخرى باستعمال حالة المفعولية المتميزّة بعلامات خاصة في الاعراب الخ .

ولئن كان مما لا نزاع فيه أن ترتيب الكلمات يمثل كيانا مجرّدا فان ذلك لا ينفي البتة ان مثل هذا الكيان لا يستمد وجوده إلّا من الوحدات الملموسة الحاملة له والتي تجرى على بعد واحد . ويكون من الخطا القول بوجود تركيبية غير مجسّدة لا تقوم على مثل تلك الوحدات المادية الموزعة على البعد المكاني . من ذلك أن قولهم في الانقليزية : the man I have seen تتجلى لنا فيه ظاهرة تركيبية قد عبّروا عنها في الظاهر بلا شيء بينما نعبر عنها في العربية بالذي (الرجل الذي رأيته) ويعبرون عنها في الفرنسية بـ (l'homme que j'ai vu) que إلّا أن الذي أحدث هذا الوهم المتمثل في أن اللاشيء أي العدم يمكن أن يعبّر عن شيء انما هو بالذات هذه المقارنة التي قمنا بها بين الظاهرة التركيبية الانقليزية من جهة والظاهرتين التركيبتين العربية والفرنسية من جهة أخرى . وواقع الأمر أن الوحدات المادية متى نظمت على نسق معين هي التي أحدثت وحدها تلك القيمة . ويتعذر على المرء أنْ يعمل فكره في حالة من حالات التركيبية إن هو لم يعتمد في ذلك على جملة من العناصر الملموسة . وفي الحقيقة فان مجرّد كوننا نفهم مركبا لغويا ما (مثل العبارات الانقليزية المذكورة أعلاه) دليل على أن تلك العناصر المتتالية انما هي الصيغة المناسبة للتعبير عن الفكرة المقصودة .

ولا وجود للوحدة المادية إلّا بما لها من معنى ومن وظيفة . وهذا المبدأ بالغ الأهمية لمعرفة الوحدات لأننا قد نميل الى القول بوجودها اعتمادا على محض ماديتها كأن نذهب مثلا الى كلمة « الحب » لا تستمد وجودها إلّا من الأصوات التي تكونها . وعكس ذلك صحيح كما سبق أن رأينا ، اذ لا وجود لمعنى أو لوظيفة ما

لم يقوما على صيغة مادية ما . وان نحن صغنا هذا المبدأ بالاعتماد على سياقات أوسع أي بخصوص نماذج تركيبية فذلك لميل الناس الى اعتبارها مجرّدات لا مادة لها تحوم فوق عناصر الجملة . وان هذين المبدأين ليتفقان بتكاملهما مع ما أثبتناه بشأن تحديد الوحدات (انظر ص 161) .

---

(1) الانطونيون : اسم يطلق على سبعة أباطرة حكموا الامبراطورية الرومانية فيما بين سنة 96 وسنة 192 م (المترجمون) .

(2) شبيه بهذا طرقت الباب حتّى كلّ متّني فلمّا كلّ متي كلّمتني .

(3) قريب منه : ودارهم ما دمت في دارهم . وأرضهم مادمت في أرضهم أو أحمد الله وجاء أحمد . (المترجمون) .

(4) مثل ذلك في العربية نطقنا لكلمة « الله » في سياق التعجّب أو عندما نسمع أن فلانا توفي . (أي بتفخيم اللام) ونطقنا بها مرققة في الدارجة التونسية للاستهزاء والسخرية (المترجمون)

(5) يمكن أن نقرأ هذه الفقرة مبدلين كلمة السنسكريتية بالعربية (المترجمون) .

(6) ورد بالأصل zina وهو خطأ (المترجمون) .

(7) كذلك الشأن في العربية فلا ينبغي نطق الراء غينا ولا خاء والاّ استوت كلمات من قبيل راب ـ غاب ـ خاب . (المترجمون) .

(8) مثل ضنّ وظنّ وظلّ وضلّ عند من استوى نطقه بالضاء والضاد (المترجمون) .

(9) مثل البرتقال وبلاد البرتغال وهي عند الجغرافيين العرب بلاد البرتقال (المترجمون) .

(10) يكاد يكون من الفضول القول ان ننبّه الى أن دراسة السياقات لا تختلط بدراسة التركيبية (syntaxe) اذ الثانية ليست سوى قسم من الأولى كما سنرى ص 201 (الناشرون) .

(11) دوري : (نسبة الى مقاطعة Doride الواقعة بالجنوب الغربي من آسيا الصغرى) وهو أبسط الأشكال الهندسية اليونانية .

(12) أيوني (نسبة الى مقاطعة ايون اليونانية الواقعة بآسيا الصغرى) وهو شكل معماري رأس السواري فيه مزركش بزخرفين جانبيين حلزونيين .13) كورنثي : (نسبة الى المدينة اليونانية القديمة كورنثة) شكل معماري رأس السواري فيه مزركش بصفين من أوراق الأقنثة acanthe وبين تلك السواري تقام زخارف حلزونية . (المترجمون) .

«(14) انّ هذه الحالة نادرة ويمكن اعتبارها من الشواذ . وذلك أنه من طبيعة ذهن الانسان أن يتجنّب ترابطا من شأنه ان يخلّ ببيان الخطاب ووضوحه . لكنها حالة يشهد بوجودها نوع من الأحاجي البسيطة القائمة على التلاعب بمعاني الألفاظ وتعمّد الخلط بينها . وهو أمر قد ينجرّ عن مجرّد المجانسة كقول بعضهم في الفرنسية : Les musiciens produisent les sons, les grainetiers les vendent وقريب منه في العربية : « ودارهم مادمت في دارهم وأرضهم مادمت في أرضهم » . وينبغي أن تميّز هذه الحالة من تلك التي قد يقوم فيها الترابط على ترابط بين المعاني وان كان ترابطا عفويا مثل ارجاعهم في الفرنسية كلمة ergoter أي «ماحك وجادل» الى ergot أي «ظفر الديك» وارجاعهم في الالمانية كلمة durchblauen أي «أشبعه ضربا» الى blau أي «أزرق» . وهذا

= شبيه في العربية بعمل من يحاول ارجاع عبارة ظفر به إلى عملية إنشاب الأظافر . ويتعلّق الأمر في هذه الأمثلة بحصول تأويل جديد لمعنى احدى الكلمات . وهي أمثلة من اشتقاق العوام (انظر ص 260) . وهذه الظاهرة هامة بالنسبة الى التطوّر الدلالي لكنها من وجهة نظر آنية لا تعدو ان تكون تابعة لذلك الفص من الترابط الذي من قبيل تعليم تعلّم .... الآنفة الذكر (الناشرون) .

(15) ومثل هذا في العربية : زَنْزانة بإزاء مُطبق وازميل ورفش وفأس بإزاء مبرد ومنحت (المترجمون)

(16) شبيه بهذا في العربية صياغة جمع المذكر السالم إزاء صياغة جمع التكسير (المترجمون) .

(17) شبيه بهذا في العربية انعزال صيغة الأمر من «وَقَى» أو وَعَى (ق ـ ع) عن صيغة الأمر من سائر الأفعال .

(18) في الأصل Himmerleich وهو سهو (المترجمون) .

(19) شبيه بهذا في العربية سقوط نون المثنى وجمع المذكر السالم من المضاف في نحو قولنا : أبواه ومعلّموه أو اختلاف صورة حرف الجرّ على حسب وقوعه قبل اسم أو قبل ضمير : كما في قولنا : عليه وعلى يمينه . (المترجمون) .

(20) وشبيه بهذا اختلاف علامات اعراب المنادى في العربية : يا أحمد ـ يا رجلا يا صاحب البيت (المترجمون .

(21) تشبيه بهذا في العربية الفرق بين قولنا : « أكرمت من جاء » و« جاء من أكرمت » . (المترجمون)

القسم الثالث
الألسنية الزمانية

الباب الأول :

بعض العموميات

ان ما ندرسه في الألسنية الزّمانية ليس ما يوجد من علاقات بين عناصر متواجدة في حالة لغوية معينة [كما هو الحال مع الألسنية الآنية] ، وانما هو العلاقات القائمة بين عناصر متتالية يحـل الواحد منها محلّ الآخر في مجرى الزمان .

وفعلا فان الثبوت المطلق أمر لا وجود له البتة (انظر أعلاه ص 122 وما بعدها) . ذلك أن الأقسام التي تتكون منها اللغة خاضعة لعامل التغيّر . ويوافق كل مرحلة من الزمان تطور مناسب لها قد يقل وقد يعظم . وقد يختلف سرعة وشدة دون أن ينال ذلك من المبدإنفسه أو ينقضه . فان اللغة سيل يجري بدون انقطاع . أما كون ذلك الجريان لطيفا ناعما أو دافقا عارما فأمر ثانوي ليست له كبير أهمية .

صحيح أن ذلك التطور غير المنقطع كثيرا ما يحجبه عنا ما يوليه الناس من اهتمام للغة الأدبية لأنها تتراكب على اللغة العامية (كما سنرى ص 291 وما بعدها) أي على اللغة الطبيعية وتكون خاضعة من حيث وجودها لظروف وملابسات

أخرى . ثم تظل اللغة الأدبية بعد أن تتكون ، على قدر كبير من الثبوت والاستقرار بوجه عام ويكون من شأنها أن تنزع الى أن تبقى هي هي لا تتغير . وفضلا عن ذلك فان خضوعها للكتابة يوفر لها ضمانات خاصة تضمن بقاءها على حالها لا تتغير وإذن فليست/اللغة الادبية هي التي من شأنها أن تدلّنا على 194
مدى قابلية اللغات الطبيعية للتبدّل والتغيّر ، تلك اللغات التي لا تخضع لأية سنّة أدبية .

ان أول موضوع من مواضيع الألسنية الزمانية لهو علم الأصوات بل علم الأصوات بتمامه وكماله . وفعلا فان تطور الأصوات أمر لا يتلاءم ومفهومَ الحالة اللغوية . ومقارنتك صواتم أو مجموعات من الصواتم بما كانت عليه في مرحلة سابقة تؤول في نهاية الأمر الى إقامة [نظام] زمانيّ une diachronie . فقد تكون المرحلة السابقة قريبة أو بعيدة بدرجات متفاوتة ولكن عندما تختلط المرحلتان فانه لا يبقى لعلم الأصوات أي دخل في المسألة ويصبح الأمر متعلقا فقط بوصف الأصوات الخاصة بحالة لغوية ما . وذلك من مشمولات السنولوجيا .

أما الصبغة الزمانية التي يختص بها علم الأصوات فتتلاءم جيد التلاؤم مع ذلك المبدإ القائل بان كل ما هو صوتي ، فهو خارج عن النطاق الدلالي أو النحوي — بالمعنى العام جدا للكلمة (انظر ص 40) . فاذا أردنا أن ندرس تاريخ أصوات كلمة من الكلمات أمكننا أن نتجاهل معناها وأن نقصر اهتماما على غلافها المادّي وان نقتطع منه شرائح صوتية دون أن نتساءل ان كانت لها دلالة ماءكأن نبحث مثلا عما آلت اليه في اللغة اليونانية الأتيكية المجموعة الصوتية - ewo - وهي مجموعة من الأصوات لا معنى لها . ففي صورة ما إذا كان تطوّر اللغة مقصورا على تطور أصواتها فان المقابلة بين موضوع الألسنية الآنيّة وموضوع الألسنية الزمانية ستبدو لنا على الفور واضحة جلية . وعندها يمكننا أن نتبين في جلاء ووضوح أن الزماني يوافق ما هو غير نحوي وان الآني يوافق ما هو نحوي .

لكن ترى هل الأصوات فقط هي التي تتغير بمفعول الزمان ؟ فالكلمات يتغير مدلولها وأبواب النحو تتطور . فبعضها يندثر باندثار الصيغ التي كانت تستعمل للتعبير عنها (كما هو الحال بالنسبة إلى المثنى في اللاتينية (1) . واذا كانت لجميع الظواهر الآنية الترابطية السياقية أطوارها التاريخية الخاصة بها فكيف يمكننا أن

نحتفظ بذلك التمييز المطلق بين الزمانية والآنية ؟ ان هذه المسألة تصبح عسيرة 195
جدا بمجرد ما نخرج من الميدان الصوتي المحض ./

ولنلاحظ مع ذلك أن عددا كبيرا من التغيّرات التي يعدّها بعضهم نحوية يمكن أن نرجعها في النهاية الى التغيرات الصوتية . فظهور النمط النحوي الألماني المتمثل في مثل قولهم Hände : Hand الذي حلّ محل hanti : hant (انظر ص 132) ظهور يفسر تفسيرا كاملا بظواهر صوتية . وبظاهرة من الظواهر الصوتية كذلك نفسر منطلق ذلك النوع من الكلمات المركبة الألمانية كنحو Springbrunnen و Reitschule وغيرهما . فالعنصر الأول من الكلمة لم يكن في الألمانية العليا القديمة عنصرا فعليا بل كان عنصرا اسميا فكان معنى beta-hūs « بيت الصلاة » إلّا أنه بسقوط الحركة الأخيرة لاعتبارات صوتية (آلت بمقتضاها beta الى bet الخ) تولدت عنه علاقة دلالية مع فعل (beten الخ) فأصبح معنى bethaus في نهاية الأمر « بيت يصلى فيه » .

وقد حدث شيء شبيه بهذا كل الشبه في الكلمات المركبة التي كانت تصاغ في الجرمانية القديمة باضافة līch أي « المظهر الخارجي » (انظر على سبيل المثال mannolīch بمعنى من « له مظهر رجل » و redolīch « ما يبدو معقولا») . أما في أيامنا هذه فقد أُدخلت -lich على عدد كبير من الصفات (انظر glaublich, verzeihlich وغيرهما) فاصبحت لاحقة من اللواحق شبيهة بـ -able في الفرنسية كما في pardonn-able و croy-able الخ . وفي الوقت نفسه تغير تأويلهم للعنصر الأول فأصبحوا لا يعتبرونه اسما بل جذرا فعليا . ذلك أن سقوط الحركة الأخيرة من العنصر الأول في عدد من الحالات (كما في -red من redo) جعلهم يعتبرونه بمثابة الجذر الفعلي (كما في -red من reden) وهكذا فانك تراهم يقربون بين glaub الموجودة في glaublich وبين فعل glauben أكثر مما يقربون بينها وبين الاسم Glaube . بل وتراهم يقرّبون بين sichtlich وفعل sehen لا بين sichtlich و Sicht وذلك رغم اختلافهما من حيث الأصل .

ففي جميع هذه الحالات وفي عدد كبير من الحالات المماثلة يظل التمييز بين المجالين [الآني والزماني] تمييزا واضحا وينبغي أن يكون هذا الأمر ماثلا في أذهاننا حتى لا نتسرع فنقول باننا نباشر النحو التاريخي والحال اننا نخوض في الحقيقة على

التوالي المجال الزماني بدراسة التغيرات الصوتية والمجال الآني بالنظر في النتائج
196 المنجرة عن ذلك ./لكن مثل هذا التحديد لا يزيح من أمامنا جميع العقبات فان تطور أية ظاهرة نحوية سواء أكانت مجموعة ترابطيّة أم نمطا سياقيا لا يمكن مقارنته بتطور صوت من الأصوات في اللغة . فهو ليس بسيطا ، لأنه ينقسم الى عدد كبير من الظواهر الخاصّة لا يدخل منها في علم الأصوات إلّا قسم فقط . فإذا ما نظر المرء الى نشأة نمط سياقي من قبيل الفعل الفرنسي prendre ai الدال على المستقبل والذي صار prendrai أمكنه أن يميز بين ظاهرتين على الأقلّ : أولاهما نفسية وهي تأليف بين عنصري المتصور الذّهني ، والاخرى صوتية تابعة للظاهرة الأولى وهي حصر نبرتي المجموعة في نبرة واحدة(prendrai ← prendre aí) .

ان تصريف الفعل الألماني المعتل في الألمانية الحديثة من نوع gegeben, gab, geben الخ ، (انظر كذلك الفعل اليوناني léloipa, élipon, leípo الخ) قائم في معظمه على اعتلال الحركات التابعة لجذر الكلمة («الابلوت») . والراجح أن هذه التناوبات الحركية ، (انظر ص 237 وما بعدها) وكان نظامها في الأصل على جانب من البساطة ، قد نتجت عن حدث صوتي محض . أما اكتساب تلك المقابلات مثل تلك القيمة الوظائفية فقد اقتضى أن يصبح نظام تصريف الأفعال الأصلي أكثر بساطة إثر سلسلة من العمليات المختلفة : منها زوال الصيغ العديدة الدالة على الحاضر وبالتالي زوال الفويرقات المعنوية التي كانت تتصل بها ، وزوال صيغ الماضي المستمرّ والمستقبل والماضي المبهم وسقوط التضعيف من صيغة الماضي الى آخره . ان هذه التغيّرات التي ليس فيها ما هو صوتي في جوهره قد جعلت تصريف الأفعال ينحصر في مجموعة محدودة من الصيغ اكتسبت فيها التناوبات الحركية في صلب الجذور قيمة دلالية ذات أهمية رئيسية . فعلى سبيل المثال يمكن أن نؤكد أن المقابلة بين الـ e والـ a في gab - geben هي أكثر دلالة من المقابلة بين o وe في الكلمتين (اليونانيتين) léloipa : leípō ، وذلك بسبب انعدام التضعيف في الفعل الماضي من اللغة الألمانية .

فاذا كان للعامل الصوتي في غالب الأحيان ضلع ما في التطور فانه غير كاف بمفرده لتفسير ذلك التطور برمته . فاذا طرحنا العامل الصوتي جانبا بقيت رواسب

تبدو كأنها تبرر تلك الفكرة القائلة بشرعية دراسة النحو دراسة تاريخية وهنا تكمن
197 الصعوبة الحقيقية . فالتمييز بين ما هو زماني وما هو آني — وهو/تمييز ينبغي أن نحافظ عليه — قد يتطلب تفسيرات على جانب من الدقة واللطف لا يتناسب ونطاق هذه الدروس (2) . أما فيما يلي فاننا سندرس تباعا التغيرات الصوتية والتناوب والظواهر المتولدة عن القياس . ونختم بكلمة مختصرة في ايتيمولوجيا العامة وفي مفهوم الالصاق .

198

الباب الثاني
التغيرات الصوتية

الفصل الأول : انتظامها المطلق

قد سبق لنا أن رأينا ص 144 أن التغير الصوتي لا يطرأ على الكلمات وانما يطرأ على الأصوات . فالتحول انما يصيب صوتما من الصواتم : وهو حدث منعزل مثل جميع الأحداث الزمانيّة إلّا أنه حدث ينجم عنه تغير يصيب بكيفية واحدة جميع الكلمات التي يرد فيها الصوتم المعني بالامر . وهذا معنى قولنا إن التغيرات الصوتية تغيرات منتظمة انتظاما مطلقا .

ففي الألمانية مثلا تحولت كل كسرة طويلة ī الى [حركة مزدوجة] ei ثم أصبحت ai (من ذلك wīn و trīben و līhen و zīt ، قد آلت تباعا الى Wein و treiben و leihen و Zeit ؛ وكل ضمة طويلة ū قد أصبحت (حركة مزدوجة مكونة من فتحة تليها ضمة au . من ذلك أن hūs و zūn و rūch أصبحت تباعا Haus و Zaun و Rauchوكذلك الأمر بالنسبة الى الكسرة المستديرة الطويلة ǖ) اذ تحولت الى eu من ذلك أن hǖsir قد آلت الى Häuser الخ ... وعلى العكس من ذلك تحولت الحركة المزدوجة ie الى كسرة طويلة ī وما زالت تكتب الى الآن ie انظر مثلا biegen و lieb و Tier . وعلى نحو مواز فان كل حركية مزدوجة uo أصبحت ضمة طويلة ū كما في muot ← Mut الخ . وصارت كل زاي Z (انظر

ص 66) سينا (وتكتب مضاعفة (ss)). من ذلك wazer ← Wasser fliezen ← fliessen الخ . وسقطت الهاء كلما توسطت كلمة وكانت بين حركتين . من ذلك lihen وsehen وقد آلتا الى lein وseen (وتكتبان leihen و sehen) . وتحولت كل واو الى صوت شفوي أسناني هو الفاء المجهور(ويكتب w) . من ذلك أن wazerأصبحت waser(وتكتب Waser) .

أما في الفرنسية فقد أصبحت كل لام ملينة ياء . من ذلك أنهم ينطقون piller و bouillir : piye و buyirأي بالياء الخ ؟

وأما في اللاتينية فان كل سين واقعة بين حركتين أصبحت راء في عصر لاحق . من ذلك genesis * و asena *وقد أصبحتا generis و arena الخ ...

199 ويمكن لأيّ تغير صوتي ، اذا نظرنا فيه على حقيقته/أن يؤكد لنا انتظام هذه التغيّرات انتظاما مطلقا .

الفصل الثاني : قيود التغيرات الصوتية

لقد تبينا من خلال الأمثلة السابقة أن الظواهر الصوتية ليست البتة ظواهر مطلقة دائما بل انها تخضع في أغلب الأحيان لقيود معينة . وبعبارة أخرى فليس جنس الصوتم هو الذي يتحول انما الذي يتحول هو الصوتم كما يرد في ظروف معينة من جوار صوتي وتنبير وغيرهما . من ذلك مثلا أن السين في اللغة اللاتينية لم تنقلب راء r إلّا متى كانت واقعة بين حركتين أو في بعض المواقع الأخرى . أما فيما عدا ذلك فقد بقيت على حالها لم تتغير . (انظر est و senex و equos). فالتغيرات المطلقة اذن نادرة جدا وان بدت لنا في أغلب الاحيان مطلقة فالأمر راجع الى الظروف الحافة بذلك التغير فهي إمّا محجوبة عنا أو تصطبغ بصبغة عمومية مفرطة . من ذلك أن الكسرة الطويلة في الالمانية ī انقلبت الى حركتين مزدوجتين ei و ai لكن ذلك لم يحدث إلّا في المقطع المنبّر . ومن ذلك أيضا أن الكاف الحنكية k1 في الهندية الاوروبية أصبحت هاء h في اللغة الجرمانية (انظر كلمة *k₁olsom في الهندية الاوروبية و collum في اللاتينية و Hals في الالمانية) . الا أن هذا التغير لا يحدث اذا وردت الكاف k₁ بعد سين (انظر كلمة sk'otos في اليونانية و skadus في اللغة القوطية ومعناهما الظل .

وفضلا عن ذلك فان تقسيم التغيرات الى تغيرات مطلقة وأخرى مقيدة يقوم على نظرة الى الأمور سطحية . فالاقرب الى المنطق أن نقول على غرار ما بدأ يشيع أكثر فأكثر بوجود ظواهر صوتية **تلقائية** وأخرى **تعاملية** . أمّا التلقائية منها فهي التي تكون ناتجة عن علة داخلية وأمّا التعاملية فهي التي تكون ناتجة عن وجود صوتم آخر فأكثر . وعلى هذا الاساس فان الانتقال من الـ o في الهندية الاوروبية الى الـ a في الجرمانية (كما في كلمة skadus من القوطية و Hals من الالمانية وغير ذلك) انما هو ظاهرة تلقائية . وكذلك تغيّرات الحروف في الجرمانية الأصلية ويقال لها بالألمانية «Lautverschiebungen» . فهو أحسن مثال عن التغير التلقائي . وهكذا فان الكاف الحنكية k_1 في الهندية الاوروبية تصبح هاء في اللغة الجرمانية الاصلية (انظر collum في اللاتينية و Hals في القوطية) . أما التاء التي كانت موجودة في الجرمانية الأصلية والتي ما زالت موجودة في اللغة الانقليزية فقد أصبحت في الألمانيّة العليا (وتنطق اليوم تْس) انظر كلمة taihum في القوطية و ten في الانقليزية و zehn في الالمانية) . وبخلاف ذلك فان الانتقال من المجموعتين الحرفيتين اللاتينيين ct و pt الى تاء مضاعفة في اللغة الايطالية
200 (انظر fatto ← factum و/ cattivo ← captivum) انما هو ظاهرة تعاملية . ذلك أن العنصر الأول ماثل الثاني وأدغم فيه . وكذلك الامالة umlaut في الألمانية فهي ناتجة أيضا عن علة خارجية هي وجود الكسرة في المقطع الموالي للحركة الممالة ولذلك بقيت gast على حالها لم تتغير بينما آلت gasti الى gesti و Gäste .

ولنلاحظ أن حدوث التغير في كلتا الحالتين المذكورتين لا يتعلق بنتيجة التغيّرين وأن ليس لوقوع التغير أو عدم وقوعه كبير أهمية . فلو قارنّا على سبيل المثال بين كلمة fisks في القوطية من جهة وكلمة piscis اللاتينية و skadus القوطيّة و skotos اليونانية من جهة أخرى للاحظنا بقاء الكسرة في الحالة الأولى وتحول الضمة نصف المنغلقة o الى فتحة في الحالة الثانية . فقد بقي الصوتم الأول كما هو بينما آل الثاني الى شيء آخر . إلّا أن المهم ههنا أن كليهما قد عمل عملا ذاتيا .

فاذا كانت الظاهرة الصوتية ظاهرة تعاملية كانت دوما مقيدة . أما اذا كانت تلقائية فهي ليست مطلقة بالضرورة لأنها يمكن أن تكون مقيدة تقييدا سلبيا

بغياب بعض عوامل التغيير . من ذلك أن الكاف k_2 في الهندية الاوروبية تصبح qu في اللاتينية بصفة تلقائية (انظر quattuor و inquilīna الخ) ولكن بشرط أن لا تكون متبوعة مثلا بضمة نصف منغلقة ولا بضمة (انظر مثلا Cottīdie و colō و secundus الخ).وبقاء الكسرة في الهندية الاوروبية كما في fisks القوطية الخ هو كذلك رهين القيد التالي المتمثل في أنه لا ينبغي أن تكون الكسرة متبوعة براء ولا بهاء h لأنها تصبح عندئذ فتحة ممالة e وترسم ai (انظر wair وهي في اللاتينية vir وانظر maihstus وهي في الالمانية Mist) .

الفصل الثالث : بعض القواعد المنهجية

على من يصوغ القوانين الخاصة بالظواهر الصوتية أن يقرأ حسابا لما سبق أن بينا من فوارق وتمييزات وذلك لكي يتحاشى عرض تلك الظواهر عرضا محرّفا .

وإليك بعض الشواهد عن مثل تلك التحريفات :

فصيغة قانون « فرنير » Verner القديمة تنص على ما يلي « اذا لم تكن الثاء ṯ في اللغة الجرمانية في بداية الكلمة وكانت متبوعة بالنبرة انقلبت ذالا (ḏ) ». راجع faṯer * ← faḏer * (وهي في الألمانية Vater) وكذلك liṯumé ← liḏumé (وهي في الألمانية litten) من جهة كيف انقلبت فيهما الثاء ذالا، وانظر الى ṯris (وهي في الألمانية drei) و brōṯer * (وهي في الألمانية Bruder) و liṯo * (وهي في
201 الألمانية leide) من جهة أخرى كيف بقيت الثاء فيها على حالها/ إنّ صياغة هذا القانون على هذا النحو تسند للنبرة دورا نشيطا وتُدخل في القانون قيدا مانعا هو وقوع الثاء في أول الكلمة والواقع أن هذه الظاهرة ليست كذلك. فقد كانت الثاء في الجرمانية كما في اللاتينية تنحو تلقائيا الى الانجهار كلما وقعت وسطا . والذي منعها من أن تصبح مجهورة انما هو النبرة الواقعة على الحركة السابقة لها . وهكذا تنعكس الآية . فالظاهرة ظاهرة تلقائية وليست بتعاملية . والنبرة انما هي مانع وليست كما زعموا علة عاملة ، فينبغي أن نصحح صياغة قانون « فرنير » فنقول « اذا وقعت الثاء وسطا انقلبت ذالا اللهم إلّا اذا منعها من ذلك وقوع النبرة على الحركة السابقة لها » .

ومتى شئنا أن نفرق تفريقا واضحا بين ما هو تلقائي وما هو تعاملي وجب علينا أن نحلل أطوار عملية التحول وأن لا نخلط بين النتيجة غير المباشرة والنتيجة المباشرة . فاذا نحن أردنا أن نفسر ظاهرة الرأرأة Rotacisation انظر مثلا genesis * ← generis في اللّاتينية ، فانه لا يصحّ القول إن السين الواقعة بين حركتين قد انقلبت راء مباشرة . وحقيقة الأمر أن في هذه العملية طورين اثنين أولهما ابدال السين زايا وهو تغيّر تعاملي . ولكن لما كان صوت الزاي قد سقط من النظام الصّوتي اللّاتيني فقد عوضه صوت قريب منه هو صوت الراء . وذلك تغير تلقائي . هكذا فقد أخطأوا خطأ جسيما وخلطوا بين ظاهرتين متباينتين وعدّوهما

ظاهرة واحدة . ويتمثل خطأهم في أنهم عدّوا النتيجة غير المباشرة نتيجة مباشرة (س ← ر بدلا من ز ← ر) من جهة ، كما يتمثل من جهة أخرى في أنهم عدّوا الظاهرة بأكملها ظاهرة تعاملية والحال أن الطور الأول منها ليس كذلك .

وان من يقول بخلاف قولنا هذا هو كمن يقول بان الفتحة الممالة e تصبح في الفرنسية فتحة a اذا كانت متبوعة بصوت خيشومي ، والواقع أنه قد حدث تباعا تغير تعاملي يتمثل في أن الفتحة الممالة e قد اكتسبت غُنّة خيشومية بسبب مجاورتها للنون (انظر كلمة ventum في اللاتينية وقد أصبحت vẽnt في الفرنسية وكذلك fēmina في اللّاتينية وقد أصبحت femə فـ fẽmə في الفرنسية [قديما] ثم تبع ذلك تغير الـ ẽ الى ã تغيرا تلقائيا (انظر مثلا vãnt و fãmə وهي في فرنسية اليوم vãn و fam . وقد يعترض بعضهم عبثا فيقول ان هذا التغير لم يكن ليحدث إلّا لوقوع الفتحة الممالة قبل صوت خيشومي ، فليست المسألة أن نعرف لماذا صارت الفتحة الممالة خيشومية ، انما أن نعرف ما اذا كان تحول الفتحة الممالة 202 الخشيومية ẽ الى فتحة خيشومية ã تحولا تلقائيا أو تعامليا ./

وان أعظم ما قد يقع فيه المرء من خطإٍ في المنهج ـــ ونحن نذكّر بهذا الأمر هاهنا وان كان لا يتصل بالمبادئ المذكورة أعلاه ـــ هو أن يصوغ القوانين الصوتية باستعمال المضارع الدال على الزمن المطلق وذلك كما لو كانت جميع الظواهر التي تشملها تلك القوانين موجودة وجودا أزليا ، لا أنها تنشأ وتموت في حصة زمنية ما . وتلك لعمري هي الفوضى بعينها لأن مثل تلك الصياغة الخاطئة تقضي على كل تعاقب زماني للاحداث . لقد سبق أن أكدنا على هذه النقطة بالذات ص 149

وما بعدها عندما حللنا الظواهر المتعاقبة التي تفسر لنا وجود ثنائية تتمثل في tríkhes و thriksí . فاذا قلنا « ان السين تنقلب راء في اللّاتينية » أوهمنا السامع أن سبب هذه الرأرأة ملازم لطبيعة اللغة وشعرنا بالحرج ولم ندر ما الوجه في بعض الشواذّ التي من قبيل causa و rīsus الخ . ان صياغة القانون على النحو التالي « ان السين الواقعة بين حركتين قد أصبحت راء في اللغة اللاتينية في عصر معين مضبوط » هي الصيغة الوحيدة التي تخوّل لنا أن نذهب الى أنه في الوقت الذي انقلبت فيه السين راء فان causa و rīsus وغيرهما لم تكونا تشتملان على سين واقعة بين حركتين وانهما بذلك كانتا في مأمن من هذا التغير . وفعلا فقد

كانوا ينطقونهما caussa و rīssus . وللسبب ذاته علينا أن نقول أيضا إن الفتحة الطويلة ā قد أصبحت فتحة ممالة ē في اللّهجة الإيونية (انظر mā́tēr ← mḗtēr الخ) اذ بدون ذلك لا ندري ما الوجه في تفسير صيغ من قبيل phāsi pâsa الخ (وقد كانت صورتهما هي pansa و phansi الخ في العصر الذي حدث فيه التغيّر)

الفصل الرابع : أسباب التغيرات الصوتية

ان البحث عن هذه الأسباب لمن أشد المسائل الألسنية صعوبة . ولقد فسروها تفسيرات عديدة إلّا أنه لا يوجد من بينها تفسير واحد ينير المسألة انارة تامة .

1 ـــ منها قول بعضهم بأن كل جنس بشري قد تكون له قابليات تحدد سلفا منحى التغيرات الصوتية . ويثير هذا مسألة تابعة لعلم الانثروبولوجيا المقارنة . لكن ترى هل يختلف جهاز التصويت من جنس بشري الى آخر ؟ كلّا اذ لا يكاد اختلافه من جنس الى آخر يفوق اختلافه من شخص الى آخر . ألا ترى أنك لو غرّبت زنجيا افريقيا فنقلته منذ ولادته الى فرنسا مثلا لأتقن اللغة الفرنسية اتقان الفرنسيين لها ، وبالاضافة الى ذلك فعندما يستعمل عبارات من قبيل l'organe italien أي « العضو المصوت الايطالي » أو من قبيل la bouche des
203 germains n'admet pas celà أي : « ان فم الجرمانيين لا يرتضي/ذلك » فانه يخشى أن نكون قد عمدنا الى ظاهرة وقتية فجعلنا منها صفة قارة وهو لعمري خطأ

يمكن أن يشبّه بذلك الخطإ الذي يقع فيه من يصوغ قانونا صوتيا في صيغة المضارع الدال على الزمن المطلق . فمن يزعم أن العضو المصوّت الايوني لا يلائمه النطق بالفتحة الطويلة ā فيقلبها فتحة ممالة طويلة ē مخطئ خطأ من يقول إن الفتحة الطويلة ā « تصبح » فتحة ممالة طويلة في اللغة الايونية . فالعضو المصوت الايوني لم يكن ينفر البتة من النطق بالفتحة الطويلة اذ أنه يرتضيها في بعض الحالات . فليست المسألة عجزا انثروبولوجيا أي في أصل تركيب الانسان ولكنها مسألة تتعلق بتغير في عادات تقطيع الأصوات . وكذلك الشأن بالنسبة الى اللغة اللاتينية . فهي وان لم تحتفظ في وقت ما بحرف السين الواقع بين حركتين (كما في genesis * التي صارت generis) فانها عادت فأدمجته ضمن نظامها الصوتي في زمن لاحق (انظر rīssus * التي صارت rīsus) فهذه التغيرات لا تدل اذن على هيئة قارّة يختص بها العضو المصوّت اللاتيني .

ولا شك في أنه يوجد منحى عام تنحو اليه الظواهر الصوتية لدى أي شعب من الشعوب في عصر ما،من ذلك أن **قلب الحركات المزدوجة** في اللغة الفرنسية الحديثة إلى حركات بسيطة انما هي ظواهر ناتجة عن نزعة واحدة بعينها كما أننا قد نجد في التاريخ السياسي نزعات عامة مماثلة دون أن يقدح ذلك في صفتها الوقتية ودون أن نعتبرها ناتجة عن تأثير مباشر من تأثيرات الجنس .

2 — ومنها انهم كثيرا ما ذهبوا الى اعتبار التعيرات الصوتية ضربا من التأقلم مع ظروف التربة والمناخ . فبعض لغات شمال أوروبا زاخرة بالحروف وبعض لغات الجنوب زاخرة بالحركات وهو مصدر تناغمها الصوتي.فقد يكون للمناخ ولظروف الحياة تأثير عظيم في اللغة . ولكن المسألة تتعقد متى مررنا الى التفاصيل فأنت تجد الى جانب الالسن الاسكندنافية ،وهي ألسن تكثر فيها الحروف ، ألسنة اللّابونيّين والفنلنديين وهي لغات تكثر حركاتها حتى أنها تفوق عدد الحركات في الايطالية نفسها ، ولنلاحظ كذلك أنّ وفرة الحروف في الألمانية المعاصرة انما هي في عدد كبير من الحالات ظاهرة حديثة العهد جدا تسبب فيها سقوط الحركات الواقعة بعد النبرة . ولنلاحظ أيضا أن بعض لهجات جنوب/فرنسا أقل عزوفا عن المجموعات الحرفية من فرنسية شمال البلاد ، وان اللغة الصربية تحتوي على عدد من المجموعات الحرفية يضاهي ما نجده منها في روسية مدينة موسكو مثلا الخ .

3 — ومنها أن بعضهم أتى بقانون المجهود الادنى لتفسير ما يجدّ من تغيرات صوتية . فقد يكون في رأيهم هو العامل الذي يدعو الى تعويض تقطيعين اثنين بتقطيع واحد أو الى تعويض تقطيع صعب بآخر أيسر منه . ومهما قيل بشأن هذا الرأي فهو جدير بالفحص والعناية : فلعله يبين الى حدّ ما سبب ظاهرة التغير هذه أو قد يدلنا على الاقلّ على الوجهة التي ينبغي أن نسلكها بحثا عن ذلك السبب .

ذلك أن قانون المجهود الادنى يبدو صالحا لتفسير جملة من الحالات ؛ منها أن للانتقال من الصوت الشديد الى الصوت الرّخو (كما في habēre التي صارت avoir) وسقوط كتل عظيمة من المقاطع النهائية في عدد كبير من اللغات ، وظواهر الادغام (كما في ly ← alyos, il * وتصبح في اليونانية állos و tn ← atnos, nn* وتصبح في اللاتينية annus) وكذلك قلب الحركات المزدوجة الى حركات بسيطة وهو لا يعدو أن يكون ضربا من الادغام (كما في ai ← ę ففي الفرنسية تؤول maizon إلى męzõ) الخ .

إلّا أنه يمكننا أن نسوق عددا مماثلا من الحالات يحدث فيها العكس تماما . فيمكن أن يقابل قلب الحركات المزدوجة الى حركات بسيطة عكسه كنحو تغير ī و ū و ī في الالمانية الى حركات مزدوجة هي ei و au و eu . واذا زعم بعضهم أن سبب اختصار الحركتين الطويلتين ā و ē الى ă و ĕ في اللغة الصقلية انما هو المجهود الادنى ، فينبغي عندئذ أن نعتبر أن عكس هذه الظاهرة كنحو ما نجده في اللغة الالمانية (في fāter ← vāter و gēben ← gĕben) سببه المجهود الاقصى . فاذا ما اعتبرنا نطق الصوت المجهور أيسر من نطق الصوت المهموس (انظر opera وصارت obra في البروفنسالية) فينبغي أن تتطلب العملية المعاكسة قدرا من الجهد أكبر . ورغم ذلك فقد قلبوا الجيم في اللغة الاسبانية خاء (انظر hixo أي الابن وتكتب hijo كما قلبوا الأصوات المجهورة التالية الباءَ والدال والقاف في الجرمانية الى مقابلاتها المهموسة أي p و t و k . فاذا كان زوال التنفيس (انظر كلمة bherō في الهندية الاوروبية كيف صارت beran في الجرمانية تتصادا من الجهد المبذول فما عسانا نقول بشأن اللغة الالمانية وهي لغة تستعمل التنفيس في موضع لم يكن موجودا فيه من قبل (كما في Pute, Tanne الخ وتنطقان Thanne و Phute ؟) .

ونحن لا ندعي بهذه الملاحظات أننا قد دحضنا الحلّ المقترح أي قانون المجهود
الأدنى اذ من الصعب في الواقع أن نحدد على وجه التدقيق ما هو أيسر وما هو
205 أعسر في النطق بالنسبة الى كل لغة من اللغات/فلئن صح أن تقصير الأصوات
الطويلة يوافقه مجهود أدنى من حيث المدى الزمني فصحيح كذلك أن الأصوات
الطويلة قابلة لأن تنطق بشيء من التهاون بينما يقتضي النطق بالأصوات القصيرة
قدرا من العناية والانتباه أكبر . وهكذا فانه يمكننا بافتراض وجود استعدادات
مسبقة مختلفة أن نعرض ظاهرتين متناقضتين من وجهة نظر واحدة . وكذلك

الشأن بالنسبة الى الحالات التي أصبحت فيها الكاف k تش tš (انظر مثلا cēdere في اللاّتينية كيف صارت في الايطالية cedere) (3) فانه يبدو لنا أن الجهد المبذول — اذا لم نعتبر إلّا طرفي التغير الصوتي الأقصيين — قد تضاعف ولكن ذلك الانطباع قد يتغير ان نحن أعدنا بناء سلسلة التغير حلقة فحلقة . فقد تقدم مخرج الكاف فصارت حنكية تقريبا لها من مخرج الحركة الموالية لها ، ثم ان هذه الكاف الحنكية آلت الى كافة ملينة بدون أن ينتج عن ذلك مزيد من العسر في النطق بها اذ قد تمايز العنصران اللذان كانا متداخلين في الكاف الحنكية تمايزا واضحا ثم انتقلنا تباعا من الكاف المليّنة إلى التاء المليّنة فالتاء التبوعة بخاء خفيفة ثم الى التاء المتبوعة بشين،باذلين في ذلك مجهودا أقل فأقلّ .

وللدارس هاهنا مجال للبحث واسع يمكن أن يخوضه . واذا أراد أن يكون هذا البحث شاملا فعليه أن يعتبر في آن الجانب الفيزيولوجيّ (وهي مسألة تتعلق بتقطيع الأصوات) والجانب النفسي (وهي مسألة تتصل بالانتباه) .

4 — ومنها تفسير رابع شاع وانتشر منذ بضع سنوات ينسب ما يطرأ على النطق من تغيّر الى ما نتلقاه في طفولتنا من دربة صوتية . فالطفل انما يتوصل الى أن ينطق بما يسمعه حواليه بعد عدد جمّ من عمليات التردد والتجربة والتعديل وتكون بذرة التغيرات عندهم كامنة في ذلك ، لأن بعض أخطاء النطق التي لم تقوّم قد تتغلب لدى الشخص الواحد ثم ترسخ عند الجيل الناشىء . فأطفالنا كثيرا ما ينطقون الكاف تاء من دون أن تشتمل اللغة في تاريخها على تغير صوتي من هذا القبيل . ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة الى بعض التحريفات الأخرى . فانت تجد في باريس كثيرا من الأطفال ينطقون fl'eur و bl'anc بلام مليّنة مع

العلم بأن كلمة florem في اللاّتينية انما آلت في الايطالية الى fl'ore بلام مليّنة ثم إلى fiore بمقتضى تطور مماثل .

ان هذه الملاحظات جديرة بعنايتنا كلّها الا أنها تترك المسألة قائمة دون
206 حل . ذلك أننا لا ندرك السبب الذي يجعل جيلا/من الأجيال يتفق على تبني
بعض التحريفات في النطق دون غيرها في حين أنها جميعها أخطاء طبيعية على حد
سواء . الواقع أن اختيار الناس لصور من النطق الفاسد يبدو أمرا أعتباطيا محضا
لا ندرك له سببا . وعلاوة على ذلك تُرى لماذا يكتب النجاح لظاهرة من الظواهر
فتنتشر بين الناس تارة ولا يكتب لها ذلك النجاح تارة أخرى ؟

ان هذه الملاحظة لتنطبق على جميع الأسباب الآنفة الذكر إن صحّ القول بأن لها ضلعا فيما يجدّ من تغيّرات صوتية . فتأثير المناخ واستعدادات الجنس المسبقة والنزعة الى المجهود الأدنى هي أمور موجودة وجودا دائما مستمرّا . فلماذا اذن نراها تعمل عملها في النظام الفنولوجي على نحو متقطع ، مرة في هذه النقطة ومرة في تلك ؟ فمن اللازم أن يكون لأي حدث تاريخي سبب موجب إلّا أننا لم نرهم ذكروا لنا ما الذي يُحدث في كل حالة من الحالات تغيّرا ما ، وقد كان سببه العام موجودا منذ زمن طويل . إن هذه النقطة بالذات لهي أعسر ما يجب أن نوضحه .

5 — ومنها أنهم قد اعتبروا أن سببا من الأسباب الموجبة كامن في الحالة العامة التي تكون عليها أمة من الامم في زمن ما . فاللغات تمر بمراحل بعضها متقلب أكثر من بعض . ولذلك تراهم يدّعون ارجاعها الى العهود المضطربة من تاريخ البلاد ويزعمون بذلك أنهم يكشفون عن سبب رابط بين عدم الاستقرار السياسي وعدم الاستقرار اللغوي . ومتى فعلوا ذلك ظنوا أنه يمكنهم أن يخضعوا التغيّرات الصوتية لما استنتجوه من اعتبارات تخضع لها اللغة عامّة . فقد لاحظوا على سبيل المثال أن أعظم ما جدّ في اللاّتينية من تقلبات إبّان انتقالها الى اللغات الرّوْمَنيّة يوافق عهد الغزوات المتسم بكثرة الاضطرابات . ولكي لا نضل السبيل ينبغي أن نتّخذ التمييزين الآتيين دليلا لنا :

أ — أولهما أن الاستقرار السياسي لا يؤثر في اللغة تأثير عدم الاستقرار فيها (لأن عمل أحدهما ليس معاكسا لعمل الآخر البتة) . فعندما تتسبب حالة

الاستقرار السياسي في الحدّ من سرعة تطور اللغة فالسبب سبب ايجابيٌ رغم أنه سبب خارجي . بينما لا يمكن لحالة عدم الاستقرار — وتأثيرها تأثير معاكس — أن تعمل إلّا عملا سلبيا . فبقاء لسان من الألسن مستقرا أي ثابتا ثبوتا نسبيا
207 يمكن أن يكون ناتجا عن عوامل خارجية لا تمت الى اللغة بصلة . (مثل تأثير/بلاط أو مدرسة أو مجمع لغوي أو نظام كتابة الخ). وهذه العوامل بدورها يساعدها التوازن الاجتماعي والسياسي مساعدة ايجابية . وبعكس ذلك فاذا طرأ على حالة أمة من الأمم اضطراب خارجي ما عجل بتطور اللغة،فغاية ما في الأمر أن اللغة قد رجعت الى حالة من الحرية تتبع فيها مجراها العادي المنتظم . فثبوت اللغة اللّاتينية على حال واحدة في عصرها الكلاسيكي مثلا راجع إلى عوامل خارجية ، ولا يمكن مقارنته بما أصابها بعد ذلك من تغيرات لأن تلك التغيرات قد حدثت من تلقاء نفسها بسبب انعدام بعض الظروف الخارجية .

ب — ثانيها أن الأمر ههنا انما يتعلق بالظواهر الصوتية فقط وليس بجميع أنواع التغيرات اللغوية . فمن اليسير على المرء أن يدرك أن التغيرات النحوية تابعة لهذا الضرب من العلل فالظواهر النحوية تتعلق دوما بالفكر بوجه من الوجوه وهي أشدّ تأثرا بانعكاسات التقلبات الخارجية من غيرها . لأن هذه التقلبات تُحدث تأثيرا في الذهن أشدّ مباشرة . ولكن لا شيء يخول لنا القول بأن العصور المضطربة من تاريخ أمة من الأمم توافقها تطورات عاجلة تطرأ على أصوات اللسان الذي تتكلم به تلك الأمة .

على أنه يتعذر علينا أن نجد حتى من بين تلك العصور التي يبدو لنا أن اللغة بقيت فيها ثابتة لا تتغير عصرا واحدا لم يشهد أي تغير صوتي .

6 — ومنها أن بعضهم ركز الى فرضية « الطبقة اللغوية السفلى السابقة » ومفادها أن سبب بعض التغييرات اللغوية في نظرهم انما هو تأثير لغة السكان الاصليّين في لغة السكان الوافدين عليهم . وهكذا فان الفرق بين لغة الـ oc ولغة الـ oïl في رأيهم يوافق وجود نسبتين متفاوتتين من العنصر السّلتي المحلي في قسمي بلاد الغال . وقد طبق بعضهم هذه النظرية على الاختلافات اللهجية في اللغة الايطالية فأرجعوها بحسب المناطق الى تأثيرات ليقورية (4) وأتورية (5) الخ.إلّا أن هذه الفرضية تقتضي وجود ظروف قلما تتضافر . وعلاوة على ذلك ينبغي أن

208 نوضح مقصودهم فترى هل يعنون/أن السكان الأصليين اذ تبنوا اللغة الجديدة قد أدخلوا فيها شيئا ما من عاداتهم الصوتية ؟ ان كان الأمر كذلك فهو مقبول وطبيعي الى حدّ ما ولكن ان نحن استندنا مرة أخرى الى الأسباب التابعة للجنس ، وهو مالايمكن تقديره حق التقدير ، فاننا نسقط ثانية في ما سلف ان أشرنا اليه من غموض وابهام .

7 — ومن ذلك أيضا هذا التفسير الأخير الذي يكاد لا يستحق اسم تفسير والذي يعتبر أصحابه أن التغيرات الصوتية بمثابة تغيرات الموضة . وهي تغيرات لم يفسرها أحد . فنحن لا نعرف أكثر من أنها تخضع لقوانين المحاكاة والتقليد التي تشغل بال علماء النفس كثيرا . على أن هذا التفسير وان لم يحلّ المشكل فمزيته في أنه يدخلها في نطاق مشكلة أعم وأشمل . اذ قد يكون قانون التغيرات الصوتية بمقتضاها ظاهرة نفسية بحتة لكن ترى أين منطلق هذه المحاكاة بالضبط ؟ تلك هي النقطة الغامضة سواء بالنسبة الى التغيرات الصوتية أو بالنسبة الى الموضة .

الفصل الخامس : عمل التغيرات الصوتية عمل لا حدّ له

ان نحن أردنا أن نقدر أثر هذه التغيرات فسرعان ما نلاحظ أننا لا نستطيع أن نتنبأ بغايتها ومنتهاها . فمن السذاجة الاعتقاد أن الكلمة انما تتطور الى حدّ معين ثم تقف عنده لا تتجاوزه كما لو كانت تحتوي في ذاتها على ما يمنعها من ذلك . ان هذه الخاصيّة التي تتميز بها التغيرات الصوتية تتصل بما في طبيعة الدليل اللغوي من صفة اعتباطية وهي صفة ليست لها أية علاقة بالدلالة .

صحيح أنه يمكننا في وقت ما أن نلاحظ أن أصوات كلمة من الكلمات قد أصابها ما أصابها من اختلال وأن نتعرف على مدى ذلك الاختلال ولكننا لا نستطيع أن نعلم مسبقا الى أي حد قد أصبحت تلك الكلمة أو ستصبح ممسوخة لا تعرف .

ففي اللغة الجرمانية آلت الكلمة الهندية الاوروبية aiwom * (انظر في اللّاتينية aevon) إلى aiwan * فالى aiwa * فالى aiw * ومثلها في ذلك مثل جميع الكلمات التي تنتهي بنفس الصوت . ثم ان aw * أصبحت ew في الالمانية القديمة ، شأنها

209 في ذلك شأن جميع الكلمات التي تحتوي على مجموعة/aiw . ثم وبما أن الواوتنقلب ضمة نصف منغلقة اذا وقعت آخرا فقد آل الأمر الى حدوث ēo.ثم ان ēo تغيرت بدورها فأصبحت eo فـ io وذلك حسب قواعد عامة لها نفس القدر من العمومية. ثم آلت io الى ie ثم je حتى أصبحت في الألمانية الحديثة jē (أنظر قولهم : das schönste, was ich je gesehen habe أي أجمل ما سبق لي أن رأيت في حياتي) .

فاذا نظرنا الى الكلمة مقتصرين على صورتها الأولى وصورتها النهائية لاحظنا أن صورتها الحالية لا تشتمل على أي عنصر من عناصر الكلمة الأصلية إلّا أننا اذا نظرنا الى كل طور من أطوار تغيرها على حدة لاحظنا أنه مضبوط ومنتظم تماما . وفضلا عن ذلك فكل طور من هذه الأطوار محدود في مدى تأثيره إلّا أن مجموعها يوهمك بوجود عدد من التغيرات لا حدّ له . ويمكننا أن نلاحظ الملاحظات نفسها بشأن الكلمة اللّاتينية calidum اذا نحن قارناها بما آلت اليه في الفرنسية الحديثة — دون أن ننظر في صورها الانتقالية — (أي بكلمة šọ وتكتب chaud) ثم بتتبّع أطوارها المختلفة أي calidum فـ calidu فـ caldu فـ cald فـ calt فـ tšalt فـ tšaut فـ šaut فـ šot فـ šọ)ولنقارن كذلك في اللّاتينية الدارجة كلمة waidanju * كيف أصبحت gẽ (وتكتب gain) وكلمة minus وقد أصبحت mwẽ (وتكتب moins) وكلمة hoc illi وأصبحت wi (وتكتب oui) .

وعمل الظواهر الصوتية لا حدّ له ولا حصر كذلك من جهة أنها يمكن أن تطرأ على أي نوع من أنواع الدلائل سواء كان ذلك صفة أو اسما أو غيرهما ، جذرا أو لاحقة أو علامة اعراب الخ ويجب أن يكون الأمر هكذا بصفة ما قبلية اذ لو كان للنحو دخل لالتبست الظاهرة الصوتية عندئذ بالواقع الآني وهو أمر مستحيل تمام الاستحالة . وهذا ما يصح أن نطلق عليه عبارة عشوائية التطورات الصوتية .

من ذلك أن السين اذا وقعت في اليونانية بعد نون سقطت ليس فقط من كلمة khānses أي « أوزّ » ، و mēnses أي « أشهر » (وعنها تولدت khênes و mênes) حيث لم تكن له أي قيمة نحوية ، ولكنها سقطت كذلك من صيغ

فعلية من نوع etensa * و ephansa * الخ (وعنها تولدت éteina و éphēna الخ). وكانت السين تدل في هذه الصيغ على الماضي المبهم . أما في الألمانية العليا المتوسطة فان الحركات الواقعة بعد النبرة أي الحركات القصيرة ĭ و ĕ و ŭ و ŏ توحدّ جرسها فآلت الى حركة واحدة هي الفتحة الصامتة e كما في gibil وصارت Giebel و meistar وصارت Meister) وذلك رغم أن الاختلاف في الجرس هو
210 الذي كان يميز/بين عدد كبير من علامات الاعراب . من ذلك أن boton وهي كلمة في حالة المفعول به المفرد و boten وهي في حالة المضاف المفرد أو المعطى اليه قد اختلطتا فآلتا الى صيغة واحدة هي boten .

واذن فبما أن عمل الظواهر الصوتية لا يحده حدّ كما بيّنا فالمفروض انها تُدخل على الجهاز النحوي اضطرابا عظيما . وهذه الزاوية هي التي سننظر منها اليها فيما يلي .

211

الباب الثالث
النتائج النحوية المنجرّة عن التطور الصوتي

الفصل الأول : انفصام الرابط النحوي

من أول ما ينجر عن ظاهرة التغير الصوتي انفصام الرابط النحوي الذي يربط بين عنصرين فأكثر من عناصر الكلام . فقد يحدث مثلا أن يزول شعورنا بالعلاقة الاشتقاقية القائمة بين كلمتين ما . وإليك بعض الشواهد . ففي المثال التالي :

* mansiōnāticus	—	mansiō
ménage	‖	maison

كان حسّ الناس اللغوي قديما يمكنهم من ادراك أن * manisiōnāticus مشتقة من mansiō ثم باعدت التقلبات الصوتية بين هاتين الكلمتين . وكذلك الشأن بالنسبة الى :

(vervēcārius — vervēx)

وهي في اللاتينية الشعبية :

berbīcārius	—	berbīx
berger	‖	brebis

ولهذا الانفصال انعكاسه المباشر على قيمة هذه الكلمات مما جعل كلمة berger تدل في بعض اللهيجات المحلية على معنى خاص هو « راعي البقر » . ومن ذلك أيضا :

grātiānopolitānus	—	Grātiānopolis
Gresicaudan	‖	Grenoble

وكذلك :

undecim	—	decem
onze	‖	dix

ومن الحالات المماثلة في اللغة القوطية شعورهم بالصلة بين كلمة bītan بمعنى « عض »/و « لذع » وكلمة bitum (أي « عضضنا » و bitr أي « لاذع أو 212
مُرّ » . ثم على اثر انقلاب التاء الى تس (وترسم z) في الجرمانية الغربية من جهة ، واحتفاظهم فيها بالصوتين tr من جهة أخرى ، آلت تلك الكلمات الى bitr ‖ bizum, bızan .

كما أن التطور الصوتي يفصم العلاقة الطبيعية القائمة بين صورتين إعرابيتين تابعتين لكلمة واحدة . من ذلك أن comiten — comes أصبحت في الفرنسية القديمة cuens ‖ comte وأن barōnem — baro قد آلتا تباعا الى ber ‖ baron وأن presbiterum — presbiter قد آلتا الى prestre ‖ provoire . وفي حالات أخرى نلاحظ أنّ علامة الاعراب تنقسم الى شطرين اثنين . ففي الهندية الاوروبية ، كانت علامة المفعولية في حالة المفرد هي الميم (6) آخرا (من ذلك ek̥wom * و owim * و podm و māterm وهلم جرا) ولم يلحق اللغة اللاتينية تغير جذري في هذا المضمار أما في اليونانية فان علاجهم المختلف للصوت الخيشومي الحركي والحرفي قد نشأت عنه سلسلتان متمايزتان من الصيغ هما hippon و ó(w)in بازاء póda و mátera . وكذلك الشأن في حالة المفعولية في صيغة الجمع . حيث نلاحظ ظاهرة شبيهة كل الشبه بسابقتها . (انظر híppous و pódas) .

الفصل الثاني : انطماس حدود أجزاء الكلمات المركبة

للتغيرات الصوتية أثر آخر في النحو يتمثل في أن الأجزاء المتميزة التي تتكون منها كلمة من الكلمات المركبة والتي تسهم في تحديد قيمتها تصبح غير قابلة للتحليل فتصير الكلمة بذلك وحدة غير قابلة للتجزئة من ذلك كلمة ennemi في الفرنسية (وكانت في اللاتينية مركبة من in و imīcus التي هي amīcus)

وكلمة perdere في اللاتينية (وقد تولدت عن صيغة أقدم مركبة من per و dare) و amiciō وأصلها ambjaciō * المتضمّن لـ jaciō وفي الالمانية Dritteil وهي مركبة من drit و teil .

على أننا نلاحظ أن هذه الحالة مماثلة للحالة المذكورة في الفقرة السابقة . فاذا كانت كلمة ennemi مثلا غير قابلة للتحليل فمعنى ذلك أننا لم نعد نستطيع ارجاعها الى الصورة البسيطة amīcus كما نستطيع أن نفعل ذلك بـ in - imīcus . فتكون الصيغة التالية :

inimīcus — amīcus

ennemi || ami

213 مماثلة تماما لـ :

mansiōnāticus — mansiō

ménage || maison

انظر كذلك :

undecem — decem

onze || dix

ان الصيغ البسيطة التالية hunc و hanc و hāc الخ التي نجدها في اللاّتينية الكلاسيكية والتي أصلها hon-ce و ham-ce و hā-ce كما تبين ذلك صور هذه الكلمات على المنقوشات القديمة قد نتجت عن الصاق ضمير بأداة هي ce . ولقد كان الناس قديما يستطيعون أن يقربوا بين hon-ce وغيرها وبين ec-ce ثم تعذر عليهم ذلك بسبب سقوط حركة الـ e في النطق . ومعنى ذلك أنهم أصبحوا غير قادرين على أن يميزوا بين عنصري كل من hunc و hanc و hāc وغيرها .

ان التطور الصوتي يبدأ أولا بادخال الاضطراب على عملية التحليل قبل أن يجعلها مستحيلة تمام الاستحالة . واعراب الأسماء في الهندية الاوروبية مثال شاهد على ذلك .

فقد كانت صيغة الاسم المفرد فيها في حالة الفاعلية pod-s * وفي حالة المفعولية podm * ، وفي حالة المعطى اليه podai * وفي حالة ظرف المكان pod-i

وكانت صيغة الجمع في حالة الفاعلية pod-es * وفي حالة المفعولية podn-s * الخ وكان اعراب كلمة ek^{1}wos * في البداية يتم على نحو مواز لذلك تماما أي ek'wo-s * فـ ek^{1}wo-m * فـ ek^{1}wo-ai * فـ ek$_{1}$wo-i فـ ekwo-es * فـ ek^{4}wo-ns الخ . وكان من اليسير عليهم في ذلك العهد أن يستخرجوا الجذر ek^{4}wo *بنفس اليسر الذي كانوا يستخرجون به الجذر Pod * . أما بعد ذلك فان اختصار الحركات قد غير من تلك الحالة . من ذلك ما نلاحظه في حالة المعطى اليه في ek^{4}wōi وفي حالة ظرف المكان في ek^{4}woi وفي حالة الفاعلية في الجمع ek^{4}wōs . ومنذ ذلك الحين اختلّ وضوح الجذر ek$_{4}$wo- وأصبح التحليل عرضة للخطأ ثم بعد مدّة أخرى جدّت تغيرات أخرى مثل التمايز بين حالات المفعوليه (انظر ص 233) فطمست آخر معالم الحالة الاصلية من الكلمة . ولعل معاصري « أكسينوفون » Xénophon كانوا يتوهمون أن الأصل هو hipp- وأن علامات الاعراب كانت حركية كما في hipp-os الخ.) ولذلك فصلوا فصلا تاما بين ضربين هما ek$_{4}$wo-s و Pod-s . فكلّ ما من شأنه أن يدخل الخلل والاضطراب على التحليل في مجال الاعراب كما في أي مجال سواه يسهم في ارتخاء
214 الروابط النحوية ./

الفصل الثالث : لا وجود لمزدوجات صوتية

قد رأينا من خلال الحالتين اللتين تعرضنا اليهما في الفقرتين الأولى والثانية أن التطور الصوتي يفصل فصلا جذريا بين عنصرين مرتبطين في الأصل ارتباطا نحويا . وهذه الظاهرة قد تفضي بنا الى الوقوع في خطإ فادح من حيث التأويل .

فقد يميل المرء اذ يلاحظ ما بين كلمتي barō و barōnem في اللاتينية القريبة من تماثل نسبي وما بين كلمتي ber و baron في الفرنسية القديمة من تباين الى القول بأن وحدة لغوية قديمة بعينها (هي bar-) قد تطورت في اتجاهين متباينين فتولدت عنها صيغتان اثنتان . لكن هل هو محق في ذلك ؟ كلا لأن العنصر الواحد بعينه لا يمكن أن يكون خاضعا في آن واحد وفي موضع واحد لتحولين متباينين لأن ذلك مناقض لجوهر تعريف التغير الصوتي . فتطور الاصوات في حدّ ذاته ليس من شأنه وحده أن يولد صيغتين بدلا من صيغة واحدة . واليك

ما قد يعترض به بعضهم على قولنا هذا ، وهب انها تساق من خلال بعض الأمثلة . فان قال قائلهم ان كلمة collocāre قد نتجت عنها كلمتان هما coucher و colloquer قلنا: لا فانه لم تنتج عنها إلّا كلمة coucher أما colloquer فانما هي اقتراض في مستوى فصيح من اللغة اللّاتينية (انظر كذلك rançon و rédemption الخ).وان قال : ألم تتولد عن كلمة cathedra كلمتان هما chaire و chaise ولا شك في صدق فرنسيتهما ، قلنا الواقع أن chaise انما هي صيغة تستعمل في الفرنسية الدارجة . ذلك أن الباريسيين كانوا في لهجتهم يبدلون الراء الواقعة بين حركتين زايا . فكانوا يقولون مثلا pèse و mèse بدلا من père و mère . ولم يبق في الفرنسية الأدبية سوى نموذجين من ذلك النطق المحلي هما chaise و besicles (التي تزدوج مع bericles المتولدة عن béryl) . وهذه الحالة مماثلة تماما لما وقع لكلمة rescapé في اللهجة البيكردية وقد انتقلت منذ عهد قريب الى الفرنسية المشتركة فاذا هي أصبحت تتفارق مع كلمة réchappé . واذا وجدنا في الفرنسية cavalier بأزاء chevalier و cavalcade بازاء chevauchée فانما ذلك لأن cavalier و cavalcade كلمتان مقتبستان من الايطالية . واذا أنعمنا النظر وجدنا ان هذه الحالة شبيهة تماما بما وقع لـ calidum في اللّاتينية التي تولدت عنها كلمتان هما chaud في الفرنسية و caldo في
215 الايطالية . واذن فالامر في جميع هذه الأمثلة يتعلق بكلمات دخيلة على اللغة ./

فاذا انبرى لنا معارض آخر فزعم أن ضمير المتكلم mē في اللّاتينية يظهر في الفرنسية في صورتين اثنتين هما me و moi (كنحو قولهم «il me voit» و «c'est moi qu'il voit») قلنا : ان mē غير المنبر في اللّاتينية قد أصبح me ثم ان mē المنبر قد أصبح moi ؛ لكن وجود النبرة أو انعدامها أمر تابع لا للقوانين الصوتية التي جعلت mē تتحول الى me و moi ولكن الى دور تلك الكلمة في الجملة . فهو اذن ازدواج نحوي . وكذلك الأمر في اللغة الألمانية فان السابقة ur* ظلت ur اذا كانت منبرة وانقلبت er كلما وقعت قبل النبرة(أنظر مثلا : úrlaub و erlaúben) . إلّا أن عمل النبرة هذا هو نفسه مرتبط بضروب من تركيب الكلمات التي كانت -ur تدخل عليها وبالتالي مرتبط بقيد نحوي آني . وفي الختام نعود الى المثال الذي ذكرناه في البداية فنقول ان ما نجده بين

الزوج : bárō : barōmen من اختلافات من حيث الصيغة والنبرة هي بطبيعة الحال اختلافات سابقة للتغير الصوتي .

والواقع أنه لا وجود البتة لمزدوجات صوتية . فتطور الأصوات لا يمكنه إلّا أن يزيد في درجة الاختلافات السابقة له . وفي جميع الحالات التي لا تكون فيها الاختلافات ناجمة عن أسباب خارجية كما هو الشأن بالنسبة الى الكلمات الدخيلة فإن تلك الاختلافات تقتضي وجود ثنائيات نحوية آنية لا تمت الى الظاهرة الصوتية بصلة .

الفصل الرابع : التنـــــاوب

اذا نظر المرء في كلمتين من قبيل maison و ménage فقلّما يستهويه البحث عما يميز بينهما . وذلك إمّا لأن العنصرين المميزين بينهما (أي -ezō و -en) لا تتيسر المقارنة بينهما أو لأنه لا وجود لأي زوج آخر من الكلمات يشتمل على نوع مواز من التقابل . إلّا أن الكلمتين المتقاربتين،كثيرا ما ينحصر اختلافهما في عنصر واحد أو عنصرين من اليسير استخراجهما .

وغالبا ما يتكرر ذلك الاختلاف عينه على نحو منتظم في سلسلة من الأزواج المتوازية وعندئذ يتعلق الأمر بظاهرة من أشد الظواهر النحوية انتشارا واطرادا تلعب
216 فيها التغيرات الصوتية دورا معلوما وتسمى alternance أي **التناوب** ./

ففي الفرنسية مثلا تطورت كل ضمة نصف منفتحة قصيرة ŏ وردت في اللّاتينية في مقطع مفتوح فأصبحت eu اذا كانت منبّرة أو ou اذا وقعت قبل النبرة . ولذلك تجد أزواجا من قبيل pouvons و peuvent و œuvre و ouvrier و nouveau و neuf الى غير ذلك . ومنها يمكن أن نستخرج دون عناء عنصر الاختلاف والتغير المطرد . أما في اللّاتينية فان عملية الراراة يتناوب بمقتضاها gerō مع gestus و oneris مع onus و maeror مع maestus . الخ .

أما في الجرمانية فانه لما كان حرف السين يعالج بصور مختلفة حسب موقع النبرة فانك تجد في الألمانية العليا المتوسطة ferliesen و kiesen, ferloren

و gefroren, friesen, gekoren الخ . وينعكس سقوط الـ e الهندية الأوروبية في الألمانية الحديثة في مقابلات مثل biss : beissen ، و litt : leiden ، و ritt : reiten وغيرها .

وإذن فالذي أصابه التغير في جميع هذه الأمثلة انما هو العنصر المكون للأصل . ومن البديهي أن جميع أجزاء الكلمة يمكن أن تظهر فيها مقابلات مماثلة. فليس من النادر مثلا أن تبدو السابقة في صور شتى حسب طبيعة الصوت الذي يبدأ به الأصل (أنظر في اليونانية apo-dídōmi : ap-érchomai وفي الفرنسية inconnu : inutile). إنّ التناوب بين e و o في الهندية الاوروبية هو تناوب راجع في الأرجح وفي حقيقة الأمر الى سبب صوتي موجود في عدد كبير من العناصر التي هي لواحق (كما في هذه الأمثلة من اليونانية híppos : hippe و phér-o-men : phér-e-te و gén-os : gén-e-os في مقام gen-es-os * وغيرها). أما في الفرنسية القديمة فتعالج فيها الفتحة a اللاتينية المنبّرة الواقعة بعد حروف حنكية معالجة خاصة ولذلك نجد تناوبا بين e و ie في عدد من علامات الاعراب (انظر مثلا jug-ier : chant-er و jug-ié : chant-é و jug-iez : chan-tez الخ) .

وإذن فانه من الممكن أن نعرّف التناوب فنقول **انه تناسب بين صوتين أو مجموعتين من الأصوات المعينة تتداول باطراد بين سلسلتين من الصيغ المتواجدة** .

وكما أن الظاهرة الصوتية لا تفسّر بمفردها وجود المزدوجات فمن اليسير كذلك أن نتبين أنها ليست السبب الوحيد ولا السبب الرئيسي المتسبب في التناوب فالذي يقول ان الكلمة اللاتينية -novus قد أصبحت في الفرنسية -neuv تارة و nouv تارة أخرى (كما في neuve و nouveau) بسبب حدوث تغير صوتي انما هو يختلق وحدة من صنع خياله يتعامى عن وجود ثنائية
217 آنية/سابقة لذلك . فاختلاف موقع -nov في كلمتي nov-us و nov-ellus هو في الآن نفسه أمر سابق للتغير الصوتي وذو طبيعة نحوية ذات بال (انظر مثلا barō : barōnem) . وهذه الثنائية هي التي تتسبب في الأصل في كل تناوب وتجعله ممكنا . فالظاهرة الصوتية لم تهدّم وحدة قائمة وكل ما في الأمر أنها زادت في ابراز المقابلة الموجودة بين كلمتين متواجدتين وذلك بواسطة الزيادة في تباين

الأصوات . فذلك الاعتقاد الذي مفاده أن التناوب ينتمي الى الصعيد الصوتي وذلك لمجرد أن الأصوات تكوّن مادته ، ولأنّ للتغيرات الصوتية دورا في نشأته ، انما هو اعتقاد خاطئ يشترك فيه عدد كبير من الألسنيين . والواقع أن التناوب ، سواء نظرنا في منطلقه أو في منتهاه ، ينتمي دوما الى المجال النحوي والمجال الآني .

الفصل الخامس : قوانين التناوب

هل يمكن إخضاع صور التناوب لقوانين معلومة ؟ وما عسى أن تكون طبيعة مثل تلك القوانين ؟

اذا نظرنا على سبيل المثال في تناوب الفتحة الممالة والكسرة (e : i) الشائع جدا في الألمانية الحديثة وتناولنا جميع الحالات جملة وكما اتفق (كأن ننظر في geben : gibt و Feld : Gefilde و Wetter : wittern و helfen : Hilfe و sehen : Sicht وغيرها) فانه لا يمكننا أن نصوغ أي مبدإ عام مطرد . أما اذا نحن استخرجنا من ذلك الخضم زوجا معينا هو geben : gibt ، وقابلناه بـ schelten : schilt و helfen : hilft و nehmen : nimmt ؛ الخ فاننا ندرك عندئذ أن تناوب الحركتين يوافق تمييزا بين الأزمنة والضمائر . أما في lang ; Länge و stark : Stärke و hart : Härte ، الخ فان التقابل بين الفتحة والفتحة الممالة شبيه تماما بما تقدم أي أنها تدل على طريقة صياغة الأسماء انطلاقا من الصفات أما في Hand : Hände, Gast : Gäste الخ فالتقابل يدل على صياغة الجمع وكذلك الشأن بالنسبة الى جميع الحالات الكثير اطرادها والتي يسميها المختصون في الدراسات الجرمانية بالابلوت ablaut أي « تغير حركات جذر الكلمة » . (انظر أيضا finden : fand أو finden : Fund و binden : band أو binden : Bund و schiessen : schoss : Schuss و fliessen : floss : Fluss وهلم
218 جرا) . فهذا الابدال الحركي الموافق لمقابلة نحوية هي من أمهات الأمثلة/الدالة على التناوب ولكنه لا يتميز عن الظاهرة العامة بأية ميزة خاصة به .

فقد تبين لنا اذن أن التناوب يتوزع عادة على عدة عناصر من عناصر الكلام توزعا منتظما وانه يدل على وجود مقابلة هامة من حيث وظيفة الكلمة ونوعها ومميزاتها . فيحق لنا أن نتحدث عن وجود قوانين نحوية تقوم على عمليات التناوب

إلّا أن تلك القوانين ليست سوى نتيجة عرضية من نتائج الظواهر الصوتية المتسببة في وجودها وذلك أن الظواهر الصوتية لما كانت تحدث مقابلة صوتية منتظمة بين سلسلتين من الكلمات بينهما مقابلة من حيث القيمة فان الذهن يعمد الى ذلك الفارق المادي المحسوس فيجعله فارقا دلاليا ويحمّله الفارق الموجود بين المتصورات الذهنية (انظر ص 133 وما بعدها) . ولكن قوانين التناوب ، شأنها شأن سائر القوانين الآنيّة انما هى مجرد مبادىء في نظم الكلام وليس لها حكم الوجوب . وليس من الصحيح في شيء أن يقال ـ كما يطيب لكثير من الدراسين ـــ ان الفتحة a من Nacht تنقلب الى فتحة ممالة ä في صيغة الجمع Nächte لأن ذلك يوهم بأنه طرأ أثناء انتقالنا من هذه الصيغة الى تلك تغير يخضع لمبدأ من المبادىء الموجبة . والحال أن الأمر يتعلق في الواقع بمجرد مقابلة بين صيغتين متولدتين عن التطور الصوتي . صحيح أن القياس ـــ وهو موضوع حديثنا القادم ـــ يمكن أن تتولد عنه أزواج جديدة يتجلى فيها نفس الاختلاف الصوتي (انظر مثلا Kränze : Kranz قياسا على Gäste : Gast ، الخ) فيخيل الينا عندها أن هذا القانون ينطبق كما لو كان قاعدة تتحكم في الاستعمال الى حدّ تغييره . لكن لا ينبغي أن يفوتنا أن هذه التغيرات التي توجد في اللغة تخضع لتأثيرات عمليات قياس متناقضة وكفى بذلك دليلا على أن القواعد التي من هذا القبيل هي دوما قواعد غير ثابتة وينطبق عليها جميعها تعريفنا للقوانين الآنية تمام الانطباق .

وقد يحدث أيضا أن القيود الصوتية التي تسببت في التناوب ما تزال بارزة للعيان : من ذلك أن الأزواج المذكورة ص 239 كانت صيغتها في الألمانية العليا القديمة gibit : geban و gafildi : feld الخ . فكلما كان الأصل في ذلك العهد متبوعا بكسرة فانه كان يظهر/ مشتملا على كسرة عوضا عن الفتحة الممالة وهي 219
الحركة التي يشتمل عليها في كل ما عدا ذلك من الحالات أما التناوب الذي بين conficiō : faciō و amīcus ; inimīcus و facilis : difficilis وغيرها من الحالات الأخرى في اللاتينية ، فهو أيضا مرتبط بقيد صوتي لو عبر عنه المتكلمون لقالوا : ان الفتحة التي في كلمة من قبيل faciō و amīcus وغيرهما تتناوب والكسرة في كلمات من نفس الأصل اذا وردت تلك الفتحة في مقطع وسط الكلمة .

لكن هذه المقابلات الصوتية توحي تماما بنفس الملاحظات التي توحي بها جميع القوانين النحوية فهي ذات طابع آني . وما ان يغفل المرء عن ذلك حتى يكون عرضة للوقوع في التأويلات الخاطئة المشار اليها ص 148 فاذا ما صادفنا زوجا من قبيل conficiō : faciō وجب علينا أن نحذر الخلط بين العلاقة القائمة بين هذين العنصرين المتواجدين آنيا والعلاقة التي تربط العنصرين المتعاقبين التابعين للظاهرة الزمانية كنحو confaciō (التي آلت الى conficiō) . وان استهوانا مثل ذلك الخلط فذلك لأن سبب التمايز الصوتي ما يزال بارزا للعيان في هذا الزوج لكن عمله قد حدث في زمن تم وانقضى . أمّا المتكلمون فانهم يعتبرون ذلك مجرد تقابل آني لا غير .

وكل هذا يدعم ما قلناه سابقا من أن التناوب له طابع نحوي صرف . وقد استعملوا للتعبير عنه كلمة permutation أي استبدال وهي تسمية محكمة جدّا إلّا أنه يحسن تجنبها والسبب في ذلك بالذات أنهم غالبا ما أطلقوها على التغير الصوتي وانها توهم بفكرة لا أساس لها من الصحة هي فكرة التحرك في الزمن حيث لا وجود إلّا لحالة آنية .

الفصل السادس : التناوب والرابط النحوي

قد رأينا كيف أن التطور الصوتي اذ هو يغير صيغ الكلمات يتسبب في فك ما يصل بينها من روابط نحوية . ولكن ذلك لا يصحّ إلّا بالنسبة الى الازواج المنعزلة من قبيل maison : و ménage و Dritteil : Teil الخ . لكن بمجرد أن يتعلق الأمر بالتناوب فان القضية تصبح قضية أخرى . فمن البديهي أولا أن كل مقابلة صوتية/ بين عنصرين فيها بعض الانتظام تنزع إلى إقامة صلة بينهما . فالمرء يقرب تلقائيا بين Wetter و Wittern لأنه اعتاد ملاحظة تناوب الفتحة الممالة والكسرة . فان المتكلمين متى شعروا بأن مقابلة صوتية ما تخضع لقانون عام ، اشتد انتباههم لمثل هذا التقابل المألوف فيفرض نفسه عليهم ويسهم في تدعيم الرابط النحوي بدلا من أن يسهم في اضعافه . وعلى هذا النحو بالذات يقوّي فينا تغير الحركات الذي يصيب الجذر في الألمانية (الابلوت) (انظر ص 239) ذلك الشعور بوحدة الجذر من خلال التغيرات الحركية .

وكذلك الشأن بالنسبة الى التناوبات غير الدلالية إلّا أنها تناوبات مقترنة بقيد صوتي محض . فالسابقة re- (كما في reprendre و regagner و retoucher وغيرها) تتقلص الى راء اذا وقعت قبل حركة (كما في rouvrir و racheter الخ) . وكذلك السابقة in- (وهي عنصر حي كثير الاستعمال وان كانت من أصل فصيح فهي تظهر في نفس الأوضاع المذكورة في صورتين مختلفتين أي أنها تكون فتحة ممالة مخيشمة ɛ̃ كما في inconnu و indigne و invertébré وهلم جرا) وتكون كسرة متبوعة بنون in- (كما في inavouable و inutile و inesthétique الخ) وهذا الفرق لا يفصم البتة وحدة المتصور لأننا ندرك المعنى والوظيفة على أنهما شيء واحد وأن أهل اللغة قد استقرت لديهم الحالات التي تستعمل فيها هذه الصيغة أو تلك .

الباب الرابع
القيـــاس

الفصل الأول : تعريفه وذكر أمثلة منه

نستنتج مما سبق أن الظاهرة الصوتية عامل من عوامل الاضطراب . ففي جميع الحالات التي لا تُحدث فيها هذه الظاهرة عمليات تناوب فانها تسهم في ارتخاء الروابط النحوية التي تشد الكلمات بعضها الى بعض فيتضاعف لذلك مجموع الصيغ بلا داع وتصبح إوالية اللغة غامضة ومعقدة وذلك بقدر ما تتغلب الصور الناجمة عن التغيرات الصوتية على الصيغ التي يجمعونها في أضرب [صرفية] عامة مطردة ، أو بعبارة أخرى بقدر ما يتغلب الاعتباط المطلق على الاعتباط النسبي (انظر ص 199) .

ومن حسن الحظ أن هنالك قوة تحدّ من مفعول التغيرات الصوتية وتُعدِّله وهي القياس . فاليه ترجع جميع أسباب التغيرات العادية التي ليست ذات طبيعة صوتية والتي تصيب من الكلمات مظهرها الخارجي .

ويقتضي القياس وجود منوال ومحاكاة منتظمة لذلك المنوال . **فالصيغة القياسية انما هي صيغة صنعت على منوال صيغة أو صيغ أخرى طبقا لقاعدة معلومة .**

وعلى هذا الأساس فان الكلمة اللّاتينية honor في حالة الفاعلية صيغة قياسية . فانهم قد قالوا في الأصل honōsem : honōs ثم قالوا honōrem وذلك برأرأة سين honōs فأصبحت لأصل الكلمة منذ ذلك الحين صورتان اثنتان ثم زالت تلك الثنائية إذ حلّت محلها صيغة جديدة هي honor التي قاسوها على منوال ōrātor : ōrātōrem الخ وذلك بواسطة طريقة سندرسها أسفله . ونحن نرجعها منذ/الآن الى حساب المتوسطة الرابعة : 222

س : honōrem = ōrātor : ōrātōrem

honor = س

نلاحظ إذن أن القياس قد وحّد بين الصيغ من جديد وأعاد اللانتظام الى سالف نصابه (كما في honōrem : honōr) ، وذلك حتى يقوم بعمل مواز تعديلا لعمل التغير الصوتي الذي من شأنه تنويع الصيغ والتكثير منها (كما في honōrem : honos) .

أما في الفرنسية فقد أتى عليهم عهد من الدهر طويل وهم يقولون il preuve و nous prouvons و ils preuvent وتراهم اليوم يقولون il prouve و ils prouvent وهما صيغتان لا يمكن تفسيرهما تفسيرا صوتيا . أما قولهم il aime فأصلها هو amat في اللّاتينية . أما قولهم nous aimons عوض amons فهو صيغة قياسية . وكذلك الأمر في amable عوضا عن aimable . أما في اليونانية فان السين ، اذا وقعت بين حركتين ، سقطت . من ذلك أن-eso- آلت الى eo- (انظر مثلا géneos بدلا من genesos *) . بيد أن هذه السين التي بين حركتين تثبت في زمني الاستقبال والماضي المبهم وذلك في جميع الأفعال ذات الحركات كما في lūsō و élūsa الخ . والسبب في ذلك أنهم قد أبقوا على السين في صلب صيغتي المستقبل والماضي قياسا على صيغ من نوع túpsō و étupsa . أما في الألمانية فلئن كان وجود Gast و Gäste و Balg, Bälge الخ يرجع الى أسباب صوتية فإن وجود Kranz و Kränze (وكانتا قديما kranz و kranze) ، Hals : Hälse (وكانت halsa سابقا) الخ مردّه التقليد والمحاكاة .

فالقياس يعمل في صالح الانتظام وينزع الى توحيد أساليب صياغة الكلمات وصور اعرابها ولكنه ذو نزوات وأطوار . فانك تجد الى جانب Kränze : Kranz

الخ كلمات مثل Tage : Tag و Salze : Salz الخ وهي صيغ مانعت القياس لسبب من الأسباب . وهكذا فلا يمكننا أن نعرف سلفا الحدّ الذي ستمتد اليه محاكاة منوال ما ولا الأنماط التي من شأنها أن تجسر الى تلك المحاكاة . من ذلك أن أشد الصيغ تنوعا وكثرة ليست دائما هي التي تحدث عملية القياس . ففي الفعل الماضي اليوناني تجد الى جانب الصيغ المبنية للمعلوم الآتية pépheuga و pepheugamen pépheugas الخ صيغا مبنية لمفعول الوسيلة تتصرف بدون فتحة كنحو قولهم péphugmai و pephugmetha الخ . وتدلنا لغة هوميروس على أن تلك الفتحة لم تكن موجودة قديما في صيغتي الجمع والمثنى من المبني للمعلوم (انظر في لغة هوميروس idmen و éikton الخ) . فالقياس/انما بدأ مع ضمير 223
المتكلم المفرد من المبني للمعلوم ثم نراه قد امتد تقريبا الى جميع صيغ تصريف الفعل في الماضي الاخباري indicatif . وهذه الحالة جديرة بالملاحظة لسبب آخر هو أن القياس هٰهنا يُلحق بالأصْل عنصرا آخر هو الفتحة وهي في الأصل علامة من علامات الاعراب . ولهذا السبب تجد pepheuga-men ومعكوس هذا ، أي أن يلحق عنصر من الأصْل باللاحقة ، أكثر اطرادا كما سنرى (ص 255) .

وكثيرا ما يكون وجود كلمتين منعزلتين أو ثلاث كافيا لأنشاء صيغة عامة كعلامة من علامات الاعراب مثلا : ففي الألمانية الفصحى القديمة كانت الأفعال الضعيفة التي من قبيل habēn و lobon وغيرها وتشتمل على ميم مع ضمير المتكلم المفرد في الزمن الحاضر كما في habēm و lobōm . ويرجع أصل هذه الميم الى بعض الأفعال الشبيهة بالأفعال اليونانية التي تنتهي بـ -m- كنحو bim و stām و gēm و tuom . وهي أفعال فرضت بمفردها هذه العلامة الاعرابية على جميع حالات تصريف الأفعال الضعيفة . ولنلاحظ في هذا الصدد أن القياس لم يطمس آثار تنوع صوتي موجود ولكنه عمم ضربا من ضروب الصياغة .

الفصل الثاني : الظواهر القياسية ليست بتغيرات

لم يفهم الألسنيون الأوائل طبيعة ظاهرة القياس وكانوا يطلقون عليه اسم « قياس الخطإ » . فقد كانوا يعتقدون أن أولئك الذين استحدثوا honor في اللغة اللّاتينية قد أخطأوا في حق النموذج الأصلي honos . فكل صيغة تخرج عن النظام

القائم هي في نظرهم شذوذ وانتهاك لحرمة صيغة مثلى، وذلك أنهم لما كانوا متأثرين بوهم كان من أبرز خصائص عصرهم اعتبروا الحالة الأصلية للغة حالة راقية مثلى من دون أن يتساءلوا حتى عن امكانية أن تكون سبقت بحالة أخرى . فعدّوا كلّ تَنصُّلٍ منها شذوذا. والذي أنزل القياس منزلته اللائقة به للمرة الأولى انما هي مدرسة النحويين الجدد . فقد بينت أن القياس ، إلى جانب التغيرات الصوتية ، هو العامل الكبير المتسبب في تطور اللغات والعملية التي تنتقل بها اللغات من حالة
22 انتظام معين الى أخرى . /

لكن ترى ما هي طبيعة الظواهر القياسية ؟ وهل هي من قبيل التغيرات كما هو الرأي الشائع ؟

ان كل ظاهرة قياسية هي مسرحية ذات ثلاثة أشخاص :

1) المثال المنقول الشرعي الموروث (مثل honōs) .
2) المنافس (مثل honor) .
3) شخصية جماعية تتكون من مجموع الصيغ التي نشأ عنها ذلك المنافس وهي honorem و orator و oratorem الخ) . والغالب أنّهم يميلون الى اعتبار honor تحويرا . وصورة أخرى (métaplasme) من صور honōs لأنه انما استقي أكبر جزء من مادة honor والحال أن الصيغة الوحيدة التي ليس لها أي دخل في توليد كلمة honor هي honōs بالذات .

ويمكننا أن نمثل هذه الظاهرة بالترسيمة التالية :

الصيغ المنقولة		الصيغة الجديدة
honōs (ولا تدخل في الحساب)	honōrem orator, ōrātorem الخ (وهي المجموعة المولِّدَة)	honor

قد رأينا أن الأمر يتعلق بما يسمى paraplasme أي باحلال منافس الى جانب صيغة تقليدية أي إن القضية في النهاية قضية إبداع . ففي حين أن التغير الصوتي لا يُحدث صيغة جديدة إلّا وقد ألغى الصيغة السابقة لها (كما ألغت

honōsem honōrem وعوضتها) فان الصيغة الجديدة المتولدة عن القياس لا تؤدي بالضرورة الى زوال أختها السابقة لها . فان honor و honōs قد تعايشتا زمنا وأمكن للناس استعمال هذه أو تلك على حدّ سواء . بيد أنه لما كانت اللغة تكره الابقاء على دالين اثنين لمدلول واحد فان الصيغة الأصلية ، وهي أقلهما انتظاما ، تسقط في الأغلب من الاستعمال وتزول-وهذه النتيجة بالذات هي التي توهمنا بوجود تحول . ومتى اكتمل عمل القياس بدت لنا الحالة القديمة (أي honōrem : honōs) والحالة الجديدة honōrem : honor متقابلتين في الظاهر تقابل حالتين ناتجتين عن التطور الصوتي . على أنه لم يتغير شيء عندما نشأت كلمة honor/لأنها لم تحل محل أية كلمة أخرى . تماما كما أن زوال honōs ليس تغيرا لأن 225
هذه الظاهرة مستقلة عن الأولى . ففي جميع الحالات التي يمكن أن نساير فيها مجرى الأحداث اللغوية ، نلاحظ أن الابتداع اللغوي الناشيء عن القياس والغاء الصيغة القديمة أمران متمايزان واننا لا نظفر البتة في أية حالة من الحالات بتحول صوتي .

ان تعويض صيغة قديمة بصيغة جديدة من أقل ما يختص به القياس . وقد بلغ في ذلك مبلغا جعله كثيرا ما يحدث صيغا لا تعوض شيئا سبقها البتة . ففي الألمانية مثلا يمكننا أن نشتق صيغة تصغير تنتهي بـ chen - من أي اسم يدل على معنى محسوس . فلو افترضنا أن صيغة من قبيل Elefantchen دخلت في اللغة فانها لن تحلّ محل أية صيغة سابقة لها . وكذلك الأمر في الفرنسية اذ يمكن لأيّ كان أن يقيس على منوال pension : pensionnaire و réaction : réactionnaire الخ كلمة interventionnaire أي«من دعاة التدخل»أو répressionnaire أي « من دعاة القمع » . وهذه هي بطبيعة الحال نفس العملية التي نتجت عنها كما رأينا منذ حين كلمة honor . ذلك أن كليهما يعيدك الى الصيغة التالية بعينها :

répression : réactionnaire = réaction : س

répressionnaire = س

وليس يوجد في هذه الحالة أو في تلك أي داع للقول بوجود تغير فان répressionnaire لا تعوض شيئا . واليك مثالا آخر . فأنت تسمعهم يستعملون قياسا كلمة finaux بدلا من finals — وهي الصيغة التي تعتبر أكثر اطرادا ، هذا

من جهة ، لكن ترى لو أن أحدهم صاغ صفة هي firmamental وجعل صيغة الجمع منها firmamentaux فهل سيذهبون الى أن ما حدث لـ finaux هو مجرد تغيّر وأن ما حدث لـ firmamentaux هو خلق وابداع ؟ نحن نقول بأن في الحالتين المذكورتين ابداعا . ولقد قاسوا على : mur emmurer قولهم tour و entourer و jour و ajourer : (كما في قولهم «un travail ajouré» أي : « عمل قد أجل ليوم الغد») . ان هذه المشتقات الحديثة نسبيا تبدو لنا مبتكرات لغوية لكن هل يلزمني إن أنا لاحظت أنّ اللغة كانت تشتمل في عصر سابق على entorner و ajorner ، وهما كلمتان مشتقتان من torn و jorn ، أن أغير رأيي/فأقول ان entourer و ajourer صيغتان محورتان ناتجتان عن تغير تينك الكلمتين الأقدم ؟ هكذا نستنتج أن وهم التغير المتولد عن القياس متأت من أنهم يقيمون صلة بين كلمة قديمة تكون الجديدة قد ازاحتها . والذي يدل على أن هذا خطأ أن صوغ الكلمات الذي ينعت بأنه تغيرات من قبيل honor انما هو من نفس طبيعة تلك العمليات التي نعتناها بأنها خلق وابداع (من قبيل répressionnaire) .

22

الفصل الثالث : القياس مبدأ من مبادىء الخلق والإبداع في اللغة

لقد سبق أن عرّفنا القياس تعريفا سلبيا أي بما ليس هو . فان نحن بعد هذا درسناه دراسة ايجابية اتضح لنا على الفور أن المبدأ الذي يقوم عليه القياس لا يعدو أن يكون نفس المبدإ الذي يقوم عليه الابتكار في اللغة بصفة عامة . فما عسى أن يكون ذلك المبدأ ؟

ان القياس من باب الظواهر النفسية ، ولكنّ هذا القول غير كاف لتمييزه من الظواهر الصوتية لأن هذه الظواهر نفسها يمكن اعتبارها هي الأخرى ظواهر نفسية (انظر ص 229) فينبغي أن نتجاوز ذلك فنقول ان القياس من نوع الظواهر النحوية لأنه يقتضي منّا وعيا وادراكا لوجود علاقة تجمع الصيغ فيما بينها . وفي حين ليس للمعنى أي دور في الظاهرة الصوتية فان دوره في القياس شرط ضروري .

واذا اعتبرنا تحول السين الواقعة بين حركتين الى راء في اللغة اللّاتينية (كما في honōsem ← honōrem) وجدنا أن لا دخل فيه لمعنى الكلمة ولا للمقارنة بينها وبين صيغ أخرى . فالأمر لا يعدو تحول جثة honōsem الى honōrem .وعلى العكس من ذلك اذا أردنا أن نفسر ظهور honor بإزاء honōs فانه يتعين علينا أن نلتجئ الى صيغ أخرى كما تبينه الرابعة المناسبة :

س : honorem = ōrātor : ōrātorem

honor = س

وهذه التوليفة لم تكن لتوجد لولا أن الذهن يربط بين الصيغ التي تكونها ربطا أساسه معنى هذه الصيغ .

227

وهكذا فكل ما يتعلق بالقياس ذو طبيعة نحوية . لكن ينبغي أن نضيف/على الفور أن الخلق والابتكار — وهو الغاية التي اليها ينتهي القياس — لا يمكن أن يكون إلّا تابعا للفظ في بداية الأمر . فهو عمل عَرَضيّ يقوم به متكلم واحد منعزل . فاذا أردنا أن نظفر بهذه الظاهرة فعلينا أن نطلبها أولا وبالذات في مجال اللفظ هذا وخارج نطاق اللغة ، على أنه ينبغي أن نميز بين أمرين اثنين : أولهما هو تفهم العلاقة التي تربط بين الصيغ المولدة فيما بينها . وثانيهما هو النتيجة التي توحي بها المقارنة أي الصيغة التي يرتجلها المتكلم للتعبير عن أفكاره . وتلك النتيجة فقط هي التي تدخل في باب اللفظ .

واذن فالقياس يعلمنا مرة أخرى كيف انه ينبغي أن نميز بين اللغة واللفظ (انظر ص 40 وما بعدها) . فهو يبين لنا أن اللفظ تابع للغة ويجعلنا نلمس عمل الآلية اللغوية كما وصفناها (ص 195) . فكل ابداع لغوي يجب أن يكون مسبوقا بالقيام بمقارنة لا شعورية بين المواد المودعة في كنز اللغة ، حيث الصيغ المولّدة منضدة بحسب علاقاتها السياقية والترابطية .

وهكذا فان قسما لا يستهان به من هذه الظاهرة يتم قبل أن تبرز الصيغة اللغوية الجديدة إلى الوجود وان الكلام — من حيث هو نشاط متواصل متمثل في تحليل الوحدات المتوفرة — عمل لا يحتوي في ذاته على جميع الامكانيات الموافقة للاستعمال الشائع في لغة معينة فقط بل وكذلك على جميع امكانيات الصياغات

القياسية . فمن الخطإ اذن الاعتقادُ أن عملية التوليد لا تحدث إلّا عند بروز الكلمة المبتكرة بالضبط . ذلك أن عناصر هذه العملية موجودة سلفا . فلو أني مثلا استحدثت كلمة من قبيل in-décor-able فان هذه الكلمة موجودة بالقوة في اللغة سلفا . فانت تجد جميع عناصرها في سياقات من قبيل décor-er و pardonn-able : décoration و mani-able و in-connu و in-sensé وهلم جرا. فانجازها بالفعل في اللفظ لا وزن له اذا قيس بامكانية صياغتها ..

والخلاصة أن القياس اذا نظرنا فيه في ذاته ليس سوى وجه من وجوه ظاهرة التأويل وصورة يتجلى فيها ذلك النشاط اللغوي العام الذي به نميز بين الوحدات قصد استعمالها/فيما بعد ولذلك نقول بأن القياس بتمامه وكماله ظاهرة نحوية آنية. 228

ويُوحي لنا هذا الطابع الذي يتسم به القياس بملاحظتين تدعمان ما ذهبنا اليه بشأن الاعتباط المطلق والاعتباط النسبي (انظر ص 197) .

1) لعله يمكننا أن نرتب الكلمات حسب قدرتها النسبية على توليد كلمات أخرى وذلك حسب مدى قابليتها للتحليل ان قليلا وان كثيرا . فالكلمات البسيطة هي بحكم تعريفنا اياها بالذات غير مولّدة (انظر مثلا magasin و arbre و racine الخ) فكلمة Magasinier لم تولّدها magasin بل هي قد صيغت على منوال prisonnier : prison وغيرها . وكذلك الشأن بالنسبة الى emmagasiner فوجودها رهين حملها على emmailloter و encadrer و encapuchonner الخ ، التي تحتوي على التوالي على maillot و cadre و capuchon الخ .

واذن فان في كل لغة من اللغات كلمات مولدة وأخرى غير مولّدة ولكن نسبة هذه الكلمات تختلف من لغة الى أخرى . وهذا يوافق اجمالا ذلك التمييز الذي قمنا به (انظر ص 200) بين اللغات « المعجمية » واللغات « النحوية » .

ففي اللغات الصينية مثلا ترى أن جلّ الكلمات غير قابلة للتحليل . والأمر على العكس من ذلك في لغة من اللغات الاصطناعية حيث جميع الكلمات تقريبا قابلة للتفكيك . فالمتكلم بلغة « الاسبرنتو » مثلا حر في أن ينطلق من جذر معلوم فيصوغ منه كلمات جديدة حرية مطلقة .

2) قد سبق أن لاحظنا ص 244 أن كل عملية ابتكار قائمة على القياس يمكن أن نقدمها في شكل معادلة مماثلة لحساب الرابعة المناسبة . فغالبا ما تراهم يستعملون هذه المعادلة لتفسير الظاهرة نفسها . أما نحن فقد بحثنا عن علة وجودها من خلال تحليلنا واعادة تركيبنا لعناصر وفرّتها لنا اللغة .

وبين هذين التصورين للقضية تضارب . فاذا كان الالتجاء الى الرابعة المناسبة تفسيرا كافيا فما جدوى افتراض نظرية تقوم على تحليل للعناصر ؟ فالذي يريد أن يصوغ indécorable ليس في حاجة البتة الى أن يستخلص منها عناصرها (in-décor-able)/فحسبه أن يأخذ مجموع الكلمة وأن يضعها في المعادلة التالية : 229

س : décorer = الخ impardonnable : pardonner

س = indécorable

وعلى هذا النحو فاننا نعتقد أن لجوء المتكلم العادي الى عملية معقدة في مستوى ذلك التحليل الواعي الذي يقوم به النحاة في حالة صياغة Kränze : Kranz حملا على Gäste : Gast أمر يبدو أقلّ احتمالا من اللجوء الى الرابعة المناسبة . وذلك لأن أصل المنوال هو تارة Gast- وطورا Gäst . ولعل الأمر لا يعدو أن يكون أنهم نقلوا خاصيّة صوتية تابعة لـ Gäst فأسندوها الى Kranze .

فأي هذين التصوّرين هو الذي يطابق الواقع ؟ لنلاحظ أولا أن المثال المتعلق بـ Kranz لا ينفي بالضرورة اعتماد التحليل . فقد لاحظنا وجود تناوبات تطرأ على الأصول وعلى السوابق (انظر ص 238) ولكن الشعور بوجود تناوب يمكن أن يوجد في نفس الوقت بإزاء التحليل الفعلي .

وينعكس هذان التصوران المتقابلان في مذهبين نحويين مختلفين : أما كتب النحو الأوروبية فتقوم على مبدإ حساب الرابعة المناسبة . فتراهم يفسرون فيها طريقة صياغة الماضي في الألمانية مثلا انطلاقا من كلمات تامة فيطلبون من تلاميذهم مثلا أن يصوغوا الماضي من lachen على منوال setzen : setzte . وبعكس ذلك لو تعرضت كتب النحو الهندية لهذه المسألة لخصصت فصلا لدراسة الجذور مثل setz و lach - الخ) وفصلا آخر لدراسة اللواحق الدّالة على الماضي (أي te - الخ) . وبذلك تقدم لهم العناصر الناتجة عن التحليل ويكون عليهم آنذاك أن

يعيدوا بناء الكلمات التامة . ولذلك تُرتّب الأفعال في جميع القواميس السنسكريتية ترتيبا قائما على ما تقتضيه جذورها .

ويميل منظّرو النحو الى أحد المذهبين المذكورين دون الآخر حسب النزعة الغالبة في صلب كل مجموعة لغوية .

وكأننا باللّاتينية القديمة تبجل المنهج التحليلي . ومن الأمثلة الدالة على ذلك أن الفتحة/قصيرة في făctus وطويلة في āctus رغم أنّ لها نفس الكمية الصوتية في făcio و ăgō . ولذلك ينبغي لنا أن نفترض أن āctus متولدة عن ăgtos * وأن نعزو تطويل الحركة للصوت المجهور الذي يليها . ويدعم هذا الافتراض كل التدعيم ما نجده في اللغات الرّومنيّة . فالمقابلة بين spĕctus : spĕciō من جهة وبين tĕctus : tĕgō من جهة أخرى تنعكس في الفرنسية في قولنا dépit (من despĕctus) و toit (من tēctum) انظر كذلك confĕctus : confĭciō (وهي في الفرنسية confit) هذا من جهة ، ومن جهة أخرى rēctus : rĕgō (من dīrēctus) وقد آلت في الفرنسية الى droit) أما agtos * و tegtos * و regtos * فهي ليست موروثة عن الهندية الاوروبية التي من المتيقن أنه كان يوجد فيها ăktos * و tĕktos * الخ وانما أدخلتها لاتينية ما قبل التاريخ رغم ما في النطق بالصوت المجهور بعد الصوت المهموس من صعوبة . ولم يتسن لها ذلك إلّا عندما أدرك أصحابها تمام الادراك وجود وحدات أصول هي -ag و-teg و-reg فقد كان لمتكلمي اللّاتينية القديمة شعور قوي جدا بالأجزاء التي منها تتكون الكلمة أي بالأصول واللواحق وبكيفية نظمها . ومن الراجح أننا لا نجد ذلك الشعور عند من يتكلمون اللغات الأوروبية الحديثة على نفس تلك الدرجة من القوة وان كان عند الألمان أقوى منه عند الفرنسيين انظر(ص 280) .

الباب الخامس
القياس والتطور

الفصل الأول : كيف يدخل اللغة مبتكر من المبتكرات القياسية

لا يدخل في اللغة شيء ما لم يجرب في اللفظ . فجميع الظواهر التطورية انما أصلها نطاق الفرد . وهذا المبدأ الذي سبق أن ذكرناه ص 138 ينطبق بصورة أخص على الابتكارات القياسية . فقبل أن تصبح honor منافسا من شأنه أن يعوض honōs كان لا بد من وجود متكلم أول يرتجلها ثم أن يأتي بعده آخرون يحاكونه ويعيدون حتى تفرض تلك الكلمة نفسها في الاستعمال . لكن قل وندر أن يكتب لجميع المبتكرات القياسية مثل هذا الحظ . فنحن نصادف في كل آونة توليفات لغوية لا مستقبل لها والراجح أن اللغة لن تتبناها أبدا . وكلام الأطفال (7) زاخر بذلك لأنهم لا يتقنون تماما قواعد الاستعمال وما زالوا غير خاضعين لسلطانه فتراهم يقولون viendre بدلا من venir و mouru بدلا من mort وهلم جرا . إلّا أن كلام الراشدين لا يخلو هو أيضا من مثل ذلك فترى عددا كبيرا منهم يستبدلون il trayait بـ traisait (ونحن نجده حتى عند « روسو ») . وجميع هذه الابتكارات في ذاتها منتظمة وقياسية تماما ويمكن تفسيرها بنفس الطريقة التي نفسر بها المبتكرات التي تبنتها اللغة . من ذلك أن viendre تقوم على المعادلة التالية :/

س : viendrai = éteindre : éteindrai

viendre = س

أما traisait فقد حملوها على plaire : plaisait الخ .

فاللغة لا تحتفظ إلّا بقسط ضئيل جدا من المبتكرات الناجمة عن اللفظ لكن ما يبقى من تلك المبتكرات هو من الكثرة ما يجعلنا نشاهد من عهد الى آخر كيف أن مجموع الصيغ الجديدة يضفي على معجم اللغة ونحوها صورة مغايرة جدا لما كانت عليه .

وكامل الفصل السابق يبين بوضوح وجلاء كيف أن القياس بمفرده لا يمكنه أن يكون عاملا من عوامل التطور. إلّا أن هذا لا ينفي أن تلك العملية التي تحدث باستمرار والمتمثلة في تعويض صيغ قديمة بأخرى جديدة هو مظهر من أبرز مظاهر تغيّر اللغات . فكلما وجدنا أن ابتكارا ما قد استقر في اللغة استقرارا نهائيا وقضى على منافسه حق لنا أن نقول بأن شيئا ما قد نشأ وأن شيئا آخر قد أهمل وبهذا الوجه فان القياس يحتل منزلة مرموقة في صلب نظرية التطور وتلك هي النقطة التي نريد أن نؤكد عليها .

الفصل الثاني : المبتكرات القياسية من أعراض التغيرات في التأويل

ان اللغة لا تنفك عن تأويل الوحدات المتوفرة فيها وعن تحليلها . لكن ترى ما الذي يجعل ذلك التأويل يختلف دوما من جيل الى جيل ؟

ينبغي أن نبحث عن علة ذلك الاختلاف في خضم ذلك العدد الهائل من العوامل التي تهدد كيان التحليل المتفق عليه بالنسبة الى حالة لغوية ما . ولنذكّر ببعضها .

وأول هذه العوامل وأهمها هو التغير الصوتي (انظر الفصل الثاني) فهو اذ يجعل بعض تحليلاتنا مشتبهة وبعضها مستحيلة ، يغير الظروف والملابسات التي تحفّ بعملية التحليل مغيّرا بالتالي نتائجها . وتكون نتيجة ذلك تحول حدود الوحدات وتغيّر طبيعتها . انظر في هذا المضمار ما قلناه آنفا ص 215 بشأن الكلمات المركبة التي من قبيل beta-hûs و redo-lîch وص 234 بشأن اعراب الاسم في الهندية الاوروبية . / 233

إلّا أن الامر لا ينحصر في التغير الصوتي وحده اذ هنالك أيضا ظاهرة

الالصاق وسبقناولها أسفله . ومن شأنها أنها تجعل توليفة تتكون من مجموعة من العناصر وحدة واحدة . وهنالك أيضا أنواع شتى من الظروف الخارجية التي تحف بالكلمة ولكنها حَريّة أن تغير من تحليلنا لها . وفعلا فلما كان التحليل نتيجة لمجموعة من المقارنات فمن البديهي أنه في كل آونة رهين الجوار الترابطي . وهكذا فان صيغة التفضيل المطلق الهندية الاوروبية من كلمة swād-is-to-s * كانت تشتمل على لاحقتين مستقلتين هما is- التي تعبر عن معنى المقارنة (كما في كلمة mag-is اللّاتينية) و -to- وكانت تدل على الرتبة في سلسلة ما (انظر trí-to-s في اليونانية ومعناها « الثالث ») وقد التصقت هاتان الزائدتان (كما في قولهم في اليونانية hēd-isto-s أو على الأصح hēd-ist-os) إلّا أن الالصاق هو الاخر قد ساعد على حدوثه عامل خارج عن صيغة التفضيل مساعدة كبيرة وذلك أن صيغ التفضيل الدالة على المقارنة التي تشتمل على -is سقطت من الاستعمال وعوضتها صيغ تنتهي بـ -jos . واذا لم يعد الناس يدركون أن -is عنصر قائم بذاته فانهم كفوا عن تمييزه من -isto-.ولنلاحظ عرضا أنه توجد نزعة عامة للتنقيص مادة الأصل لفائدة العناصر الصياغية خاصة اذا كان الاصل ينتهي بحركة. من ذلك أن اللاحقة - tāt - (من vēri-tāt-em وأصلها -o-tāt-em كذلك deinó-tēt-a في اليونانية) قد استحوذ على الكسرة التابعة للأصل فأصبحوا يحللون الكلمة الى vēr-itāt-em . وكذلك Rōmā-nus و Albā-nus إذ تحلّل إلى Rōm-ānus و Alb-anus (راجع في ذلك aēnus بدلاً من aesno-s *) .

إلّا أنه ، مهما يكن أصل تلك التغيّرات في التأويل فانها تتجلى دوما بظهور صيغ قياسية . وفعلا فلئن كانت الوحدات المستعملة التي يشعر بها المتكلّمون في وقت ما قادرة بمفردها على توليد صيغ قياسية فمعكوس ذلك صحيح اذ أن كل توزيع معين للعناصر يقتضي امكان توسيع مجال استعماله . فالقياس اذن هو الحجة القاطعة على أن عنصرا من العناصر الصياغية موجود في وقت ما في صورة وحدة معنوية . فكلمة Merīdiōnālis (كما جاءت عند Lactance 8) بدلا من merīdiālis تدل على أنهم كانوا يفككون الكلمتين التاليتين هكذا septentri-ōnālis/و regi-ōnālis . ولكي نبين أن اللاحقة tāt - قد تضخمت 234 اذ أخذت عنصرا من عناصر الأصل هو الكسرة فحسبنا أن نستعمل دليلا على ذلك كلمة celer-itātem أما كلمة pāg-ānus المحمولة على pāg-us فانها تقوم

شاهدا كافيا على أن اللاتينيين كانوا يحللون كلمة Rōmānus الى Rōm-ānus . أما تفكيكهم لـ redlich (انظر ص 215) فيُدَعِّمُهُ وجود كلمة sterblich وقد صيغت الاخيرة انطلاقا من جذر فعلي . الخ .

واليك مثالا على جانب كبير من الطرافة يبين كيف أن عمل القياس يجري من عصر الى عصر على وحدات جديدة . ففي الفرنسية الحديثة مثلا ترى النّاس يحللون كلمة somnolent هكذا somnol-ent كما لو كانت صفة على وزن اسم الفاعل وشاهدهم على ذلك أنه يوجد فعل هو somnoler . أما في اللّاتينية فانهم يقطعون somnolentus الى somno و lentus على غرار succu-lentus الخ . وفي عهد أسبق كنت تراهم يقطعونها هكذا : somn-olentus (أي حرفيا « الذي تشتم منه رائحة النوم» من olère حملا على vin-olentus أي « الذي تشتم منه رائحة الخمر ») .

هكذا فان أبرز أثر من تأثيرات القياس وأهمها انه يستبدل صيغا قديمة شاذة آيلة الى السقوط بأخرى أشد اطرادا متألفة من عناصر يجري بها الاستعمال .

ولا شك أن الامور لا تحدث دوما على مثل هذه الدرجة من البساطة . فمجال عمل اللغة يخترقه عدد لا يحصى من حالات التردد والتقريبات والتحليل المنقوص . فاللسان لا يشتمل في أية فترة من فترات حياته على نظام من الوحدات ثابت تمام الثبوت . ولنذكر في هذا الشأن ما قلناه آنفا ص 234 بشأن اعراب * ekwos بازاء اعراب * pods . ان هذه التحليلات المنقوصة قد تتسبب أحيانا في احداث صيغ قياسية مضطربة . من ذلك أنه يمكننا أن نستخلص من صيغ * geus-etai و * gus-tos و * gus-tis الهندية الاوروبية جذرا مشتركا هو geus- أو gus بمعنى « ذاق » . لكن لمّا كانت السين في اليونانية اذا وقعت بين حركتين سقطت فان ذلك يدخل على تحليلنا لـ geúomai و geustós شيئا من الاضطراب فينتج عن ذلك بعض التردد فيكون الجذر المستخلص تارة geus- وطورا geu- . والقياس هو الآخر شاهد على هذا التردد بل اننا نجد جذورا آخرها eu- تنتهي بحرف السين (من ذلك pneu- و pneûma والصفة المشتقة من الفعل pneus-tós .

لكن بالرغم من هذا التذبذب فان القياس يعمل عمله في اللغة . وهكذا لئن

لم يكن القياس في حدّ ذاته/ظاهر تطو ية ، نه يعكس من حين لآخر التغيرات التي تطرأ على ما يقوم عليه نظام اللغة من اقتصاد ويقرّها في الاستعمال بواسطة توليفات جديدة . فالقياس يساعد جميع القوى التي تحوّر على الدوام بنية لسان من الألسن مساعدة فعالة . وهو بهذه الصفة عامل قوي من عوامل التطور .

الفصل الثالث : القياس من حيث هو مبدأ من مبادئ التجديد

قد يميل المرء أحيانا الى التساؤل عما اذا كان للقياس حقا مثل تلك الأهمية التي يوحي بها ما قدمنا من بسط وتحليل وعمّا اذا كان مجال عمله يمتد بقدر امتداد مجال عمل التغيرات الصوتية . الواقع أنه يمكننا أن نلاحظ أن تاريخ كل لغة يزخر بظواهر قياسية متراكمة وأن مثل هذه التحويرات المستمرة ، ان اعتبرناها في مجموعها ، تلعب دورا عظيما جدا في تطور اللغة بل دورا أعظم حتى من الدور الذي تلعبه التغيرات الصوتية نفسها .

ولكن ثمة شيء معين يهم الألسني بصفة خاصة هو التالي : ففي خضمّ ذلك العدد الجمّ من الظواهر القياسية التي تمثلها بضعة قرون من التطور تبقى جميع العناصر تقريبا أكثر مما هي ابتكارات حقيقيّة وان اللغة لكالجبّة المرقّعة برقع من نفس قماشها . فاذا اعتبرنا المادة التي تتكون منها الجمل في اللغة الفرنسية لاحظنا أن أربعة أخماسها من أصل هندي — أوروبي .

أما الكلمات التي تنوقلت برمتها من دون أي تغيّر قائم على القياس انطلاقا من اللغة الأولى حتى اللغة الفرنسية الحديثة فقد لا يشغل أكثر من صفحة واحدة (انظر مثلا est = esti * وأسماء الأعداد وبعض الألفاظ من قبيل ours و nez و père و chien وهلم جرا) أما الأغلبية الغالبة فهي بوجه أو بآخر توليفات جديدة بين عناصر صوتية انتزعت من صيغ أقدم منها وبهذا المعنى يمكن أن نقول ان القياس/عملية محافظة جدّا وذلك بالذات لأنه يستخدم المادة القديمة في سبيل ما ينتج عنه من ابتكارات لغوية .

إلّا أن عمل القياس ليس أقل شأوا من حيث هو عامل من عوامل المحافظة

مطلقا اذ أنه يمكن القول ان القياس يؤدي عمله ليس عند توزيع مواد لغوية موجودة سلفا على وحدات جديدة فحسب بل وكذلك عند بقاء الصيغ كما هي بدون تغيّر . وفي كلتا الحالتين فالعملية الذّهنية عملية واحدة . وحسب من يبتغي ادراك ذلك أن يتذكر أن المبدأ الذي يقوم عليه القياس هو نفس المبدإ الذي تقوم عليه إوالية الكلام (انظر ص 248) .

فقد تنوقلت الكلمة اللاتينية agunt كما هي تقريبا منذ عصور ما قبل التاريخ (وكانت صورتها آنذاك agonti *) وذلك حتى قبيل العهد الرّومَنيّ . فتداولتها الأجيال المتعاقبة خلال تلك الحقبة بدون أن تحل محلها أيّة صيغة أخرى منافسة لها أفليس للقياس بعض التدخل في مثل هذا الثبوت ؟ بلى ، بل ان سلامة كلمة agunt وثبوتها على حالها ناتجان عن عمل القياس شأنهما في ذلك تماما شأن أي ابتكار من الابتكارات . ذلك أن كلمة agunt منضوية في صلب نظام يحيط بها وهي متضامنة مع صيغ أخرى من قبيل dīcunt و legunt وهلم جرا ... وبأخرى من قبيل agimus و agitis الخ ولولا ذلك التضامن والجوار لتم تعويض agunt على الأرجح بصيغة أخرى مكونة من عناصر جديدة . فالذي تنوقل اذن انما هو ag-unt وليس agunt . وإن لم تتغير هذه الصيغة فذلك لأن ag- و unt كانتا تتواردان بانتظام ضمن سلاسل أخرى من الكلمات . وتلك الطائفة من الكلمات المشتركة من حيث صياغتها هي التي حافظت على سلامة agunt على مرّ الزمان . ولك أن تقارن ذلك أيضا بـ sex-tus وهي تستند الى وجود سلاسل من الصيغ متماسكة هي sex و sex-āginta الخ من جهة و quar-tus و quin-tus إلخ من جهة أخرى .

وهكذا فان الصيغ تثبت وتدوم لأن الناس يجددون صياغتها باستعمال القياس فهم يعتبرون الكلمة وحدة مفردة ومركبا لفظيّا في آن . فتثبت كما هي ما دامت عناصرها لا تتغير . وبعكس ذلك فان وجودها لا يكون مهددا إلّا بقدر ما تكون عناصرها عرضة للخروج من الاستعمال . ويدلك على ذلك ما يجري في اللغة الفرنسية في نحو قولهم dites و faites الموافقتين مباشرة لـ dic-itis و fac-itis اللاتينيتين اللتين لم يعد لهما أي مستند في تصريف الفعل الفرنسي في الوقت الراهن ولذلك فان اللغة تحاول تعويضهما كما في قول بعضهم : disez و faisez

237

على منوال plaisez و lisez الخ . وقد أصبحت مثل هذه اللّواحق دارجة في الاستعمال في معظم الأفعال المركبة (مثل contredisez الخ) .

أما الصيغ الوحيدة التي ليس للقياس عليها من سلطان فهي بطبيعة الحال تلك الكلمات المنعزلة التي من قبيل أسماء الاعلام وخاصة أسماء المواضع (مثل Paris و Genève و Agen الخ) فهي لا تقبل أي تحليل وبالتالي لا تقبل أي تأويل للعناصر التي تكونها وبذلك فلا تنشأ بازائها أية صيغة أخرى منافسة لها .

وهكذا فان ثبوت صيغة من الصيغ يمكن أن يكون رهين عاملين متناقضين تمام التناقض هما اما عزلتها التامة أو انضواؤها التام ضمن نظام ما ، بقيت عناصره الأصلية على حالها فيتمكن بذلك من أن يساعدها على الثبوت كما هي . والمجال الذي يمكن فيه للقياس أن يقوم بعمله المجدد المبتكر لكلمات جديدة انما هو ذلك المجال الوسط المتكون من صيغ يدعمها جوارها تدعيما كافيا .

لكن سواء تعلق الأمر بالمحافظة على صيغة تتركب من عناصر عديدة أو باعادة توزيع للمادة اللغوية على صياغات جديدة فان للقياس دورا عظيما . فانت تصادف عمله في كل مكان ./

الباب السادس
ايتيمولوجيا العامة

قد يتفق لنا أن نحرف الكلمات التي صيغتها ومعناها غير مألوفين لدينا كثيرا وقد يقر الاستعمال هذه التحريفات في بعض الأحايين . من ذلك أن كلمة coute-pointe من الفرنسية القديمة متكونة من coute وهي بديل من couette ومعناها « غطاء » ومن pointe وهي اسم المفعول من poindre بمعنى « نخس » . فقد انقلبت الى courte-pointe كما لو كانت كلمة مركبة من الصفة court ومن الاسم pointe . ان هذه الابتداعات مهما تكن غرابتها لا تحدث بمحض الصدفة وكيفما اتفق وانما هي محاولات لتفسير كلمة من الكلمات المحرجة تفسيرا تقريبيا بالحاقها بشيء معلوم .

لقد أطلق بعضهم على هذه الظاهرة اسم ايتيميولوجيا العامة أي اشتقاق العامة . والذي ينظر اليها لأول وهلة قلّما يميزها عن القياس. فاذا ما نسي المتكلم أنه توجد كلمة هي surdité فصاغ بواسطة القياس كلمة أخرى هي sourdité فالنتيجة هي تماما كما لو أنه لم يدرك كلمة surdité كما ينبغي فحورها لأنه تذكر النعت sourd . وهكذا فان الفرق الوحيد سيتمثل في أن الصياغات التي تبنى بواسطة القياس صياغات منطقية بينما تعمل ايتيمولوجيا العامة عملها نوعا ما كما اتفق ولا تفضي إلّا الى نتائج عشوائية .

واذ كان هذا الفارق لا يتعلق إلّا بالنتائج فهو ليس فارقا جوهريا . أما

اختلافهما في الجوهر فهو أعظم من ذلك بكثير . واذا أردنا أن ندرك فيم يتمثل ذلك الاختلاف وجب أن نبتدىء بتقديم بعض الأمثلة عن أهم أنواع ايتيمولوجيا العامة ./ 239

فثمة أولا حالة تؤوّل فيها الكلمة تأويلا جديدا من دون أن يتغير لها شكل . فكلمة durchbläuen في الالمانية مثلا ومعناها « أشبعه ضربا » قد اشتقت من bliuwan بمعنى « ساط » أو « جلد » ولكن الناس يلحقونها بـ blau أي « أزرق » بسبب الآثار الزرقاء التي يخلفها الضرب . وفي العصور الوسطى اقتبست الألمانية عن الفرنسية كلمة aventure أي مغامرة وصيّرتها أولا âbentüre ثم Abenteuer فأنت تراهم قد قرنوها ذهنيا بكلمة Abend (ومعناها حديث السمر) وذلك بدون أن يغيروا شكل الكلمة الى حدّ أنهم صاروا في القرن الثامن عشر يكتبونها Abendteuer . أما كلمة soufraite في الفرنسية القديمة ومعناها « الحرمان » (وهي من الكلمة اللاتينية suffracta وأصلها subfrangere) فقد تولدت عنها صفة هي souffreteux أي ممراض . والناس يقرنون ذهنيا بينها وبين كلمة souffrir والحال أنها لا تمت اليها بأية صلة . أما كلمة Lais فهي مصدر فعل laisser إلّا أنهم أصبحوا الآن يعتبرونها مصدر الفعل léguer ويكتبونها legs وثمة حتى من ينطق بجميع حروف هذه الكلمة فيقول le-g-s وهو ما قد يوهم بأننا إزاء تغير في صيغة الكلمة ناتج عن التأويل الجديد لمعناها والحال أن الامر يتعلق بتأثير صورتها المكتوبة أرادوا به التعبير عن تصورهم لأصل الكلمة وذلك بدون تحوير لطريقة نطقهم بها . وعلى هذا النحو بالذات أصبحت الكلمة الفرنسية homard المقتسبة عن كلمة humarr من اللغة النوردية القديمة (راجع في ذلك hummer في اللغة الدانماركية) ترسم بدال في آخرها ، حملا لها على الكلمات الفرنسية التي تنتهي بـ -ard . إلّا أن ما وقعوا فيه من خطا في التأويل هاهنا — وقد بقي أثره في الكتابة — يتعلق بآخر الكلمة . فقد خلطوا بينها وبين لاحقة فرنسية شائعة في الاستعمال (كما في bavard وغيرها) .

ولكنك تراهم في أغلب الاحيان يغيرون صورة الكلمة حتى يوفقوا بينها وبين ما يتوهمون وجوده فيها من عناصر . وينطبق هذا بالذات على كلمة choucroute (وأصلها Sauerkraut) وكذلك على dromedârius في الألمانية : فقد

أصبحت Trampeltier « أي حرفيا « الحيوان الذي يرفس » . فالكلمة المركبة كلمة جديدة ولكنها تشتمل على كلمتين كانتا موجودتين بعد في اللغة وهما trampeln أي رفس و Tier أي حيوان . وكذلك الشأن بالنسبة الى الألمانية العليا القديمة فقد حُوّرت كلمة margarita اللّاتينية الأصل الى كلمة أخرى هي mari-greoz أي « حصاة البحر » وذلك بضم كلمتين معروفتين من قبل .

وفي الختام اليك حالة على جانب كبير من الفائدة . فقد آلت الكلمة اللّاتينية carbunculus أي « الفحمة الصغيرة » في الألمانية الى Karfunkel/لأنهم قرنوها بفعل funkeln ومعناه تلألأ) . أما في الفرنسية فقد قرنوا كلمة escarboucle بـ boucle كما جعلوا من calfeter و calfetrer كلمة أخرى هي calfeutrer بسبب تأثرهم بكلمة feutre . وما يستوقف انتباهك لأول وهلة في جميع هذه الأمثلة ، أن كلا منهما يشتمل بازاء عنصر ذي معنى موجود سلفا على عنصر آخر لا يمثل أي شيء قديم في اللغة (مثل -Kar و escar- و -cal . لكن قد يكون من الخطإ الاعتقاد أن في هذه العناصر نصيبا من الخلق والابداع أو شيئا ما انبثق في أثناء العملية بل العكس هو الصحيح . اذا الأمر يتعلق بعناصر لم يوفّقوا الى تأويلها أو بعبارة أخرى فهي من ايتميولوجيات العامة التي لم تبلغ من التحليل منتهاه . فكلمة Karfunkel وكلمة Abenteuer في ذلك سواء (ان نحن قبلنا بأن teuer هي بقية باقية ظلت بدون تفسير) وهي أيضا شبيهة بـ homard من حيث أن -hom ليس لها أي معنى .

240

وهكذا فان درجة التحريف لا تنشئ فروقا جوهرية بين الكلمات التي شوّهتها ايتيمولوجيا العامة وتتسم جميعها بأنها مجرد تأويلات لصيغ لم تفهم وذلك بالاعتماد على صيغ معروفة .

واذن فقد تبينت لك وجوه الشبه والاختلاف بين الايتيمولوجيا والقياس .

فالظاهرتان لا تشتركان إلّا في صفة واحدة . فنحن نستعمل في كلتا الحالتين عناصر ذات دلالة توفرها لنا اللغة . أما فيما عدا ذلك فهما على طرفي نقيض . فالقياس يقتضي دوما نسيانك للصيغة القديمة ، وليس ثمة عند أصل نشأة الصيغة القياسية il traisait (انظر ص 253) أي تحليل للصيغة القديمة il trayait . بل إن نسيان الصيغة القديمة أمر ضروري لظهور الصيغة المنافسة لها . فالقياس لا

يستمد شيئا من مادة الدلائل التي يقوم بتعويضها . أما ايتيمولوجيا العامة فهي — بخلاف ذلك — تنحصر في كونها تأويلا للصيغة القديمة . فتذكرهم لهذه الصيغة ، وان داخله الاضطراب ، هو السبب الأصلي في تحريفهم اياها . وهكذا فالأساس الذي يقوم عليه التحليل هو التذكر في حالة والنسيان/في الحالة الاخرى . وهذا الاختلاف اختلاف جوهري .

241

واذن فايتيمولوجيا العامة لا تعمل عملها إلّا في ظروف خاصة ولا تتعلق إلّا بتلك الكلمات النادرة أو الفنية أو الاجنبية التي لا يتمثّلها المتكلمون الا تمثلا منقوصا . أما القياس فهو بعكس ذلك ظاهرة عامة مطلقا وهي تابعة لعمل اللغة العادي . فهاتان الظاهرتان وان تشابهتا من بعض الوجوه تشابها كبيرا ، متناقضتان من حيث جوهرهما . ويجب أن نميز بينهما بكامل الاتقان ./

242

الباب السابع
الالـــصـــاق

الفصل الاول : حـــدّه

فضلا عن القياس — وقد سبق لنا أن أبرزنا ما له من أهمية — يوجد عامل آخر يتسبب في انتاج الوحدات اللغوية الجديدة وهو عامل الالصاق .

ولا وجود لأية طريقة أخرى لها كبير دور في صياغة الكلمات . فحالة الكلمات المحاكية للأصوات (انظر ص 113) ، والكلمات التي يختلقها المرء اختلاقا بدون استعمال القياس (ككلمة gaz (9) مثلا) وحتى ما تنتجه إيتيمولوجيا العامة من كلمات ، ليست بذات أهمية كبرى بل أهميتها إما ضئيلة أو منعدمة .

ويتمثل الالصاق في أن عنصرين فأكثر أحدهما متميز عن الاخر في الأصل ولكن يطرد ورودهما في مركب لفظي واحد في صلب الجملة ، يلتحمان في صلب وحدة لا تتجزأ أو من العسير تحليلها . هذه هي العملية المسماة بالالصاق . ونحن نطلق عليها اسم processus أي عملية ولا نقول procédé أي طريقة لأن كلمة طريقة تقتضي وجود النية والعزم والحال أن غياب التعمد صفة من الصفات الجوهرية التي يختص بها الالصاق .

243

واليك بعض الأمثلة : قد كان الناس يقولون في الفرنسية ce ci في كلمتين ثم قالوا في زمن لاحق ceci : فهو اذن كلمة جديدة رغم أن مادتها والعناصر المكونة لها لم تتغير . قارن كذلك في الفرنسية بين tous jours و toujours وبين au jour d'hui و aujourd'hui وبين dés jà و déjà وبين vert jus و verjus .

كما أنه يمكن للالصاق أن يحمل وحدات فرعية/تابعة لكلمة على الالتحام كما سبق أن رأينا ذلك ص 255 بشأن صيغة التفضيل المطلق في الهندية الأوروبية في مثل * swād-is-to-s * وفي اليونانية في مثل * hēd-isto-s *.(10)

واذا أنعمنا النظر في هذه الظاهرة تبيّنا أنها تشتمل على ثلاثة أطوار :

— أولها التوليف بين عدة مفردات في صلب مركب لفظي واحد شبيه بسائر المركبات الأخرى .

— ثانيهما الالصاق بأتم معنى الكلمة أي سبك عناصر المركب اللفظي في وحدة جديدة . ويتم ذلك السبك تلقائيا طبقاً لنزعة آلية لدى الانسان . فعندما يكون التعبير عن متصور ذهني مركب ما بواسطة سلسلة شائعة الاستعمال من الوحدات ، فان الذهن يختصر الطريق ان صحّ التعبير فيتخلى عن التحليل ويطبق المتصور جملة على تلك السلسلة من الدلائل فتنقلب عند ذلك الى وحدة بسيطة .

— ثالثا : جمع التغيرات التي من شأنها أن تجعل سلسلة لفظية في الأصل شيئا فشيئا بمثابة كلمة واحدة بسيطة . من ذلك توحيد موضع النبرة (كأن تحول vért-jús الى verjús) وبعض التغيرات الصوتية الخاصة الخ .

وكثيرا ما زعموا أن هذه التغيرات التي تصيب الأصوات والنبرة هي تغيرات سابقة للتغيرات التي تحصل في مجال المعنى وزعموا أنه ينبغي تفسير ذلك السبك المعنوي بالالصاق والسبك الماديين . ولعل الأمر على عكس ذلك اذ الأصح عندنا أن الذي حملهم على جعل vert jus و tous jours إلخ كلمتين بسيطتين انهم رأوا في كل واحدة منهما تعبيرا عن فكرة واحدة ومن الخطأ اذن أن نعكس الآية .

الفصل الثاني : الالصاق والقياس

ان التباين بين القياس والالصاق بارز للعيان :

1) ففي الالصاق تسبك وحدتان فأكثر فتكونان بائتلافهما وحدة واحدة بادماج هذه في تلك كما حدث لـ encore وأصلها hanc horam) . أو أن تسبك
244 وحدتان فرعيتان/ في واحدة (انظر مثال hēd-isto-s المتولدة عن swād-is-to-s) . والأمر بعكس ذلك في القياس اذ المرء ينطلق فيه من وحدات فرعية صغرى فيجعل منها وحدة أكبر فقد تطلب ظهور كلمة pāg-ānus أن يقرنوا أصلا هو pāg- بلاحقة هي -ānus .

2) ان عمل الالصاق انما يتم في المجال السياقي لا غير ويقع على مجموعة معينة من الكلمات . ولا يأخذ بعين الاعتبار سوى ذلك . وبخلاف ذلك فان القياس يعتمد على السلاسل الترابطية والسياقات على حد سواء .

3) وبالخصوص فانه ليس لأرادة المتكلم ولا لفاعليته في عملية الالصاق من دخل . فهي كما سبق أن قلنا مجرد عملية آلية يتم فيها تركيب العناصر بصورة تلقائية وبخلاف ذلك فان القياس طريقة تقتضي عددا من التحليلات ومن التوليفات وتتطلب نشاطا واعيا وارادة وتعمدا .

وكثيرا ما يستعمل الناس عبارتي تركيب وبنية في سياق حديثهم عن صياغة الكلمات إلّا أن معنى هاتين الكلمتين يختلف بحسب تعلقهما بالالصاق أو بالقياس . فهما بالنسبة الى الالصاق يذكران بذلك التلاحم البطيء الذي يحدث بين عناصر ترد متتالية في سياق واحد فتسبك سبكا قد يؤدي حتى الى انطماس حدود الوحدات الأصلية . وبخلاف ذلك فان كلمة تركيب ، متى تعلق الأمر بالقياس ، تعني النظم الذي يحصل دفعة واحدة أثناء عملية من عمليات التلفظ وذلك بالجمع بين عدد من العناصر المقتبسة من سلاسل ترابطية شتى .

لقد رأينا كيف أنه من الأهمية بمكان تميز هذين النوعين من صياغة الكلمات . وهكذا فان possum في اللّاتينية ليست سوى عملية التحام بين

كلمتين هما potis و sum ومعناهما « أنا السيد » فـ possum اذن من الملصقات . وبعكس ذلك فان signifer و agricola وغيرهما هي من نتائج القياس أي التراكيب التي تصاغ قياسيا على نماذج توفرها اللغة . فالذي ينبغي نعته بكونه من المركبات أو من المشتقات انما هو الكلمات المستحدثة بواسطة
245 القياس (11) /.

ويعسر في كثير من الأحيان على المرء أن يجزم بأن صيغة قابلة للتحليل قد نشأت عن الالصاق أو انبثقت انبثاقا عن القياس . ولقد خاض الالسنيون وأطالوا بشأن الصيغ الهندية الاوروبية التالية *es-mi و*es-ti و*ed-mi الخ فتساءلوا عما اذا كان العنصران -es و ed وغيرهما في عهد قديم جدا كلمات بالفعل الصقت فيما بعد بعناصر أخرى هي mi و ti أو عمّا اذا كانت *es-mi و *es-ti الخ ناتجة عن توليفات بين عناصر استخصلت من وحدات أخرى متشعبة ومن نفس القبيل ، وهو ما من شأنه أن يجعلنا نرجع بالالصاق الى عهد سابق لحدوث علامات الاعراب في الهندية الاوروبية ؟ ولما كانت الشواهد التاريخية منعدمة في هذا الباب فالراجح أن هذه المسألة لا حلّ لها .

فالتاريخ وحده هو الذي يمكن أن يمدنا بما ينبغي من ارشادات في هذا الخصوص . فكلما تمكّننا من القول بأن عنصرا بسيطا كان في زمن أسبق متكونا من عنصرين فأكثر في صلب الجملة دلنا على وجود حالة من حالات الالصاق كنحو hunc في اللّاتينية وأصلها homce تشهد الكتابات المنقوشة بوجود ce) . ولكن مَتى أعوزتنا المعلومات التي يوفرها التاريخ فانه يكون من العسير جدا أن نقول : هذا تابع للالصاق وهذا تابع للقياس ./

246

الباب الثامن
الوحدات والاتحادات والحقائق الزمانية

ان مادة الألسنية القارة انّما هي وحدات موجودة حسب التسلسل الاني . وكل ما قلناه منذ حين يدل على أن السلسلة اذا كانت زمانية لا توفر لنا عناصر معلومة الحدود بصفة نهائية كما يمكن تمثيل ذلك بالرسم البياني التالي :

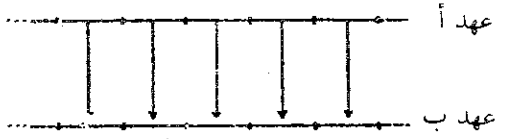

بل ان هذه العناصر ، على العكس من ذلك يختلف توزعها من عهد الى عهد وذلك حسب ما يجدّ في حياة اللغة من حوادث بحيث يمكن أن يصدق عليها الرسم الموالي أكثر مما قد يصدق عليها الرسم السابق .

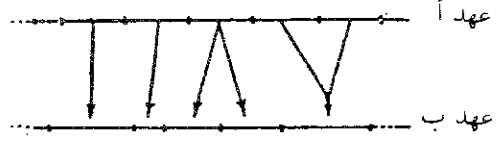

وهذا ناتج عن كل ما قيل بشأن نتائج التطور الصوتي والقياس والالصاق وغيرها .

247 وتكاد جميع الأمثلة التي سقناها الى حدّ الآن تتعلق/بصياغة الكلمات . وإليك شاهدا آخر مقتبسا من التركيبة. لقد كانت الهندية الأوربية خالية من الأدوات . أما العلاقات التي تدل عليها الأدوات فقد كان التعبير عنها يتم بواسطة عدد كبير من حالات الاعراب ذات قوة دلالية عظيمة . كما أنه لم تكن فيها أفعال مركبة بواسطة سوابق فعليّة . كل ما في الأمر أنها كانت تحتوي على كلمات صغيرة تنضاف الى الجملة لتدقيق صورة حدوث الفعل ولطائف معانيه فلم يكن يوجد مثلا ما يوافق قولك في اللّاتينية īre ob mortem أي حرفيا «انطلق مواجها الموت » ولا ما يوافق obīre mortem ولعلهم كانوا يقولون ما يوافق īre mortem ob . وقد بقيت الحال كذلك حتى في اليونانية الأصلية :1/ ففي طور أول كنت تجد óreos baínō káta . وكانت óreos baínō وحدها تفيد « جئت من الجبل » وذلك لأن حالة الاضافة لها قيمة الابلتيف أما káta فتضيف فويرقا معنويا هو « نازلا » . 2 / ثم في طور ثان تغير ذلك فأصبحوا يقولون katà óreos baínō وفيها تقوم katà مقام الأداة 3/ ثم في طور ثالث قالوا : kata - baínō óreos بالصاق الفعل والأداة وقد أصبحت سابقة فعلية .

ونحن هاهنا بازاء ظاهرتين أو ثلاث ظواهر مختلفة متميزة ولكنها جميعها تقوم على وجه من وجوه تأويل الوحدات . أما الظاهرة الأولى فهي نشأة نوع جديد من الكلمات هي الأدوات وذلك بمجرد تحويل الوحدات القديمة الموروثة عن مواضعها فظهر نظام خاص — وكان عديم الأهمية في الأصل — ولعله نشأ نشأة تلقائية فمكّن من تجميع العناصر على نحو جديد : فقد اتّحدت kata مع الاسم óreos بعد أن كانت مستقلة سابقا . ثم انضمت هذه المجموعة الى baínō حتى تكون لها بمثابة المتمم . أما الظاهرة الثانية فتتمثل في ظهور نوع جديد من الأفعال (من قبيل katabaínō) . فنشأ ضرب جديد من ضروب تجميع العناصر ذهنيا ساعد عليه توزيع جديد للوحدات ودعمه الالصاق . أما الظاهرة الثالثة فهي بمثابة النتيجة الطبيعية . وتتمثل في ضعف معنى علامة الاضافة (كما في óre-os) فأصبحت katà هي التي تضطلع بمهمة التعبير عن المعنى الأساسي الذي كانت

الاضافة تنفرد بالدلالة عليه فتقلصت أهميّة علامة الاعراب os - بنفس القدر . وهذه الظاهرة تحمل في طيّاتها بذور اندثار تلك العلامة في المستقبل .

فقد اتضح اذن أن القضية — في الحالات الثلاث — هي قضية توزيع جديد
248 للوحدات : فالمادة هي هي إلّا أن الوظائف/تختلف . لأننا لم نشهد — وهذا أمر تجدر ملاحظته — تدخّل أي تغيّر صوتي في احداث هذه العملية أو تلك من نقل الكلمات من مواضعها . ومن جهة أخرى رغم أن المادة اللغوية لم تتغير فلا ينبغي أن نعتقد أن كل ما تم قد تم في مستوى المعنى؛فلا وجود لأية ظاهرة تركيبية دون اقتران سلسلة ما من المتصورات الذهنية بسلسلة ما من الوحدات الصوتية (انظر ص 208) والذي تغيّر هاهنا انما هو تلك العلاقة بالذات فالاصوات باقية كما هي ولكن الوحدات الدّالة لم تعد هي هي .

لقد قلنا سالفا (ص 121) إن تغيّر الدليل هو ضرب من زحزحة العلاقة القائمة بين الدّال والمدلول . وتعريفنا هذا ينطبق لا على تغيّر عناصر النظام فقط بل وكذلك أيضا على تطوّر النظام نفسه . والظاهرة الزمانية في مجموعها انما تنحصر في ذلك لا غير . بيد أنه متى حصلت لدينا ملاحظة تحويل ماءفي حدود الوحدات الآنية ، فاننا نبقى مع ذلك بعيدين كل البعد عن تفسير كل ما جدّ في صلب اللغة تفسيرا كاملا . اذ يوجد مشكل هو مشكل الوحدة الزمانية في ذاتها ويتمثل في تساؤلنا بخصوص كل حدث لغوي عن العنصر الذي يخضع مباشرة لعملية التحول . وقد اعترضنا مشكل من هذا القبيل بشأن التغيرات الصوتية (انظر ص 145) فهي لا تصيب إلّا الصوتم المنعزل أما الكلمة من حيث هي وحدة فلا عمل لتلك التغيرات فيها . وبما أنه توجد أنواع شتى من الأحداث الزمانية فانه يتعين علينا أن نحلّ عددا كبيرا من المسائل المماثلة . ولهذا فان الوحدات التي سنعيّن حدودها في المجال الزماني لن توافق بالضرورة وحدات المجال الآني . فمفهوم الوحدة ، طبقا للمبدإ الذي رسمناه في القسم الأول ، لا يمكن أن يكون نفس المفهوم في هذين المجالين معا . ومهما يكن من أمر فان مفهوم الوحدة لن يتبلور تمام التبلور ما لم ندرسه في كلا مظهريه : مظهره القار ومظهره
249 التطوري . ان حل مسألة الوحدة الزمانية هو وحده الذي سيمكننا من تجاوز/ الجوانب الخارجيّة من ظاهرة التطور ومن ادراك باطنها وجوهرها . فمعرفة الوحدات*

هاهنا كما في المجال الآني أمر ضروري لتمييز ما هو وهم مما هو واقع (انظر ص 170) .

لكن ثمة مسألة أخرى على جانب كبير من الدقة واللطف وهي مسألة **الاتحاد الزماني** — وفعلا فلكي نستطيع الجزم بأن وحدة من الوحدات قد ظلت كما هي أي متحدة مع ذاتها أو بأن صيغتها ودلالتها قد تغيرتا مع بقائها وحدة متميزة — وكلتا الحالتين ممكنتا الوجود — ينبغي أن نتبين الحجة التي نستند إليها للقول بأن العنصر الفلاني التابع لعصر ما (ككلمة chaud الفرنسية مثلا) مماثل تماما لعنصر آخر تابع لعصر آخر (ككلمة calidum) اللّاتينية مثلا .

ولعل الاجابة عن هذا السؤال تكون على النحو التالي : ان calidum لا بدّ أنها آلت الى chaud ، طبقا لقواعد اللغة العادية ، بمفعول عمل القوانين الصوتية وبالتالي فان كلمة chaud هي calidum . وهذا ما يطلق عليه اسم الاتحاد الصوتي . وكذلك الأمر بالنسبة الى sevrer و séparāre . وبعكس ذلك نقول ان fleurir و flōrēre ليستا نفس الشيء وذلك لأن flōrēre كان ينبغي أن تؤول في الفرنسية الى flouroir *الخ .

ويبدو لأول وهلة أن هذا النوع من التطابق شامل لمفهوم الاتحاد الزماني عموما . والواقع أنه من المستحيل أن يكون الصوت بمفرده مفسرا لأسباب الاتحاد [الزماني] تفسيرا تاما . ولعلنا محقون عندما نقول ان الكلمة اللّاتينية mare ينبغي أن تكون صيغتها في الفرنسية mer لأن كل فتحة في اللّاتينية قد تحولت الى فتحة ممالة e في الفرنسية في بعض الظروف المقيدة ولأن الـ e غير المنبّرة اذا وقعت آخرا سقطت الخ . بيد أن في الجزم بأن الذي يمثل الاتحاد انما هو تانك العلاقتان a ← e و e ← صفرء قلبا لطرفي المسألة اذ أن الأمر بعكس ذلك . لأن حكمنا بأن الـ a انقلبت الى e وان تلك الـ e سقطت من نهاية الكلمة الخ انما هو مستمد بالذات من المطابقة بين mare و mer .

فهب أنه يوجد شخصان ينتمي كل منهما الى جهة معينة من فرنسا وأن أحدهما يقول se fâcher والآخر se fôcher فالفرق بينهما ثانوي بالقياس الى
250 الظواهر النحوية التي تمكننا من معرفة أن تينك/الصيغتين المتميزتين تمثلان في

الحقيقة وحدة لغوية واحدة . أما الاتحاد الزماني بين كلمتين مختلفتين اختلاف calidum و chaud فيعني أن الانتقال من الأولى إلى الثانية قد تم عبر سلسلة من الاتحادات الآنية في صلب اللفظ لا أكثر ولا أقل وذلك بدون أن يحدث بسبب التحولات الصوتية المتتالية أيّ انفصام للصّلة الجامعة بينها . لهذا جاز لنا ما قلناه (ص 167) من أنه من المفيد أن نتبين كيف أن كلمة Messieurs أي سادتي اذا ترددت في الخطبة الواحدة فانها تظل مماثلة لذاتها تماما بقدر ما هو مفيد أن نعرف لماذا تكون أداة النفي الفرنسية pas أي خطوة مماثلة تماما للاسم pas أو أن نعرف — والقضية واحدة في نهاية المطاف — لماذا اعتبرنا كلمة chaud الفرنسية مماثلة لـ calidum اللاتينية . وليست المسألة الثانية في الحقيقة سوى امتداد للأولى وصورة متشعبة منها ./

---

(1) وكذلك في العربية الفصحى فالمثنى قد اندثر من اللهجات العربية الحديثة (المترجمون)

(2) لعله يمكن أن نضيف الى هذا السبب التعليمي والخارجي سببا آخر فـ"فردينان دي سوسير" لم يتعرض في دروسه قط الى ألسنية اللفظ (انظر ص 40 وما بعدها) ولنذكر بان ما يظهر في اللغة من استعمالات جديدة انما يكون دوما مسبوقا بسلسلة من الأحداث اللغوية الفردية نظر ص 150) ولعله يجوز لنا أن نقول إن المؤلف رفض أن يعتبر تلك الظواهر الفردية ظواهر نحوية وذلك باعتبار أن كل حدث لغوي منعزل هو بطبيعة الامر خارج عن اللغة وعن نظامها ذلك النظام الذي لا يخضع الا لمجموع العادات الجماعية . فما دامت الظواهر تابعة للفظ فانها لا تعدو أن تكون وجوها خاصة وعرضية تماما من وجوه استعمال النظام القائم ولا يمكن لاي ابتداع من الابتداعات اللغوية أن يُحدث في صورة توازن القيم تحولا ما تكون نتيجته المباشرة وبصفة تلقائية تغيّر اللغة الا متى تكرر ذلك الابتداع على الاسماع وانتقش مباشرة في الذاكرة ودخل في صلب النظام . ويمكننا أن نطبق على التطور النحوي ما سبق أن قلناه بشأن التطور الصوتي (انظر ص 40 و133) فصيرورته أمر لا يمت الى النظام بصلة لأنه لا يُمكننا البتة ادراك النظام وهو بصدد التطور وانما ندركه من حين الى حين وقد أصبح مختلفا عما كان عليه. على أن محاولة تفسيرنا هذه لا تعدو أن تكون مجرد اقتراح نتقدم به الى القارىء . (الناشرون) .

(3) ينطق حرف c كافا في اللاتينية و تش في الايطالية (المترجمون)

(4) نسبة الى ليقوريا وهي منطقة تقع في الشمال الغربي من ايطاليا قديما (المترجمون)

(5) نسبة إلى أتروريا وتوافق تقريبا منطقة توسكانيا الحالية (المترجمون)

(6) أو النون انظر هامش ص 153 التعليق عدد 6

(7) من ذلك مثلا مؤنث صيغة أفعل كما في قول طفل : « السّمَا أُزْرَق ومن ذلك جمع كلب على كلوب قياسا على قلب قلوب (المترجمون)

(8) هو من المدافعين عن العقيدة المسحية ولد 225 أو 230 بافريقيا أو بايطاليا . توفي حوالي 325 (المترجمون)

(9) كلمة اختلقها « فان هلموت» Van Helmut سنة 1670 من الكلمة اللاتينية chaos (المترجمون)

(10) من أمثلة الالصاق في العربية هذا (= ها + ذا) لماذا (= لم + ذا) (المترجمون)

(11) معنى هذا بعبارة أخرى أن هاتين الظاهرتين يتضافر عملهما في تاريخ اللغة إلا أن الالصاق هو السابق دوما وهو الذي يوفر النماذج للقياس . وهكذا فان ذلك الضرب من ضروب المركبات الذي انتج في اليونانية hippó-dromo-s الخ قد نشأ بواسطة الالصاق الجزئي في عصر كانت فيه الهندية الاوروبية ما تزال خالية من علامات الأعراب . (فكانت كلمة ekwodromo بمثابة كلمة انقليزية مركبة كنحو country-house) أما الذي جعل منها صيغة منتجة فهو القياس وذلك قبل التحام عناصرها التحاما تاما. وكذلك الشأن بالنسبة الى صيغة الفعل الدالة على المستقبل في الفرنسية كنحو je ferai الخ) الذي نشأ في اللاتينية العامة عن الصاق صيغة المصدر بصيغة الحاضر من فعل habēre) كنحو facere habeō أي حرفيا « لديّ ما سأفعله » وهكذا فان تدخل القياس هو الذي جعل الالصاق ينشىء انماطا تركيبية ويعمل عمله لفائدة النحو اما اذا أطلقنا له العنان فانه يبلغ من سبكه للعناصر مبلغا يجعل منها وحدة مطلقة ولا ينتج الا كلمات غير قابلة للتجزئة وغير قادرة على الانتاج (من قبيل hanc hōram التي آلت الى encore) أي ان الالصاق يعمل عمله لفائدة المُعجم (الناشرون) .

تذييل للقسمين الثالث والرابع

أ ــ التحليل الذاتي والتحليل الموضوعي :

ان تحليل المتكلمين في كل آونة لوحدات اللغة يمكن أن ينعت بأنه تحليل ذاتي ويجب أن نحذر الخلط بينه وبين التحليل الموضوعي الذي يقوم على تاريخ اللغة . فالنحوي يميز في صيغة الكلمة اليونانية híppos ثلاثة عناصر هي الجذر واللاحقة وعلامة الاعراب (hípp-o-s) أما الناطقون باليونانية فلم يكونوا يميزون فيها سوى عنصرين اثنين هما (hípp-os انظر ص 235) . وفي حين يميز أصحاب التحليل الموضوعي في كلمة amābās بين أربعة وحدات فرعية هي (am-ā-bā-s) فان الناطقين باللّاتينية كانوا يفككونها الى amā-bā-s بل الراجح أنهم كانوا يعتبرون bās-علامة اعرابية تقابل الأصل من حيث هي كلّ لا يتجزأ. ان الناظر من وجهة تاريخية الى الكلمات الفرنسية مثلا entier (وأصلها في اللّاتينية in-teger بمعنى « لم يمس ») و enfant (وأصلها في اللّاتينية in-fans بمعنى « بدون حزام ») يستخرج منها سابقة مشتركة هي - en وهي مماثلة لـ in السالبة في اللّاتينية . وأما المتكلمون الذين يحللونها من وجهة النظر الذاتية فيغيب عنهم ذلك تماما .

فكثيرا ما يميل النحاة الى تخطئة ما يقوم به الناس من تحليلات عفوية للغة . والواقع أن التحليل الذاتي ليس أكثر خطأ من قياس « الخطإ » (انظر ص 245) . فاللغة لا توقع أصحابها في الغلط البتة . وكل ما في الأمر أن لها وجهة نظر مختلفة . وليس ثمة مقياس واحد نقيس به تحليل المتكلمين وتحليل المؤرخ للغة

وان كان التحليلان يعتمدان الطريقة نفسها أي المقارنة بين صيغ مركبة تحتوي على عنصر مشترك بعينه . ولكل من هذين التحليلين ما يبرره . ويبقى كل منهما محتفظا/بقيمته الخاصة.ولكن تحليل المتكلمين هو وحده المهم في نهاية الأمر لأنه يقوم مباشرة على شواهد من واقع اللغة .

أما التحليل التاريخي فليس إلّا صورة متفرعة عن التحليل الذاتي لأنه يقوم في حقيقة الأمر على اسقاط تراكيب لغوية من عصور مختلفة على سطح واحد . وهو تحليل يرمي — شأنه في ذلك شأن التحليل التلقائي — الى معرفة الوحدات الفرعية التي تتكون منها الكلمة ، إلّا أنه تحليل يقوم فيه المرء بالتأليف بين جميع التقسيمات التي أجريت على مر العصور قصد الوصول الى أقدمها . فالكلمة بمثابة البيت يغير تنسيق هيئته ووجه استعماله مرّات عديدة،والمحلل الموضوعي يجمع كل هذه الهيئات المتعاقبة ويركّب بعضها على بعض . أما بالنسبة الى ساكني البيت فلا وجود إلّا لهيئة واحدة في كل فترة . فالتحليل الوارد أعلاه لكلمة híppos هكذا hípp-o-s ليس خاطئ لأن الذي أقر ذلك التقسيم انما هو وعي المتكلمين . إلّا أن ما يؤخذ عليه أنه تقسيم في غير محله تاريخيا . اذ هو يرجع الى عهد آخر غير العهد الذي أخذت منه الكلمة المعنية بالأمر . فـ hípp-o-s هذه لا تناقض hípp-os التي في اليونانية الكلاسيكية إلّا أنه لا يجب الحكم عليها واعتبارها باعتماد نفس الطريقة . وهذا يؤول بنا الى أن نثبت مرة أخرى وجوب التمييز بين وجهة النظر الزمانية ووجهة النظر الآنية تمييزا جذريا .

وهو ما يمكّننا فضلا عن ذلك من حل مسألة منهجية ما تزال معلقة في الألسنية . فالمدرسة القديمة كانت تقسم الكلمات الى جذور وجذور موسعة thèmes ولواحق الخ . وكانت تعتبر مثل هذه التقسيمات ذات قيمة مطلقة . فمن يقرأ ما كتبه « بوب » وتلاميذه في هذا الموضوع يخال أن اليونانيين كانوا يحملون معهم منذ أقدم العصور جرابا ملؤه الجذور واللّواحق وان شغلهم الشاغل يتمثل في اصطناع الكلمات وهم يتكلمون . وأن pâter مثلا كانت بالنسبة اليهم تتكون من جذر هو pa ولاحقة هي ter وأنهم عندما كانوا ينطقون بكلمة dósō فانها كانت تمثل على لسانهم مجموعة تتركب من dō + so + علامة تدل على الضمير

ونتج عن ذلك بالضرورة أن ردّ الناس الفعل على هذه الضلالات فكان الشعار الذي أطلقوه عن صواب : الا فانظروا الى ما يحدث في صلب اللغات اليوم وفي كلام الناس العادي الدارج ولا تنسبوا الى العهود/التي مرت من اللغة أية عملية أو أية ظاهرة لا يمكن معاينتهما في الوقت الراهن . ولما كانت اللغات الحيّة أي التي يتكلمها الناس كل يوم لا تمكننا في أغلب الأحيان من أن نظفر بتحليلات كالتي قام بها « بوب » فان النحاة الجدد أعلنوا ، متمسكين بمبدئهم المذكور ، أن الجذور والجذور الموسعة واللواحق وما الى ذلك انما هي من محض المجردات وأننا إن استعملناها فانما ذلك لأنها تيسر علينا بسط المسائل وعرضها . لكن ان لم يكن لوضع هذه المقولات من مبرر فترى لماذا وضعناها ؟ وإن نحن فعلنا ذلك فعلى ماذا نستند حتى نقول مثلا ان تفكيك كلمة híppos الى hípp-o-s هو أفضل من تفكيكها الى hípp-os مثلا ؟

إلّا أن أصحاب هذه المدرسة الجديدة — بعد أن اكتشفوا عيوب المذهب القديم — وكان ذلك عليهم هينا — اقتصروا على رده من الناحية النظرية . أما في التطبيق فانهم ظلوا يتخبطون في حبال ذلك الجهاز من المصطلحات التي لم يستطيعوا الاستغناء عنها رغم جميع المحاولات . إلّا أننا بمجرد أن نُعمل العقل في هذه المجردات ونمنطقها ندرك نصيب الصواب فيها وأنه يكفي القيام بتعديل طفيف على هذه الطائفة من حيل النحاة حتى تكتسب معنى مشروعا صحيحا . وهذا ما حاولنا أن نقوم به أعلاه عندما بينا أن للتحليل الموضوعي — متى ربطناه برابط داخلي مع التحليل الذاتي للغة الحية — مكانه المعين المشروع ضمن المنهج الألسني .

ب — التحليل الموضوعي وتعيين حدود الوحدات الفرعية :

في ميدان التحليل ، لا يمكن للدارس أن يسطر منهجا ولا أن يسوق أي تعريف إلّا بعد أن يكون قد تصدى للقضية من وجهة النظر الانيّة . وهذا ما نريد أن نبينه من خلال بعض الملاحظات المتعلقة باجزاء الكلمة أي السوابق والجذور والأصول واللواحق وعلامات الاعراب (1) /.

ولنبدأ بعلامات الاعراب أي الخاصية الاعرابيّة أو العنصر المتغير الذي في آخر

الكلمة والذي يميّز مختلف صور اعراب الاسم وتصريف الفعل . ففي zeúgnū-mi
و zeúgnū-s و zeúgnū-si و zeúgnu-men الخ بمعنى « أنا أشُدُّ الدابة » الخ فانه
يمكن ضبط حدود mi-و s-و si- وغيرها من علامات الاعراب لمجرد أنها تتقابل فيما
بينها وكذلك مع الجزء الذي قبلها من الكلمة أي (-zeugnū̆) . لقد سبق أن رأينا
(ص 136 و 180) بصدد حديثنا عن كلمة žen في اللغة التشيكية في حالة
الاضافة وتُقابلها في حالة الفاعلية žena ، أن انعدام العلامة يمكن أن يقوم بنفس
الدور الذي تقوم به العلامة العادية . وعلى هذا الأساس فان
كلمة ! zeúgnū في اليونانية ومعناها « شُدَّ » ! وتقابلها zeúgnu-te أي
« شدّوا !» الخ وكلمة rhêtor ! وهي في حالة المنادى وتقابلها rhḗtor-os الخ
وكلمة marš في الفرنسية (وتكتب «marche») وتقابلها maršō̃ وتكتب
«marchons») كلها صيغ معربة وعلامة اعرابها صفر .

فاذا ألغينا علامة الاعراب تحصلنا على الجذر الموسع القابل للاعراب ويسمى
كذلك الأصل. وهو على العموم ذلك العنصر المشترك الذي نستخرجه استخراجا
تلقائيا من مقارنتنا مجموعة من الكلمات المتقاربة سواء أكانت معربة أم لا والذي
يشتمل على المعنى المشترك الموجود في جميعها . من ذلك أننا حين ننظر في هذه
السلسلة التالية من الكلمات الفرنسية roulis و rouleau و rouler و roulage
و roulement فاننا نتبين بدون عناء أصلا واحدا هو -roul أما المتكلمون فيميزون
في تحليلهم لكلمات من أصل واحد مشترك بين أصول من أنواع مختلفة أو على
الأصح أصول مختلفة الدرجات . وعلى سبيل المثال فان zeugnú ذلك العنصر
الذي استخرجناه آنفا من zeúgnū-mi ومن zeúgnū-s الخ هو أصل من الدرجة
الأولى وهو لا يستعصي على مزيد من التجزئة لأننا اذا قارناه بسلسلتين أخريين
هما zeúgnūmi و zeuktós و zeûksis و zeuktêr و zugón الخ) من جهة
و zeúgnūmi و deíknūmi و órnūmi من جهة أخرى فان تقسيما جديدا
هو zeug-nu سيتبادر الى أذهاننا بصورة تلقائية . وهكذا تكون zeug والصيغ التي
تتناوب وإياها أي zeug و zeuk و zug (انظر ص 241)/أصلا من الدرجة الثانية 255
ولكنه أصل غير قابل لمزيد من التجزئة لأننا لا يمكن أن نذهب في تقطيعه الى
أبعد مما ذهبنا ان قارناه بصيغ قريبة منه .

ويطلق على ذلك العنصر غير القابل لمزيد من التجزئة والذي تشترك فيه جميع

الكلمات التي ترجع إلى أصل واحد اسم racine أي **الجذر** ومن جهة أخرى
لمّا كان كلّ تحليل ذاتي وآني لا يمكّن من الفصل بين العناصر المادّية من الكلمة إلاّ
باعتبار ذلك القسط من المعنى الذي يدلّ عليه كلّ واحد منها فالجذر من هذه
الزاوية هو العنصر الذي يبلغ فيه المعنى المشترك بين جميع الكلمات المتقاربة منتهى
التجريد والعمومية . ويختلف عدم التخصيص في تحديد معنى الجذور بطبيعة الحال
من جذر الى جذر ولكنه تابع أيضا ـ وبنسبة ما لدى قابلية الأصل لمزيد من
التنقيص من مادته . فكلّما كان قابلا لمزيد من التنقيص من مادته كان نصيب معناه
من التجريد والابهام أعظم . من ذلك أنّ zeugmation تعني « عربة صغيرة
مشدودة » وzeûgma تعني « عربة مشدودة » . دون تحديد خاص . أما-zeug في
نهاية الأمر فلا تفيد إلاّ معنى غير مخصّص هو معنى « شدّ » .

وينجر عن كل هذا أن الجذر ـــ من حيث هو جذر ـــ لا يمكنه أن يكوّن
كلمة ولا أن تضمّ اليه مباشرة علامة اعرابية . وفعلا فان الكلمة من الكلمات
تمثل دوما فكرة مخصصة تخصيصا نسبيّا وذلك على الأقل من الوجهة النحوية ،
وهو أمر مناقض لما يختص به الجذر من عموم وابهام . لكن ترى ما سيكون موقفنا
من تلك الحالات المتواترة جدا في اللغة والتي يستوي فيها الجذر والجذر الموسع أي
الأصل كما نتبين ذلك من الكلمة اليونانية phlóks وصيغة المضاف اليه
منها phlogós ومعناها « لهب » اذا قارنّاها بالجذر phlog : phleg الموجود في جميع
الكلمات التي من نفس الأصل (كما في phlég-ō أو غيرها)؟ أفليس مناقضا لذلك
التمييز الذي قمنا به منذ حين ؟ كلا . لأنه يجب علينا التمييز
بين phlog : phleg ذوي المعنى العام و phlog ذي المعنى الخاص . وذلك خشية
أن لا نعتبر إلّا الشكل المادي من الكلمة دون المعنى . فللعنصر الصوتي الواحد
هٰهنا قيمتان مختلفتان . واذن فهو يشتمل على عنصرين لغويين متميزين (انظر ص
163) . وكما أن ! zeúgnū ومعناها « شُدّ ! » « قد بدت لنا أعلاه في صورة
256 كلمة معربة وعلامة اعرابها صفر فكذلك/نقول هٰهنا : ان -phlóg ومعناها
« لهب » هي جذر موسّع لاعرابه صفر . واذن فلا سبيل هنا الى الخلط .
فالأصل يبقى متميزا عن الجذر حتى ان كان مماثلا له ـ من حيث أصواته ـ مماثلة
تامة .

واذن فالجذر بالنسبة الى وعي المتكلمين أمر موجود بالفعل وان كانوا والحق

يقال لا يستطيعون في جميع الحالات آن يعزلوه بنفس الدرجة من الدقة . وذلك لأنه توجد من هذه الناحية فروق إما في صلب اللغة الواحدة أو من لغة الى أخرى .

فبعض الألسن لها خصائص معينة ترشد المتكلمين الى مادة الجذر من الكلمة كما هو الحال في اللغة الألمانية مثلا حيث يظهر الجذر في مظهر موحّد الصورة نسبيا. فهو يكاد يكون دائما متركبا من مقطع واحد « انظر - streit و bind و - haft الخ) ويخضع كذلك لبعض القواعد البنيوية : فالصوامت لا تظهر فيه كما اتفق . ذلك أن بعض التوليفات بين الحروف اذا وقعت آخر الكلمة كتتالي الحرف الشديد والحرف المائع في آخر الكلمة محظورة.من ذلك أن -werk جذر ممكن أماwekrl فلا . وإنك تجد في اللغة الألمانية ـ helf و-werd ولكن لا سبيل الى وجود مثلhefl ولاwedr من أثر (2) .

ولنذكّر بأن التناوبات المنتظمة ، خاصة اذا كانت بين الحركات ، تزيد في قوة شعورنا بالجذر وبالوحدات الفرعية عموما ، أكثر مما تضعفه . والألمانية تختلف في هذه النقطة بالذات عن الفرنسية اختلافا بعيدا لما فيها من تغيرات حركية تصيب الجذر (أنظر ص 239) . كما أن للجذر في اللغات السامية صفات مماثلة لما ذكرنا إلّا أنها أشّد وضوحا وبروزا . فالتناوبات فيها على قدر كبير من الانتظام والاطراد . وهي تحدّد عددا كبيرا من المقابلات المتشعبة (انظر في العبرية قولهم qāṭal و qṭaltem و qṭōl و qiṭlū الخ وشبيه بهذا في العربية قَتَل وقَتَلْتُمْ وقُتِلَ وقَتَلَهُ وجميعها صيغ من فعل واحد يدل على القتل . وفضلا عن ذلك فالجذور تشتمل على سمة تشبه أحادية المقطع في الجذر الألماني . إلّا أنها أشد بروزا : ذلك أنها تشتمل دائما على ثلاثة أحْرُفٍ (انظر أسفله ص 345) . ومن هذه الناحية فان اللغة الفرنسية تختلف عن ذلك تمام الاختلاف . اذ عدد التناوبات فيها قليل . وأنت واجد فيها بالاضافة الى الجذور ذات المقطع الواحد من قبيل roul و -march و -mang) عددا كبيرا من الجذور ذات مقطعين أو حتى ثلاثة مقاطع (مثل -commenc و -hésit و -épouvant) . وعلاوة على ذلك فان صيغ
257 تلك الجذور تحتوي ـخاصة في أواخرهاـ على توليفات/صوتية هي من التنوّع بحيث يستحيل حصرها في قواعد مضبوطة (انظر مثلا : tu-er وَ régn-er و guid-er و grond-er و souffl-er و tard-er و entr-er و hurl-er وهلم جرا) .

فلا يندهشنّ المرء اذن اذا ما لاحظ أن شعور الفرنسيين بحدود الجذور في لغتهم شعور ضيعف جدا .

ان تعيينا لحدود الجذر ينجر عنه بطريقة غير مباشرة ضبط حدود السوابق واللواحق . فأما السابقة فتسبق ذلك القسم الذي اعتبر من الكلمة بمثابة الجذ كنحو -hupo من الكلمة اليونانية hupo-zeúgnūmi وأما اللاحقة فهي ذلك العنصر الذي ينضاف الى الجذر فيكون معه ما سمي بالأصل (من ذلك مثلا : -zeug- mat) أو ينضاف الى أصل من الدرجة الأولى فيكون معه أصلا م الدرجة الثانية (كنحو -zeugmat-io) وقد رأينا أعلاه كيف ان ذلك العنصر شأنه في ذلك شأن علامة الاعراب ، يمكن أن تكون علامته درجة صفر . فليس استخراج اللاحقة اذن سوى وجه من وجوه تعيين حدود الأصل .

وللاحقة تارة معنى محسوس وقيمة دلالية كما في zeuk-tēr ، حيث تدل - tēr على الفاعل أي من يقوم بالفعل . ولها تارة أخرى وظيفة نحوية صرف ، في zeúg-nū(-mi) حيث تدل - nū - على زمن الحال . ويمكن للسابقة هي الأخر أن تقوم بتينك الوظيفتين معا ولكن من النّادر أن تسند اللغات الاوروبية الى ها السوابق الوظيفة النحوية كنحو -ge الدالة على اسم المفعول في اللغة الألمانية (في ge-setzt الخ) والسوابق الدالة على الفعل المنقضي Perfectif في اللغا الصقلبية كنحو na في الروسية في قولهم : na-pisát' الخ) .

وتختلف السابقة كذلك عن اللاحقة بميزة أخرى غير مطلقة وان كانت مط نسبيّا وذلك أن معالم حدودها أوضح لأن عزلها عن مجموع الكلمة أيسر . و هذا راجع الى ما لهذا العنصر من طبيعة خاصة . فالذي يبقى في معظم الحالا بعد طرح السابقة يظهر في مظهر كلمة قائمة بذاتها كنحو : mmencer و recommencer و digne : indigne و adroit : maladroit و ids : contrepoids وهلم جرا) . وهو أمر أبرز في اللّاتينية واليونانية والألمانية مما في غيرها . أضف ذلك أن عددا كبيرا من السوابق تُستعمل في صورة كلمات مستقلة بذاتها . ذلك في الفرنسيّة contre و mal و avant و sur ، وفي الالمانية unter و
258 الخ . وفي اليونانية katá و pró الخ . والأمر بخلاف ذلك تماما/ بالنسبة الى اللا فأنت اذا حذفت اللاحقة حصلت على أصل يمثل كلمة غير مكتملة . هذا

جهة . ومثله في الفرنسية مثل organisation : -organis وفي الألمانية : Trennung : -trenn . وفي اليونانية zeûgma : -zeug وهلم جرا . ومن جهة أخرى فان اللاحقة في حدّ ذاتها ليس لها وجود مستقل في اللغة .

والنتيجة الحاصلة من جميع ما سبق أن الأصل في أغلب الأحيان محدد سلفا من حيث أوله . فالمتكلم يعلم أين يضع الحد الفاصل بين السابقة وما يليها من قبل أن يقوم بأية مقارنة مع صيغ أخرى . أما تحديد آخر الكلمة فالأمر فيه ليس كذلك . ففي هذه النقطة بالذات لا يمكننا أن نفرض تحديدا ما لم يكن ذلك في نطاق المقارنة بين صيغ لها أصل واحد أو لاحقة واحدة . وهذه المقارنات هي التي تفضي الى إقامة تحديدات مختلفة حسب اختلاف العناصر التي نقارن بينها .

وأما من وجهة نظر التحليل الذاتي فانه ليس للواحق والأصول من قيمة إلّا بفضل المقابلات السياقية والترابطية . فحسب ما تباشره من حالات يمكنك أن تتبين في كلمة مركبة من قسمين متقابلين عنصرا صياغيا وآخر هو الأصل وذلك مهما كانت طبيعة ذينك القسمين بشرط أن تتولد عنهما مقابلة ما . فأنت تجد في الكلمة اللاتينية dictātōrem مثلا أصلا هو dictātōr-(em) ان نحن قارناه بـ consul-em و ped-em الخ . إلّا أننا نجد أصلا آخر هو dictā- (tōrem) ان نحن قارناه بـ lic-tō-rem و scrip-tōrem الخ ونجد أصلا هو dic-(tātōrem) ان نحن قارناه بـ pō-tātōrem و can-tātōrem . ويمكن للمتكلم ، بصفة عامة أن يعمد الى القيام بكل التقطيعات الممكنة متى ساعدته الظروف (كنحو dictāt-ōrem حملا على am-orem و ard-ōrem الخ و dict-ātōrem قياسا على ōr-ātōrem و ar-ātōrem وهلم جرا . ونحن نعلم (انظر ص 255) أن نتائج هذه التحليلات التلقائية تتجلى في الصياغات القياسية التي تحدث في كل عصر من العصور . فهي التي تمكّن من تمييز الوحدات الفرعية التي يدركها المتكلمون للغة من اللغات (من جذور وسوابق ولواحق وعلامات اعراب) وكذلك القيم التي
259 يسندونها الى كل واحدة منها ./

ج — الايتيمولوجيا :

ليست الايتيمولوجيا مادة قائمة بذاتها ولا قسما تابعا للألسنية التطورية . انما

هي مجرد تطبيق خاص للمبادئ المتعلقة بالظواهر الانية والزمانية . فهي تتمثل في الرجوع الى ماضي الكلمات قصد العثور على ما يفسرها .

فنحن عندما نتحدث عن أصل كلمة من الكلمات فنقول انها « تنحدر » من أخرى فقد نعني بذلك عدة أمور متباينة . من ذلك مثلا أن كلمة sel في الفرنسية تنحدر من الكلمة اللاّتينية sal بمجرد تغير طرأ على الأصوات وأن labourer وهي كلمة من الفرنسية القديمة تدل على («مطلق العمل » بحدوث تغير طرأ على المعنى وحده . وأن couver تنحدر من الكلمة اللاّتينية cubare بمعنى « كان مستلقيا » وبحدوث تغير طرأ على المعنى والصوت معا . واننا عندما نقول إن pommier تنحدر من pomme فنحن نشير الى وجود علاقة اشتقاقية نحوية . فنحن في الحالات الثلاث الأولى نعالج اتحادات زمانية أما الحالة الرابعة فتقوم على علاقة آنية بين عدة عناصر مختلفة إلّا أن جميع ما قيل بشأن القياس يدل على أن ذلك هو أهم قسم من أقسام البحث الايتيمولوجي .

فالأصل الايتيمولوجي لكلمة bonus ليس أمرا ثابتا لأنك ترجعها الى dvenos . ولكن ان نحن علمنا أن كلمة bis منحدرة من dvis وأنه يمكننا تبعا لذلك أن نقيم علاقة بينها وبين duo أمكننا أن نعتبر تلك العملية عملية ايتيمولوجية وكذلك الأمر عندما نقرّب بين كلمتي oiseau و avicellus لأن ذلك يمكننا من العثور على الصلة الرابطة بين oiseau و avis .

واذن فالايتيمولوجيا هي قبل كل شيء تفسير الكلمات بالبحث عن العلاقات التي تربطها بكلمات أخرى . والتفسير معناه انك ترجع عنصرا مجهولا الى عناصر معلومة . وأن تفسر الكلمة ، في الألسنية ، معناه أنك ترجعها الى كلمات أخرى اذ لا وجود لعلاقات ضرورية بين الصوت والمعنى (انظر مبدأ اعتباطية
260 الدليل ص 112) ./

والايتيمولوجيا لا تقتصر على تفسير الكلمات منعزلةً بل هي تقوم كذلك على ضبط تاريخ مجموعة لفظية من أصل واحد كما تقوم بضبط تاريخ العناصر الصياغية من سوابق ولواحق وغيرها .

وتقوم الايتيمولوجيا ، شأنها في ذلك شأن الألسنية القارة والألسنية التطورية على وصف الظواهر إلّا أنه وصف غير منهجي لأنه لا يتم في أي اتجاه مخصوص فعالم الايتيمولوجيا عند تناوله لكلمة ما جاعلا اياها موضوعا لبحثه يستمد ما يستعمله من معلومات تارة من علم الأصوات وتارة من علم الصرف وأخرى من علم الدلالة الخ فتراه يستخدم جميع الوسائل التي توفرها له الألسنية للوصول الى مبتغاه إلّا أنه لا تستوقف اهتمامه طبيعة العمليات التي يضطر الى القيام بها ./

(1) ان فرديتان دي سوسور لم يباشر النظر في الكلمات المركبة على الاقل من وجهة النظر الآنية . فينبغي اذن أن نطرح جانبا هذا المظهر من المسألة مؤقتا . ومن البديهي أن ذلك التمييز الذي أقامه اعلاه بين الكلمات المركبة والملصقة ، من وجهة زمانية ، لا يمكن نقله بحذافيره الى المقام الذي نحن . فيه،لأننا هٰهنا بصدد تحليل حالة لغوية معينة . وقد لا نكاد نحتاج الى ملاحظة أن المؤلف لا يدّعي في هذا العرض المتعلق بالوحدات الفرعية حل مسألة تعريف الكلمات من حيث هي وحدة ، وهي مسألة أدق والطف وقد أثيرت ص 163 و171 (الناشرون) .

(2) بناء على مثل هذه القواعد الصوتية عدّ الخليل بعض الكلمات دخيلة لتعاقب النون والياء في نرجس مثلا (المترجمون)

القسم الرابع
الألسنية الجغرافية

الباب الأول : في تنوع اللغات

ان من يباشر مسألة علاقة الظاهرة الألسنية بالمكان يخرج من مجال الألسنية الداخلية ويدخل في مجال الألسنية الخارجية . وقد سبق لنا أن أبرزنا من خلال الفصل الخامس من المقدمة مدى اتساع هذه الألسنية الخارجية ومدى تنوعها .

فان أول ما يسترعي انتباه من يدرس اللغات انما هو تنوعها وما يظهر من فروق لغوية بمجرد أن يمر المرء من بلد الى آخر أو حتى من منطقة الى أخرى في البلد الواحد . ولئن كانت الاختلافات اللغوية الناجمة عن الزمان غالبا ما تغيب عن الملاحظ فان الاختلافات اللغوية بين مكان وآخر تبرز مباشرة للعيان . وحتى المتوحشون من الناس يدركونها بفضل اتصالهم بقبائل أخرى ذات ألسن متغايرة ومقارنتهم لغتهم بلغاتهم . بل ان هذه المقارنة بالذات هي التي تجعل شعبا من الشعوب يتفطن الى أن له لسانا خاصا .

ولنلاحظ عرضا أن هذا التفطن ينشيء عند الشعوب البدائية تلك الفكرة التي مفادها أن اللغة عادة وتقليد شبيه بالتقاليد المتعلقة بالبزّة وأنواع السلاح . فكلمة idiome في الفرنسية أي لسان تدل بالذات على اللغة من حيث هي تعكس الملامح الخاصة بمجموعة بشرية . وقد كانت الكلمة اليونانية idioma تفيد « ما

يختص به المرء من عادات » . وذلك لعمري فكرة صائبة ولكنها تصبح من محض
262 الباطل عندما يؤول بنا الأمر/الى حدّ أن نعتبر اللغة صفة لا من صفات الأمة ولكن من صفات العرق ، تماما كلون البشرة أو شكل الرأس .

وبالاضافة الى ذلك فان كل شعب من الشعوب يعتقد أن لسانه أفضل الألسن ويميل الى اعتبار أي انسان يتكلم لسانا آخرا عاجزا عن الكلام ، من ذلك مثلا أن الكلمة اليونانية بربروس bárbaros يبدو أنها كانت تعني العييّ التمتام وأنها في هذا قريبة من قولهم في اللّاتينية « بالبوس » balbus . وأما في اللغة الروسية فانك تراهم يسمون الألمان نيامتسي Nêmtsy أي « البكم »(1) .

وهكذا فان تنوع اللغات جغرافيا كان أول ما لوحظ في ميدان الألسنية وهو الذي تسبب في ذلك النهج الأول الذي سار عليه البحث العلمي في ميدان اللغة حتى عند اليونان . ولئن صحّ أنهم لم يتعلقوا إلّا بالنظر في التنوع الموجود بين مختلف اللهجات الهيلينية ، فانما كان ذلك منهم لأن اهتمامهم قلّما كان يتجاوز بلاد اليونان نفسها .

وبعد أن يكون المرء قد لاحظ مواطن الاختلاف بين لسانين فانه سيعمد دون أن يشعر الى أن يكتشف مواطن الائتلاف بينهما . وهي نزعة طبيعية لدى المتكلمين . فان للفلاحين شغفا بمقارنة لهجاتهم بلهيجات القرى المجاورة لهم . وأما الذين ينطقون عدة لغات فانهم يلاحظون السمات المشتركة فيما بينها لكن الغريب أنه مر على العلماء دهر طويل قبل أن يستعملوا مثل هذه الملاحظات في بحوثهم : من ذلك أن اليونانيين قد لاحظوا كثيرا من أوجه الشبه بين الألفاظ اللّاتينية والفاظهم ومع ذلك فانهم لم يخرجوا بأية نتيجة في دراساتهم اللغوية .

ويمكن لمن ينظر في مواطن الائتلاف بين اللغات نظرة علمية أن يؤكد في بعض الحالات أنه يجمع بين لسانين فأكثر نسب ما أي أن لهما أصلا واحدا مشتركا . وقد أطلقوا على كل مجموعة من اللغات قربوا بينها على هذا النحو اسم فصيلة لغوية . وقد توصلت الألسنية المعاصرة الى أن تُعيّن تباعا هوية عدد من هذه الفصائل الهندية الأوروبية والفصيلة السامية والفصيلة البنُصْريّه (2) الخ ... ثم انه
263 يمكن للدارس بعد ذلك أن يقارن/الفصائل فيما بينها . وقد يعثر على أنواع من

صلات النسب تمكنه من ارجاعها الى مجموعات أكبر وأبعد في القدم مما كان يتصور . فقد حاول بعضهم أن يجد أوجه شبه بين فصيلة اللغات الفنلندية الأقريانيّة (3) Finno - Ougrien والفصيلة الهندية الأوروبية وبين الأخيرة والسامية الخ .. ولكن المقارنات التي من هذا القبيل سرعان ما تصطدم بعراقيل لا يمكن للباحث تجاوزها لأنه لا يجب أن نخلط بين ما هو ممكن الوجود وما يمكن أن نقيم عليه البرهان .

فانتساب جميع لغات العالم الى أصل واحد أمر غير محتمل . وحتى لو صحّ مثل هذا الانتساب كما يعتقد ذلك الألسني الايطالي « م . طرمْبتّي » M.Trombetti (4) ، فانه أمر لا يمكن اقامة الدليل عليه لأن عدد ما حصل من التحولات في صلب اللّغات ضخْم الى أبعد الحدود .

وهكذا ، وبجانب تنوع اللغات مع قرابتها فانه يوجد تنوع مطلق أي بدون قرابة يمكن للدّارس أن يتوصل الى معرفتها أو الى اقامة الدليل على صحتها . فما هو المنهج الذي ينبغي أن يسلكه الألسني في هذه الحالة أو تلك ؟

لنبدأ بالثانية وهي أكثر تواترا . انه يوجد ، كما أسلفنا القول ، عدد لا يحصى من اللغات ومن الفصائل اللغوية التي لا يمتّ بعضها الى بعض بصلة . وذلك على سبيل المثال وضع اللغة الصينية بالنسبة الى اللغات الهندية الاوروبية . ولسنا نقصد من وراء هذا انه ينبغي التخلي عن المقارنة بين اللغات . بل هي دائما ممكنة وصالحة . وينبغي لهذه المقارنة أن تشمل لا مقارنة الجهاز النحوي والأنماط العامة للتعبير عن التفكير فقط بل وكذلك نظام الأصوات . كما ينبغي أن نقارن أيضا بين الظواهر الزمانية مثل التطور الصوتي في لغتين ... وينبغي أن نضيف في هذا الشأن أن امكانيات المقارنة — وان كان عددها لا يحصى — محدودة ببعض المعطيات القارة من معطيات صوتية ومعطيات نفسية تتكون داخلها كلّ
لغة من اللغات . وفي مقابل ذلك فان اكتشاف هذه المعطيات القارة هو/الغرض 264
الرئيسي من كل مقارنة يجريها الدراس بين لغات يتعذر الحاق بعضها ببعض .

واما الصنف الآخر من أصناف التنوع أي ذلك التنوع الذي يوجد في صلب الفصيلة اللغوية الواحدة فانه يوفر مجالا للمقارنة لا حدّ له . فقد تتفاوت درجة

الاختلاف بين اللغتين تفاوتا عظيما فتراهما تتشابهان تشابها كبيرا يبعث على الدهشة مثل ما نلاحظه بين اللغة الزندية والسنسكريتية أو تختلفان اختلافا كليّا مثل ما نلاحظه بين السنسكريتية والإرلندية . وجميع الدرجات الوسطى في الاختلاف والتشابه ممكنة . من ذلك أن تقارب اليونانية واللاّتينية ، أعظم من تقارب كل واحدة منهما من السنسكريتية الخ ... وأما الألسن التي لا يختلف بعضها عن بعض إلّا بدرجة ضئيلة ، فيطلق عليها اسم لهجات ولكن ينبغي أن لا نسند الى هذا اللفظ معنى دقيقا مضبوطا وسنرى ص 303 أنه يوجد بين اللهجات واللغات فارق كمي لا نوعي .

الباب الثاني
تشعبات التنوع الجغرافي للغات

الفصل الأول : تعايش لغات عديدة في بقعة واحدة من الأرض

قد عرضنا التنوع الجغرافي للغات الى حدّ الآن في صورته المثلى أي في صورة عدد من البلدان يوافقه نفس العدد من اللغات بعضها متميز عن بعض ؛ وقد كنّا محقّين في سلوكنا ذلك المسلك لأن الفواصل الجغرافية تبقى أعم عامل يتسبب في التنوع اللغوي . ولنباشر الآن معالجة الظواهر الثانوية التي تخل بهذا الضرب من التوافق والتي تكون نتيجتها تعايش عدّة لغات على تراب بلد واحد .

لا يتعلق الأمر هنا بما يتم من تمازج حقيقي عضوي ومن تداخل بين لسانين يفضي بهما الى تغير في مستوى النظام اللغوي (كما وقع للانقليزية بعد الغزو النورمندي) ، ولا يتعلق الأمر كذلك بعدة لغات مفصول بعضها عن بعض في المكان فصلا واضحا ، وواقعة في الآن نفسه ضمن الحدود السياسية لدولة واحدة كما هو الحال بالنسبة الى سويسرا . بل نحن نتصور فقط إمكانية أن يتعايش لسانان جنبا الى جنب في موضع واحد وأن يتواجدا دون أن يذوب أحدهما في الآخر . وهو أمر كثير الاطراد ولكن ينبغي التمييز فيه بين حالتين :

ـــ فقد يحدث أولا أن تحل لغة أقوام جدد فتتراكب على لغة أهل البلد

الأصليين . ومثال ذلك ما نجده في جنوب افريقيا حيث يلاحظ المرء الى جانب
266 عدة لهجات زنجية وجود لغتين هما الهولندية والانقليزية/وذلك نتيجة لاستعمارين متتاليين . وبالطريقة ذاتها انغرست اللغة الاسبانية في المكسيك .

ولا ينبغي أن نعتقد أن مثل هذا الغزو اللغوي خاص بالعصر الحديث . فمنذ قديم الزمان شهد التاريخ أمما تختلط دون أن تمتزج ألسنتها بعضها ببعض . ويكفي لنكون على بينة من الامر أن نلقي نظرة على خريطة أوروبا الحالية . فانك تراهم في ارلندا يتكلمون السلتية والانقليزية . وكثير من الارلنديين يحذقون اللغتين معا . أما في مقاطعة بروطانيا Bretagne الفرنسية فانهم يتكلمون البروطونية والفرنسية . وفي منطقة الباسك Basque تراهم يتكلمون الى جانب لسانهم « الباسكي » الفرنسية والاسبانية . وفي فنلندا تتعايش السويدية والفنلندية منذ عهد بعيد نسبيا . ثم انضافت اليهما الروسية منذ عهد قريب . وفي كورلندا Courlande وليفونيا Livonie يتكلم الناس اللغة اللتّيّة le lette والألمانية والروسية . أما الألمانية — وقد جلبها المعمرون الوافدون عليها في العصر الوسيط تحت رعاية الرابطة الهنسياتية hanséatique — فهي لغة طبقة خاصة من السكان . وأما الروسية فانها قد دخلت هنالك بعد ذلك عن طريق الغزو . أما بلاد ليتوانيا Lituanie فقد شهدت انغراس البولونية الى جانب اللغة الليتوانية . وكان ذلك نتيجة لاتحادها قديما مع بولونيا . كما شهدت انغراس الروسية نتيجة لاندماجها في الامبراطورية الموسكوفية . وقد كانت اللغتان الصقلبية والالمانية حتى القرن الثامن عشر مستعملتين في كامل المنطقة الشرقية من ألمانيا بداية من نهر الألب Elbe . أما في بعض البلدان فان اختلاط اللغات أعظم من ذلك بكثير . فانت واجد في مقدونيا كل ما يمر بخلدك من اللغات ، من تركية وبلغارية وصربية ويونانية وألبانية ورومانية وغيرها . وهذه اللغات متداخلة تداخلات شتى بحسب المناطق .

وليست هذه اللغات مختلطة دوما اختلاطا تاما . فان تعايشها في منطقة معنية لا ينفي توزعها توزعا نسبيا بحسب المناطق الترابية . فقد تتواجد على سبيل المثال لغتان احداهما يتكلمها سكان المدن والأخرى سكان الأرياف . ولكن هذا التوزع ليس دوما واضح المعالم .

وفي العصور القديمة من التاريخ كانت توجد نفس الظواهر . ولو توفرت لنا

267 الخريطة اللغوية للامبراطورية الرومانية/لمكّننا ذلك من أن نرى أمورا شبيهة كل الشبه بما نراه في العصر الحديث . من ذلك أن سكان كمْبانيا Campanie في أواخر العهد الجمهوري كانوا يتكلمون الاوسكيّة l'Osque كما تشهد بذلك نقوش مدينة بومبايي Pompei وكانوا يتكلمون اليونانية لغة المعمرين مؤسسي مدينة نابُلي Naples الخ ، واللاتينية وربما أيضا الاترورية l'Estruque وقد سادت في تلك المنطقة قبل حلول الرومان بها . أما في قرطاج فقد بقيت البونيقية أو الفينيقية الى جانب اللاّتينية (وكانت لا تزال موجودة في عصر الفتوحات العربية) وهذا بقطع النظر عن النوميدية وأغلب الظن أنها كانت مستعملة داخل التراب الخاضع لسيادة قرطاج . بل قد يمكن القول ان البلدان الاحادية اللغة ، الواقعة حول حوض البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة كانت تمثّل حالات شاذّة .

وقد كان هذا التراكب اللغوي في جلّ الحالات نتيجة أدى اليها غزو شعب قوي لآخر أضعف منه . وثمة أيضا عامل الاستعمار والتغلغل السلمي . ثم ان هنالك صورة أخرى وهي حالة القبائل المترحلة تنقل معها لهيجاتها : وذلك ما فعله الغجر الذين استقرّوا خاصة في بلاد المجر حيث أسسوا قرى متراصّة . وقد أثبتت دراسة لغتهم أنهم ربما جاؤوا من الهند في عصر غير معلوم . وفي منطقة دُبْرُدْجا Dobroudja عند مصب نهر الدانوب ، توجد قرى تترية تبدو على الخريطة اللغوية لهذه المنطقة في صورة بقيعات .

الفصل الثاني : اللغة الأدبية واللسان المحلّي

وليس ما ذكر هو المتسبب الوحيد في التنوع اللغوي . فان الوحدة اللغوية قد تتفرقع عندما يتعرض لسان طبيعي لتأثير لغة أدبية . ويحدث هذا الأمر حتما كلما بلغ شعب من الشعوب درجة معينة من الحضارة .

ونعني بـ « لغة أدبية » لا لغة الأدب فقط وانما في معنى أعم أي نوع مهذب من أنواع اللغة تستعمله مجموعة بشرية بأكملها سواء أكانت رسمية أم لا ، فان
268 اللغة ان تركت وشأنها لا تكون إلّا في صورة لهجات لا تنتهك/أحدها حدود الأخرى. وهكذا يكون محكوما عليها بأن تتجزأ تجزؤا غير محدود. ولكن لمّا كانت

الحضارة ، في تطورها ، تَنَشَّ من أسباب التواصل فان الناس يختارون بناء على نوع من المواضعة الضمنية احدى اللهجات الموجودة ليجعلوا منها أداة حاملة لكل مآرب الأمة بأجمعها . ودوافع هذا الاختيار متنوعة : فتارة تراهم يفضلون لهجة الجهة التي تقدمت فيها الحضارة أكثر من غيرها من الجهات ، وطورا تراهم يفضلون لهجة المنطقة التي لها الهيمنة السياسية والتي فيها مقرّ السلطة المركزية ، وتارة أخرى نرى بلاطا من البلاطات يفرض لهجته على الامة بأجمعها . وعندما ترتقي اللهجة التي نالت الحظوة الى مرتبة لغة رسمية مشتركة فانها نادرا ما تبقى على صورتها السابقة وذلك لأنها تمتزج بها عناصر لهجية تابعة لجهات أخرى ، وشيئا فشيئا تصبح مركبة من عناصر متباينة . بيد أنها لا تفقد تماما طابعها الأصلي . من ذلك أننا اذا نظرنا في الفرنسية الأدبية فاننا نكتشف فيها بوضوح أصلها وهو لهجة جزيرة فرنسا L'Ile-de-France (5) كما أننا نكتشف في اللغة الايطالية المشتركة اللهجة التوسكانية (6) .

ومهما يكن من أمر فان اللغة الأدبية لا تفرض نفسها بين عشية وضحاها ، اذ نرى قسما كبيرا من السكان يستعملون لغتين ، لغة الجميع ولهيجتهم المحلية وهذا ما نشاهده في عديد من جهات فرنسا مثل « السافوا » Savoie حيث تمثل الفرنسية لغة مستوردة لم تقض على لهيجات تلك الجهة بعد . وهذه الظاهرة ظاهرة عامة في ألمانيا وفي ايطاليا حيث بقيت اللهجات مستعملة في كل مكان الى جانب اللغة الرسمية .

وقد حدثت هذه الأمور نفسها في كل الازمنة لدى جميع الشعوب التي بلغت درجة ما من الحضارة . فقد كان لليونان لغتهم المشتركة Koïné الناتجة عن اللغتين « الاتيكية » و « الايونية » . إلّا أن لهجاتهم المحلية ظلت مستعملة الى جانب هذه اللغات المشتركة . وحتى في بابل القديمة يذهب بعضهم الى امكانية اقامة البرهان على وجود لغة رسمية الى جانب مختلف اللهجات الجهوية .

وترى هل ان اتخاذ لغة مشتركة عامة يعني استعمال الكتابة بالضرورة ؟ يبدو أن قصائد الشاعر اليوناني هوميروس تثبت العكس . فبالرغم من أنها نشأت في عصر لم تكن فيه/الكتابة مستعملة أو تكاد ، فان لغتها ذات طابع متواضع عليه 269
وتتسم بجميع خصائص اللغة الأدبية .

ان الظواهر التي درسناها في هذا الفصل هي من الكثرة والاطراد بحيث يمكن اعتبارها عنصرا طبيعيا في تاريخ اللغات . بيد أننا سنغض الطرف عن كلّ ما من شأنه أن يدخل الاضطراب على رؤيتنا لتنوع اللغات تنوعا جغرافيا طبيعيا وذلك لكي نتناول الظاهرة الرئيسية فنتمعن فيها بقطع النظر عن كل ظاهرة تتعلق بدخول لغة أجنبية أو تكوّن لغة أدبية . ان في هذا التبسيط ما قد يدخل الضيم على الواقع ولكن ينبغي أن ندرس الظاهرة الطبيعية أولا وفي حدّ ذاتها .

وبناء على هذا المبدإ الذي تبنيناه فاننا نقول مثلا : ان مدينة بروكسال جرمانية لأنها تقع في الجزء الفلامندي من بلجيكا . فالتخاطب فيها بالفرنسية ولكن الشيء الوحيد الذي يهمنا هو الخط الفاصل بين المجال الفلامندي والمجال الفالوني . ومن جهة أخرى وتبعا لوجهة النظر ذاتها تكون مدينة لياج رَوْمنيّة لأنها موجودة على أرض فالونية . وليست اللغة الفرنسية فيها سوى لغة أجنبية متراكبة على لهجة من الأرُومة ذاتها . وتبعا لهذا أيضا تنتمي مدينة برست Brest لغويا الى البروطونية . أما الفرنسية التي يتكلّمها سكان هذه المدينة فلا تشترك في شيء مع اللسان المحلي الذي في مقاطعة « بروطانيا » Bretagne . أما برلين ، حيث لا يكاد المرء يسمع إلّا الألمانية العليا فاننا سننسبها إلى الألمانية السفلى .

الباب الثالث
أسباب تنوع اللغات جغرافيا

الفصل الأول : الزمان هو المتسبب الرئيسي في هذا التنوع

ان الانطلاق من فكرة الاختلاف المطلق بين اللغات يضعنا أمام مشكلة نظرية بحتة . أما الانطلاق من التنوع اللغوي في صلب الانتماء الى فصيلة لغوية واحدة فيجعلنا في موقف الملاحظ وقد يمكّننا من ارجاع الأنواع اللغوية المختلفة الى أصل واحد مشترك . وعلى هذا الأساس فان اللغتين الفرنسية والبروفنسالية كلتاهما تنحدران من اللاتينية العامية . وقد كانت تطورت على نحو معيّن في الشمال وعلى نحو آخر في جنوب بلاد الغال . أما أصلهما المشترك فيستنتج من مادة الشواهد المتعلقة بهما .

ولكي ندرك جيّد الادراك كيف تتم الأمور ، لنتصور أبسط اطار ممكن من الملابسات النظرية حتى يساعدنا على استخلاص العمل الجوهري الذي تسبب في التمايز بين أنواع اللغات التابعة لفصيلة واحدة جغرافيا . ولنتساءل عما قد يحدث لو أن لغة يتكلمها أناس في نقطة معيّنة،واضحة الحدود هي جزيرة مثلا ، نقلها معمرون الى نقطة معينة واضحة الحدود أيضا هي جزيرة أخرى . فبعد مضي حقبة من الزمن سنرى أنه قد ظهرت بين اللغة في موطنها الأول (م) وفي موطنها الثاني (م 1) فروق متنوعة في المعجم والنحو والنطق الخ .

ولا ينبغي أن نتصور أن اللسان المنقول الى مكانه الجديد هو وحده الذي سيتغير بينما يبقى اللسان الأصلي على حاله ثابتا لا يتغير . والعكس أيضا غير صحيح في المطلق . فقد تنشأ البدعة اللغوية من هذا الطرف أو من ذاك ومن من كليهما . وهب أنه توجد خاصية لغوية/نسميها « أ » يمكن تعويضها بخاصية أخرى هي (ب ، ج ، د الخ ...) فان التمايز اللغوي يمكن أن يتم على ثلاث صور مختلفة :

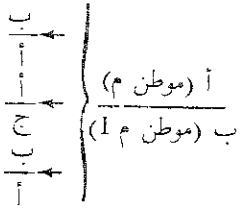

واذن فلا يمكن أن تكون الدراسة متعلقة بأحد هذين الطرفين اللغويين فقط . وما يبتدع من ابتداعات في هذه اللغة أو تلك له نفس القدر من الأهمية .

فما الذي أنشأ اذن تلك الفروق ؟ عندما يعتقد المرء أن المكان بمفرده هو الذي أنشأها فانه يكون واهما . فعامل المكان وحده لا يمكن أن يكون له أي تأثير . فالمعمرون الذين وفدوا على (م 1) انطلاقا من (م) حسب ما افترضناه أعلاه كانوا يتكلمون غداة وصولهم نفس اللغة التي كانوا يتكلمونها في اليوم السابق . لكن الناس يغفلون عن عامل الزمان لأن ادراك الحس للمكان أسهل من ادراكه للزمان . والحقيقة أن الزمان هو المتسبب في التمايز اللغوي . واذن فينبغي أن نترجم التنوع اللغوي باعتبار المكان الى تنوع لغوي باعتبار الزمان .

ولنفرض وجود خاصيتين مميزتين [بين لغتين] هما « ب » و « ج » . ولنفرض أنه لم يتم قط انتقال من الأولى الى الثانية أو العكس . فلكي نفهم كيف تم الانتقال من الوحدة الى التنوع ، ينبغي أن نعود الى الخاصية الاصلية « أ » التي حلت محلها « ب » و « ج » . فهي التي أحلت مكانها للشكلين

اللاحقين ومن هذا نستنتج هذه الترسيمة التي تصور التمايز اللغوي باعتبار المكان .
وهي صالحة لجميع الحالات المماثلة .

ان انفصال اللسانين هو الشكل الملموس لهذه الظاهرة . بيد أنه لا يفسرها .
272 ولا شك في أنّ هذه الظاهرة اللغوية لم تكن لتتفرع الى أنواع مختلفة لولا ما بين المكانين من اختلاف ، وان ضؤل . لكن تباعد الأمكنة وحده لا ينشىء الاختلافات اللغوية المذكورة . فكما لا يمكن أن نقدر حجما ما بالاعتماد على المساحة وحدها ، ولكن بالاعتماد وجوبا على بعد ثالث هو العمق ، فكذلك ترسيمة التنوع اللغوي باعتبار المكان ، لا تكون تامة إلّا متى أسقطت على محور الزمان .

فان قال قائل : ان الاختلاف في البيئة والمناخ وصورة الأرض والعادات الخاصة (التي يتميز بها شعب من ساكني الجبال عن آخر يسكن على ساحل البحر) قد يكون لها تأثير في اللغة وبالتالي فان التنوع اللغوي الذي نحن بصدد درسه مقيد بعوامل جغرافية ، قلنا : ان وجود تأثيرات من هذا القبيل أمر فيه نظر (انظر ص 203) وحتى لو أقيم الدليل على وجودها فانه ينبغي حينئذ أن نميز بين الأمور التالية : **ان اتجاه مثل هذا التطور** اللغوي يمكن أن يعزى الى البيئة . وهو اتجاه تتحكم فيه في كل حالة من الحالات الخاصة عوامل غير متوقعة يصعب تقديرها . فهب أن ضمة أصبحت كسرة مستديرة في وقت ما في بيئة ما . فلماذا تغيرت في ذلك الوقت وفي ذلك المكان بالذات ؟ ولماذا آلت الى تلك الحركة أي الضمّة لا إلى حركة أخرى مثل الضمة نصف المنغلقة ؟ ذلك مالا يمكننا الاجابة عنه . أما **التطور في حدّ ذاته** ، — بقطع النظر عن اتجاهه الخاص ومظاهره الخاصة — ونعني بالتطور عدم استقرار اللغة ، — فهو راجع الى عامل الزمان وحده . واذن فالتنوع اللغوي باعتبار المكان مظهر ثانوي من هذه الظاهرة العامة . ووحدة الألسن التي بينها قرابة لا يمكن الوصول اليها إلّا عبر الزمان وهذا مبدأ ينبغي على

المقارنين من الألسنيين أن يضعوه نصب أعينهم ان هم أرادوا أن لا يكونوا عرضة لما لا تحمد عقباه من أوهام .

الفصل الثاني : عمل الزمان في مجال تراني متصل الأجزاء

لنتصور الآن أنه يوجد بلد أحادي اللغة أي بلد يكون السكان فيه قارين يتكلمون لغة واحدة وعلى صورة واحدة . ولنأخذ مثالا على ذلك بلاد الغال حوالي سنة 450 بعد الميلاد حيث استقرت اللاتينية في كل أطرافها استقرارا .
273 فماذا سيحدث ؟ /

1) لمّا كان ثبوت اللغة على حالها ثبوتا مطلقا أمرا لا وجود له (انظر ص 121) فإنّ اللغة بعد مضي حقبة ما من الزمن ، لن تظلّ مماثلة لحالها السابقة .

2) ان التطور لا يكون على صورة واحدة على مدى كامل البلاد ، ولكنه يختلف من منطقة الى أخرى فانه لم يلاحظ قط أن لغة من اللغات أصابهـا نفس التغير على كامل مجالها التراني . واذن فالترسيمة التي تصور الواقع كما هو ليست هذه :

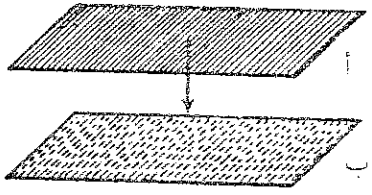

وإنّما هذه :

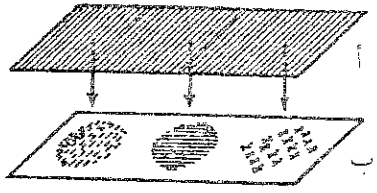

فكيف ينشأ التنوع المفضي الى خلق أشكال لهجية مختلفة الأنواع ؟ وكيف يتشكّل ؟ ان الجواب أقل بساطة مما يبدو لأول وهلة اذ إن لهذه الظاهرة خاصيتين أساسيتين اثنتين :

— الأولى أن التطور يظهر في صورة سلسلة من المبتدعات المتوالية الدقيقة تتمثل في عدد من الأحداث اللغوية الجزئية يمكن أن نحصيها ونصفها ونرتبها حسب نوعها وطبيعتها من صوتية ومعجمية وصرفية وتركيبية .

— أما الخاصية الثانية فتتمثل في أن كل واحدة من هذه الابتداعات تتم على
274 مساحة معينة وفي مجال متميز خاص بها . والأمر لا يخلو من شيئين/: إمّا أن ابتداعا من الابتداعات يكون شاملا لكامل التراب فلا ينتج عنه أي اختلاف لهجي وهذه الحالة أقل الحالات حدوثا . وإمّا أن الابتداع لا يطرأ إلّا على جزء من التراب فقط فيكون لكل ظاهرة لهجية مجالها المتميز وهذه أكثر الحالات حدوثا .

ان ما سنقوله بعد هذا عن التغيرات الصوتية ينطبق على أي ابتداع من الابتداعات مهما كانت طبيعته . وعلى سبيل المثال ، ان طرأ على قسم من التراب تغيّر ما كأن تصبح الفتحة (a) فتحة ممالة (e) .

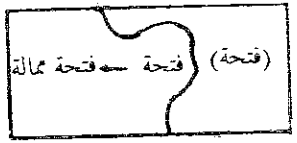

فانه يمكن أن تصير السين زايا ، ولكن في قسم آخر من نفس هذا التراب :

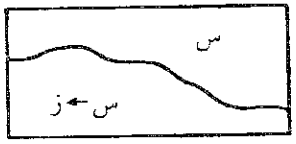

وعندئذ فان وجود هذه الأقسام ذات المجالات المتميزة هو الذي يفسر تنوع اللهيجات على كل نقطة من نقاط التراب التابع للغة من اللغات عندما تترك وشأنها فتتطور تطورا طبيعيا . ولا يمكن أن نتنبأ بحدود هذه المجالات ، ولا شيء

يمكن من أن نحدد امتدادها مسبقا . وحسبنا أن نقتصر على ملاحظة وجودها . وهي عندما تتراكب فوق الخريطة حيث تتقاطع حدودها ، تكوّن توليفة بالغة التعقّد وتكون صورة حدودها غريبة أحيانا . من ذلك أن الكاف التي ترسم c والكاف المهجورة (g) اللاتينيتين اذا أتبعتهما بفتحة (a) تحولتا الى « تْش » و « دج » ثم الى « شين » و « زاي » . انظر كيف آلت cantum الى chant وكيف آلت virga الى verge وذلك في شمال فرنسا بأكمله ما عدا منطقة بيكرديا Picardie وقسم من منطقة نورمنديا Normandie حيث بقيت الكاف والكاف المجهورة على حالهما (من ذلك قولهم في بيكرديا cat أي قِطٌّ بدلا من chat وقولهم rescapé — وقد انتقلت الى الفرنسية منذ عهد قريب — بدلا
275 من rechappé وقولهم vergue من اللاتينية virga المذكورة أعلاه الخ ...) ./

فما عسى أن يتولد عن مجموع هذه الظواهر ؟ هب أن لغة واحدة قد سادت على كامل مساحة تراب ما . فمن المحتمل أن سكان نقطتين متباعدتين أقصى التباعد من هذا التراب لن يمكنهم التفاهم فيما بينهم بعد مرور خمسة قرون أو عشرة . وبخلاف ذلك فان سكان أية نقطة من ذلك التراب سيظلون قادرين على فهم لهيجات الجهات المجاورة لهم . فاذا اخترق المسافر ترابا كهذا من أقصاه الى أقصاه لم يلاحظ بين قرية وأخرى إلّا تغيرات لهجية طفيفة جدا ولكنه كلما تقدم في السير لاحظ تراكم هذه الاختلافات حتى ينتهي به الأمر الى أن يصادف لغة لا يفهمها سكان الجهة التي منها انطلق . أو ان نحن انطلقنا من نقطة ما من هذا التراب فانتشرنا في جميع الاتجاهات فسنرى مجموع الاختلافات يتضاعف في كل اتجاه وان كان ذلك بصورة متغايرة .

ان الخصائص الملاحظة في لهيجة قرية من القرى تبقى موجودة في المواضع الآهلة المجاورة لها إلّا أنه يستحيل أن نتكهن بالمسافة التي ستمتد عليها كل واحدة من هذه الخصائص . ففي بلدة دوفان Douvain التابعة لمقاطعة السافوا العليا Haute savoie في فرنسا مثلا ، تراهم ينطقون اسم مدينة جنيف Genève دنيفا denva وصورة النطق هذه منتشرة انتشارا بعيدا ، شرقا وجنوبا . أما السكان الذين على الضفة الأخرى من بحيرة الليمان فتراهم ينطقونه « دزنيفا » dzenva والحال أن الأمر لا يتعلق بلهجتين تتميز إحداهما عن الأخرى تميزا واضحا جليّا .

لأن الحدود بالنسبة الى ظاهرة لغوية أخرى تكون مختلفة . من ذلك أنهم في بلدة دوفان يقولون daue بدلا من deux ، ولكن حيز انتشار هذا النطق أضيق من ذلك الذي تنتشر فيه « ذنبا » . أما عند سفح جبل سلاڤ Salève وعلى بعض كلمترات من هنالك فتراهم يقولون due .

الفصل الثالث : ليس للهجات حدود طبيعية

ان الصورة التي يتصورها الناس عادة عن اللهجات لصورة مغايرة تماما لما سبق . إنك تراهم يتصورون هذه اللهجات على أنها أنواع من الكلام مضبوطة معينة ومحصورة بين حدود معلومة من جميع الاتجاهات وتمثل على الخريطة مجالات متميزة ومتلاصقة (أ ، ب ، ج ، د ...)/إلّا أن الاختلافات اللهجية الطبيعية 276
تفضي الى نتيجة مغايرة تماما . فمنذ أخذنا ندرس كل ظاهرة في حدّ ذاتها ونحدّد مجال امتدادها اضطررنا إلى أن نحلّ مكان التصور القديم (الذي تمثله الترسيمة التالية) :

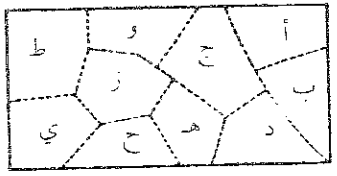

تصورا جديدا يمكن تحديده كما يلي : ان ما نجده لا يعدو أن يكون خصائص محلية ضبيعية . وأما اللهجات الطبيعية فلا وجود لها أو بعبارة أخرى مرادفة ، ان عدد اللهجات يضاهي عدد الأماكن .

وهكذا فان القول بوجود لهجة طبيعية لا يتلاءم مبدئيا مع وجود منطقة ممتدة امتدادا ما . فنحن أمام أحد أمرين : إمّا أننا نحدد اللّهجة بمجموع خصائصها وعندئذ يجب أن نركز النظر على نقطة واحدة من الخريطة وأن نكتفي بالنظر مثلا

الى لهجة تابعة لبقعة واحدة وذلك لأننا متى ابتعدنا عنها تعذر علينا أن نجد نفس الخصائص تماما . أو أننا نحدّد اللهجة بخاصية واحدة من خصائصها وعند ذلك فالراجح أننا سنحصل على مساحة هي المساحة التي تتفشى فيها الظاهرة اللغوية المعنية بالأمر . ولا يخفى ما في هذه الطريقة من تكلف وتصنع وما في هذه الحدود التي نسطرها على هذا النحو من انعدام التطابق مع الواقع اللهجي .

. ان البحث عن الخصائص اللهجية كان المنطلق الذي انطلقوا منه للقيام بالدراسات الخاصة بوضع الخرائط اللغوية . **وأطلس فرنسا اللغوي** الذي وضعه « جيليارون » Gillieron **أفضل** مثال لها . وينبغي أن نذكر أيضا أطلس ألمانيا الذي وضعه « فنكر » Wenker (7).ان شكل الأطلس اللغوي مسطر مسبقا اذ 277
أننا مضطرون الى أن ندرس البلاد/منطقة فمنطقة ، وبالنسبة الى كل منطقة لا يمكن لخريطة واحدة أن تشمل غير عدد قليل من الخصائص اللهجية . ونفس المنطقة الواحدة ينبغي أن توضع لها خرائط عديدة وذلك لكي تقدم للباحث فكرة عن الخصائص الصوتية والمعجمية والصرفية الخ التي تتراكب فيها . ان أبحاثا من هذا القبيل تقتضي تنظيما كاملا للأعمال وتحقيقات منتظمة بواسطة استجوابات يقوم بها مراسلون محليون الخ ... ومما يجدر ذكره في هذا السياق ، ذلك التحقيق الذي قاموا به عن اللهجات الجهوية في سويسرة الرومندية [الناطقة بالفرنسية] ومن فوائد الأطلسات اللغوية أيضا أنها توفر المواد للقيام بالدراسات الخاصة لعلم اللهجات من ذلك أن عديدا من الأبحاث المفردة التي ظهرت مؤخرا تعتمد أطلس جيليارون المذكور .

وقد أطلقوا على حدود الخصائص اللهجية عبارة lignes isoglosses أو isoglossesأي «خطوط التماثل اللهجي» على منوال isotherme أي«خطوط تماثل درجات الحرارة» إلّا أن عبارة isoglosse هذه مبهمة وليست في محلها اذ أن معناها « الذي له نفس اللغة » فان نحن قبلنا القول بأن كلمة glossème تعني « سمة لغوية خاصة » أمكننا أن نصحّح ذلك فنستعمل عبارة lignes isoglossématiques **أي خطوط تماثل السمات اللغوية الخاصة** ان جاز استعمال هذه العبارة . ولكننا نفضل أن نستعمل عبارة « **موجات الابتكار** »

مقتبسين في ذلك تشبيها يرجع الى « ي . شميدت I. Schmidt » وهو تشبيه سيرر صحته الفصل الموالي .

وعندما نلقي نظرة على خريطة لغوية ما فاننا نلاحظ أحيانا اثنتين أو ثلاثا من هذه الموجات تتوافق تقريبا بل وتمتزج تماما في مجال ما كما يبينه الرسم التالي :

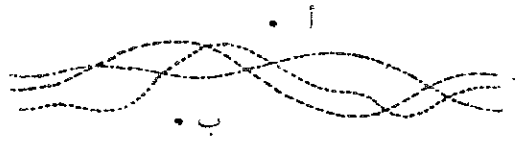

وهب أنه توجد نقطتان « أ » و « ب » . فاذا فصلت بينهما منطقة من هذا القبيل فمن البديهي انه تبرز بينهما جملة من الاختلافات فتكوّنان لهجتين درجة تميزهما كافية واضحة . ويمكن لهذه المطابقات ـ بدل/أن تكون جزئية ـــ أن تتعلق بكامل المحيط الخاص التابع لمجالين فأكثر . (أنظر الترسمية التالية) : 278

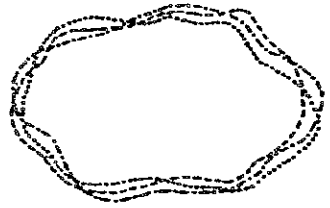

وعندما يبلغ عدد هذه المطابقات مبلغا كافيا ، يمكن عندها على سبيل التقريب أن نقول بوجود اللهجة . ولهذه المطابقات أسباب اجتماعية وسياسية ودينية الخ . ونحن ههنا نصرف عنها النظر تماما لأنها تحجب عنا ذلك العامل الطبيعي والأساسي المتسبب في التمايز اللغوي المطابق لوجود مجالات ترابية بعضها مستقل عن بعض وذلك دون أن تمحوه محوا تاما .

الفصل الرابع : ليس للغات حدود طبيعية

ليس من اليسير أن نقيم حدا فاصلا مميزا بين اللغة واللهجة . ففي كثير من الأحيان تراهم يطلقون اسم لغة على لهجة من اللهجات لأن أصحابها قد أنتجوا فيها أدبا كما هو الشأن مثلا بالنسبة الى البرتغالية والهولندية . كما أن لإمكانية التفاهم دورها في اقامة مثل ذلك التمييز . وكثيرا ما يميل المرء إلى القول ـــ ان هو رأى أناسا لا يفهم بعضهم بعضا ـــ بانهم يتكلمون لغات مختلفة . ومهما يكن من أمر فان فحص بعض اللغات التي نمت وانتشرت في رقعة ترابية متصلة الأطراف سكانها من أهل الحضر يمكّننا من أن نلاحظ نفس الظواهر التي نلاحظها في صلب اللهجات ولكن على نطاق أوسع . فنحن نجد في تلك اللغات من الابتكارات اللغوية إلّا أن تلك الموجات تشمل مساحة ترابية تشترك فيها لغات عديدة .

وانه ليتعذر علينا في نطاق الظروف المثالية التي افترضناها أعلاه أن نقيم حدودا فاصلة بين لغات تنتمي الى فصيلة واحدة كما تعذر علينا القيام بذلك وبنفس الدرجة بالنسبة الى اللهجات . فأهمية المساحة الترابية لا دخل لها في هذا السياق . وكما يستحيل أن نقول بالضبط أين ينتهي/مجال الألمانية العليا وأين يبدأ 279
مجال الألمانية السفلى ، فكذلك يستحيل علينا أن نرسم خطا فاصلا بين الالمانية والهولندية أو بين الفرنسية والايطالية . صحيح أنه توجد في الأطراف القصوى من هذا البلد ومن ذاك نقاط يمكن أن نقول بشأنها دونما تردد : « هنا تسود اللغة الفرنسية وهنا تسود الايطالية » . ولكننا بمجرد أن ندخل المناطق الوسطى نلاحظ انطماس ذلك التمييز . ولو تصورنا منطقة متلاحمة أصغر من ذلك على أنها نقطة انتقال من هذه اللغة الى تلك ـــ كنحو اللغة البروفنصالية مثلا في وقوعها بين الفرنسية والايطالية ـــ ، فان ذلك يكون تصورا لشيء لا وجود له . ثم ترى كيف يمكن أن نتصور في صورة أو في أخرى حدّا لغويا دقيقا على مساحة ترابية تنتشر فيها من أقصاها الى أقصاها لهجات يتمايز بعضها عن بعض تمايزا فيه تدرج ؟ ان معالم الحدود الفاصلة بين اللغة واللغة وكذلك بين اللهجة واللهجة لتنطمس في نقط الانتقال من هذه اللغة الى تلك . وكما أن اللهجات ليست من مساحة اللغة

الجملية سوى أقسام فرعية اعتباطية فكذلك الشأن بالنسبة الى الحد الذي يعتقد الناس أنه يفصل بين لغتين من اللغات . فانما هو حدّ بالتواضع .

على أن الانتقال المفاجىء من لغة الى أخرى ، كثير الحدوث فما هو مأتاه ؟ ان ظروفا غير ملائمة هي التي منعت نقط الانتقال التدريجي الذي لا يكاد المرء يحس به من البقاء . وأكثر العوامل تشويشا للوضع في هذا السياق انما هو تنقلات الشعوب من مكان الى آخر . فما زالت الشعوب منذ أقدم العصور في حركات مد وجزر ، وتلك التنقلات ، بتراكمها على مدى قرون من الزمن ، قد شوشت معالم تلك المعطيات ، وقد امّحت بسببها في عديد من الأماكن ذكرى المجالات اللغوية الانتقالية . وأفضل شاهد على ذلك انما هو فصيلة اللغات الهندية الأوروبية . فالراجح أنه قد كانت بين تلك اللغات في بداية أمرها صلات وثيقة جدا وأنها كانت تكوّن سلسلة متتابعة من المجالات اللغوية المسترسلة وأنه يمكن اعادة بناء أهم تلك المجالات في خطوطها العريضة . فبالاعتماد على خصائص اللغة الصقلبية نلاحظ أنها تسري فوق اللغتين الايرانية والجرمانية ، وهو ما يوافق توزع هذه اللغات جغرافيا . كما أنه يمكن اعتبار الجرمانية حلقة وسطى بين الصقلبية
والسلتية التي لها هي الأخرى/علاقات وثيقة مع الايطالية القديمة ؛ والايطالية 280
القديمة هذه لغة وسط بين السلتية واليونانيّة حتّى أنه يمكن للألسني ، وان وهو لم يعرف موقع جميع هذه الألسنة على الخريطة أن يسند الى كل منها موقعه الخاص به دونما تردد . على أننا بمجرد أن نتمعن في حدّ من الحدود الفاصلة بين مجموعتين من الألسن ـــ كالحدّ بين الجرمانية والصقلبية على سبيل المثال ـــ فاننا نلاحظ انتقالا فجئيا وبدون واسطة من هذه المجموعة الى تلك فيتصادم اللسانان تصادما عوض أن يذوب الواحد في الآخر ذوبانا . وذلك أن اللهجات المتوسطة بينهما قد اندثرت . فلا الصقالبة بقوا في مكان واحد ولا الجرمانيون . بل كل واحد من هذين الشعبين قد هاجر واحتل مساحات ترابية كانت تابعة للآخر . فالشعوب الصقلبية والجرمانية المتجاورة حاليا هي ليست تلك الشعوب التي كانت متصلة متجاورة قديما . وهب أن ايطاليي منطقة كالابريا La Calabre استقروا في المناطق المتاخمة لفرنسا ، فان تلك الهجرة ستقضي بطبيعة الحال على ما سبق أن لاحظناه من وجود وضع لغوي انتقالي لا يكاد المرء يشعر به بين الايطالية

والفرنسية . وما توفره لنا المندية الأوروبية انما هو مجموعة من الظواهر المماثلة لما ذكرنا منذ حين .

إلّا أنه توجد أسباب أخرى تسهم في محو تلك الحالات اللغوية الوسطى ، من ذلك انتشار اللغات الكبرى على حساب اللهجات المحليّة (انظر ص 291 وما بعدها) وفي أيامنا هذه تتصادم اللغة الفرنسية الأدبية (لغة جزيرة فرنسا قديما) في منطقة الحدود مع اللغة الايطالية الرسمية (وكانت لهجة منطقة تسكانيا قبل انتشارها في البلاد فيما بعد) . ومن حسن الحظ أنه ما زال يمكننا الى الآن العثور على لهجات محليّة انتقالية في جبال الألب العربية بينما لم نعد نعثر في العديد من المناطق الفاصلة بين اللغات على أثر يذكر لما كان يوجد بها من لهجات انتقالية .

281

الباب الرابع
انتشار الموجات اللغوية

الفصل الأول : قوة الانفتاح والتبادل وقوة الانغلاق والتعصب

يخضع انتشار الظواهر اللغوية الى نفس القوانين التي تخضع لها أية عادة بشرية أخرى كالموضة مثلا . ذلك أنه توجد في صلب كلّ مجموعة بشرية قوتان تعملان في آن على الدوام وفي اتجاهين مختلفين : فأنت تجد قوة نزعة الخصوصية والانغلاق (esprit de clocher) من جهة ، وقوة الانفتاح والتبادل (intercourse) (8)،وهي التي تخلق أسباب التواصل (9) بين البشر ، من جهة أخرى .

ان نزعة الانغلاق والتعصب هي التي تجعل مجموعة بشرية محدودة ما وفيّة لما ينشأ في صلبها من تقاليد لغوية . وتلك العادات والتقاليد هي أول ما يتبناه كل امرىء في صباه ، وهذا ما يفسر سبب قوتها ودوامها . ولو كانت تلك التقاليد تعمل عملها بمفردها لأنشأت في الكلام من الخصوصيات اللغوية مالا عدّ له ولا حصر .

ولكن توجد قوة مصادة تعدّل من تأثيراتها . فلئن كانت قوة الانغلاق

282

والتعصب تجعل من البشر حضرا فان قوة الانفتاح والتبادل تجبرهم على أن يتواصلوا فيما بينهم . فهي التي تدفع سكان قرية ما إلى المرور بقرية أخرى . وهي التي تتسبب في تنقل قسم من السكان ليشهدوا/احتفالا من الاحتفالات أو سوقا من الأسواق ، وهي التي تجمّع تحت الوية الجيش رجالا من مناطق مختلفة الى غير ذلك . انها في ايجاز مبدأ موحّد يعمل عملا معاكسا لذلك العمل المفرق الّذي يتسبب فيه التفكير المنغلق المتعصب . فانتشار اللغة وتماسكها انما يتم بفضل قوة الانفتاح والتبادل وتعمل هذه القوة على نحوين مختلفين : فهي تعمل عملا سلبيا تارة فتستبق ما يمكن أن يحدث من انقسام لهجي . فتقضي على ابتكار من الابتكارات اللغوية حالما يظهر في مكان ما . وتعمل عملا ايجابيا تارة أخرى فتساعد على الوحدة اللغوية عندما تجعل الناس يتبنون ذلك الابتكار ويعملون على نشره . ان هذه الصورة الثانية من صور الانفتاح والتبادل هي التي تبرر استعمالنا لكلمة **موجة** للدلالة على الحدود الجغرافية التي تحد ظاهرة لهجية ما (انظر ص 301) فخط التماثل اللغوي لهو كالحد الأقصى من فيض قد تمتد موجاته وقد تنحسر .

وفي بعض الأحيان تعتريك الدهشة وأنت تلاحظ أن لهجتين تابعتين للغة واحدة تشتركان في خاصية لغوية واحدة على ما بينهما من بعد الشقة . وذلك أن الابتكار اللغوي الذي ظهر في البداية في نقطة ترابية معينة لم يصادف أمامه أي حاجز يمنع انتشاره وانه انتشر شيئا فشيئا وبلغ أماكن بعيدة جدا عن مُنْطَلَقِهِ . فلا شيء البتة يقف أمام قوة الانفتاح والتبادل في صلب مجموعة بشرية ليس يوجد فيها سوى مجالات لغوية انتقالية لا يكاد الانسان يشعر بها . ان هذا التعميم لظاهرة خاصة ، مهما تكن حدوده ، يتطلب مدة من الزمن ، وهي مدة يمكن في بعض الأحيان تقديرها . من ذلك أن تحول الثاء الى دال الذي نشره الانفتاح والتبادل على كامل تراب المانيا القارّيّة قد انتشر أولا في جنوب البلاد وذلك بين سنتي 800 و 850 باستثناء « الفرنسيكية » francique (10) حيث بقيت الثاء موجودة ، ولكن في صورة ثاء مجهورة أي ذالا ولم تُحْلِ المكان فتعوض بحرف

الدال إلّا بعد ذلك . أما تحول التاء الى تاء متبوعة بزائدة صفيرية (أي تً) وترسم z فقد حدث داخل حدود ترابية أضيق بكثير وبدأ في عهد سابق للعهد الذي تعود اليه أولى الوثائق المكتوبة . ولعله يكون قد انطلق من جبال الآلب حوالي سنة 600 وامتد نحو الشمال والجنوب في آن واحد بمنطقة لُمبارديا . ويمكن للمرء إلى الآن أن يقرأ حرف التاء في معاهدة ثورنجية يعود تاريخها الى القرن الثامن
الميلادي . وفي عهد أقرب الينا آلت كل كسرة طويلة وكل ضمة طويلة في الجرمانية/ 283
الى حركات مزدوجة (انظر مثلا mein عوضا عن mīn و braun عوضا عن brūn) . فقد انطلقت الظاهرة من منطقة « بوهيما » Bohême حوالي سنة 1400 ولم تبلغ نهر الراين فتشمل الحيز الذي تشغله حاليا إلّا بعد مضي 300 سنة .

لقد انتشرت هذه الظواهر اللغوية بواسطة العدوى ومن الراجح أن الأمر يتم على هذا النحو بالنسبة الى جميع الموجات اللغوية . فهي تنطلق من نقطة ما ومنها تنتشر في جميع الاتجاهات . وهذا ما يفضي بنا الى أن نلاحظ ملاحظة هامة أخرى .

لقد تبينا أن العامل الزمني عامل كاف لتفسير تنوع اللغات جغرافيا . ولكنه عامل لا يمكن التثبت من صحته تمام التثبت إلّا متى اعتبرنا المكان الذي نشأ فيه ذلك الابتكار اللغوي . ولنعد الى مثال تغيّر الحروف في الألمانية . فاذا آل صوتم هو التـاء الى « تً » في نقطة ما من التراب الجرماني ، فان الصوتم الجديد سيشع حول النقطة الأصل التي منها كان منطلقه . وهذا الانتشار في المكان هو الذي يجعله يدخل في صدام مع صوت « التاء » الأصلية أو مع أصوات أخرى قد تكون نجمت عنها في أماكن أخرى . وفي المكان الذي ينشأ فيه ابتكار من هذا القبيل ، فان ذلك الابتكار لا يكون إلّا حدّا صوتيا محضا . أما في غير ذلك من الأماكن فإنّ هذا الابتكار لا يتم الا جغرافيا وعن طريق العدوى . وعلى هذا النحو فان الترسيمة التالية :

ت
↓
تً

ليست صالحة في أبسط صورتها تلك إلّا في موطن الابتكار . أما اذا حاولنا تطبيقها على الانتشار اللغوي ، فانها تقدم لنا عنه صورة غير دقيقة .

فينبغي على عالم الأصوات اذن أن يميّز تمييزا دقيقا بين مواطن الابتكار أي تلك التي يتطور فيها صوتم ما على محور الزمان فقط ، وبين مجالات العدوى اللغوية التي لمّا كانت متعلقة بالزمان والمكان معا ، فلا يمكن أن يكون لها أي دخل في صلب نظرية الظواهر الصوتية المحض . فاذا ما ورد من الخارج صوت هـو « تً » وحل محل التاء المحلية ، فان الأمر لا يتعلق بتغيّر أصاب النموذج الأصلي التقليدي ، وانما يتعلق بمحاكاة للهجة محلية مجاورة بقطع النظر تماما عن ذلك النموذج
284 الأصلي . أما اذا/عوضت صيغة herza أي « قلب » الآتية من جبال الآلب كلمة أخرى أقدم منها ، موجودة بمنطقة « تورنجة » Thuringe هي كلمة herta فلا ينبغي أن نقول بحدوث تغير صوتي وانما نقول بحدوث عملية اقتراض لصوتم من الصواتم .

الفصل الثاني : ارجاع القوّتين الى مبدإ واحد

في نقطة ترابية معلومة ـــ ونعني بذلك أدنى مساحة يمكن تمثيلها بنقطة على سطح الخريطة كنحو قرية ـــ من اليسير جدا أن نميز بين ما هو تابع لكل واحدة من القوتين المتواجدتين أي نزعة الانغلاق والتعصب ونزعة الانفتاح والتبادل . ولا يمكن لظاهرة من الظواهر أن تتعلق بواحدة إلّا اذا لم تتعلق بالأخرى . فكل صفة تشترك فيها لهجة محلية مع لهجة أخرى راجعة الى نزعة التفتح والتبادل ، وكل صفة تنفرد بها اللهجة التابعة للنقطة الترابية التي نحن بصدد النظر اليها انما سببها قوة الانغلاق والتعصب . ولكن بمجرد أن يتعلق الأمر بمساحة ، كأن يتعلق بمقاطعة بأكملها ، تبرز صعوبة جديدة اذ يصبح من المستحيل في هذه الحال أن نرجع ظاهرة من الظواهر الى واحد من هذين العاملين . فهذان العاملان لئن تقابلا فانهما يتضافران في التأثير في كل صفة من صفات اللسان . فما يميز هذه المقاطعة عن غيرها من المقاطعات هو أمر تشترك فيه جميع أجزائها . وفي هذه الحالة فان قوة التعصب والخصوصية هي التي تعمل عملها اذ هي تحجر على أهالي تلك المقاطعة « أ » أن يقلدوا أهالي المقاطعة المجاورة « ب » في بعض خصائصهم

اللغوية . وهي بعكس ذلك تحجّ على أهالي مقاطعة « ب » أن يقلدوا أهالي مقاطعة « أ » . إلّا أن القوة الموحدة وهي قوة الانفتاح والتبادل تتدخل أيضا في هذه العملية إذ هي تتجلى بين مختلف أجزاء أ (أي في « أ 1 » وفي « أ 2 » وفي « أ 3 » الخ ...) وعلى هذا النحو فعندما يتعلق الأمر بمساحة فان القوتين تعملان في آن واحد وان كان قسط عمل كل منهما مختلفا عن قسط عمل الأخرى . فكلما زاد اسهام الانفتاح والتبادل في ظهور ابتكار لغوي ما ، زاد انتشار ذلك الابتكار واتسع مجاله . أما نزعة الانغلاق والتعصب فان عملها يتمثل في المحافظة على أية ظاهرة من الظواهر كما هي في الحدود الترابية التي اكتسبتها ، ذائدة عنها كل ما من شأنه أن يزاحمها من الخارج . ويستحيل على المرء أن يتكهن مسبقا بما سينتج عن عمل كلتا القوتين . فقد سبق أن رأينا (ص 307) في مجال اللغات الجرمانية الذي يمتد من جبال الآلب الى بحر الشمال أن ابدال/الثاء دالا قد عمّ جميع تلك المنطقة بينما لاحظنا أن ابدال التاء بـ « ت ت » لم يبلغ إلّا جنوب تلك البقعة من الأرض . ذلك أن نزعة الانغلاق والتعصب قد نجم عنها خلاف بين الشمال والجنوب ولكننا نلاحظ انسجاما لغويا داخل هذه الحدود يرجع الفضل فيه الى قوة الانفتاح والتبادل . وهكذا فانه لا وجود مبدئيا لأي فرق أساسي بين الظاهرة الثانية والظاهرة الأولى . فنفس القوتين متواجدتان ولا فرق بينهما إلّا في درجة شدّة عمل كل واحدة منهما .

285

ومعنى هذا أننا عندما ندرس التطور اللغوي الحاصل على مساحة ما ، يمكننا عمليا أن نغض الطرف عن قوة التعصب والخصوصية أو — والأمران سيّان — أن نعتبرها تمثل الجانب السلبي من القوة الموحدة . فان كان للنزعة الموحدة من القوة ما يكفي فانها ستركز الوحدة اللغوية على المساحة بأكملها ، وإلّا فان هذه العملية ستتوقف أثناء الطريق فلا تمتدّ إلّا على جزء من المساحة الترابية . إلّا أن ذلك لن يمنع هذه الرقعة المحدودة من أن تمثل وحدة متماسكة بالنسبة الى أجزائها . ولجميع هذه الأسباب فانه يمكننا أن نعزو جميع هذه الأمور الى القوة الموحدة وحدها بدون أن نعتبر أن لنزعة الانغلاق والتعصب دورا لأنها ليست سوى نزعة التفتح والتبادل الخاصة بكلّ منطقة من المناطق .

لا يمكن للمرء أن يباشر وضع لغة من اللغات في تطوّرها على نحوين متوازيين في منطقتين لا اتصال بينهما إلّا عندما يدرك أن الانسجام اللغوي الخاص بكتلة بشرية ذات لغة واحدة يختلف باختلاف الظواهر وعندما يدرك أن الابتكارات اللغوية لا تصبح جميعها عامة مطّردة ، وأن عدم الانقطاع بين أجزاء منطقة جغرافية ما لا يمنع من حدوث تمايزات أخرى لا نهاية لها .

وهذه الظاهرة كثيرة الاطراد والحدوث ، من ذلك أنه منذ اللحظة التي انتقلت فيها الجرمانية الى الجزر البريطانية فانها قد سارت في تطورها على مسارين اثنين مختلفين : فكانت اللهجات الألمانية من جهة وكانت الانقلوسكسونية ، وهي اللغة التي تولدت عنها اللغة الانقليزية ، من جهة أخرى . ويمكننا كذلك أن نستشهد في هذا السياق بمثال اللغة الفرنسية بعد تحويلها الى/كندا . فعدم الاتصال بين أجزاء اللغة ليس دائما نتيجة الاحتلال أو الغزو بل هو أمر قد يحدث أيضا بسبب الانعزال . فاللّغة الرومانية (11) قد انقطعت صلتها بالمجموعة اللغوية اللّاتينية بسبب قيام الشعوب السلافية حاجزا بينهما على أن المتسبب في ذلك الانقطاع ليست له أهمية تذكر . بل الذي يهمنا قبل كل شيء انما هو أن نعرف إن كان للتفرقة دور في تاريخ اللغات وهل تُحدث تأثيرات تختلف عن تلك التي تنشأ في نطاق الاتصال الترابي .

286

ولنبرّرَ ما لعامل الزمان من دور أساسي ، تصوّرنا أعلاه وجود لسان يتطور على نحوين متوازيين في نقطتين ترابيتين ليست لهما مساحة كبيرة ، ومثّلنا لذلك بجزيرتين . وهي حالة يمكن أن نغض فيها الطرف عن تفشي الظواهر اللغوية شيئا فشيئا بقعة فبقعة ، ولكننا بمجرد أن نتناول مجالين ترابيين لهما مساحة كبيرة فان تلك الظاهرة تبرز من جديد وتتسبب في فروق لهجية بحيث لم تصبح المسألة أقل تعقدا من جراء مباشرتنا لمجالين ترابيين لا اتصال بينهما . وينبغي لنا أن نحترز فلا نعْزو الى عامل العزلة ما يمكن أن نجد له تفسيرا بدون هذا العامل . وذلك هو الخطإ الذي ارتكبه رواد دراسة اللغات الهندية الاوروبية (انظر ص 18) وذلك أنهم عندما واجهوا هذه الفصيلة الكبيرة من اللغات التي اختلف بعضها عن بعض

اختلافا كبيرا ، ظنّوا أن المتسبب في مثل هذا الاختلاف انما هو تجزؤ المناطق
الجغرافية وتشتتها وفاتهم أنه يمكن أن يُعْزَا الى أسباب أخرى . ومردّ ذلك أنه من
اليسير على الانسان أن يتصور وجود لغات متمايزة في أماكن لا اتصال بينها .
والملاحظ السطحي الذي لا ينفذ الى بواطن الأمور يكتفي بمثل هذا الانفصال
لتفسير تمايز اللغات . والأدهى من ذلك أننا نرى بعضهم يقرن في تصوره مفهوم
اللغة بمفهوم القومية مفسرا هذا بتلك . ومن ذلك أنهم كانوا يتصورون الشعوب
الصقلبية والجرمانية والسلتية وغيرها بمثابة خشارم من النحل خرجت من جبح
واحد وأن أولئك الأقوام اذ هاجروا قد انفصلوا عن أرومتهم فحملوا معهم اللغة
الهندية الأوروبية فنشروها في عدد من الأقطار مماثل لعددها . ولم يعدلوا عن هذا
287 الخطإ إلّا في عهد متأخر بلغ سنة 1877/وهي السنة التي صدر فيها كتاب
« يوحنّا شميت»Johannes Schmidt « صلات القربى بين الهنديين الأوروبيين »
Die verwandtschaftverhätnisse der Indogermanen فنتح به بصائر
الألسنيين لأنه كان أول من طلع على الناس بنظرية الاسترسال أو نظرية
الموجات (Wellentheorie) فأدرك الناس آنذاك أن التجزئة اللغوية التي تتم في
مكان واحد أمر كاف لتفسير ما بين اللغات الهندية الأوروبية من علاقات متبادلة
دون أن يكون من الضروري القول بأن مختلف الشعوب قد نزحت عن مواطنها
الأصلية (انظر ص 304) . فمن الممكن بل قُلْ ومن الأرجح أن تكون هذه
التمايزات اللهجية قد حصلت من قبل أن تنتشر هذه الأمم في شتى أنحاء
المعمورة . وهكذا فان نظرية الموجات لا توفر لنا صورة أصح عن وضع اللغات
الهندية الأوروبية في فترة ما قبل تاريخها فقط بل تكشف لنا أيضا عن القوانين
الأساسية التي تخضع لها قرابة اللغات .

إلّا أن نظرية الموجات هذه تتناقض ونظرية هجرات الشعوب دون أن تتنافى
واياها بالضرورة فتاريخ اللغات الهندية الأوروبية يشتمل على أكثر من مثال عن
شعوب انقطعت عن أصلها على اثر تنقلها . ولا بدّ أن يكون هذا الانقطاع قد
تسبب في تأثيرات من نوع خاص . لكن هذه التأثيرات تنضاف الى تلك
التأثيرات الأخرى الناجمة عن التمايز الذي يحدث في نطاق الاتصال الترابي فيصبح
من العسير جدا آنذاك أن نعين بالضبط فيم تتمثل تلك التأثيرات . وهذا ما يرجع
بنا الى قضية تطور لسان ما على مناطق ترابية منقطعة لا اتصال بينها . ولنأخذ

اللغة الانقليزية القديمة شاهدا . فهي قد انفصلت عن جذعها الجرماني عن طريق
الهجرة ، ومن الراجح أنها لم تكن لتوجد في شكلها الحالي لو ظلت الشعوب
السكسونية ثابتة في أماكنها من القارة الأوروبية في القرن الخامس الميلادي دون أن
تهاجر . لكن ما عسى أن يكون لهذا الانفصال من تأثيرات خصوصية ؟ ولتقدير
ذلك ينبغي أن نتساءل أليس من الممكن لهذا التغير أو ذاك أن ينشأ حتى ولو
كان ذلك في نطاق الاتصال الجغرافي ؟ ولنفرض أن الانقليز قد احتلوا
« اليوتلند » jutland (12) بدل احتلالهم للجزر البريطانية . فهل يحق لنا أن
نجزم بأن أية واحدة من تلك الظواهر التي تُعْزَا الى الانفصال المطلق لم تكن
لتحدث في صورة ما لو كان التراب متصل الأجزاء ؟ فعندما نذهب الى أن عدم
288 الاتصال الجغرافي/هو الذي جعل اللغة الانقليزية تحتفظ بصوت الثاء الذي كان
فيها قديما ، بينما يرى المرء أن ذلك الصوت قد أبدل دالا في جميع أنحاء القارة
(أنظر « ثنق » thing في الانقليزية و « دينق » Ding في الألمانية) فان ذلك يكون
كما لو أننا زعمنا أن ذلك التغير قد عمّ وانتشر في الجرمانية القارية بفضل الاتصالية
الجغرافية والحال أن هذه الظاهرة كان من الممكن جدا أن لا تعمّ ولا تنتشر رغم
وجود الاتصالية الجغرافية . فهذا خطأ مأتاه الدائم أن الناس يقابلون اللهجة المنعزلة
باللهجات غير المفصول بينها . وواقع الأمر أننا لو افترضنا قيام مستعمرة انقليزية
باليوتلند ، فلا شيء يثبت بالضرورة أن عدوى ابدال الثاء دالا من شأنها أن تنتشر
في تلك المستعمرة . فقد رأينا على سبيل المثال في المجال اللغوي الفرنسي كيف أن
صوت الكاف المتبوع بفتحة بقي كما هو في زاوية تحدها منطقتا بيكرديا ونورمانديا
وانه قد تغير في كل مكان سواه فأصبح صوتا مشأشأ chaintam هو صوت
الشين . وهكذا فان التفسير القائم على مفهوم الانعزال تفسير سطحي لا يفي
بالحاجة . وليس من الضروري البتة أن نلتجيء اليه كي نفسر حدوث تمايز لغوي
ما . فما يمكن أن يحدثه الانعزال الجغرافي ، يمكن للاتصال الجغرافي أن يحدثه
وبنفس الصورة كذلك . واذا كان هنالك فارق بين هذين الصنفين من الظواهر
فانه فارق لا قدرة لنا على ادراكه

لكن اذا نحن نظرنا الآن في لسانين بينهما صلة قرابة وذلك لا من وجهة النظر
السلبية وهي تميز أحدهما من الآخر ولكن من وجهة النظر الايجابية وهي ما بينهما
من لحمة وتشابه فاننا نلاحظ [illegible] أن كل علاقة بين هذين

اللسانين تصبح قابلة بالقوة لأن تقطع منذ اللحظة التي يتم فيها انفصالهما . بينما نلاحظ في حالة الاتصال الجغرافي بينهما ، بقاء شيء من التلاحم والتضامن حتى بين لهيجات متمايزة تمايزا واضحا شريطة أن تتوسط بينهما لهجات تربط بعضهما ببعض .

ولهذا فان نحن أردنا أن نقدر مختلف درجات القرابة بين اللغات ، وجب أن نميز تمييزا دقيقا بين حالة اتصال هذه اللغات وحالة انعزالها . ففي حالة الانعزال يحتفظ اللسانان من ماضيهما المشترك بجملة ما من الخصائص تشهد بقرابتهما . لكن لما كان كل منهما قد تطور تطورا مستقلا عن تطور الآخر فان الخصائص الجديدة التي تكون قد ظهرت في أحدهما لا يمكن العثور عليها في صلب الآخر وذلك باستثناء الحالة التي تكون فيها بعض الخصائص التي نشأت في اللسانين 289
بعد انفصالهما هي هي وذلك عن محض الصدفة والاتفاق . والذي يستحيل — مهما تكن الحال — هو أن يتم تفشي هذه الخصائص عن طريق العدوى . وعلى العموم فان أية لغة قد تطورت في نطاق الانفصالية الجغرافية تضم بالنسبة الى قريباتها من اللغات مجموعة من السمات الخاصة بها والتي لا توجد في سواها . وعندما تنقسم هذه اللغة بدورها فان مختلف اللهجات المتفرعة عنها — لما فيها من خصائص مشتركة — ستقوم دليلا على أن بينهما من علاقات القرابة أوثق مما بينها وسائر اللهجات التابعة للمنطقة الجغرافية الأخرى . فهي تمثل حقا فرعا منفصلا عن الجذع المشترك .

أما العلاقات القائمة بين اللغات الواقعة في مجال ترابي متصل الأجزاء فالشأن فيها مختلف تماما عما سلف ذكره . وذلك أن ما تحتوي عليه تلك اللغات من سمات مشتركة ليست أقدم بالضرورة من الخصائص التي تميز بينها . وفعلا فلا يمكن لأي ابتكار لغوي انطلق من نقطة ما من التراب أن يعمم في أي وقت من الأوقات وأن يشمل كامل مساحة ذلك التراب . زد على ذلك أنه لما كانت مجالات الابتكارات اللغوية تختلف مدى من حالة الى أخرى فانه يمكن للسانين متجاورين أن يشتملا على خاصية مشتركة دون أن يكوّنا مع ذلك فريقا مستقلا على حدة في صلب مجموعتها اللغوية . كما أنه يمكن لكل منهما أن يلحق بثيره من الألسن المجاورة له لاشتراكهما معا في بعض الخصائص الأخرى على نحو ما تشهد به اللغات الهندية الأوروبية .

(1) شبيه بهذا تسمية العرب لغير العرب من المسلمين بكلمة « الأعاجم » من أعجم وهو ضد أعرب أي بيّن ووضح (المترجمون) .

(2) هي مجموعة من اللغات تتكلمها شعوب افريقيا الواقعة جنوب خطّ الاستواء وخاصة الكفريون (الناشرون) .

(3) تشتمل هذه الفصيلة فيما تشتمل على اللغة الفنلندية في حد ذاتها وتسمى أيضا السومية Suomi والمُرْدْفِينْ Mordvin واللابونية Lapon الخ ... وهي فصيلة لغوية يتكلمها سكان روسيا الشمالية وسكان سيبريا . والراجح أنها تنحدر من لسان بدائي مشترك . ويلحقها بعضهم بمجموعة لغوية واسعة جدا تضم اللغات الاورالية الالتائية Ouralo-altaïque ولم يثبت أنها كانت ذات أصل مشترك رغم ما يوجد في كل واحدة منها من بعض السّمات المشتركة (الناشرون) .

(4) انظر كتابه : L'Unita d'origine del linguagio « الاصل المشترك للكلام » — مدينة بولونيا إيطاليا 1905 (الناشرون) .

(5) عبارة تطلق على منطقة باريس (المترجمون)

(6) وكذلك اللغة العربية الفصحى بالنسبة الى لهجة قريش (المترجمون)

(7) انظر كذلك كتاب : weigand وعنوانه Linguistischer Atlas des dakorumänische Geiets 1909
وكتاب Millardet وعنوانه Petit Atlas Linguistique d'une région des Landes 1910

(8) هي كلمة اقتبسها المؤلف من الانقليزية من معانيها العلاقات الاجتماعية والتجارية وجميع أنواع التواصل .

(9) نترجم بها communications (المترجمون)

(10) تطلق هذه التسمية على كل لهجة جرمانية كانت تستعملها قبائل الافرنج Francs أو المجموعات اللاتينية المنحدرة من تلك الأرومة (المترجمون)

(11) أي لغة رومانيا الحاليّة (المترجمون)

(12) هو المنهلقة القاريّة من بلاد الدانمارك (المترجمون)

القسم الخامس

مسائل في الألسنية الاسترادية

الباب الأول
اتجاهات الألسنية الزمانية

291

لئن كانت الألسنية الآنية لا تقبل سوى منظار واحد هو منظار المتكلمين وبالتالي لا تقبل إلا منهجا واحدا ، فان الألسنية الزمانية تفترض في نفس الوقت وجود منظارين اثنين أحدهما استقبالي يساير مجرى الزمان والآخر استردادي يعود فيه الى الوراء (انظر ص 140) .

ويوافق الاتجاه الاولُ سير الأحداث الحقيقيّ وهو الاتجاه الذي نسلكه ضرورة لكتابة أي فصل في الألسنية التاريخية أو لتحليل اية نقطة في تاريخ لغة من اللغات . ويتمثل هذا المنهج في مجرّد فحص ما لدينا من وثائق . لكن القيام بالألسنية الزمانية على هذا المنوال يكون منقوصا أو غير قابل للتطبيق في عدد كبير من الحالات .

وبالفعل فاننا اذا أردنا أن نضبط تاريخ لغة من اللغات بجميع تفاصيله بمسايرة مجرى الزمان وجب/أن يتوفر لدينا عن تلك اللغة عدد لا حدّ له من الصور 292
نلتقطها بين الفينة والأخرى . إلّا أن هذا الشرط لا يتوفر أبدا : فعلماء اللغات الرُّومانية (1) مثلا رغم أنهم محظوظون بفضل معرفتهم باللّاتينية التي تمثّل نقطة الانطلاق في أبحاثهم وبفضل امتلاكهم لكتلة ضخمة من الوثائق الممتدة على قرون عديدة ـــ يلاحظون في كل حين وآونة ثغرات كبيرة جدا فيما تجمّع لديهم من وثائق . لذلك وجب أن نعدل عن المنهج الاستقبالي أي المنهج القائم على

الوثيقة المباشرة وأن نعكس الآية بالرجوع في الزمان وذلك باتباع الاتجاه الاستردادي . ومن يسلك هذه الوجهة الثانية ينطلق من عصر معيّن لا للبحث عما يتولّد عن صيغة من الصيغ بل للوقوف على أقدم صيغة يمكن أن تكون قد أحدثتها .

واذا كان الاتجاه الاستقبالي يؤول إلى مجرّد سرد [الوقائع اللغوية] ويقوم بأكمله على نقد الوثائق ، فان الاتجاه الاستردادي يتطلب منهجا يقوم على المقارنة لاعادة بناء تلك الوقائع . ولئن تعذر علينا أن نضبط الصيغة الأصلية لدليل واحد منعزل فان الانطلاق من دليلين مختلفين لكن من أصل واحد مثل الكلمة اللاتينية pater والكلمة السنسكريتية pitar ومعناهما « أب » أو مثل جذر كلمة ger-ō أي لبس وحمل وجذر كلمة ges-tus أي هيئة يجعلنا نلمح بعد بواسطة المقارنة بينهما الوحدة الزمانية التي تربط كل واحد منهما بنموذج أصلي يمكن اعادة بنائه بواسطة الاستقراء . وكلما كانت عناصر المقارنة أكثر ، كانت الاستقراءات أدق وأفضت الى عمليات اعادة بناء الواقع اللغوي بناء حقيقيا ، وذلك بشرط توفر ما يكفي من المعطيات .

وكذلك الشأن بالنسبة الى كافة اللغات في مجموعها . فنحن لا نستطيع أن نخرج من دراسة اللغة الباسكية (2) بأية نتيجة لأنها بانعزالها تستعصي على كل مقارنة ، بينما تمكّن الدارسون ـــ انطلاقا من حزمة من اللغات المتقاربة مثل اليونانية واللاتينية والصقلبية القديمة وغيرها واعتمادا على المقارنة بينها ـــ من استخراج ما تضمنه من عناصر أصلية مشتركة بينها ومن اعادة بناء أهمّ ما في الهندية الأوروبية على الصورة التي كانت توجد عليها قبل أن تتفرّع إلى لغات مختلفة في الفضاء الجغرافي ، ثم أعادوا ما قاموا به من عمل عريض شامل حول
293 الفصيلة الهندية الأوروبية بأكملها ، فطبقوه/بصورة أضيق على كل فرع من فروعها ـــ متوخين دائما نفس المنهج ـــ كلما دعاهم الأمر الى ذلك وكلما وجدوا اليه سبيلا . ولئن توفرت لدينا مثلا وثائق عديدة تقوم شاهدا مباشرا على اللهجات الجرمانية فاننا لا نعرف الجرمانية المشتركة التي نشأت عنها تلك الألسن إلّا بصورة غير مباشرة أي باعتماد الاتجاه الاستردادي . فقد اتبع اللغويون هذا المنهج بالذات في بحثهم عن الأصل الأول الموحد للغات كل فصيلة من الفصائل الأخرى (انظر ص 287 ، فنجحوا في ذلك تارة وفشلوا أخرى .

فالمنهج الاستردادي يمكننا اذن من التوغل في ماضي لغة من اللغات توغلا نتجاوز به عهد أقدم الوثائق . من ذلك أن التاريخ الاستقبالي للغة اللاتينية مثلا لا يكاد يبدأ إلّا في القرن الثالث أو الرابع قبل الميلاد ؛ بينما مكّنتنا اعادة بناء اللغة الهندية الاوروبية من تصوّر ما يمكن أن يكون قد حدث خلال الفترة الممتدة بين قيام الأصل الأول الموّحد وأقدم الوثائق اللاتينية المعروفة لدينا ، أما الصورة الاستقبالية عن هذه اللغة فلم نتمكن من رسمها إلّا بعد ذلك .

والألسنية التطوّرية من هذه الزاوية شبيهة بعلم الجيولوجيا الذي هو كذلك علم من العلوم التاريخية . وقد يصف أصحاب هذا العلم عرضا ، بعض الحالات القارة (مثل الحالة التي عليها منخفض الليمان (3) الآن) وذلك بقطع النظر عما يمكن أن يكون قد سبق تلك الحالة في الزمن لكنهم يهتمون خاصة بأحداث وتغيرات يكوّن تسلسلها سلسلة من الزمانيات . ولئن أمكن نظريا أن نتصور علم جيولوجيا استقباليا فالواقع يثبت أن النظرة لا يمكن أن تكون في أغلب الأحيان إلّا استردادية لا غير . فقبل أن نصف ما حدث في نقطة ما من الأرض تجدنا مضطرين الى إعادة بناء سلسلة الأحداث والبحث عما جرّ تلك النقطة من الكرة الأرضية الى أن تصبح على ما هي عليه الآن .

ولا يختلف هذان الاتجاهان اختلافا صريحا من حيث المنهج فقط بل حتى من الناحية التعليمية فان استعمالهما معا في بسط مسألة من المسائل أمر لا طائل من ورائه . فدراسة التغيرات الصوتية مثلا تفضي بنا الى عرضين يختلفان اختلافا
294 كبيرا وذلك بحسب/اتباعنا لهذا الاتجاه أو ذاك . فان نحن عالجنا المسألة استقباليا وتساءلنا مثلا عن الصوت ĕ في اللاتينية الكلاسيكية كيف أصبح في الفرنسية لاحظنا عندئذ وجود صوت واحد تنوع أثناء تطوّره في الزمان ، وعنه تولدت صوامت عديدة . انظر :

— pĕdem ⟵ pye وترسم pied أي « ساق »
— vĕntum ⟵ vã وترسم vent أي « ريح »
— lĕctum ⟵ li وترسم lit أي « سرير »
— nĕcare ⟵ nwaye وترسم noyer أي « أغرق »

الخ ..

وان نحن عكسنا الآية وبحثنا بصورة استردادية عمّا كانت عليه في اللّاتينية الحركة الفرنسية المنفتحة ę أي الفتحة لاحظنا أن صوتا وحيدا قد تولّد عن صوائم عديدة متميزة في الأصل :

أنظر :	tęr	وترسم	terre	من	tĕrram أي «أرض»
	vęrž	وترسم	verge	من	vĭrgam أي «قضيب»
	fę	وترسم	fait	من	factum أي «فعل» الخ .

كما يمكننا أيضا أن نعرض تطوّر العناصر الصياغية على نحوين اثنين مختلفين . ولو فعلنا لاختلف عرضا هذه النقطة والعرضين أعلاه على حدّ سواء ، وان جميع ما أوردناه بالصفحة 233 وما بعدها فيما يتعلق بالعمليات الصياغية القائمة على القياس يثبت مسبقا صحة ذلك : فان نحن بحثنا مثلا (باتباع الاتجاه الاسترادي) عن أصول اللاحقة é- علامة اسم المفعول في اللغة الفرنسية ــ عاد بنا ذلك الى اللاحقة ātum- اللّاتينية المتصلة من حيث الأصل بالأفعال المشتقة من الأسماء المنتهية بـ are - وهذه الأفعال بدورها متولد جلها عن الاسماء المؤنثة التي علامة التأنيث فيها a - (انظر planta : plantāre « أنبت : نبتة » وفي اليونانية tīmáō : tīma «قدّر : قدْر » وغيرها) . ومن ناحية أخرى فان اللاحقة ātum - ما كانت لتوجد لو لم تكن الزائدة الهندية الأوروبية -to- زائدة حيّة قادرة على الانتاج (انظر في اليونانية klu-tó-s وفي اللّاتينية in-clu-tu-s وفي السنسكريتية çru-ta-s وغيرها) . ثم ان ātum- تحتوي كذلك على العنصر الصياغي m- وهو علامة المفعولية في حالة المفرد (انظر ص 253) . وان نحن عكسنا الآية فبحثنا بصورة استقبالية عن الصيغ المركبة الفرنسية التي نجد فيها أثرا للزائدة الأصلية -to- استطعنا أن نذكر مختلف الزوائد الفرنسية الخاصة باسم المفعول سواء أكانت منتجة أم لا (نحو aimé من اللّاتينية amātum أي « محبوب » و fini من fīnītum أي « منته »و clos من clausum التي من claudtum * أي « مغلق » الخ) ولواحق عديدة أخرى أيضا مثل u- = في اللّاتينية ūtum- (انظر cornu من cornūtum أي « أقرن » و tif- وهي لاحقة تستعمل في اللغة الفرنسية المهذبة وتوافقها في اللّاتينية tīvum- (انظر fugitif من fugitīvum أي « هارب » و sensitif أي « حسّي » و négatif أي « سلبي » الخ) بل وكذلك

جملة من الكلمات التي أصبح تحليلها متعذرا علينا مثل : point أي « نقطة » وأصلها في اللّاتينية punctum و dé أي « زهر النرد » وأصلها datum و chétif أي « نحيل » وأصلها captīvum الخ) ./

الباب الثاني
أقدم اللغات والنموذج الأصلي

لم يدرك أصحاب الدراسات الألسنية الهندية الأوروبية في المراحل الأولى من نشأتها الهدف الحقيقي من المقارنة ولا أهمية المنهج القائم على اعادة البناء اللغوي (انظر ص 20) . وهذا ما يفسر لنا خطأً من أبرز أخطائهم ، وهو اسنادهم الى اللغة السنسكريتية في عملية المقارنة ، دورا مبالغا فيه كادوا يفردونها به . وذلك انه لما كانت هذه اللغة أقدم وثيقة عن الهندية الاروبية فقد بوّؤوها منزلة عظمى هي منزلة النموذج الأصلي . ولكن شتان بين أن تفترض أن اللغة الهندية الأوروبية قد تولدت عنها السنسكريتية واليونانية والصقلبية والسلتية والايطالية القديمة وبين أن تُحِلّ احدى هذه اللغات محل الهندية الأوروبية . فكان لهذا الخلط الفادح عواقب بلغت من التنوّع ما بلغته من الخطورة . ولا شك أنهم لم يصوغوا قط هذا الافتراض بمثل الجزم الذي صغناه به منذ حين لكنهم كانوا عمليا يقبلونه بصورة ضمنية . فقد كتب بوب Bopp أنه « لا يعتقد أن اللغة السنسكريتية قد تكون الأصل المشترك » كما لو كان من الممكن أن يصوغ مثل هذا الافتراض حتى في صيغة الشك .

ويجرّنا هذا الى أن نتساءل عن معنى قولنا « لغة قد تكون أسبق وأقدم من لغة أخرى . لهذا القول ثلاثة تأويلات ممكنة نظريا .

1) قد يتبادر الى الذهن أولا أننا نعنى بهذا القول أصل اللغة الأول أو نقطة

انطلاقها . لكن ما ان يفكر المرء قليلا/حتى يتبيّن أنه لا وجود للغة يمكن أن نسند اليها سنا معينة اذ أن آية لغة من اللغات انما هي مُواصلة لما كان يتكلم به قبل ظهورها . فما يصح في الانسان لا يصح في الكلام ؛ وذلك ان ما في نموّ اللغة من تواصل مطلق يمنعنا من أن نميّز فيها أجيالا مختلفة . وقد كان قاستون باري Gaston Paris محقا عندما تصدى للتصوّر القائل بوجود ما يسمى بـ« اللغة الأمّ »و« اللّغة البنت » لأنّه تصوّر يفترض وجود جملة من الانقطاعات . فليس هذا إذن ما نعنيه بقولنا أن لغة ما أقدم من أخرى .

2) وقد يفهم أيضا من هذا القول أن حالة لغوية ما قد تمّ لهم ضبطها في عصر أقدم من العصر الذي ضبطت فيه حالة لغوية أخرى . من ذلك مثلا أن اللغة الفارسية التي كتبت بها المنقوشات اللخمية أقدم من اللغة الفارسية التي ألف بها الفردوسي . وطالما تعلق الأمر بلسانين قد ثبت لدينا تولد أحدهما عن الآخر واستوت درجة حسن معرفتنا بكليهما — مثلما هو الشأن في هذه الحالة الخاصة — فمن البديهي أن أقدمهما هو وحده الذي ينبغي أن نقرأ له حسابا ، لكن اذا لم يتوفر هذان الشرطان معا لم تكن لهذه الأقدمية أية أهمية . فاللغة اللتوانية التي يرجع أقدم شاهد لنا عنها الى سنة 1540 م فقط لا تقل قيمة في هذا المضمار عن اللغة السلافية القديمة التي ضبطت في القرن العاشر م ولا حتى عن السنسكريتية التي كتب بها كتاب الأناشيد الدينية الهندية الأولى المسمى Rigvéda .

3) ويمكن في النهاية أن تدلّ كلمة « قديم » على حالة لغوية أعتق من غيرها أي أن صيغها ظلت أقرب إلى صيغ النموذج الأصلي ، وذلك بقطع النظر عن كل اعتبار زماني . وبهذا المعنى يمكن أن نقول : ان اللغة اللتوانية في القرن السادس عشر م . أقدم من لاتينية القرن الثالث قبل الميلاد .

وان نحن أسندنا الى اللغة السنسكريتية أقدمية أكبر من الأقدمية المسندة الى بعض اللغات الأخرى فان ذلك لا يمكن أن يكون إلّا بالمعنى الثاني أو الثالث ؛ إلا أننا نلاحظ أن السنسكريتية أقدم بالمعنيين معا . فمن المتفق عليه من ناحية أن أناشيد الفيدا الدينية الهندية أقدم من أقدم النصوص اليونانية . ومما ينبغي أن نلاحظه من ناحية أخرى — وهو أمر له أهمية خاصة — ان جملة ما

للسنسكريتية من خصائص عتيقة ، ضخمة جدا ، ان نحن قارناها بما احتفظت
297 به بعض اللغات الأخرى (انظر ص 19) ./

وانجرّ عن فكرة القدم هذه التي فيها من الغموض ما فيها والتي جعلت اللغة السنسكريتية تعتبر سابقة لكل الفصيلة الهندية الأوروبية ان ظل الألسنيون في عهد لاحق وحتى بعد أن تخلصوا من اعتبارها اللغة الأم — يولون قيمة مبالغا فيها لشهادتها من حيث هي لغة فرعية منحدرة مثل غيرها عن أصل واحد .

من ذلك أن أدولف بكتت Ad. Picter وان اعترف اعترافا واضحا — في كتابه « الأصول الهندية الأوروبية » Origines indo-européennes (انظر ص 337 . بوجود شعب بدائي كان يتكلم لغته الخاصة به فانه ظل مقتنعا بأنه ينبغي الرجوع أولا وقبل كل شيء الى اللغة السنسكريتية وان شهادة هذه اللغة تفوق من حيث القيمة شهادة الكثير من اللغات الهندية الاوروبية الأخرى مجتمعة . وهذا الوهم هو الذي جعل الغموض يسود طوال سنين عديدة مسائل بالغة الأهمية نذكر منها النظام الحركي البدائي .

وقد تكرر وقوعهم في مثل هذا الخطإ في مستوى الجزئيات والتفصيل . فعند دراسة بعض الفروع الخاصة من الفصيلة الهندية الأوروبية كان بعضهم ينزع الى اعتبار أقدم لسان معروف لديهم منها الممثل المناسب والكافي وحده لتمثيل المجموعة بأكملها بدون أن يحاول معرفة حالة الأصل المشترك معرفة أحسن . فعوض أن يتحدثوا مثلا عن الجرمانية [المشتركة] كنت تراهم لا يتحرّجون من الاقتصار على الاستشهاد بالقوطية (4) لمجرّد كونها سابقة بعدة قرون لسائر اللهجات الجرمانية بل يبوّئونها باطلا منزلة النموذج الأصلي فاذا هي تصبح عندهم مصدر اللهجات الجرمانية الأخرى ، أما في [المجموعة] الصقلبية فقد اعتمدوا على السلافونية أي الصقلبية القديمة (slavon) التي تعود الى القرن العاشر دون غيرها لأن جميع ما لدينا من وثائق عن الفروع الأخرى متأخر عنها في الزمان .

ومن النادر جدا في الواقع أن يتفق لصورتين لغويتين — ضبطتا بواسطة الكتابة في زمنين متتاليين — ان تمثلا بالضبط نفس اللسان في مرحلتين من مراحل تاريخه بل الأغلب في هذا الصدد أن نجد أنفسنا بإزاء لهجتين مختلفتين ليست أحداهما

مواصلة لغوية للأخرى . وتدعّم الاستثناءات هذه القاعدة وأشهرها وضع اللغات الرومانية romanes (5) بالنسبة الى اللاّتينية . فالرجوع بالفرنسية الى اللاّتينية
268 عملية تحدث بالفعل في اتجاه رأسي ؛ ويوافق التراب/الجغرافي الذي كانت تستعمل فيه هذه اللغات ، صدفة ، نفس التراب الذي كانت لغة التخاطب فيه هي اللاّتينية . فليست كل لغة منها إلّا ضربا من اللاّتينية المتطوّرة . وسَبق ان رأينا كذلك أن اللغة الفارسية التي كتبت بها نقوش« داريوس» (6) هي وفارسية القرون الوسطى لهجة واحدة ؛ لكن عكس هذه الظاهرة أكثر اطرادا ذلك أن الشواهد اللغوية التابعة لعصور مختلفة تنتمي الى لهجات مختلفة تابعة لنفس الفصيلة . من ذلك أن الجرمانية تجلت لنا تباعا في مظهر اللغة القوطية كما جاءت عند أولفيلاس Ulfilas (7) والتي لا نعرف لها مآلا ، ثم في نصوص كتبت بالألمانية العليا القديمة ثم في فترة متأخرة عن ذلك في نصوص كتبت باللغة الانقلو — سكسونية واللغة النوروية (8) وغيرها ؛ لكن ليست أيّة لهجة من هذه اللهجات أو المجموعات اللهجية في الواقع مواصلة اللهجة السابقة لها والتي لنا ما يشهد بوجودها . ويمكن أن نصوّر هذا الوضع بالترسيمة التالية وتمثل الحروف فيها اللهجات أما الخطوط المنقّطة فتمثل العصور المتعاقبة :

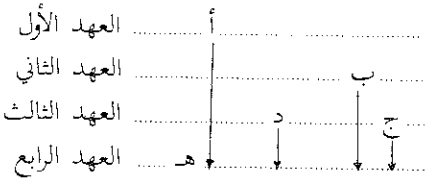

ولا يسع الألسنيين إلّا أن يحمدوا الله لكون الأمور على هذه الصورة ، اذ لولا ذلك لكانت اللهجة الأولى المعروفة لدينا « أ » مشتملة سلفا على كل ما يمكن استخلاصه من تحليلنا للحالات اللغوية اللاحقة والحال أننا اذا بحثنا عن النقطة التي تلتقي فيها جميع هذه اللهجات (أ ، ب ، ج ، د الخ) فاننا سنقف على حالة أقدم من «أ» هي النموذج الأصلي «س» وعند ذلك يستحيل الخلط بين «أ» و«س» .

299 الباب الثالث

عمليات اعادة البناء اللغوي

الفصل الأول : طبيعتها وغاياتها

لئن كانت الوسيلة الوحيدة لاعادة بناء اللغات انما هي المقارنة فمعكوس ذلك أنه ليس للمقارنة من غاية إلّا اعادة البناء . فينبغي اذن أن نوجه ما نلاحظه من مطابقات بين صيغ مختلفة وجهة زمانية حتى نتمكن من اعادة بناء صيغة وحيدة وإلّا كان عملنا ذلك عملاً عقيماً ؛ وقد سبق أن ألححنا على هذه النقطة في مواضع عديدة (انظر ص 20 وما بعدها وص 296) . من ذلك أننا عندما أردنا تفسير الكلمة اللّاتينية medius أي « وسط » التي تقابل الكلمة اليونانية mésos اقتضى منا ذلك أن نفترض وجود كلمة أقدم منهما يمكن أن نربطها تاريخيا بـ medius و mésos هي methyos * وذلك دون أن نتجشّم مشقة الرجوع الى اللغة الهندية الأوروبية . وان نحن قارنا بين صيغتين تابعتين للغة واحدة بدل أن نقارن بين كلمتين من لغتين مختلفتين أفضى بنا ذلك حتما الى نفس الملاحظة . فالكلمتان اللّاتينيتان gerō اي « حمل » و و gestus أي « هيئة » ترجعان بنا الى أصل واحد مشترك هو gesō * ، هو أصل هاتين الكلمتين قديما .

ولنلاحظ عرضاً أن المقارنة اذا تعلقت بالتغيرات الصوتية وجب أن نستعين فيها دوما ببعض الاعتبارات الصرفية . فاذا فحصنا الكلمتين اللّاتينيتين patior

ومن معانيها « تألم وصبر » و passus أي « خطوة » وجب أن ندخل في الحساب كذلك كلمتي factus أي « عمل » و dictus أي « قول » وغيرهما لأن passus قد صيغت على نفس المنوال . واعتمادنا على العلاقة الصرفية بين faciō
أي « عمل » و factus أي « حدث » وبين dīcō و dictus وغيرها هو الذي
يمكننا من أن نقيم نفس العلاقة التي كانت موجودة في زمن سابق بين
patior و pat-tus * . والعكس بالعكس/فاذا كانت المقارنة مقارنة صرفية وجب أن 300
نوضحها بالالتجاء الى علم الأصوات : فاذا تسنى لنا أن نقارن بين الكلمة اللّاتينية meliōrem أي « أحسن » والكلمة اليونانية : hēdíō أي « أعذب » فذلك لأن الأولى ترجع من الوجهة الصوتية الى meliosem * meliosm * والثانية الى hādioa ، hadiosa * hādiosm * .

فليست المقارنة اللغوية اذن عملية آلية . فهي تقتضي التقريب بين جميع المعطيات التي من شأنها أن توفر لنا بعض أسباب التفسير لكن يجب أن تؤول دائما الى افتراض يصاغ صياغة ما ، والهدف منها اعادة بناء شيء سابق . فالمقارنة تؤول دوما الى اعادة بناء الصيغ .

ولكن ترى : هل يرمي النظر في ماضي اللغات الى اعادة بناء صيغ تامة ملموسة تابعة لحالة لغوية سالفة ؟ أم هل أنه ـــ بالعكس ـــ يقتصر على تقرير ملاحظات مجرّدة جزئية متعلقة بأجزاء الكلمات مثل تلك الملاحظة التي مفادها أن الفاء من الكلمة اللّاتينية fumūs أي « دخان » توافق صوت الثاء المشترك بين اللغات الايطالية القديمة أو تلك التي مفادها أن العنصر الأول من الكلمة اليونانية állo أي « غير » ومن الكلمة اللّاتينية aliud قد كان كذلك فتحة (a) في الهندية الأروبية ؟ من الممكن جدا أن نحصر مهمة النظر في ماضي اللغات في هذا المستوى الثاني من مستويات البحث بل يمكن أن نقول : إن منهجه التحليلي ليس له من غاية سوى هذه الملاحظات الجزئية إلّا أنه بوسعنا أن نستخلص من جملة تلك الملاحظات الخاصة بوقائع لغوية منعزلة استنتاجات أعم وأشمل : من ذلك أن سلسلة من الظواهر من قبيل ما نلاحظه في الكلمة اللّاتينية fūmus تخوّل لنا الجزم بأن صوت الثاء [صوتم] كان موجودا في النظام الصّوتميّ التابع للايطالية القديمة المشتركة ؛ وكذلك الأمر ان نحن استطعنا أن نجزم بأن اللغة الهندية الأروبية تضمّ في

ما يسمى عندهم باعراب الضمائر ـــ علامة الدال d- الخاصة بالمفرد المحايد ـــ والمختلفة عن العلامة التي تلحق الصفات وهي الميم m- فانما ذلك ظاهرة صرفية عامة استنتجناها من جملة من الملاحظات المنعزلة (انظـــر في اللاتينية istud أي «هـــــذا» وaliudأي «غير» بازاء bonum أي « حسن » وفي البمونـانية to من tod * «وهي أداة التعريف المحايـدة » و allo من allod * . بـازاء kalon أي « جميل » وفي الانقليزية كلمة thatأي « هذا » الخ) . بل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك . فبعد أن نفرغ من اعادة بناء هذه الوقائع المتنوعة يمكننا أن نعمد إلى التأليف بين جميع الظواهر المتعلقة بصيغة واحدة بأكملها قصد/اعادة بنـــاء كلمـــات تامـــة (كما هو الشأن بالنسبـــــة الى كلمـــــة alyod * الهندية الأروبية) وبناء نماذج لسلاسل اعرابية وغيرها . ولبلوغ هذه الغاية نجمّع في حزمة واحدة ما تقرّر لدينا من المعطيات التي يمكن أن نعزل بعضها عن بعض عزلا تاما . فان نحن على سبيل المثال قارنا بين مختلف أجزاء احدى الصيغ المعاد بناؤها مثل alyod * لاحظنا فرقا كبيرا بين الدال d- وهو عنصر يثير قضية نحوية وبين الفتحة (a) وهي عنصر ليس له أية دلالة من هذا القبيل . وليست الصيغة التي يعاد بناؤها كلا متضامنا متماسكا انما هي جملة من الوحدات الصوتيّة يمكن تفكيكها دوما الى عناصرها المختلفة . ويظل كل جزء منها قابلا للفسخ ويبقى دوما محل فحص ونظر . لذلك كانت الصيغ التي أعيد بناؤها دائما صورة صادقة للاستنتاجات العامة التي يمكن أن تطبّق عليها . فقد افترضوا أن أصل كلمة cheval أي « فرس » في الهندية الأروبية كان akvas * ثم عدلوا عنه الى ak₁vas* فالى ek₁vos * وأخيرا الى ek₁wos * فلم يسلم في كل ذلك إلّا صوت السين وكذلك عدد الصوائم .

301

فليست الغاية من عمليات البناء اذن أن نبعث الى الوجود صيغة من الصيغ لذاتها ، وهو والحق يقال أمر فيه ما فيه من السخافة ، انما هي بلورة وتركيز لجملة من الاستنتاجات نعتقد أنها صحيحة وذلك حسب النتائج التي نكون قد وصلنا اليها في كل حين . فغايتنا من ذلك ـــ باختصار ـــ انما هي أن نسجّل ما خطاه علمنا هذا من خطوات . وليس لزاما علينا أن نبرّر ساحة الألسنيين من تلك الفكرة الغريبة نوعا ما والتي مفادها أنهم يريدون اعادة بناء اللغة الهندية الأروبية برمّتها كما لو كانوا يريدون استعمالها من جديد . فهذه النظرة ليست نظرتهم حتى

عندما يباشرون لغات معروفة تاريخيا (فهم لا يدرسون اللغة اللاتينية دراسة ألسنية قصد اتقان التكلم بها) فمن باب أولى وأحرى أن لا يكون منهم ذلك وهم يباشرون كلمات منعزلة من لغات تعود الى عصور ما قبل التاريخ .

على أن عملية اعادة البناء هذه وان ظلت قابلة للمراجعة فليس يمكننا الاستغناء عنها اذا أردنا أن تكون لنا نظرة شاملة عن مجموع اللغة المدروسة وعن النمط اللغوي الذي تنتمي اليه . فهي اذن أداة ضرورية تمكننا من تمثيل طائفة من الظواهر العامة الآنية والزمانية في شيء من اليسر النسبي . فالخطوط الكبرى للغة الهندية الأروبية تتجلى لنا في وضوح وعلى الفور بفضل/جملة من عمليات اعادة البناء . من ذلك أن اللواحق كانت تصاغ من بعض العناصر الصوتية دون غيرها (كالتاء والسين والراء) (9) وان تنوع النظام الحركي المعقد في الأفعال الألمانية (مثل werden و wirst و ward و wurde و wordon) يخفي في صلب القاعدة التي تسيره نفس التناوب الأصلي بين e و o وانعدام العلامة. وبالتالي فان تاريخ الأحداث اللغوية اللاحقة يصبح أكثر سهولة : اذ بدون الابتداء باعادة البناء تكون محاولة تفسير التغيرات التي طرأت على مرّ الزمان منذ عصور ما قبل التاريخ أشد وأعسر من ذلك .

302

الفصل الثاني :نصيب عمليات اعادة البناء من الصحة

من الصيغ التي يعاد بناؤها ما نحن واثقون من صحته كل الوثوق ، ومنها ما يظّل محلّ نزاع بل قل انه مشكوك فيه شكا . إلّا أن درجة تيقننا من صحة الصيغ الكاملة ـــ كما سبق أن رأينا ـــ رهينة ما يمكن أن يكون لنا من يقين نسبي بشأن صحة مختلف عمليات اعادة البناء الجزئية التي لها دور في مثل هذا التأليف . ونحن لا نكاد نظفر في هذا المضمار بكلمتين تستويان في درجة تيقننا من صحتهما ، فأنت تجد حتى بين صيغتين هنديتين أوروبيتين واضحتين كل الوضوح مثل esti *أي « فعل الكينونة مسندا إلى هو » و didōti *أي « يعطي » تفاوتا في ذلك لأن الحركة المكرّرة في المثال الثاني قد تثير بعض الشك (قارن ذلك بـ dadāti- في اللغة السنسكريتية و didosi في اللغة اليونانية) .

ويميل المرء بصورة عامة الى اعتبار عمليات اعادة بناء الصيغ أقل صحة مما هي

عليه في الواقع . لكن أمورا ثلاثة من شأنها أن تزيد من نسبة اطمئناننا اليها ووثوقنا بها .

أما الأول وهو الأساسي فقد سبقت الاشارة اليه ص 72 وما بعدها ومفاده أننا اذا انطلقنا من كلمة معينة أمكننا أن نميز تمييزا واضحا بين الأصوات التي تتكون منها وأن نتبيّن عددها والحدود الفاصلة بينها . وقد رأينا ص 91 الموقف الذي ينبغي أن نقفه من الاعتراضات التي قد يبديها بعض الألسنيين المنكبين على دراسة الدقائق الفنولوجية دراسة مجهرية . ففي مجموعة من الأصوات من قبيل -sn لا شكّ أنك تجد أصواتا مختلسة أو أصواتا انتقالية ، لكن اخذها بعين الاعتبار هو
303 عكس الموقف الألسني الصحيح . فالاذن العادية لا تدرك ذلك ، ثم ان المتكلمين علاوة على ذلك ، متفقون دوما على عدد عناصر تلك المجموعة . لذلك أمكننا أن نقول : ان الصيغة الهندية الأوروبية : ek$_1$wos * لم يكن فيها أكثر من خمسة عناصر صوتية متميّزة فارقة كان على المتكلمين بتلك اللغة أن ينتبهوا إليها .

وأما الأمر الثاني فيتعلق بنظام هذه العناصر الفنولوجية في كل لغة من اللغات . فكل لسان يؤدي وظيفته بواسطة نسق من الصواتم عددها مضبوط ضبطا تاما (انظر ص 64) . إلّا أن جميع عناصر النظام في الهندية الأروبية تتجلى على الأقل في حوالي اثنتي عشرة صيغة تشهد عليها عمليات اعادة البناء ، وأحيانا في آلاف الصيغ . فنحن واثقون اذن من معرفتها كلها .

أما الأمر الثالث فانك اذا أردت أن تعرف الوحدات الصوتية التابعة للغة من اللغات لم يكن من الضروري أن تصف خصائصها الايجابية بل ينبغي أن تعتبرها بمثابة كيانات فارقة أخص ما تختص به أن بعضها لا يختلط ببعضها الآخر (انظر ص 181) . ولهذا الأمر من الأهمية ما يخوّل لنا أن نشير الى بعض العناصر الصوتية التابعة للسان نريد اعادة بنائه بواسطة عدد من الأرقام أو ما شئت من العلامات الاخرى . ففي ěk$_1$wŏs * ليس من الضروري أن نحدّد الصفة المطلقة للحركة ĕ ولا أن نتساءل ان كانت منفتحة أو منغلقة وإن كان تقطيع نطقها أكثر أو أقل أمامية الخ . فما لم نجد أنواعا عديدة من هذه الحركة ĕ يبقى تحديد خصائصها المطلقة أمرا لا قيمة له شريطة أن لا نخلط بينها وبين عنصر آخر من العناصر المتميزة في اللغة (مثل ă و ŏ و ē وغيرها) . وبعبارة أخرى فذلك معناه أن

الصوتم الأول في الكلمة ěk$_1$wŏs * لم يكن مختلفا عن الصوتم الثاني الذي في كلمة mědhyŏs * ولا عن الصوتم الثالث الذي في كلمة ăgě * الخ ، وأنه يمكننا أن نرتبه وأن نمثله برقم خاص به ضمن جدول الصواتم الهندية الأوروبية . وهكذا فان اعادة بناء الصيغة ěk$_1$wŏs * معناها أن ما يوافق الكلمة اللاتينية equos والكلمة السنسكريتية açvas الخ في اللغة الهندية الاروبية كلمة كانت تتكوّن من خمسة صواتم معيّنة استخرجت من نسق النظام الفنولوجي الخاص باللسان الهنديّ الأوروبي الأول .

فعمليات اعادة بناء اللغات في نطاق الحدود التي رسمناها ، تحتفظ اذن بكامل قيمتها .

304

الباب الرابع
شهادة اللغة في الانتروبولوجيا
وفي دراسة عصور ما قبل التاريخ

الفصل الأول : اللغة والجنس [البشري]

يمكن للألسني اذن بفضل المنهج الاستردادي ان يعود الى الوراء عبر القرون الماضية وأن يعيد بناء لغات كانت تتكلم بها بعض الشعوب قبل أن تدخل عصور التاريخ بزمن طويل . ولكن أليس من شأن عمليات اعادة البناء هذه أن تمدّنا — فضلا عن ذلك — بمعلومات أخرى عن تلك الشعوب نفسها وعن أجناسها وعن صورة انحدار بعضها عن بعض وعن العلاقات الاجتماعية القائمة بينها في الماضي وعن عاداتها ومؤسساتها الخ ؟ وبعبارة أوجز هل تسلط اللغة بعض الأضواء على علم الانتروبولوجيا وعلم الاتنوغرافيا وعلى عصور ما قبل التاريخ ؟ ان معظم العلماء يقولون بصحة ذلك ، أما نحن فنرى في الأخذ بهذا الرأي نصيبا كبيرا من الوهم . فلننظر بايجاز في بعض وجوه هذه المسألة العامة .

ولنبدأ بقضية الجنس : يكون من باب الخطل أن نعتقد أن اشتراك بعض الأقوام في لغة واحدة يمكننا من القول باشتراكهم في النسب أو بعبارة أخرى إن فصيلة ما من اللغات تطابق فصيلة انتروبولوجية ما . فليس الواقع على مثل هذا القدر من البساطة . فأنت تجد مثلا الجنس الجرماني ، وله خصائص انتروبولوجية

واضحة جدا من شعر طويل أشقر وجمجمة مستطيلة وقامة فارعة وهلم جرا، وأفضل ما يمثل الفرع الاسكندنافي . ومع ذلك فمن العسير أن نجد هذه السمات متوفرة لدى جميع الشعوب التي تتكلم اللغات الجرمانية . من ذلك أن للألمانيين وهم قوم يعيشون عند سفح جبال الآلب صورة انتروبولوجية مغايرة جدا لصورة الاسكندنافيين 305 لكن ألا يمكن/أن نقول على الأقل بأن كل لسان هو خاص بجنس بعينه دون غيره ، وأنه ان تكلمت به شعوب من أجناس أخرى فذلك لأنه قد فرض عليها عن طريق الغزو والاحتلال ؟ صحيح اننا كثيرا ما نرى أمما مغلوبة تتبنّى لغة الغالب أو تفرض عليها قهرا كما فعل الغالبون اثر انتصار الرومان عليهم ، لكن هذا التفسير تفسير لا يفي بالحاجة تماما . فالجرمانيون مثلا حتى اذا قبلنا أنهم أخضعوا لسلطانهم عددا كبيرا من الشعوب مختلفة الأجناس ، ليس من الممكن أن يكونوا قد استوعبوها جميعها لأن ذلك يفترض تواصل سيطرتهم عليها مدة طويلة في عصور ما قبل التاريخ ، كما يفترض توفر ظروف أخرى لم يقم لنا عليها شاهد أو دليل .

وهكذا يبدو أنه لا وجود لأية علاقة ضرورية بين الاشتراك في النسب والاشتراك في اللغة ، وبذلك يستحيل أن ننطلق من هذا ، للقول بوجود الآخر ، والعكس بالعكس . لذلك لم يكن من الضروري — في عديد الحالات التي لا تتطابق فيها شهادة علم الانتروبولوجيا وشهادة اللغة — ان نكافح احداها بالأخرى ولا أن نختار هذه دون تلك فكلاهما يحتفظ بقيمته الخاصة به .

الفصل الثاني : الوحدة الاتنية

فما عسى أن نفيد من شهادة اللغة اذن ؟ ان وحدة الجنس لا يمكن أن تكون في ذاتها إلا عاملا ثانويا — ليس بالضروري البتة — من عوامل الاشتراك في اللغة ، لكن ثمة وحدة أخرى أعظم شأنا بكثير هي عندنا الوحدة الاساسية الوحيدة ، وهي تلك التي تتكون من خلال الروابط الاجتماعية ونطلق عليها اسم ethnisme أي الوحدة الاتنيّة . ونعني بهذه الكلمة : وحدة تقوم على علاقات عديدة ناتجة عن الدين والحضارة والدفاع المشترك الخ . وهي علاقات يمكن أن تقوم حتى بين شعوب من أجناس مختلفة وفي حالة انعدام كل رابط سياسي .

فتلك العلاقة ذات الاتجاهين التي سبق أن لاحظنا وجودها ص 40 انما تقوم
بين الوحدة الاثنية واللغة . فمن شأن الروابط الاجتماعية أن تنحو الى اقامة
الاشتراك في اللغة ، وقد تطبع اللسان المشترك ببعض الخصائص . والعكس
306 بالعكس فان/الاشتراك في اللغة هو الذي يكوّن الى حدّ ما الوحدة الاثنية . وعلى
العموم فان الوحدة الاثنيّة تكفي دائما لاقامة الدليل على الاشتراك في اللغة . ففي
بداية القرون الوسطى مثلا كانت توجد وحدة اثنية رومانية جمعت بين شعوب من
أجناس مختلفة جدا لا يربط بينها أي رابط سياسي . وبعكس ذلك اذا تعلق الأمر
بالوحدة الاثنية فالذي ينبغي أن نستنطقه في المقام الأول انما هو اللغة فشهادتها
تفوق سائر الشهادات قيمةً ؛ من ذلك مثلا أنه كان في ايطاليا القديمة شعبان
متجاوران هما الأتروريون واللاتينيون ، فان نحن بحثنا عما يشتركان فيه بنيّة
ارجاعهما الى أصل واحد أمكننا أن نستعين في ذلك بما خلّفه هذان الشعبان من
معالم أثرية وطقوس دينية ونظم سياسية وغيرها ، إلّا أننا لن نظفر في هذه المسألة
بمثل اليقين الذي تمكّننا منه فورا شهادة اللغة . فحسبنا أن ننظر في بضعة أسطر
من اللغة الاترورية حتى نتبين أن الشعب الذي كان يتكلم بها شعب متميز تمام
التميز عن المجموعة الاثنيّة التي كانت تتكلم باللّاتينية .

وهكذا فان اللغة — من هذه الزاوية وفي نطاق الحدود التي بيّناها أعلاه — وثيقة تاريخية . فكون اللغات الهندية الأروبية مثلا تكوّن فصيلة واحدة يمكننا من القول بوجود وحدة اثنيّة بدائية . وقد ورثت جميع الأمم الناطقة اليوم بتلك اللغات مميزات تلك الوحدة عن طريق التسلسل الاجتماعي وذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

الفصل الثالث : علم الاحاثة اللغوي

لكن اذا كان الاشتراك في اللغة يخوّل لنا القول بوجود الوحدة الأثنيّة فهل يمكن للغة أن تعرفنا بطبيعة هذه الأثنيّة المشتركة .

كان الاعتقاد السائد زمنا طويلا ان اللغات معين لا ينضب من الوثائق عن الشعوب الناطقة بها وعن حالتها في عصور ما قبل التاريخ . وقد اشتهر أدولف

بكتت Ad. Pictet أحد رواد الدراسات الألسنية الأوائل خاصة بكتاب . أصول
الهنديين الأوروبيين les origines indo-européennes (1859 — 63) ؛ وقد كان
هذا الكتاب منوالا ساروا عليه في عدد كبير من المؤلفات الأخرى . وظل أكثر
307 الكتب/اغراء للنفوس . وكانت غاية مؤلفه منه البحث — من خلال شهادة
اللغات الهندية الأوربية — عن الملامح الأساسية التي تتميز بها حضارة « الآريين »
Aryas (10) . وكان يحسب أن باستطاعته أن يضبط أشد مظاهرها
تنوعا من حيث المظاهر المادية (كالآلات والأسلحة والحيوانات الأهلية) ومظاهر
الحياة الاجتماعية (هل كانوا بدوا رحلا أم من الفلاحين) ومن حيث نظام الأسرة
والحكم . وبحث عن مهد الشعوب الآرية وجعله في بلاد بكتريانا Bactriane (11)
ودرس نباتات البلاد التي كانوا يعيشون فيها وحيواناتها . فكان تأليفه هذا أعظم
محاولة وقع القيام بها في هذا الاتجاه . وأطلق على هذا العلم الذي تمت نشأته على
هذه الصورة اسم : علم الاحاثة اللغوي : paleontologie linguistique .

ومنذ ذلك الحين قام بعضهم بمحاولات أخرى في نفس الاتجاه ، ومن احدثها محاولة هرمان هيرت H. Hirt في كتابه : الشعوب الهندية الجرمانية Die Indogermanen (1907 — 1905) (12) وقد اعتمد فيها على نظرية يوحنّا شميت (انظر ص 312) قصد تعيين البقعة التي كان يعيش فيها الهنديون الأروبيون الأوائل . لكنه لم يستنكف من الركون الى استعمال علم الاحاثة اللغوي . فقد بينت له بعض الظواهر المعجمية ان الهنديين الأروبيين كانوا من الفلاحين فرفض القول بأن موطنهم كان جنوب روسيا باعتبارها لحياة البداوة أنسب : كما دفعته كثرة تواتر أسماء الأشجار ولا سيما أسماء بعض الأنواع منها (كالتنوب والبتولة والزان والبلوط) الى الاعتقاد بأن بلادهم كانت ذات شجر وأنها تقع بين جبال الهارتس Harz (بألمانيا) ونهر الفيستولا Vistule (ببلونيا) وبصورة أدق بمنطقتي براندبورق Brandebourg وبرلين Berlin . ولنذكّر كذلك بأن ادلبارت كوهن Adalbert Kuhn وغيره قد استعملوا الألسنية — حتى قبل بكتت — لاعادة بناء ميثولوجيا الهنديين الأوروبيين ودياناتهم .

إلّا أنه لا يبدو من الممكن في الواقع أن نطالب اللغة بمدنا بمعلومات من هذا القبيل ، وان هي لم تستطع مدنا بها فذلك راجع في نظرنا الى الأسباب التالية :

308 أولها عدم تيقننا من درجة صحة الابيتيمولوجيا، فقد أدرك الدارسون شيئا/فشيئا ان الكلمات التي لها أصل ثابت لا شكّ فيه قليلة نادرة . ولذلك فقد أصبحوا أكثر تحفظا واحترازا في هذا المضمار . واليك مثالا عما كانوا يأتون من مجازفات في الماضي : فقد انطلقوا من كلمتي servus و servāre وقربوا بينهما — والحال ان ذلك قد لا يجوز — ثم أسندوا الى الأولى معنى « حارس » واستنتجوا من ذلك أن العبد كان في الأصل حارس البيت في حين أنه ليس من الممكن حتى أن نقول ان كلمة servāre كان لها في الأصل معنى « حرس » . وليس هذا كل ما في الأمر ، فنحن نعلم أن معاني الكلمات تتطوّر وأن دلالة الكلمة كثيرا ما تتغير بانتقال شعب من موطن الى آخر . وذهب الظن ببعضهم كذلك الى أن خلوّ اللغة من كلمة من الكلمات معناه أن الحضارة البدائية لم يكن يوجد بها الشيء الذي تدل عليه تلك الكلمة . وهذا لعمري الخطل بعينه . من ذلك أنك لا تجد في اللغات الآسيوية كلمة توافق فعل « حرث » لكن هذا لا يعني أن الحراثة كانت منعدمة عندهم في الأصل ، فمن المحتمل أنهم عدلوا عن الحراثة فتلاشت أو ان هذا العمل كان يتم بطرق مغايرة لما ألفناه تعبّر عنه كلمات أخرى .

كما أن امكانية اقتراض اللغات بعضها عن بعض عامل ثالث من شأنه أن يضطرب له يقيننا . فقد تدخل كلمة من الكلمات لغة شعب من الشعوب بعد أن كانت غير موجودة فيها ، مع دخول الشيء الذي تدل عليه تلك الكلمة . من ذلك أن نبات القنّب لم يعرف في البلدان الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط إلّا في زمن متأخر جدا ثم عرف في زمان لاحق في بلدان شمال أوروبا . وكلما دخلت هذه النبتة بلدا دخل معها اسمها . فانعدام المعطيات غير اللغوية في عدد كبير من الحالات لا يمكننا من أن نعرف إن كان وجود الكلمة الواحدة في لغات عديدة مرده اقتراض اللغات بعضها من بعض أم هو دليل على وجود عرف بدائي مشترك .

وليس معنى هذا أنه لا يمكننا أن نستخلص في هذا المضمار — في غير تردّد — بعض الخطوط العامة أو حتى بعض المعطيات الدقيقة : من ذلك أن الكلمات المشتركة الدّالة على القرابة كثيرة جدا ، وقد تناقلتها الشعوب بمنتهى الوضوح والدقة ، وهي تمكن من أن نجزم بأن الأسرة عند الهنديين الأروبيين كانت

مؤسسة معقدة بقدر ما كانت منتظمة . وذلك أن لغتهم تتضمن في هذا المجال فويرقات معنوية لا يمكن التعبير عنها بالفرنسية . ففي لغة هوميروس تعني
309 كلمة einátere/« زوجات الاخوة اذا تعددوا » وتعني كلمة gálooi« الزوجة وأخت زوجها فيما بينهما » . ونلاحظ هنا أن الكلمة اللّاتينية janitrices توافق كلمة einátere صياغة ومدلولا . وكذلك الأمر بالنسبة الى الصهر زوج الاخت فانه لا يطلق عليه نفس الاسم الذي يطلق على « تصاهر المزوجين بعدة أخوات » . فمن الممكن في هذا المجال أن نتثبت من جزئية في غاية الدّقة لكن علينا — على العموم — ان نقنع بمعلومات عامة . وكذلك الشأن في أسماء الحيوان : فبالنسبة الى أنواع هامة من الحيوان كالبقر يمكننا لا أن نعتمد التطابق بين كلمة boûs اليونانية و kuh الألمانية و gaus السنسكريتية الخ فنعيد بناء صيغة هندية أروبية تكون g ōu-s * فحسب بل وكذلك أن نلاحظ أن لتغيّر علامات الاعراب نفس الخصائص في جميع تلك اللغات . ولو كان الأمر متعلقا بكلمة دخيلة أخذت في القديم من لغة أخرى لتعذّر علينا كل ذلك .

ونستسمح لأنفسنا في هذا السياق ان نضيف بشيء من التفصيل ظاهرة صرفية أخرى لها هذه الخاصية المزدوجة والمتمثلة في أنها محصورة في منطقة معينة وتتعلق بجانب من جوانب التنظيم الاجتماعي .

بالرغم من كل ما قيل في شأن الصلة التي بين كلمة dominus ومن معانيها « السيّد والربّ » وكلمة domus ومن معانيها « البيت والأسرة » فان الألسنيين لم يطمئنوا الى ذلك كل الاطمئنان ، لأنه من النادر الشاذ جدا أن تصاغ مشتقات فرعية من لاحقة مثل -no- فلم نسمع قط بوجود كلمة على غرار ما تكون عليه احتمالا كلمة oiko-..o-s * أو oike-no-s * باعتبارها مشتقة من oîkos في اليونانية وكلمة açva-na * باعتبارها مشتقة من açva في السنسكريتية . لكن صفة الشذوذ هذه هي بعينها اتي تكسب الزائدة الموجودة في كلمة dominus قيمتها الخاصة وأهميتها البارزة ؛ وهناك عدد كبير من الكلمات الجرمانية تتجلى لك فيها ، في نظرنا ، أسرار هذه القضية كل التجلي منها :

1) ان كلمة teuda-na-z * تعني قاد الـ teudō أي « الملك » وتوافقها في اللغة القوطية كلمة tiudans وفي اللغة السكسونية القديمة كلمة thiodan *

ţeudō* بالقوطية = tiuda في اللغة الأوسكية (13) : touto أي « شعب » .

2) ان كلمة * druxti-na-z (وقد أصبحت بعد تغيير جزئي *druxti-na-z) تعني قائد الـ druxti-z * ومن الجيش ومنه الاسم الذي أطلقه المسيحيون على الرب وهو Dieu انظر في اللغة النوروية القديمة كلمة Dróttinn وفي
310 الانقلو ـ سكسونية كلمة Dryhten وقد اتصلت اللاحقة ina-z- بكليهما .

3) ان كلمة * Kindi-na-z تعني رئيس الـ kindi-z * التي توافق في اللغة اللاتينية كلمة gens وهي معانيها العشيرة . ولما كان رئيس الـ gens بالنسبة الى رئيس الـ ţeudō * هو بمثابة نائب الملك [بالنسبة الى الملك] . فقد أطلق أولفيلاس Ulfilas هذه الكلمة الجرمانية أي kindins (وقد اندثرت من جميع الكتابات الأخرى) على الوالي الروماني المولّى على مقاطعة من المقاطعات . وذلك لأن عامل الامبراطور ـــ في تصوّراته الجرمانية كان بمثابة رئيس العشيرة تجاه ما يسمى بالـ tiudans أي الملك. ومهما عظمت أهمية هذا الخلط من الوجهة التاريخية فلا شك أن كلمة kindins الغريبة عن التنظيمات الرومانية تشهد بانقسام الشعوب الجرمانية الى kindi-z أي عشائر .

وهكذا فان اللاحقة الفرعية -no- تلحق بأي جذر من اللغة الجرمانية فتكسبه معنى « رئيس هذه المجموعة أو تلك » ولا يبقى لنا اذن إلّا أن نلاحظ أن الكلمة اللاتينية tribūnus تعنى حرفيا رئيس الـ tribus أي « القبيلة » كما أن tiudans تعني « رئيس الـ tiuda » ، وكما أنّ domi-nus ـــ أخيرا ـــ تعني « رئيس الـ domus » وهو آخر أقسام الـ touta = tiuda . وتبدو لنا الكلمة dominus هذه بلاحقتها الغريبة -nus حجة من الصعب جدا دحضها لا على وجود وحدة لغوية فحسب بل وكذلك على وجود نظم مشتركة بين الاثنيّة الايطالية القديمة والأثنيّة الجرمانية .

على أنه ينبغي أن لا ننسى من جديد أن عمليات التقريب بين لغة وأخرى قلما تمدّنا باشارات على مثل هذه الدرجة من الوضوح والدقة .

لئن كانت اللغة لا توفر لنا كثيرا من المعلومات الدقيقة الصادقة عن عادات الشعب الذي يستعملها ونظمه الاجتماعية فهل هي صالحة على الأقل لتعيين خصائص العقلية التابعة للمجموعة التي تتكلم بها ؟ إن الرأي القائل بأن اللغة تعكس الخصائص النفسية التابعة لأمة من الأمم هو الرأي الذي يقول به عدد لا بأس به من الناس إلّا أنه يُعترضُ على هذه النظرة باعتراض ذي بال وخطر ، وهو
311 أن استعمال أسلوب لغوي ما/ليس يتحدّد بالضرورة بعوامل نفسية .

فاللغات السامية مثلا تعبّر عن العلاقة القائمة بين المضاف والمضاف اليه كما في قولهم في الفرنسية la parole de Dieu أي « كلمة الله » بمجرّد وضع كلمة الى جانب أخرى وإن انجرّ عن ذلك والحق يقال تركيب خاص يكون فيه المضاف سابقا للمضاف اليه مباشرة يدعى حالة الاضافة etat construit . فكلمة dābār دابار في العبرية أي « كلمة » وكلمة ʔelōhīm (14) إلوهيم أي « الله » يمكن أن تكوّنا عبارة dbār ʔelōhīm ومعناها « كلمة الله » . فهل يمكن أن نقول إن هذا النمط التركيبي يكشف لنا عن جانب من جوانب العقلية السامية ؟ إنّ في القول بصحة ذلك لجانبا كبيرا من التجرّؤ والمجازفة اذ أنهم كانوا في الفرنسية القديمة يستعملون بانتظام تركيبا شبيها بذلك كما في قولهم le cor Roland أي « بوق رولان » أو les quatres fils Aymon أي « أبناء ايمون الأربعة » الخ . إلّا أن هذا الأسلوب اللغوي قد نشأ في اللغات الرومانية عن محض صدفة تتصل بالصرف بقدر ما تتصل بالأصوات ، وتتمثل في تقلّص عدد حالات الاعراب إلى أقصى حدّ ، مما فرض على اللغة هذا التركيب الجديد . أفليس من الجائز أن تكون صدفة من هذا القبيل قد دفعت بالسامية المشتركة الأولى الى توخي نفس السبيل ؟ وهكذا فان مثل هذه الظاهرة التركيبية التي تبدو من أشدّ خصائص اللغات السامية رسوخا لا توفّر لنا أية اشارة ثابتة عن العقلية السامية .

واليك مثالا آخر : نحن لا نجد في اللغة الهندية الأروبية الأصلية كلمات مركبة عنصرها الأول عنصر فعلي . ولكن هل يصح لنا القول بالاعتماد على وجود هذه الظاهرة في الألمانية (كما في كلمتي Bethaus أي « بيت صلاة »

وفي Springbrunnen أي « عين ماء » الخ) بأن الجرمانيين قد غيروا في وقت ما من طريقة التفكير التي ورثوها عن أسلافهم ؟ لقد سبق أن رأينا ان هذا التجديد في صياغة التركيب كان ناتجا عن صدفة لا مادية فحسب بل وسالبة أيضا تمثلت في سقوط الفتحة (a) من betahūs (انظر ص 215) . فقد تمت جميع العمليات خارج الذهن أي في نطاق تغير الأصوات الذي سرعات ما فرض على التفكير قيدا مطلقا وجعله يسلك المسلك الخاص الذي سطره له وضع الدلائل المادي .

312 ويدعم رأينا هذا عدد كبير من الملاحظات المماثلة فليس للخصائص النفسية/ الخاصة بأية مجموعة بشرية ناطقة بلغة ما كبير وزن مقابل ما لظاهرة لغوية من قبيل سقوط حركة أو تغير نبرة أو غير ذلك من الأمور العديدة المماثلة التي من شأنها في كل آونة أن تحدث انقلابا في علاقة الدليل بالفكرة وذلك في أي شكل من أشكال اللغة .

صحيح أن تحديدنا للنمط النحوي التابع لكل لغة من اللغات،سواء كانت لنا عنها شهادات تاريخية،أو عرفناها بواسطة اعادة بنائها وتصنيفها اياها حسب الطرق والأساليب المستعملة فيها للتعبير عن الفكر أمران لا يخلوان من الفائدة أبدا إلّا أننا لا نستطيع أن نخرج من هذا التحديد ومن هذا التصنيف بأية نتيجة ثابتة اللهم اذا تعلق الأمر بالميدان اللغوي الصرف .

313

الباب الخامس
فصائل اللغات والانماط اللغوية (15)

لقد سبق أن رأينا أن اللغة لا تخضع مباشرة لتفكير الناطقين بها . ولنختم حديثنا بالالحاح على احدى نتائج هذا المبدإ فنقول : أنه لا وجود لأية فصيلة لغوية تنتمي وجوبا وبصفة نهائية الى نمط لغوي ما .

ففي التساؤل عن النمط الذي تنتمي اليه مجموعة من اللغات سهو عن أن اللغات تتطوّر دائما وقول ضمني بامكان وجود عنصر ثابت قار في ذلك التطوّر . وأنّى لنا ان ندّعي فرض قيود على هذه الظاهرة التي لا يقيدها شيء !

كثير من الناس والحق يقال اذا تحدّثوا عن خصائص فصيلة من الفصائل اللغوية مالوا الى أخذ خصائص اللسان الأصلي بعين الاعتبار أكثر من سواه . وليست هذه المسألة بالتي يتعذر حلها لأنها تتعلق بلغة ما في عصر ما . ولكن بمجرد أن نفترض وجود سمات ثابتة لا يغير منها الزمان ولا المكان شيئا نصطدم مباشرة بالمبادىء الأساسية التي تقوم عليها الألسنية التطوّرية . فلا وجود لأية خاصية لغوية دائمة وجوبا ، وان هي ثبتت وتواصلت فذلك بمحض الصدفة .

ولننطلق مثلا من الفصيلة اللغوية الهندية الأوربية . فنحن نعرف الخصائص المميزة للغة الأم التي تولدت عنها هذه اللغات ، فنظام الأصوات فيها على درجة كبيرة من البساطة وليس فيها مجموعات معقّدة من الحروف ولا حروف مزدوجة ،

وصعودا [illegible] إلا أنه [illegible] لعمليات تناوب/حركي في منتهى الانتظام ما غيبة نحوية بالغة (انظر ص 237 وص 331) وفيها نبرة الارتفاع التي يمكن أن تقع مبدئيا على أي مقطع من مقاطع الكلمة وتساهم بالتالي في عمل العلامات النحوية. أما الإيقاع فيها فإيقاع كمي أي أنه يقوم على مجرّد التقابل بين المقاطع الطويلة والمقاطع القصيرة؛ وصياغة الكلمات المركبة والمشتقات فيها في غاية اليسر، وحالات إعراب الأسماء وتصريف الفعل وافرة متنوعة جدا، والكلمة النحوية فيها والكاملة في ذاتها بعلامات اعرابها قائمة بذاتها في صلب الجملة ومن ثمة ما نلاحظه فيها من حرية كبيرة في تركيب عناصر الكلام وندرة الأدوات المعينة على بيان وظيفة نحوية أو الدالة على العلاقة القائمة بين عنصرين فأكثر (كالأدوات التي تسبق الأفعال préverbes وغيرها من الأدوات).

ولكنه من اليسير أن نلاحظ في مختلف اللغات الهندية الأوروبية أنه لم يثبت من هذه الخصائص ولو خاصية واحدة ثبوتا كاملا، وأن عددا كبيرا منها (كدور الإيقاع الكمي ونبرة الارتفاع) قد انعدم تماما من جميعها؛ بل وصل الأمر ببعض تلك اللغات الى حد أن اختل فيها النظام الأصلي الهندية الأوروبية المشتركة اختلالا جعل الباحث يعد أنها أصبحت تنتمي الى نمط لغوي مختلف تمام الاختلاف، وهي مثلا اللغات الانقليزية والأرمينية والارلندية وغيرها.

ولعله من الأعدل أن نقول بوجود بعض التغيرات التي تشترك فيها مختلف اللغات التابعة لمجموعة واحدة ان قليلا وإن كثيرا. من ذلك أنّ ما سبق أن أشرنا اليه من تضاؤل عمل الإعراب شيئا فشيئا هو ظاهرة قد عمّت اللغات الهندية الأوروبية وإن اختلفت من هذه الناحية اختلافا ذا بال. فاللغات الصقلبية هي التي ثبتت أكثر من غيرها في وجه هذه الظاهرة بينما قضت اللغة الانقليزية على مظاهر الإعراب قضاء تاما أو كادت. وينتج عن ذلك وعلى وجه العموم أيضا — ما نلاحظه من قيام ترتيب خاص بتركيب الجمل متفاوت في درجة ثبوته، ومن ميل الى احلال الأساليب التحليلية محل الأساليب التأليفية أي أنهم أصبحوا يستعيضون عن علامات الإعراب بعدد من الحروف والأدوات (انظر ص 269) ويصوغون صيغهم الفعلية بواسطة عدد من الأفعال المساعدة الخ.

وقد رأينا أن احدى سمات النموذج اللغوي الأصلي يمكن أن لا توجد/في بعض

ما تفرّع عنه من لغات. وبالعكس صحيح أيضا [illegible] نلاحظ أن السمات المشتركة بين جميع اللغات التابعة لفصيلة واحدة هي سمات غريبة عن النموذج الأصلي ولا وجود لها فيه [illegible] ما يسمى بالانسجام الحركي فهو ضرب من التقريب تتجانس بموجبه جميع الحركات في اللواحق الموجودة في كلمة ما بين حرف آخر حركة في جذر تلك الكلمة. وتشاهد هذه الظاهرة في اللغات الأورالية الألطائية وفي مجموعة كبيرة من اللغات المتكلم بها في أوربا وآسيا من فنلندة الى منشوريا. وأغلب الظن أن وجود هذه الظاهرة البارزة يعود الى تطوّرات لاحقة. فهي اذن سمة مشتركة بين تلك اللغات؛ ومع ذلك فهي ليست بسمة أصيلة حتى انه يتعذر علينا أن نستند اليها لإقامة الدليل على أصل هذه اللغات المشترك (وهي نقطة ما زالت محل نزاع الباحثين) كما لا يتعذر علينا ذلك بالاستناد الى سمة الالصاق التي تتصف بها هذه اللغات. وقد ثبت لدينا كذلك أن اللغة الصينية لم تكن في بدايتها لغة ذات وحدات أحادية المقطع

واذا قارنا اللغات السامية بالسامية المشتركة التي أعيد بناؤها تحت انظارنا لما [illegible] أول وهلة توافر وجود بعض خصائص. فهذه الفصيلة توحدها أكثر من جميع الفصائل اللغوية الأخرى توجهات نحوي دائم لا يتغير [illegible] لها. وأما [illegible] هذا [illegible] من السمات [illegible] منها سمات الفصيلة الهندية الأوروبية مغايرة [illegible]: منها [illegible] من الكلمات المركبة [illegible] يكون تاما [illegible] النظام الصرفي [illegible] الحالات وعلى أنه أثر في [illegible] في اللغات [illegible] كان ترتيب الكلمات [illegible] وأول [illegible] هذه [illegible] بصدر الجذور (انظر ص 279) [illegible] (ق — ط — ل) [illegible] هذه [illegible] في [illegible] المشتقات [illegible] (انظر في العربية قاتل، [illegible]) [illegible] ومن لسان الى آخر (انظر في العربية قال، [illegible] (161) [illegible] الحروف [illegible] الحركات المساعدة [illegible]
116 فحسب وذلك بفصل [illegible] في [illegible]
وقطول أي [illegible] قتّل [illegible]

لاحقة وبـ ـ قْطُولْ أي «سيقتل» باستعمال سابقة وبـ ـ قْطْلُو أي « سيقتلون » باستعمالها معا الخ) .

وعلينا أمام هذه الظواهر وبالرغم مما أثارته من أقوال ومواقف أن نبقى متمسكين بمبدئنا القائل بأن لا وجود في اللغة لخصائص ثابتة لا تتغيّر وبأن دوامها انما هو من محض الصدفة . فإن ظلت احدى الخصائص ثابتة على مرور الزمان فيمكنها كذلك أن تنقرض بمروره . واذا بقينا في حدود السامية لاحظنا أن « قانون » الحروف الثلاثة ليس مما يميز هذه الفصيلة الى هذا الحدّ اذ هنالك فصائل أخرى فيها ظواهر مماثلة كل المماثلة . فاذا نظرنا في الهندية الأروبية لاحظنا أن نظام الحروف في الجذور خاضع هو الآخر لقوانين دقيقة منها أن الجذر لا يضم أبدا بعد صوت الفتحة الممالة صوتين من المجموعة التالية : الكسرة والضمة والراء واللام والميم والنون . فلا يمكن أن نعثر فيها مثلا على جذر يكون من قبيل serl الخ . والأمر شبيه بذلك ـــ وبدرجة أقوى ـــ بالنسبة الى نظام تعامل الحركات في السامية وللغات الهندية الأروبية كذلك تعامل بين الحركات على نفس الدرجة من الدقة وان كان أقل وفرة ؛ فالمقابلات التي نجدها مثلا في العبرية بين dabār (بباء رخوة) أي « كلمة» و dbār-īm ـــ أي « كلمات » و dibrē-hem (بفتحتين ممالتين) أي « كلماتهم » تذكرنا بما نجده في الألمانية من مقابلة بين Gast و Gäste من جهة و fliessen و floss من جهة أخرى . ولهذه الطريقة النحوية في كلتا الحالتين منطلق واحد . وذلك أن الأمر يتعلق بتغيرات صوتية محضة ناجمة عن تطوّر اعتباطي عشوائي ، لكن عمليات التناوب الناجمة عن ذلك التطوّر أدركها الذهن وأكسبها قيمة نحوية ونشر منها عن طريق القياس نماذج هي من صنع الصدفة ، صدفة التطور الصوتي . أما ثبوت الحروف الثلاثة في السامية فليس إلّا ثبوتا نسبيا وليس بمطلق في شيء ، ومن الممكن أن نقول بصحة ذلك بصورة ما قبلية بل ان الواقع يدعّم ما ذهبنا اليه : فلئن تضمّن جذر كلمة ʾanāš-īm أناشيم أي « أناس » في اللغة العبرية الأحرف الثلاثة المتوقعة (الهمزة والنون والشين) فان صيغة المفرد منها ʾīš « إيشْ) لا تتضمن سوى اثنين وهو اختزال صوتيّ أصاب صيغة أقدم كانت تضم ثلاثة أحرف أصلية . على أنه حتى ولو قبلنا هذا الثبوت المطلق فهل ينبغي أن نرى فيه صفة من صفات الجذور الملازمة لها ؟ كلا ان غاية ما في الأمر أن عدد التغيرات الصوتية التي أصابت

اللغة السامية أقل مما أصاب غيرها من اللغات وأنهم قد احتفظوا بالحروف كما هي في الفصيلة السامية أكثر مما فعلوا في غيرها من الفصائل . فالأمر يتعلق اذن بظاهرة تطوّرية صوتية لا بظاهرة نحوية ولا بظاهرة دائمة . أما القول بثبوت الجذور فمعناه القول بأنه لم تصبها تغيرات صوتية لا غير . وليس بوسع أيّ كان أن يجزم بأن هذه التغيرات لن تحدث أبدا . وعلى العموم فكل ما بناه الزمان يمكن أن يهدمه الزمان وأن يحوله الى حالة أخرى .

ونحن اذ نعترف بأن شليشر Schleicher كان مجحفا في حق الواقع اللغوي عندما ذهب الى أن اللغة انما هي كائن عضوي يحمل في ذاته قانون تطوّره فاننا ما زلنا في الحقيقة نعتبر سهوا أن اللغة كائن عضوي وإن بمعنى آخر وذلك بافتراضنا أن « عبقرية » الجنس أو المجموعة الاثنيّة هي التي تنزع بلا انقطاع الى ارجاع اللغة الى بعض الاتجاهات والسبل المعينة .

ومن خلال ما قمنا به من جولات خاطفة عبر الميادين المتاخمة لِعِلْمِنَا استخلصنا تعاليم سلبية تماما إلا أنها تعاليم مفيدة افادة كبيرة لا سيما أنها تطابق المعنى الاساسي الذي تقوم عليه دروسنا هذه ألا **وهو ان موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد انما هو اللغة في ذاتها ولذاتها .**

---

(1) هي لغات تولدت عن اللاتينية العامية وتنتمي الى الفصيلة الهندية الاروبية وتكتب بالحروف الرومانية . ومنها اللغات الصقلية والفرنسية والايطالية والبرتغالية والرومنية (نسبة الى رومانيا) والسردية (المترجمون)

(2) اللغة الباسكية : لغة لا تنتمي الى الفصيلة الهندية الاروبية ، ويتكلمها سكان بلاد الباسك غربيّ فرنسا واسبانيا (المترجمون).

(3) منخفض الليمان : هو المنخفض الواقع شمال جبال الآلب ، بين فرنسا وسويسرا (المترجمون)

(4) القوطية : لغة القوط ـــ وتمثل الفرع الشرقي من اللغات الجرمانية (المترجمون)

(5) romane : انظر أعلاه تعليق عدد 1

(6) داريوس : ملك الفرس من سنة 521 ق . م . اى سنة 486 ق . م) (المترجمون)

(7) أولفيلاس : اسقف آري وحواري القوط (311 ـــ 383) ترجم الانجيل الى اللغة القوطية (المترجمون) .

(8) النورية أو النورفيجية القديمة (norrois) لغة الشعوب الاسكندنافية القديمة أو النُّرْدية أو الجرمانية الشمالية (المترجمون)

(9) شبيه بهذا في اللغة العربية انحصار حروف الزيادة في (سألتمونيها) دون سواها (المترجمون) .

(10) Aryâsأو Aryens يبدو أن هذا الاسم قد أطلق في القديم على الشعوب التي غزت شمال بلاد الهند وكانت من أصل متوسطيّ (المترجمون) .

(11) شمال بلاد أفغانستان حاليا (المترجمون) .

(12) انظر كذلك في هذا الشأن :
ـــ داربوا دي جوبنفيل d'Arbois de Jubinville « سكان أوربا الأوائل » Les premiers habitants de l'Europe (1877) .
ـــ أو. شرادر O. Schrader : مقارنة اللغات وعتيق عصور ما قبل التاريخ . Sprachvergleichung und Urgeschichte وكذلك كتابه : معجم الالفاظ المادية في الحضارة الهندية الاوروبية Reallexikon der indogermanischen Altertumskunde (وهما تأليفان سابقان بعض الشيء لكتاب هيرت)
ـــ س. فايست S. Feist أوربا على ضوء عصور ما قبل التاريخ : Europa im Lichte der Vorgerschichte (1910)
(13) لغة شعب من الشعوب الايطالية القديمة . (المترجمون)
(14) تمثل العلامة (ʾ) [الهمزة] أو ما يسمى بالالف في العبرية وesprit doux في اليونانية وهو صوت مزماري شديد (الناشرون) .
(15) رأينا أن نجعل هذا الباب هنا وان لم يكن متعلقا بالالسنية الاستردادية وذلك لانه بدا لنا صالحا لان يكون خاتمة للكتاب بأكمه (الناشرون) .
(16) هذا الموضع الوحيد الذي يستشهد فيه المؤلف بشاهد من العربية . (المترجمون)

أمهـات نظريات فاردينان دي سوسير*

ان العمل الذي صاغه فردينان دي سوسير في أواخر القرن الماضي وخاصة بين سنتي 1908 و1909 ، تاريخ القائه درسه الثاني ، وقد ظهر بين الناس سنة 1916 بصدور كتابه « دروس في الألسنية العامّة » الذائع الصيت ، قد زعزع أركان قرن كامل هو القرن التاسع عشر . فقد كنت تجد في ذلك القرن إلى جانب أعمال أصحاب « النحو التاريخي و المقارن» الغزيرة الجمة ـــ وقد كانت النزعتان التاريخية والمقارنة في الألسنية آنذاك تعدّان بعدُ طورين اثنين متقدمين تقدما عظيما بالمقارنة مع دراسات النحاة القدامى وكانت اللغة تدرس فيها بدون أي رابط لا مع الزمان ولا مع سائر اللغات التي تنتمي الى نفس الفصيلة اللغوية ـــ كنت تجد أن معظم التفكير اللغوي ما يزال عالة على المتصورات المنطقية الفلسفية الموروثة عن افلاطون وأرسطو والتي بحكمها « تمثل » اللغة أو بعبارة أخرى أدق ، « هي انعكاس » للفكر أو العقل تماما وبنفس الطريقة والدقة التي يحكي بها رسم من الرسوم النموذجَ الذي عنه نقل . ألا ترى أن الكلمة اليونانية « لوغوس » Logos نفسها (ومنها اشتقت كلمة logique الفرنسية) تدل في آن واحد على « اللفظ » و « النطق » و « العقل » و « الذكاء » ؟ . ثم أو ليست كلمة « منطق » في العربية ، المطابقة لكلمة «logique» ، مصدرا لـ « نطق » ومعناها في المعاجم العربية « تكلم ونطق بأصوات » (1) . والعبارة السائرة « الانسان حيوان ناطق» دليـل قـائم يشهد بما في الصفة « ناطق » هذه ، الموافقة في آن لـ « متكلم » ولـ « عاقل » ، من اشتباه والتباس .

* نشر هذا المقال باللغة الفرنسية في مرقونة قسم الألسنية لمركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية 1974 ـ 1973 .

وقد كان اللوغوس logos لدى أفلاطون « الفكر الكوني السابق للغة وجودا » وينجر عن ذلك أن بُنى اللغة هي بعينها بُنى التفكير . وبناء على هذا فكما أن الفكر يدرك **أولا** فاعلا يقوم بالفعل ثم سيرورة حدوث ذلك الفعل **وأخيرا** المفعول الذي يقع عليه فعل الفاعل ، كذلك ينبغي أن يكون للغة في هذا المضمار تسلسل طبيعي هو التالي :

فاعل + فعل + مفعول به

وعلاوة على ذلك ، فان قال قائل : «الولد يأكل التفاحة» فان هذه الجملة تمثل على وجه التدقيق العلاقات الموجودة في الواقع المعاش ، بين « الولد » و « حدث الاكل » و « التفاحة » . وهي علاقات جوار مباشرة .

وكان النحاة القدامى إذا اعترض عليهم معترض فقال : إنّ الأمور لا تجري دوما على هذا النحو، في صلب اللغة(2) ردّوا عليه بأن تلك الحالات شواذ يمكن ارجاعها ، إن لم يكن دوما ففي معظم الحالات ، الى « القاعدة » وذلك بواسطة سلسلة من التحويلات تنم عن كثير من البراعة ..وفي هذا الباب بالذات وبصفة خاصة يكمن موقف النحاة العرب القدامى من البصريين ، فلقد كانوا ورثة التقاليد اليونانية القائمة على المنطق والقياس ، فكانوا يتميزون خاصة ببراعة وفطنة تدعو الى الدهشة في ردّ الظواهر « الشاذة » الى ما افترضوه من النّماذج المجردة افتراضا منطقيا وعدوه أكثر مدعاة الى الاطمئنان من سواه (3) .

وفضلا عن ذلك ، كانت نظرية « أقسام الكلام » القديمة (من اسم ، وفعل وصفة الخ ...) المتولدة عن مقولات ارسطو الشهيرة (الجوهر ، الحدث ، الصفة الخ ...) هي السائدة بلا منازع في ميدان النحو .

وهكذا ، فكما أنك تجد ضمن مقولات التفكير ، وإذن في الواقع المتعلق به ، مقولة « الجوهر » فأنت واجد كذلك في اللغة « الأسماء » . ومقولة « النوع » يقابلها « الصفة » ومقولة « الزمان » أو « الحدث » يطابقها « الفعل » وهلمّ جرا . ولذلك كنت تجد النحاة العرب بوجه خاص يعرفون الفعل بأنه « ما دل على حدث مقترن بزمن » ، وان لم يكن الأمر كذلك ، أي في الحالات التي من قبيل فعل « كان » الذي لا يكاد يدل على معنى الحدث بل يدل على مجرد حالة ، عدّوه فعلا ناقصا تماما كما أن فعل الكينونة في الفرنسية être يوصم بأنه auxiliaire أي مساعد .

ومن جهة أخرى فإنّ التقاليد اللغوية العريقة التي سنّها تباعا منذ البداية النحاة الهنود فاليونان فالرومان فالعرب ، كاد أصحابها يقتصرون فيها على دراسة اللغة المكتوبة دون سواها (من نصوص دينية أو أدبية راقية ، كالشعر مثلا) . أما اللغة الملفوظة المنطوقة فكانوا لا يُقيمون لها وزنا ولا يهتمون بها ، وان صادف ان استشهد بها النحاة العرب مثلا ، فانما كانوا يفعلون ذلك لحظر محاكاتها والنسج على منوالها حظرا باتّا ، وللحكم عليها بأنها لغة عامية فاسدة مستهجنة (من هجين أي لقيط) .

وكانوا يبلغون في ذلك من الانتقاء حدّا جعلهم يصنفون العهود الى عهود لغوية محمودة وأخرى مذمومة . أما بالنسبة الى اليونان والرومان فلغات عهد«بريكلاس» و«سيسرون»على التوالي هي المحمودة دون سواها والجديرة إذن بأن تدرس ؛ أما بالنسبة إلى العرب فلغة القرنين الأولين من الهجرة في الأمصار ، أما في البوادي فقد قدروا أن « فصاحتها » يمكن أن تمتد على حقبة أطول أي حتى نهاية القرن الرابع الهجري . أما اللغة الفرنسية فان القرن السابع عشر هو القرن المبجل بصفته قرن « اللغة الجميلة » وقد أصبح فيه فوجلاس (Vaugelas) ، وهو الذي صنّف في ذلك العهد مؤلفا في وصف اللغة الفرنسية ، بمثابة سيبويه فرنسا (4) .

وفي الختام ، لمّا كان القدامى يرون وجوب بقاء اللغة صافية وبالتالي ثابتة ، ولما كان كل فريق يعد لغته المثل الاعلى لكل كلام بشري فقد ساقهم ذلك الى اهمال دراسة المظاهر التطورية والى اغفال المقارنة بين مختلف اللغات المتقاربة أو المتباعدة من حيث أصلها ، مقارنة منهجية منسّقة . ويجب أن ننتظر القرن التاسع عشر حتى نرى الألسنية تحقق ذلك التقدم العظيم المتمثل في تيار الدراسات الذي أطلق عليه اسم « النحو التاريخي والمقارن » وقد سلفت الاشارة إليه في بداية هذا العرض .

هكذا اذن ، كانت النزعة المنطقية والنزعة الفيلولوجية (5) التي تبجل المكتوب على المنطوق ، والنزعة النفسية / الذهنية والنزعة الصفوية التقعيدية هي السّمات الجوهرية في الدراسات اللغوية في العهد الذي ظهر فيه فرديناند دي سوسير .

فهل كان له من رواد سباقين ؟

لا شك أننا اذا عدنا الى ما مضى من الزمان وجدنا قطعا هنا وهناك بعض السمات أو العبارات التي تذكرنا بأمهات نظريات فرديناند دي سوسير . من ذلك أننا نجد عبارتي «signans» و «signatum» (أي الدال والمدلول) بعد لدى الرواقيين ثم في زمن لاحق لدى أعلام من قبيل القديس «أغوستينيانوس» بل وحتى عند « فانلون » الذي يعتبر أن « ليست الالفاظ سوى أصوات تتخذ منها بصورة اعتباطية دلائل لأفكارنا (انظر اعتباطية الدليل عند دي سوسير) . كما أن كلمة مدلول كثيرة الاطراد عند العرب . ويمكن أن نذهب الى أنهم اذ عرّفوا الفعل مثلا فقالوا : « الفعل ما دل على حدث » فقد كانوا يستعملون فعل « دلّ » منذ ذلك العهد بمعنى قريب جدا من « كان قرينة أو دليلا على كذا .. » .

لقد حاول بعض الدارسين ، ومن بينهم ياكبسون أن يبينوا أن عمل دي سوسير لم يخلق من عدم ، واستشهدوا على ذلك بـ « كورتناي » و « هومبولت » و « بيرس » وعدّوهم من بين روّاد الألسنية السوسيرية . بل ان بعضهم قد ذهب الى حد اعتبار أن « فوجلاس » قد عالج الألسنية « الآنية » في القرن السابع عشر .

ومهما يكن من أمر ، ولعدم وجود دراسة ضافية عن هذه المسألة ، لا نزاع في أن « دروس في الألسنية العامة » ، لفرديناند دي سوسير ، تمثل المحاولة الكبرى الاولى التي صيغت فيها جميع المفاهيم الحديثة التي ستحدث ثورة في نطاق الدراسات اللغوية القديمة صياغة منهجية شبه منظمة . ونقول شبه منظمة لأن تنظيم المعطيات كما وردت في طبعة سنة 1916 الذي ظلّ كما هو في جميع الطبعات الموالية ، والذي هو من صنعة تلاميذ ف . دي سوسير ، تنظيم يبدو لنا اعتباطيا ونرى وجوب اعادة النظر فيه قصد اعادة بنائه بناء نظريا يكون أكثر صرامة (فنحذف من الاستطرادات الصوتية وغيرها ما هو مفرط في الطول ومن الشواهد المستقاة من أمثلة من اللغة اللاتينية ما هو مفرط في الاسهاب أو نذيّل بها الكتاب/(6) .

وكما هو معلوم ، يتضمن « الكتاب » ، من المعطيات النظرية الجوهرية ، والى جانب تحديد تعريف الألسنية وضبط مهمتها ، عددا معينا من الأزواج المتقابلة

الجوهرية . وسنحاول أن نستعرض جميع ذلك مستشهدين في عرضنا بشواهد مستقاة من نفس المؤلّف الذي وضعه أب الألسنية البنيوية .

1) حد الألسنية :

لقد أسهم فرديناند دي سوسير في تلك الحركة الكبرى التي سادت في أوروبا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وكان من همّ أصحابها تحديد طبيعة مختلف العلوم الانسانية والاجتماعية وموضوعها تحديدا جامعا مانعا . فبادر الى القول بأنه يتحتّم على الألسني « أن يحدد ماهيّة الألسنيّة » أي أن يضبط على وجه التدقيق ما تختلف فيه عن سائر المجالات العلمية الأخرى التي التبست بها دهرا طويلا جدا وهي علم النفس وعلم الاجتماع والفيزيولوجيا والفيزياء وغيرها .

أما مهمة الألسنيّة فتتمثل في :

أ ــ أن تقوم بالوصف والتأريخ لجميع ما يمكنها أن تبلغه من اللغات .

ب ــ أن تبحث عن القوى العاملة عملا دائما مستمرا في جميع لغات العالم وأن تستخلص القوانين العامة التي إليها يمكن ارجاع جميع الظواهر الخاصة بتاريخ اللغات .

ج ــ أن تحدد موضوعها وتعرّف ماهيتها .

وعلى هذا الأساس ، فانه يتعين على الألسني حسب دي سوسير أن يدرس جميع اللغات سواء في ذلك قديمها وحديثها ، فصيحها و « عاميّها » ، المكتوب منها وغير المكتوب (فلا مجال عنده بعد ذلك للغة أو حقبة محمودة) دراسة آنية (وصفية) أولا ثم دراسة زمانية (تاريخية) ثانيا . كما ينبغي أن يكون هذا العلم علما كونيّا وأن يكون وضعه أقرب ما يكون من وضع العلوم الصحيحة (وبذلك يتميز عن النحو الخاصّ بهذه اللغة أو تلك) كما ينبغي أن يميّز أخيرا عن الفيلولوجيا وهو مبحث لا يدرس الوقائع اللغوية الا عرضا ، لأن غرض صحابه الأساسي منه انما هو أن يستخلصوا من اللغة الوقائع المتعلقة بحضارات الشعوب ، وعن علم النفس وهو نشاط ذهني سابق لعملية اللفظ ، وعن الفيزيولوجيا ، وهو عمل الجهاز العصبي وحركات أعضاء النطق وأخيرا ، وهو أمر يبعث على الاستغراب ، عن الفيزياء وهو مجال تدرس فيه الخصائص الأكوستيكية لأصوات اللفظ . وذلك أن

« جـوهر اللغة كما سنرى لا يمت الى الطبيعة الصوتية للدليل اللغوي بصلة » كما يؤكد ذلك دي سوسير (7) . ومن اليسير على المرء أن يلاحظ أن المؤلف ، خلال سعيه الى تخليص الألسنية من جميع ما يثقلها من الشوائب ، يتبنى موقفا لانفسيا (الالسنية ≠ علم النفس) بل ولا فيزيائيا لأنه يفصل اللغة عن عملية احداث الأصوات أي عن اللفظ . على أن هذه التفريعات الدقيقة اللطيفة كما سنرى ذلك في الصفحات الموالية لم تحل دون وسم أمهات نظريات فردينان دي سوسير بعدد من التناقضات .

وفعلا فان فردينان دي سوسير بعد أن حاول كما رأينا تخليص الألسنية من مجمّع سائر المجالات التي كانت تغشي موضوعها ، قد شعر بضرورة وضعها في مجموعة أوسع أطلق عليها اسم sémiologie (أي علم الدلائل) وهي علم جميع الدلائل . يقول : « واذن فانه من الممكن أن نتصور علما يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية ... ونقترح تسميته sémiologie (علم الدلائل) وهي كلمة مشتقة من اليونانية sémeîon بمعنى « دليل » وليست الألسنية سوى قسم من هذا العلم العام ، والقوانين التي سيكشف عنها علم الدلائل ، سيكون تطبيقها ممكنا على الألسنية » (8) .

فلما كان علم الدلائل قسما من أقسام « علم النفس الاجتماعي » على حدّ عبارة المؤلف ، ولما كان موضوعه الأنظمة الدلائلية من ايماءات وطقوس ورقص واشارات بحرية واشارات مرور بل وحتى من مختلف أنماط الموضـة والسيارات ، منذ أعمال «رولان بارط» فان علم الدلائل سيشتمل اذن على دراسة الكلام ، وهو اهم الأنظمة الدلائلية على الاطلاق من حيث ما يسمح به اقتصاده من امكانات لا متناهية أو من حيث اتسامه بالكونيّة .

2 ــ الكلام واللغة واللفظ :

ان ذلك التمييز الشهير الذي أقامه دي سوسير بين اللغة واللفظ والذي يقوم عليه جميع ما تمخض عن الألسنية من تطورات لاحقة قد ورد بعد تحديد الكلام . والكلام حسب المؤلف يظهر لنا في مظهر متشعب جدا لما فيه من أنشطة عديدة تتضافر على انتاجه من نفسية وفيزيولوجية وفيزيائية وجميعها كما سلف أن رأينا لا

يمت الى موضوع الألسنية بأية صلة . والكلام البشري علاوة على ذلك يتبدّى لنا على الدوام في مظهرين اثنين متلازمين : فهو « اجتماعي » (متمثلا في اللغة) وفردي (متمثلا في اللفظ) ، حاضر (صفته الآنية) وماض (صفته الزمانية) .

لذلك ترى دي سوسير لا يخفي حرجه بشأن ما يجب أن يدرس في صلب الكلام من مكونات تمثل موضوع الألسنية المخصوص . يقول : « وهكذا مهما يكن الجانب الذي منه نباشر المسألة فان موضوع الألسنية بتمامه وكماله لا يتجلى لنا في أي من هذه الجوانب . فنحن نصطدم اتّى اتجهنا بهذه المعضلة : إما أننا نوقف اهتمامنا على جانب واحد من كل مسألة فيكون في ذلك خطر أن لا ندرك الثنائيات المشار اليها آنفاء أو أننا ندرس الكلام من زوايا متعددة في آن واحد فيلوح لنا موضوع الألسنية ركاما مبهما من أشياء متباينة لا يمت بضعها الى بعض بصلة » (9) . ثم يختم حديثه في جرأة بأن المظهر الوحيد ، من بين مظاهر الكلام ، الجدير بان ينزّل تلك المنزلة المرموقة فيكون موضوع الألسنية ، انما هو «المظهر الاجتماعي » منه . يقول : « وليس يوجد في رأينا إلّا حل واحد لجميع هذه المشاكل : **يجب أن نحصر اهتمامنا في ميدان اللغة فقط** ، وأن نتخذها قاعدة للحكم على جميع مظاهر الكلام الأخرى » (10) .

ولذلك تراه يعرف اللغة ، بعد أن قال عنها « ان اللغة والكلام ليسا بشيء واحد تماما » ، بأنها القسم الأساسي منه أي الجانب الاجتماعي الخارج عن نطاق الفرد « ولو كان في الامكان أن نحيط بمجموع الصور اللفظية المختزنة **لدى جميع الأفراد** (11) لضبطنا ذلك الرابط الاجتماعي الذي هو قوام اللغة » (12) .

ثم يؤكد دي سوسير على الطابع التجريدي الموجود بالقوة في اللغة من حيث هي نظام من الدلائل (13) موجود في أدمغة الجمهور « إنها (أي اللغة) كنز مودع عن طريق ممارسة اللفظ لدى جماعة من الاشخاص المنتمين الى مجموعة واحدة ، وهو نظام نحوي يوجد **بالقوة** (14) في كل دماغ وعلى الأصح في أدمغة مجموعة من الأفراد . وذلك لأن اللغة ليست تامة في أي واحد منها بمفرده ، ولا وجود لها على الوجه الأكمل إلا عند الجمهور»(15) .

هكذا اذن وبعد أن فصل دي سوسير اللغة عما أسماه بـ « ممارسة اللفظ » وقد سبق أن ميّز اللغة بأن عدّها موضوع الألسنية الوحيد ، خلص الى تحديد

ماهية اللفظ . فاللفظ عنده هو الجانب الفردي من الكلام اذ هو إخراج اللغة [من حيز الكمون] الى حيز الوجود الملموس وهو أمر تظل اللغة « خارجة » عنه . إلّا أن رغبته في توحيد موضوع دراسة الكلام بقدر المستطاع (أي الألسنية) ستذهب به ، وهذا من عجيب المفارقات ، الى حدّ كاد يخرج معه

اللفظ والتصويت من مجال هذه الدراسة. يقول : « فلننظر على سبيل المثال كيف يتم انتاج الأصوات الضرورية للفظ . ان أعضاء التصويت عناصر أجنبية عن اللغة شأنها في ذلك شأن الأجهزة الكهربائية التي تصلح لترقيم الفبائية مورس في غربتها عن تلك الألفبائية»(16) . ثم يضيف أسفله « فدراسة الكلام تحتوي اذن قسمين اثنين : قسم **جوهري** (17) موضوعه اللغة ، وهي جماعية في جوهرها ومستقلة عن الفرد ، وهذه الدراسة دراسة نفسية بحتة — وقسم آخر **ثانوي** (18) وموضوعه الجانب الفردي من الكلام أي اللفظ بما في ذلك عملية التصويت وهو نفسي — فيزيائي»(19) .

ثم يختم حديثه فاذا هو ينمّ عن بعض الحرج والتردد : « وقد يمكن مع شيء من التسامح أن نطلق اسم الألسنية على كل من هاتين المادتين وأن نستعمل عبارة ألسنية اللفظ (كما استعملنا عبارة ألسنية اللغة) ولكن يجب أن لا نخلط بين العبارة الأولى وبين **الألسنية بأتم معنى الكلمة أي تلك التي موضوعها الوحيد هو اللغة** (20) وسوف نقصر اهتمامنا على ألسنية اللغة وحدها » (21) .

ولهذه القضية من الأهمية ما يحملنا على الوقوف عندها وقفة قصيرة . واذن فبعد أن أبعد دي سوسير النزعة النفسية بفصله الألسنية عن علم النفس وعن مضاربات القدامى الفلسفية المثالية ها هو ذا يعود اليها وقد تبنّى تبنيا يكاد يكون كليا ألسنية موضوعها اللغة قال عنها بنفسه إنها نفسية . على أننا نصادف هذا العود من ف دي سوسير الى الموقف النفسي ، فضلا عن ذلك ، في صلب تصوره للمدلول ، اذ يعتبره « صورة أكوستيكية ذهنية » كما سترى ذلك من بعد ويحسن أن نلاحظ بشأن هذه النقطة بالذات أن واحدا من أبرز أولئك الذين واصلوا فكر دي سوسير ، وهو الألسني الفرنسي اندري مارتيني ، قد حاد عن تعاليم أستاذه بهذا الشأن كما يبدو من هذه الفقرة المنتخبة من كتاب من أهم مؤلفاته : « إن هذا التمييز بين اللغة واللفظ على ما فيه من كبير فائدة قد يحمل

على الاعتقاد بأن للفظ نظاما مستقلا عن نظام اللغة بحيث يمكننا مثلا أن نتصور وجود ألسنة للفظ بازاء ألسنية للغة والحال أنه ينبغي لنا أن نقتنع ونسلم بأن اللفظ لا يعدو أن يكون تجسيما لنظام اللغة ، وانه **لا يتسنى لنا بلوغ معرفتها إلّا بفحص اللفظ وما يحدده من سلوك لدى المستمعين** » (22) .

3 — الزمانية والآنية :

لقد ألح دي سوسير — خلال ابرازه الشديد الوضوح وللمرة الأولى لذلك التقابل بين وجهتي النظر اللتين يمكن من خلالهما دراسة الكلام وهما وجهة النظر التطورية أو الزمانية من جهة ووجهة النظر القارة أو الآنية من جهة أخرى — ألح على ضرورة أن يتبنّى الألسني أولا وأساسا وجهة النظر الآنية . واستنادا الى الترسيمة التالية :

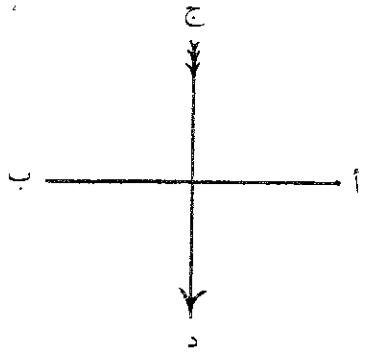

حيث يمثل الخط « أ ب » « محور المتواجدات » (العلاقات بين الأشياء المتواجدة وبالتالي ينعدم تأثير الزمان وهو ما يوافق الآنية) بينما يمثل الخط « ج د » « محور المتعاقبات » (الزمانية) ، يلح دي سوسير على أسبقية الآنية معتمدا صيغا تقريريّة صارمة من قبيل« اللغة نظام من القيم البحت التي لا يحدد حقيقتها شيء **باستثناء الحالة التي تكون عليها عناصر ذلك النظام** » (23) أو من قبيل « ان أول ما يشد الانتباه عند دراسة الظواهر اللغوية هو أن تعاقبها في الزمان أمر لا وجود له بالنسبة الى المتكلم فالمتكلم يجد نفسه دائما تجاه حالة لغوية ما » (24) (بمعنى «آنية» ، في كل حين) .

ويوضح دي سوسير مفهوم الآنية فيؤكد أنها تدرس العلاقات اللغوية في صلب النظام وبصرف النظر عن كل تغيّر . ويسوق على ذلك مثالا هو : مثل الكلمتين اللاتينيتين ecclesia أي « كنيسة » و templum أي « معبد » . فتاريخ هاتين اللفظتين (أي حالتهما في اللاتينية حيث لم يكونوا يقيمون بينهما أية علاقة) لا يعين الدارس في شيء على توضيح وضعهما الراهن في اللغة الفرنسية حيث أصبحت الكلمتان الفرنسيتان الموافقتان لهما أي église و temple منذ ظهور الديانة المسيحية في علاقة تقابل : (كنسية كاثوليكية مقابل معبد بروتستنتي) . ويمكننا أن نضيف الى ذلك مثال كلمة « في » في العربية الدارجة التونسية في قولهم « ياكل في الخبز » ومعناه « هو بصدد أكل الخبز » فمن الواضح أن العلاقات التي لهذه الأداة في المركب اللفظي العامي المذكور (المعبر عن مظهر استمرار الحدث) ليس لها كبير صلة بعلاقات « في » في العربية الفصحى حيث يؤدي هذا « المؤشّر الوظيفي » بالخصوص دور الأداة الدالة على المكان أو على السبب .

في خاتمة المطاف ، ويعد أن ألح دي سوسير على أن التقابل بين وجهتي النظر الآنية والزمانية « تقابل مطلق لا محيد عنه البتة » (25) يدلي بمقارنته الشهيرة بين اللغة ولعبة الشطرنج . ونسوق اليك هذه الفقرة بهذافيرها تقريبا لما تسلطه من ساطع البيان على ما نحن بصدده : « فالذي نلاحظه أولا أن أية مرحلة من مراحل هذه اللعبة توافق كل الموافقة حالة من حالات اللغة . فقيمة كل قطعة بالنسبة الى بقية القطع هي رهينة موقعها من الرقعة وذلك كما أن كل عنصر من عناصر اللغة تتحدد قيمته بتقابله مع جميع العناصر الأخرى .

والذي نلاحظه ثانيا أن النظام لا يكون أبدا إلّا نظاما مؤقتا اذ هو يتغير بتغير موقع القطع . وصحيح أن قيمة القطع هي رهينة كذلك وبالخصوص لتواضع ثابت لا يتغير هو قانون هذه اللعبة وهو قانون موجود قبل بداية المقابلة ويستمر وجوده بعد كل عملية من عمليات اللعب . ومثل هذا القانون المتفق عليه اتفاقا لا رجعة فيه موجود كذلك في ميدان اللغة ...

ولكلّ وضع تكون عليه القطع أثناء مقابلة في الشطرنج طابعه الذي ينفرد به ، وهو أنه وضع قد تخلص من ربقة ما سبقه من الأوضاع الأخرى .. وليس للذي

يكون قد تتبع جميع أطوار المقابلة أدنى فضل في فهمها على أحد الفضوليين جاء ينظر ما وصلت اليه حالة اللعبة في الفترة الحاسمة ... وكلّ هذا ينطبق كذلك على اللغة ويقر نهائيا مبدأ التمييز الجذري بين الدراسة الزمانية والدراسة الآنية اقرارا »(26) .

لقد كان دي سوسير متفطنا كل التفطن إلى أن من الدارسين قبله من قام بدراسات آنية (النحاة القدامى) وأخرى زمانية (التيار التاريخي والتيار المقارن في ألسنية القرن التاسع عشر) ولكنه كان يعيب على الضرب الثاني من الدراسات — التي كان بوب رائدها الأول — « أنها ضاربة بسهم في ميدانين اثنين معا ، لأنها لم تتوصّل الى التمييز تمييزا واضحا بين الحالات (الآنية) والمتعاقبات (الزمانية)»(27) ويبدو كذلك أن دي سوسير كان منشغلا بفكرة مفادها أن الألسنية التاريخية في القرن التاسع عشر لم يتسن لها — في نطاق دراسة التغيرات — إلّا مباشرة « عناصر منعزلة (انظر حديثه عن قانون « غريم » وقانون «فرنير ») فغاب عنها أن كل عملية (أي كل تغيير يلحق عنصرا منعزلا) تأثيرا في كامل النظام » (28) . ونكاد نلمح من خلال هذا القول ذلك الرأي الشهير الذي تبناه بعض الألسنيين وبعض الفلاسفة اللاحقين والقائل بأن الدراستين الآنية والزمانية دراستان متعالقتان باعتبار أن الزمانية تقوم على فحص الانتقال لا من عنصر أو من بعض العناصر التابعة لحالة لغوية ما الى عنصر آخر وانما من حالة آنية (أي من نظام برمته) الى حالة أخرى .

ولم ينفك هذا التمييز الهام بين الآنية والزمانية وتلك الأسبقية التي جعلها دي سوسير للأولى على الثانية ، يغذي منذ ذلك الحين الجدل القائم في نطاق التفكير البنيوي المعاصر متجاوزا والى حدّ بعيد مجال الألسنية (راجع الجدال الذي قام بين سارتر وميشال فوكو في « الازمنة الحديثة » على اثر نشر الثاني لمؤلفه «الكلمات والأشياء ») كما كانت المناقشات التي تمت بهذا الشأن حول الماركسيين والبنيويين على جانب كبير من الحدّة . فقد كان أصحاب الفريق الأول يتهمون أصحاب الفريق الثاني ، لميولهم الآنية ، بأنهم قد انساقوا بذلك الى نفي التغير أو على الأقل بعجزهم عن ادراكه وتعليله(29) .

ان النتيجة الهامة التي خلص اليها دي سوسير من هذه النقطة هي « أن كل ما هو زماني في اللغة ليس كذلك إلّا بواسطة اللفظ » (30) ويعلل ذلك قائلا :

« فبدور جميع التغيرات إنما تكمن في اللفظ » (30) . فالابتكار في اللغة كما في سواها غالبا ما يكون ناتجا عن خروج وحياد عن القاعدة أو ناتجا عن « أخطاء » (انظر كتاب « نحو الأخطاء » لهنري فراي) يمكن أن نجد لها تفسيرا بنيويا منطقيا جدا ويتسبب فيها في البداية عدد من الأفراد ، وكثيرا ما ينتهي بها الأمر الى أن يتبانها جميع أفراد المجموعة التي تتكلم تلك اللغة فتستقر بذلك فيها . لكن دي سوسير يفصح هنا مرة أخرى عن تناقضاته عندما يضع بعد ذلك بصفحة هذه الترسيمة التالية :

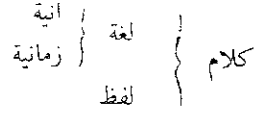

فيجعل الزمانية لا على صعيد اللفظ بل على صعيد اللغة متماديا بذلك في تردده بين « ألسنية اللغة » و « ألسنية اللفظ » . ولئن كان ما يبدو من أمر تفضيله الآنية من ناحية واللغة من ناحية أخرى يفسر لنا تفسيرا حسنا الأسباب التي دعته الى رفض الزمانية في مستوى اللفظ فلا شيء يبرر ما تفضي اليه الترسيمة السابقة من قلب للآية. على أن المؤلف كأنه أراد أن يبرّئ ساحته من هذا التضارب فاذا هو يؤكد تأكيدا على « أن هذا الاعتبار لا يبطل شيئا من ذلك التمييز الذي أقمناه آنفا بين الآني والزماني بل ان ذلك مما يدعمه . ألا ترى أن تاريخ كل ابتكار لغوي يوجد فيه دائما طوران متميزان : 1) طور أوّل يبرز فيه الابتكار لدى الافراد ، 2) طور ثان يصبح فيه الابتكار ظاهرة تابعة للغة مماثلة في مظهرها لما هي عليه في الطور الأول إلّا أن المجموعة قد تبنّتها (31) لكن المؤلف بانتحائه هذا المنحى انما قام فيما نرى بترسيخ ما في الفصل بين اللغة واللفظ من تكلف لا في المستوى الاجرائي العلمي فحسب ، حيث هو مفيد وضروري ولكن أيضا في مستوى معرفة أيهما يمكن وينبغي أن يكون موضوعا للألسنية .

4) العلاقات السياقية والعلاقات الترابطية :

ان ذلك التقابل بين السياق والجدول، والموازي والمتضمن بوجه من الوجوه لذلك التمييز بين اللفظ واللغة ، والذي نشرته ألسنية ما بعد سوسير ، وخاصة لدى

مارتيني ، قد ظهر لأول مرة فيما يبدو لنا في « دروس ... » تحت التسمية المشار اليها آنفا (32) . وقد عرف المؤلف السياق بقوله : فالسياق اذن يتركب دوما من « وحدتين متتاليتين فأكثر » (33) في صلب الخطاب وبالتالي في اللفظ (مثل أ ـــ مال ، رغم ذلك ، الـ ـــ حياة ـــ الـ ـــ بشرية) وعرّف مفهوم الترابط بأنه ما به « نلاحظ خارج الخطاب أن الكلمات المتضمنة لشيء ما مشترك بينها تترابط في الذهن ... فكلمة تعليم مثلا تثير في الذهن بصورة لا شعورية طائفة من الكلمات الأخرى من قبيل علّم واعلم الخ ... أو من قبيل تسليح وتغيير الخ أو من قبيل تربية وتمرّن وتفقه الخ». (34) ثم يلح دي سوسير على العلاقات التي تقوم في مستوى السياق أو الترابط (أي « الجدول » كما نقول اليوم) . فالعلاقة السياقية في نظره علاقة « حضورية لأنها تقوم على عنصرين فأكثر كلها متواجدة في نفس الوقت ضمن سلسلة من العناصر موجودة بالفعل » (35) أما العلاقة الترابطية ـــ وقد قدم لنا عنها في موضع لاحق الترسيمة التالية :

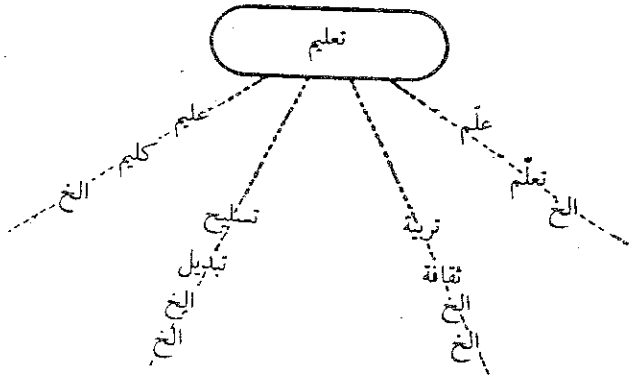

فـ « تجمع بين عدد من العناصر بصورة غيابية ضمن سلسلة وهمية موجودة بالقوة » (36) ويجدر بنا أن نلاحظ أن دي سوسير قد أفرط في التنقيب عن الترابطات الممكنة افراطا ، وذلك انطلاقا من النوع القائم على علاقة دلالية (من قبيل تعليم ، وتدريب) الى النوع القائم على علاقة صرفية (من قبيل تعليم ، علم ، تعلّم) الى النمط (الشكلي [المحض] (من قبيل تعليم كليم ملّيم) فخلط بين الأسماء والأفعال والصفات بل وحتى الظروف . وقد حرص من أتى بعده من الألسنيين

(«بلومفيلد» و«مارتيني») على حصر ذلك المجال فحددوا الجدول وهو (الترابط عند دي سوسير) بأنه مجموعة الوحدات التي يمكن أن تظهر في نفس النقطة من الملفوظ والتي لا يجوز للمتكلّم أن يختار منها سوى واحدة لا غير تاركا جميع ما سواها وذلك بسبب الصفة الخطية للخطاب . ومن المؤكّد أن مثل هذا التعريف يفضي الى بعض التداخلات (37) وهي قليلة في نهاية الأمر الا أن تعريف الجداول بأنّ بعضها مغلق (كالضمائر والأسماء الموصولة) وبعضها مفتوح (المصادر والأفعال ...) تعريف يظلّ أكثر دقة وصرامة من تعريف دي سوسير .

5) الدليل والدال والمدلول :

ان هذا الزوج ، أو على الأصح هذا الثالوث» من أهم المصطلحات لا من حيث قيمته النظرية والعملية في حدّ ذاتها فحسب وانما أيضا بفضل ما تم له من امتداد الى مجالات أخرى غير مجال الألسنية هي من مشمولات ما أصبح يسمى إثر دي سوسير بعلم بالدلائل .

لقد حدّ دي سوسير الدليل اللغوي بانه كيان واحد لا يتجزأ وذو وجهين متصلين وملتحمين التحام وجه الورقة وقفاها وأطلق على هذين الوجهين على الترتيب اسمي « الدال » و « المدلول » . والدّال عنده هو « الصورة الأكوستيكية » أو الصوتية التي يتضمنها كل دليل . أما المدلـول فهو منها «المتصور الذهني (أو ما كان يعبر عنه قديما بـ«المعنى»). لكن هذا الفصل (بين الدّال والمدلول) على ما فيه من براعة ينطوي على غموض عظيم يمثله مفهوم «الصورة الأكوستيكية» فالصورة الأكوستيكية حسب دي سوسير ليست «التصويت في حدّ ذاته أي ما تدركه اذن السامع عندما يتلفظ المتكلم بالأصوات المكونة لدليل ما تلفظا فعليا صريحا انما هي بعكس ذلك ، الصورة الذهنية التي يمكن أن تحصل لدى أي فرد من جراء أصوات دليل ما ، من دون أن يتلفظ المتكلم بتلك الأصوات تلفظا فعليا . ويورد دي سوسير صورة تساعدنا على تمثل هذه الفكرة الغريبة أي ما « يراه » المرء عندما يستعرض ذهنيا مقطوعة من الشعر بدون أن تتحرك له شفة أو لسان . ويجدر بنا أن نلاحظه علاوة على ذلك أن المدلول أو « المتصور » بالنسبة الى دي سوسير أمر مختلف عن الشيء المحسوس

(الذي أطلق عليه دارسون آخرون في زمن لاحق اسم référent أي مرجع والذي هو تجريد له . وهكذا ففي الترسيمة الواردة في دروس دي سوسير :

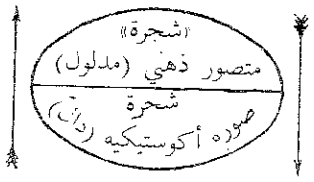

حيث يشير السهم الى أنّ المدلول والدّال مرتبطان ارتباطا وثيقا . يتكون الدليل شجرة من متصور ذهني هو « شجرة » (وهو المدلول) وهو متميز عن الشيء (شجرة) أو « المرجع » ثم من صورة ذهنية هي (ارتسام) الصورة الصوتية (أي الدّال) وهي مختلفة عن الأصوات الملموسة المكونة لكلمة « شجرة » . وبعبارة أخرى قد تكون أكثر وضوحا ، إن أمكن الوضوح في مثل هذا الميدان ، فان الاتحاد الذي لا فكاك منه بين متصور ذهني ، — هو غير الشيء (المرجع) — ، وبين صورة ذهنية محض (تحصل) عن الصورة الصوتية لذلك المتصور — وهي غير عملية التصويت الملموسة — هو الذي يمثل في نظر دي سوسير الدليل اللغوي .

وأخيرا تبدو نظرية سوسير بشأن ما أسماه « اعتباطية الدليل » أكثر وضوحا وأقل اغراقا في الذهنية . وبعبـارة أدق فـان علاقة الدال ، بالمدلول هي التي تبدو علاقة قائمة على المواضعة وبالتالي اعتباطية صرفا . وفعلا فليس ضمن خصائص الأصوات المكونة لكلمة شجرة (أي الشين والفتحة والجيم والفتحة والراء والفتحة والتاء والضمة) أو arbre «آربر» الفرنسية أو tree « تري » في الانقليزية ما يؤهلها سلفا للتعبير عن متصور هو « شجرة » . والبرهان القاطع على ذلك أن تلك الأصوات على ما بينها من شديد الاختلاف تعبر عن حقيقة واحدة وما قلناه بشأن اللغات المختلفة يصح كذلك في صلب اللغه الواحدة ، حيث نعلم أن المترادفات (وهي ظاهرة لغوية كونية) تختص بالذات بأن لها دوالّ مختلفة لمدلول واحد .

ولقد تعرض كثير من الألسنيين بالنقد لمفهومي «الصورة الأكوستـيكية »

و« اعتباطية الدليل » على حدّ سواء . أما الصورة الأكوستيكية ، ذلك المفهوم النفسي الصرف الذي هو نتيجة متناسقة تتلاءم مع وقوع اختيار ف.دي سوسير على ألسنية اللغة وهي شيء مجرد لا على ألسينة اللفظ وهي شيء محسوس وهو الاختيار الذي لم يمنع أصحاب « الغلوسيماتيك » glossématique من طراز « هيلمسلياف »من العود اليه وتطويره — فقد تخلى عنها مارتيني مثلا ، فالدّال بالنسبة إليه هو بصفة ملموسة وبكل بساطة مجموع الوحدات الدنيا المتميزة والمتعاقبة (أي الصواتم) التي منها تتكون مفردات لغة من اللغات ، لأن اللفظ الملموس دون سواه هو الذي يمكننا من الارتقاء الى إدراك تنظيم بنية كلّ لغة من اللغات وبالتالي بنية الكلام البشري .

أما الانتقادات التي وجهت الى نظرية دي سوسير بشأن اعتباطية الدليل فقد كانت دون ذلك أهمية . فقد عارضوها على وجه الخصوص بأنه توجد في جميع اللغات كلمات محاكية للأصوات (من قبيل غرغر في العربية و glouglou في الفرنسية و gargle في اللغة الانقليزية الخ) يبدو من خلالها أن للدّال علاقة تماثل صوتي مع المدلول . وقد ألح بعض الدارسين الآخرين على أن العلاقات الترابطية الذاتية هي من الأهمية — لدى مستعملي هذه اللغة أو تلك اذ يربطون بين الدوالّ والمدلولات ربطا تلقائيا — بحيث يستحيل القول بالاعتباطية . ولعل الاعتباطية ان وجدت فانما هي في المنطلق لا في المنتهى . لكن الرأي السائد اليوم أنه ، بالرغم من ذلك الاعتراض الذي يستند أصحابه الى الكلمات المحاكية للأصوات ، وهي على ذلك نادرة جدا في اللغات ، فان فكرة اعتباطية الرابط الذي يربط بين الدّال والمدلول — والذي تفسره ضرورة ما سمي بالاقتصاد الصوتي تلك الفكرة التي طورها بالخصوص أندري ماتيني ، — تظل فكرة على جانب كبير من الخصب والثراء .

خـاتـمة

ان عمل سوسير — كما أمكن لنا أن نتبينه من خلال العرض الذي تقدم — لئن كان عملا ضخما من حيث ما أسهم به من المعطيات فانه لم يخل بسبب عظمته تلك بالذات من بقاء بعض السمات المقابلة التي هي محل انتقاد في صلب الدراسات اللغوية القديمة (كالمنزع النفسي/ الذهني

بل والفيلولوجي ، اذ يهمل اللفظ لصالح اللغة وغالبا ما تكون صورتها هي الصورة المكتوبة) ولا من بعض التردد والغموض ولا حتى من بعض التناقضات وأبرزها ذلك الاختيار الشهير الذي اختاره سوسير عن وعي وادراك اختياره لـ « ألسنية اللغة » لا لـ « ألسنية اللفظ » يقول : « فاللغة أمر ضروري لكي يكون اللفظ واضحا مفهوما ولكي يحدث كل تأثيراته . إلّا أن اللفظ ضروري لكي تقوم اللغة . أما من الوجهة التاريخية ، فان ظاهرة اللفظ هي دائما السابقة ، وإلّا ، فكيف يمكن أن ننتبه فنربط بين فكرة وصورة لفظية ان نحن لم نعثر من قبل على هذا الربط وقد وجد بعد في عملية من عمليات اللفظ ؟ ومن جهة أخرى ، فاننا انما نتعلم لغتنا الأولى بفضل الاستماع الى الغير ... وأخيرا فان اللفظ هو الذي يطور اللغة ... فثمة اذن تعالق متبادل بين اللغة واللفظ واللغة هي في الآن نفسه أداة اللفظ ونتيجته . على أن كل هذا لا يمنع انهما شيئان متميز أحدهما عن الآخر تمام التميز » (38) .

ويضيف في موضع لاحق من دروسه هذا التأكيد الذي سبقت الاشارة اليه خلال هذا العرض وهو يجمع في الآن نفسه بين التقرير الصارم والتردد : « وقد يمكن مع شيء من التسامح أن نطلق اسم الألسنية على كل من هاتين المادتين وأن نستعمل عبارة ألسنية **اللفظ** (كما استعملنا عبارة ألسنية اللغة) ، ولكن يجب أن لا نخلط بين العبارة الأولى وبين **الألسنية بأتم بمعنى الكلمة** ، أي تلك التي موضوعها الوحيد هو اللغة » (39) .

ان وجهة نظر دي سوسير هذه قد تواصلت على يد هيلمسلاف الذي أقام « الغلوسيماتيك » glossématique برّمتها على التمييز بين الشكل والمادة وهو تمييز مواز لذلك التقابل الذي أقامه دي سوسير بين اللغة واللفظ ، وتخلى عنها بعض الألسنيين (مثل بلومفيلد وماتيني) ثم عادت اليها منذ عهد غير بعيد مدرسة شومسكي المسماة بالانشائية والتحويلية ، التي باقامتها تحليلاتها على البنى العميقة قد عادت من حيث الجوهر الى نظام اللغة المجرد وهكذا ترى أن تردد فرديناند دي سوسير ، ذاك التردد الشهير ما يزال متواصلا الى الآن بما أن الألسنية حتى اليوم يتجاذبها قطبان مختلفان يمارس عليها كلاهما جاذبية قوية وهما ألسنية اللفظ / ألسنية اللغة . وما يزال الجدال متواصلا مخلدا مدى تأصل فكر

فرديناند دي سوسير في الواقع الحديث ومدى قيمته . هكذا، ومهما يكن من أمر يظل دي سوسير أكبر رائد ومعلم في الألسنية الحديثة .

صالح القرمادي

تعريب : محمّد الشاوش ـ محمّد عجينة

---

(1) أقرب الموارد ص 13ـ 14نطق : تكلّم بصوت وحروف تعرف بها المعاني .

(2) انظر على سبيل المثال ، مقتصرين على شواهد حديثة ، « ناكل في الخبز » في العربية التونسية و Ich habe ein stük Brot gegessen في الألمانية .

(3) وهنا بالذات يكمن جوهر ما تقوم عليه المدرسة الامريكية الحديثة المسماة بمدرسة «النحو التوليدي والتحويلي» (انظر شمسكي) .

(4) راجع "موليار" وقد جعل على لسان احدى شخصياته المسرحية قولها « تكلم بالفوجلاس » .

(5) وعلاوة على ذلك ، فهو تيار لم تكن اللغة تدرس فيه لذاتها انما لتستخلص منها بعض المعطيات والمعلومات عن الحضارات المعنية بالامر (انظر في أيامنا هذه مثلا أعمال باحث من قبيل دوميزيل Dumézil عن الحضارة الهندية) .

(6) تجدر الاشارة في هذا الصدد الى أن الكتاب لا يزال ينتظر من يترجمه الى العربية .

(7) دروس ... ص 25

(8) دروس ... ص 37

(9) دروس ... ص 29

(10) دروس ... ص 29

(11) عبارة سطرها صاحب المقال .

(12) دروس ... ص

(13) سيعبر بعض الألسنيين عن ذلك فيما بعد بقولهم : « هو قانون مصطلح عليه من القواعد المجردة».

(14) عبارة سطرها صاحب المقال .

(15) دروس ص 34 .

(16) دروس ص 40 .

(17) سطره صاحب المقال

(18) سطره صاحب المقال

(19) دروس ص 41

(20) سطرة صاحب المقال

(21) دروس ص 42

(22) أندري مارتيني ، مبادىء في الألسنية العامة ، أرمان كولان ، باريس 1970 ص 25 (التسطير في عرض الفقرة من صاحب المقال) .

(23) دروس ... ص 128 (التسطير لصاحب المقال)

(24) دروس ... ص 129

(25) دروس ... ص 131

(26) دروس ص 138 وص139

(27) دروس ... ص 130 و131

(28) دروس ... ص 138

(29) انظر في هذا الشأن : « الألسنية والعلوم الاجتاعية »بالمجلة التونسية للعلوم الاجتماعية R.T.S.S عدد 19 ديسمبر 1969 ، وخاصة عرض ميشال فوكو .

(30) دروس ... ص 150

(31) دروس ... ص 151

(32) لقد استعمل دي سوسير فعلا كلمة Syntagme أي سياق الا أنه لم يستعمل كلمة paradigme أي «جدول» وقد استعمل بدلا منها وبنفس المعنى مفهوم « الترابط » الذهني .

(33) دروس ... ص 186

(34) و(35) دروس ... 187

(36) دروس ... ص 187

(37) من ذلك أن « الفعل الذي صار اسما » أو أداة الاشارة يمكن أن يظهرا تباعا في نفس النقطة من الخطاب التي يقع فيها اسم أو أداة تعريف مثلا [لا تنطبق هذه الملاحظة على اسم الاشارة في العربية . المترجمان] .

• في النص الأصلي الفرنسي يشير صاحب المقال الى أنه يجازف فيبتدع ، بدعة لغوية هي trouple

(38) دروس ... ص 41

(39) دروس ص 42 (التسطير من صاحب المقال) .

نشر هذا المقال باللغة الفرنسية في مرقونة قسم الألسنية لمركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية سنة 1973 ـ 1974 .

ثبت المصطلحات العام

— أ —

1 — آني	— Synchronic	— Synchronique
2 — آنية (ال)	— Synchrony	— Synchronie (la)
3 — آني خاص	— Idiosynchronic	— Idiosynchronique
4 — ابتداع / ابتكار تجديد	— Innovation	— Innovation
5 — اتحاد	— Identity	— Identité
6 — اتحاد زماني	— Synchronic identity	— Identité synchronique
7 — اثنية	— Ethnism	— Ethnisme
8 — احادي المقطع	— Monosyllabic	— Monosyllabique
9 — ارتسام أكوستيكي	— Acoustic sensation	— Sensation acoustique
10 — اثنوغرافيا (علم الاجناس البشرية)	— Ethnography	— Ethnographie
11 — اداة	— Preposition	— Préposition
12 — اداة تسبق الفعل / سابقة فعلية	— Preverb	— Préverbe
13 — استبدال	— Permutation	— Permutation
14 — استردادي	— Retrospective	— Rétrospectif
15 — استعمال	— Use, Usage	— Usage
16 — استقبالي	— Prospective	— Prospectif

— Participe présent	— Present participle	17 — اسم الفاعل
— Gérondif	— Gerond	18 — اسم الفاعل اللاتيني
— Participe en -é	— -ed participle	19 — اسم المفعول
— Dental	— Dental	20 — اسناني
— Signal	— Signal	21 — اشارة
— Communauté de langue	— Speech communauty	22 — اشتراك في اللغة
— Dérivation	— Derivation	23 — اشتقاق
— Etymologique	— Etymologic	24 — اشتقاقي / ايتيمولوجي
— Artificielle (langue)	— Artificial (language)	25 — اصطناعية (لغة)
— Radical	— Radical	26 — اصل
— Régularité	— Regularity	27 — اطراد — انتظام
— Atlas linguistique	— Linguistic Atlas	28 — اطلس لغوي
— Reconstruction	— Reconstruction	29 — اعادة بناء
— Arbitraire	— Arbitrary	30 — اعتباطي
— Arbitraire du signe	— Arbitrariness of the sign	31 — اعتباطية الدليل
— Arbitraire absolu	— Absolute arbitrariness	32 — اعتباطية مطلقة
— Arbitraire relatif	— Relative arbitrariness	33 — اعتباطية نسبية
— Ablaut	— Ablaut	34 — اعتلال
— Flexion	— Inflexion	35 — اعراب
— Flexion nominale	— Noun inflexion	36 — اعراب الاسماء
— Flexion pronominale	— Pronoun inflexion	37 — اعراب الضمائر
— Emprunt	— Borrowing	38 — اقتراض — دخيل
— Acoustique	— Acoustic	39 — اكوستيكي
— Umlaut	— Umlaut	40 — امالة
— Hiatus	— Hiatus	41 — التقاء حركتين
— Agglutination	— Agglutination	42 — الصاق
— Linguistique, linguiste	— Linguistic; linguist	43 — ألسني
— Linguistique (la)	— Linguistics	44 — ألسنية
— « synchronique	— Synchronic linguistics	45 — ألسنية آنية
— « rétrospective	— Retrospective	46 — « استردادية

« historique	— Historical linguistics	47 — « تاريخية
« évolutive	— Evolutionary linguistics	48 — « تطورية
« géographique	— Geographical linguistics	49 — « جغرافية
« externe	— External linguistics	50 — « خارجية
« interne	— Internal linguistics	51 — « داخلية
« diachronique	— Diachronic linguistics	52 — « زمانية
« générale	— General linguistics	53 — « عامة
« statique	— Static linguistics	54 — « قارة
« de la langue	— Linguistics of language	55 — « اللغة
« de la parole	— Linguistics of speech	56 — « اللفظ
— Alphabet	— Alphabet	57 — ألفبائية
— Anthropologie	— Anthropology	58 — الانتروبولوجيا
— Régularité	— Regularity	59 — انتظام — اطراد
— Régularité absolue	— Absolute regularity	60 — انتظام مطلق
— Transition (son de)	— Transition soud	61 — انتقالي (صوت)
— Sonorisation	— Voicing	62 — انجهار
— Implosion	— Implosion	63 — انحباس
— Implosif	— Implosive	64 — انحباسي
— Impression acoustique	— Acoustic impression	65 — انطباع اكوستيكي
— Impression visuelle	— Visual impression	66 — انطباع مرئي
— Zero (exposant-, degré-)	— Zero (desinence; exposant) marker	67 — انعدام العلامة
— Occlusion	— Occlusion	68 — انغلاق
— Aperture	— Aperture	69 — انفتاح
— Explosion	— Explosion	70 — انفجار
— Explosif	— Explosive	71 — انفجاري
— Harmonie vocalique	— Vocalic harmony	72 — انسجام حركي
— Mécanisme	— Mechanism	73 — اوالية
— Cordes vocales	— Vocal cords	74 — أوتار صوتية
— Etymologie	— Etymology	75 — ايتيمولوجيا
— Etymologie populaire	— Folk etymology	76 — ايتيمولوجيا العامة
— Rythme	— Rhythm	77 — ايقاع

78 — ايقاع كمي	— Quantitative rhythm	— Rythme quantitatif
— ب —		
79 — بنية	— Structure	— Structure
— ت —		
80 — **تبرير**	— Motivation	— Motivation
81 — تجديد لغوي / ابتداع / مبتكر	— Linguistic innovation	— Innovation linguistique
82 — تحنيك	— Palatisation	— Palatisation
83 — تحول	— Mutability	— Mutabilité
84 — تخالفي	— Differential	— Différentiel
85 — ترابط / قرن	— Association	— Association
86 — **ترابطية** (علاقة)	— Associative relation	— Associatif (rapport)
87 — ترسيمة	— Diagram	— Schéma
88 — ترقيم (صوتي)	— Phonetic transcription	— Transcription phonétique
89 — **تركيبية**	— Syntax	— Syntaxe
90 — تركيبي	— Syntactic	— Syntaxique
91 — تزحزح	— displacement	— Ecart
92 — تصريف	— Conjugation	— Conjugaison
93 — تصريف الافعال	— Verbal inflexion	— Flexion verbale
94 — تصويت	— Phonation	— Phonation
95 — **تضامن سياقي**	— Syntagmatic solidarity	— Solidarité syntagmatique
96 — تضعيف	— Reduplication	— Redoublement
97 — تطابق	— Correspondence	— Correspondance/parité
98 — تطور	— Evolution	— Evolution

99 — تعالق	— Correlation	— Corrélation
100 — تعالقي	— Correlative	— Corrélatif
101 — تعاملي	— Combinatory	— Combinatoire
102 — **تعطيلي** (تقطيع)	— Sistant (articulation)	— Sistante (articulation)
103 — **تغير**	— Alteration	— Altération
104 — تغير حرفي	— Consonantal mutation	— Mutation consonantique
105 — تغير الحروف	— Lautverschiebung	— Lautverschiebung
106 — تغير حركات جذر الكلمة	— Ablaut	— Ablaut
107 — تغير دلالي	— Semantic change	— Changement sémantique
108 — تغير صوتي	— Phonetic change	— Changement phonétique
109 — تغير لغوي	— Linguistic change	— Changement linguistique
110 — تقابل	— Opposition	— Opposition
111 — تقابل نحوي	— Grammatical opposition	— Opposition grammatical
112 — تقابلي	— Oppositive	— Oppositif
113 — **تقطيع الالفاظ**	— Speech articulation	— Articulation des paroles
114 — **تقطيع تعطيلي**	— Sistant articulation	— Articulation sistante
115 — **تقطيع النطق**	— Articulation	— Articulation
116 — تقعيدي	— Normative	— Normatif
117 — تلقائية (ظاهرة)	— Spontaneous phenomenon	— Spontané (phénomène)
118 — **تماثل لهجي** (خط)	— Isoglossal(line)	— Isoglosse (ligne)

119 — تماثل السمات اللغوية الخاصة (خط)	— Isoglossematic (line)	— Isoglossématique (ligne)
120 — تناوب	— Alternation	— Alternance
121 — تناوب حركي	— Vocalic alternation	— Alternance vocalique
122 — تنسيق سياقي	— Associative coordination	— Coordination associative
123 — تنفيس	— Aspiration	— Aspiration
124 — توليف / توليفة	— Combination	— Combinaison

— ج —

125 — جانبي (تقطيع)	— Lateral articulation	— Latérale (articulation)
126 — جدول حالات الاعراب	— Inflexional paradigm	— Paradigme de flexion
127 — جذر	— Root	— Racine
128 — جذر فعلي	— Verbal root	— Racine verbale
129 — جذر موسع	— Stem; theme	— Thème
130 — جرس	— Timbre	— Timbre
131 — جملة	— Sentence	— Phrase
132 — جناس	— Alliteration	— Allitération
133 — جنس الصوتم / جنس فنولوجي	— Phonological species	— Espèce phonologique
134 — جمهور	— Mass	— Masse
135 — جهاز نصوتي / صوتي	— Vocal apparatus	— Appareil vocal

— ح —

136 — حالة اعرابية	— Inflexion case	— Cas (flexionnel)
137 — حالة اضافة	— Genitive	— Génitif
138 — حالة الدلالة على الواسطة	— Instrumental case	— Instrument (complément d'-)

139 — حالة ظرف المكان	— Locative case	— Locatif
140 — حالة الفاعلية	— Nominative case	— Nominatif
141 — حالة لغوية	— State of language	— Etat de langue
142 — حالة المعطى اليه	— Dative case	— Datif
143 — حالة المفعولية	— Accusative case	— Accusatif
144 — حالة المنادى	— Vocative case	— Vocatif
145 — حد المقطع	— Syllabic boundary	— Frontière syllabique
146 — حذف	— Elision	— Syncope/Elision
147 — حرف	— Consonant	— Consonne
148 — حرف مزدوج	— Double consonant	— Consonne double
149 — حرف مكتوب	— Letter	— Lettre
150 — حرفي	— Consonantal	— Consonant
151 — حركة	— Vowel	— Voyelle
152 — حركة اتكاء	— Artificial vowel	— Voyelle prothétique
153 — حركة كابحة للجذر	— Radical vowal	— Voyelle radicale
154 — حركة طويلة	— Long vowel	— Voyelle longue
155 — حركة قصيرة	— Short vowel	— Voyelle brève
156 — حركة مزدوجة	— Diphthong	— Diphtongue
157 — حركي	— Vocalic	— Vocalique
158 — حقيقة آنية	— Synchronic reality	— Réalité synchronique
159 — حقيقة زمانية	— Diachronic reality	— Réalité diachronique
160 — حلقة انحباسية	— Implosive link	— Chainon implosif
161 — حلقة انفجارية	— Explosive link	— Chainon explosif
162 — حلقي	— Guttural	— Guttural
163 — حنجرة	— Larynx	— Larynx
164 — حنجري	— Laryngeal	— Laryngien
165 — حنك	— Palate	— Palais
166 — حنكي	— Palatal	— Palatal

— خ —

167 — خافتة (حركة)	— Whispered (vowel)	— Chuchotée (voyelle)

168 ــ خريطة لغوية	— Linguistic map	— Carte linguistique
169 ــ خطاب	— Discourse	— Discours
170 ــ **خطي**	— Linear	— Linéaire
171 ــ خياشيم	— Nasal fossae	— Fosses nasales
172 ــ خيشومية خيشمة	— Nasalisation	— Nasalisation
173 ــ خيشومي	— Nasal	— Nasal

ــ د ــ

174 ــ داء الحبسة	— Aphasia	— Aphasie
175 ــ داء العجز عن الكتابة	— Agraphia	— Agraphie
176 ــ **دال (دوال)**	— Signifiant	— Signifiant
177 ــ **دخيل/اقتراض**	— Borrowing	— Emprunt
178 ــ درجات في النظام الحركي	— Degrees	— Stufen/Degrés
179 ــ **درجة صفر**	— Zero marker	— Exposant zéro
180 ــ درجة قرابة	— Degree of kinship	— Degré de parenté
181 ــ درجة مشبعة (من الحركة)	— Higher degree	— Degré renforcé
182 ــ دعكي	— Fricative	— Fricatif
183 ــ **دلائلي**	— Semiological	— Sémiologique
184 ــ **دلالي**	— Significant Semantic	— Significatif/sémantique
185 ــ **دلالة**	— Signification	— Signification
186 ــ **دليل (دلائل)**	— Sign	— Signe
ــ **دليل لغوي**	— Linguistic sign	— Signe linguistique
187 ــ **دورة الخطاب**	— Speech circuit	— Circuit de la parole
188 ــ ذهني/نفسي	— Psychic	— Psychique
189 ــ ذو قيمة نحوية	— Grammatical	— Grammatical
190 ــ دوي	— Noise	— Bruit

ــ ر ــ

191 ــ رئاية	— Perspective	— Perspective
192 ــ رأرأة	— Rhotacization	— Rotacisation
193 ــ رخوة	— Spirant	— Spirante
194 ــ رسم	— Scheme	— Figure
195 ــ رمز	— Symbol	— Symbole
196 ــ رنين خيشومي	— Nasal resonance	— Résonance nasale

ــ ز ــ

197 ــ زفير	— Expiration	— Expiration
198 ــ **زماني**	— Diachronic	— Diachronique
199 ــ **زمانية (ال)** (زمانيات)	— Diachrony	— Diachronie (la)

ــ س ــ

200 ــ سابقة	— Prefix	— Préfixe
201 ــ سالب (كيان)	— Negative entity	— Négatif (entité)
202 ــ سجع	— Assonance	— Assonance
203 ــ سلسلة	— Series	— Série
204 ــ **سلسلة ترابطية**	— Associative series	— Série associative
205 ــ **سلسلة اللفظ**	— Stream of speech	— Chaine de la parole
206 ــ سلسلة ملفوظة	— Stream of speech	— Chaine parlée
207 ــ سمعي	— Auditory	— Auditif
208 ــ سمع/سماع	— Audition	— Audition
209 ــ سمة الصاق	— Agglutinative nature	— Caractère agglutinatif
210 ــ **سمة لغوية خاصة**	— Idiomatic character/glossem	— Caractère idiomatique glos-sème
211 ــ سياق	— Syntagm	— Syntagme
212 ــ سياقي	— Syntagmatic	— Syntagmatique
213 ــ سياقية (ال)	— Syntagmatics	— Syntagmatique (la)

ــ ش ــ

214 ــ شبه حركة	— Glide	— Semi-voyelle
215 ــ شديد	— Occlusive	— Occlusif
216 ــ شديد فرخو	— Affricate (d)	— Affriqué

— Tranche phonique	— Phonic sequence	217 ـ شريحة / مقطوعة صوتية
— Labial	— Labial	218 ـ شفوي
— Labio-dental	— Labio-dental	219 ـ شفوي اسناني
— Forme dialectale	— Dialectal form	220 ـ شكل لهجي

ـ ص ـ

— Sonante	— Sonante	221 ـ صائت
— Sonantique	— Sonantic	222 ـ صائتي
— Consonante	— Consonant (al)	223 ـ صامت
— Morphologie	— Morphology	224 ـ صرف (ال)/علم الصرف
— Morphologique	— Morphological	225 ـ صرفي
— Son	— Sound	226 ـ صوت
— Phonétique/ phonique	— Phonetic/ phonic	227 ـ صوتي
— Phonème	— Phonem	228 ـ صوتم
— Image	— Image	229 ـ صورة
— Image acoustique	— Acoustic image	230 ـ صورة أكوستيكية
— Graphie	— Graphic Image	231 ـ صورة خطية
— Image auditive	— Auditive Image	232 ـ صورة سمعية
— Image musculaire	— Muscular image	233 ـ صورة عضلية
— Image verbale	— Verbal image	234 ـ صورة لفظية
— Image visuelle	— Visual Image	235 ـ صورة مرئية
— Formatif	— Formative	236 ـ صياغي
— Forme	— Form	237 ـ صيغة
— Indicatif	— Indicative	238 ـ صيغة الأخبار
— Forme nominale	— Nominal form	239 ـ صيغة اسمية
— Forme verbale	— Verbal form	240 ـ صيغة فعلية
— Formation productive	— Productive formation	241 ـ صيغة منتجة
— Substrat linguistique	— Linguistic substratum	242 ـ طبقة لغوية سفلى
— Naturelle (langue)	— Natural (language)	243 ـ طبيعية (لغة)
— Procédé	— Device	244 ـ طريقة
— Temps acoustique	— Acoustic phase	245 ـ طور أكوستيكي

— Temps articulatoire	— Articulatory phase	246 ـ طور تقطيعي
— Phase tenue	— Closed phase	247 ـ طور مسك
— Phénomène/ Fait	— Linguistic phenomenon, Fact	248 ـ ظاهرة (لغوية)

ـ ع ـ

— Vulgaire (langue)	— Vernacular language	249 ـ عامية
— Organe vocal	— Vocal organ	ـ عضو تصويت
— Désinence	— Desinence	251 ـ علامة أعراب
— Signe positif	— Positive sign	252 ـ علامة ايجابية
— Signe diacritique	— Diacritic sign	253 ـ علامة تمييزية زائدة على الحرف
— Signe de l'écriture	— Sign of writing	254 ـ علامة الخط / الكتابة
— Signe graphique	— Graphic sign	255 ـ علامة خطية / مكتوبة
— Paléontologie linguistique	— Linguistic paleontology	256 ـ علم الإحاثة اللغوي
— Phonétique	— Phonetics	257 ـ علم الأصوات
— Sémiologie/sémiotique	— Semiotics	258 ـ علم الدلائل
— Sémontique	— Semantics	259 ـ علم الدلالة
— Dialectologie	— Dialectology	260 ـ علم اللهجات
— Psychologie sociale	— Social psychology	261 ـ علم النفس الاجتماعي
— Rapport associatif	— Associative relation	262 ـ علاقة ترابطية
— Rapport syntagmatique	— Syntagmatic relation	263 ـ علاقة سياقية
— Processus	— Process	264 ـ عملية
— Reconstruction	— Reconstruction	265 ـ عملية اعادة البناء
— Jeu d'alternances	— Set of alternances	266 ـ عمليات تناوب
— Elément formatif	— Formative element	267 ـ عنصر صياغي
— Elément phonologique	— Phonological element	268 ـ عنصر فنولوجي

— غ —

269	غار خيشومي	— Nasal cavity	— Cavité nasale
270	غار فموي	— Oral cavity	— Cavité bucale
271	**غالق** (صوت)	— Closing (sound)	— Fermant (son)
272	غشاء الحنك	— Soft palate / velum	— Voile du palais
273	غشائي	— Velar	— Vélaire
274	غير منبر	— Unstressed	— Atone
275	**غير مبرر**	— Unmotivated	— Immotivé
276	غير مكون لمقطع	— Unsilbich	— Unsilbich

— ف —

277	**فاتح** (صوت)	— Opening sound	— Ouvrant (son)
278	فارق (فوارق)	— Difference	— Différence
279	**فصيلة لغوية**	— Language family	— Famille de langue
280	فعل ضعيف (في الالمانية)	— Weak verb	— Verbe faible
281	فعل مساعد	— Auxiliary	— Auxilière
282	معتل	— Strong verb	— Verbe fort
283	فموي	— Oral	— Buccal
284	**فنولوجيا**	— Phonology	— Phonologie
285	فنولوجي	— Phonological	— Phonologique
286	فويرق	— Shade	— Nuance
287	فيزيائي	— Physical	— Physique
288	فيزيولوجيا	— Physiology	— Psyiologie
289	فيلولوجيا / فقه اللغة	— Philology	— Philologie
290	فيلولوجي	— Philological	— Philologique

— ق —

291	**قار**	— Static	— Statique

292	قافية	— Rhyme	— Rime
293	**قانون آني**	— Diachronic law	— Lois diachroimque
294	**قانون تناوب**	— Law of alternation	— Lois d'alternance
295	**قانون زماني**	— Synchronic law	— Lois synchronique
296	**قانون صوتي**	— Phonetic law	— Lois phonétique
297	قانون لغوي	— Linguistic law	— Lois linguistique
298	قانون	— Code/law	— L 's/code
299	قانون اللغة	— Linguistic code	— Code de la langue
300	قرينة	— Index	— Indice
301	قلب الحركة المزدوجة حركة بسيطة	— Monophthongisation	— Monophtongaison
302	قناة خيشومية	— Nasal track	— Canal nasal
303	قواعد الرسم	— Orthography	— Orthographe
304	قياس	— Analogy	— Ananlogie
305	قيد	— Condition	— Condition
306	**قيمة**	— Value	— Valeur
307	قيمة تواضعية	— Conventional value	— Valeur conventionnelle
308	قيمة لغوية	— Linguistic value	— Valeur linguistique
309	قيمة معجمية	— Lexicological value	— Valeur lexicologique
310	قيمة نحوية	— Grammatical value	— Valeur grammaticale

— ك —

311	كتابة	— Writing; notation	— Ecriture, notation
312	كتابة ايديوغرافية	— Ideographic writing	— Ecriture idéographique
313	كتابة صوتية	— Phonetic writing	— Ecriture phonétique
314	كتابة مقطعية	— Syllabic writing	— Ecriture syllabique
315	**كلام**	— Language	— Langage
316	كلام بشري	— Human language	— Langage humain

317 — كلمة محاكية للصوت	— Onomatopoeia	— Onomatopée
318 — كلام مقطع	— Articulated language	— Langage articulé
319 — كلمة	— Word	— Mot
320 — كيان	— Entity	— Entité
321 — كيان اجتماعي	— Social entity	— Corps social
322 — كيان فارق	— Differential entity	— Entité différentielle
323 — كيان مجرد	— Abstract entity	— Entité abstraite
324 — كيان ملموس	— Concrete entity	— Entité concrète
325 — كيان نحوي	— Grammatical entity	— Entité grammaticale
326 — لا تحول	— Immutability	— Immutabilité
327 — لاحقة	— Suffix	— Suffixe
328 — لثة	— Alveolar ridge	— Alvéoles
329 — لزومي	— Imperative	— Impératif
330 — لسان	— Idiom	— Idiome
331 — لسان أصلي	— Primitive idiom	— Idiome primitif
332 — لسان محلي	— Local idiom	— Idiome local
333 — لغة	— Language	— Langue
334 — لغة أدبية	— Literary language	— Langue littéraire
335 — لغة أم	— Original language	— Langue mère
336 — لغة التخاطب اليومي	— Current language	— Langue courante
337 — لغة اصطناعية	— Artificial language	— Langue artificielle
338 — لغة أولى	— Mother tongue	— Langue maternelle
339 — لغة حيّة	— Modern language	— Langue vivante

340 — لغة عاميّة	— Vernacular language	— Langue vulgaire
341 — لغة الكتب	— Language used in books	— Langue des livres
342 — لغة معجمية	— Lexicological language	— Langue lexiocologique
343 — لغة مكتوبة	— Written language	— Langue écrite
344 — لغة منقرضة	— Dead language	— Langue morte
345 — لغة نحوية	— Grammatical language	— Langue grammaticale
346 — لغوي	— Linguistic	— Linguistique
347 — لفظ (الـ)	— Speech	— Parole
348 — لهاة	— Uvula	— Luètte
349 — لهجة	— Dialect	— Dialecte
350 — لهجة طبيعية	— Naturel dialect	— Dialecte local
351 — لهجة محلية	— Local dialect	— Dialecte naturel
352 — لهيجة	— Patois	— Patois
353 — لهيجة محلية	— Local speech	— Parler local
354 — لهجي	— Dialectal	— Dialectal

— م —

355 — مائع	— Liquid	— Liquide
356 — مادة صوتية	— Phonic matter	— Matière phonique
357 — ماض	— Perfect (tense)	— Parfait
358 — ماض مبهم	— Aorist	— Aoriste
359 — ماض مستمر	— Imperfect	— Imparfait
360 — مبرر	— Motivated	— Motivé
361 — مبني للمعلوم	— Active	— Actif
362 — مترادفات	— Synonyms	— Synonymes
363 — متصور/	— Concept	— Concept

		متصور ذهني
— Conceptuel	— Conceptual	364 — متصوري
— Complexe	— Complex	365 — متشعب
— Réceptif	— Receptive	366 — متقبل
— Sujet parlant	— Speaker	367 — متكلم
— Complément	— Complement	368 — متمم
— Moyen, mesaî	— Average, medium	369 — متوسط
— Aire linguistique	— Linguistic area	370 — مجال لغوي
— Groupe associatif	— Associative group	371 — **مجموعة ترابطية**
— Moindre effort	— Slightest effort	372 — مجهود أدنى
— Sonore	— Voiced	373 — مجهور
— Laryngé	— Laryngeal	374 — محنجري
— Assimilé	— Assimilated	375 — مدغم
— Durée	— Lenght	376 — مدى
— Furtif (son)	— Furtive sound	377 — مختلس
— Lieu/point d'articulation	— Place of articulation	378 — مخرج
— Nasalisé	— Nasalized	379 — مخيشم
— Signifié	— Signified	380 — **مدلول**
		(مدلولات)
— Syntagme	— Syntagm	381 — مركب لفظي
— Composé (mot)	— Compound word	382 — مركبة (كلمة)
— Centre d'association	— Association center	383 — مركز عمليات الاقتران
— Résonateur	— Resonator	384 — مرنان
— Doublet phonétique	— Phonetic doublets	385 — مزدوج صوتي
— Glotte	— Glottis	386 — مزمار
— Substantif verbal	— Verbal substantiv	387 — مصدر
— Double (son)	— Double (sound)	388 — مضاعف
		(صوت)

— Mouillé	— Palatalised	417 — ملين
— Fermée (voyelle)	— Closed vowel	418 — منغلقة (حركة)
— Ouverte (voyelle)	— Open vowel	419 — منفتحة (حركة)
— Aspiré	— Aspirated	420 — منفّس
— Perfectif	— Perfective	421 — منقض
— Modèle	— Pattern	422 — منوال
— Sourd	— Voiceless	423 — مهموس
— Equivalence	— Equivalence	424 — موافقة
— Onde d'innovation	— Innovation wave	425 — موجة ابتكار
— Onde sonore	— Sound wave	426 — موجة صوتية
— Onde linguistique	— Linguistic wave	427 — موجة لغوية

— ن —

— Accent	— Accent/stress	428 — نبرة
— Accent de hauteur	— Pitch stress	429 — نبرة ارتفاع
— Accent syllabique	— Syllabic stress	430 — نبرة مقطعية
— Junggrammatiker néo-grammirien	— Junggrammatiker	431 — نحاة جدد
— Grammaire	— Grammar	432 — نحو
— Grammaire historique	— Historical grammar	433 — نحو تاريخي
— Grammaire normative	— Normative grammar	434 — نحو تقعيدي
— Grammaire générale	— General grammar	435 — نحو عام
— Grammaire comparée	— Comparative grammar	436 — نحو مقارن
— Esprit de clocher	— Provincialism / Conservative force	437 — نزعة الانغلاق
— Intercourse	— Intercourse	438 — نزعة الانفتاح
— Vibration	— Vibration	439 — نزيز
— Prononciation	— Pronunciation	440 — نطق
— Grasseyer le r	— Dorsal, uvular «r»	441 — نطق الراء كالغين

— Rouler le r	— Trilled «r»	442 — نطق الراء مكررة
— Système	— System	443 — نظام
— Système synchronique	— Synchronic System	444 — نظام آني
— Système des sons	— System of sounds	445 — نظام الأصوات
— Vocalisme	— Vocalism	446 — نظام حركي
— Système sémiologique	— Semiological System	447 — نظام دلائلي
— Système des Phonèmes	— System of phonemes	448 — نظام الصوائم
— Système phonologique	— Phonological system	449 — نظام فنولوجي / صوتمي
— Système accentuel	— Stressing system	450 — نظام نبري
— Système grammatical	— Grammatical system	451 — نظام نحوي
— Adjectif	— Adjective	452 — نعت
— Psychique	— Psychic	453 — نفسي / ذهني
— Type	— Type	454 — نمط
— Type Syntagmatique	— Syntagmatic type	455 — نمط سياقي
— Type linguistique	— Linguistic type	456 — نمط لغوي
— Type grammatical	— Grammatical type	457 — نمط نحوي
— Prototype	— Prototype	458 — نموذج أصلي
— Point vocalique	— Vocalic peak	459 — نواة حركية
— Espèce	— Species	460 — نوع
— Postionique	— Post-tonic	461 — واقعة بعد النبرة (حركة)
— Unité	— Unit/unity	462 — وحدة
— Unité ethnique	— Ethnic unity	463 — وحدة اثنية
— Sous-unité	— Subunit	464 — وحدة فرعية
— Unité linguistique	— Linguistic unit	465 — وحدة لغوية
— Unité complexe	— Complex unit	466 — وحدة مركبة
— Unité concrete	— Concrete unit	467 — وحدة ملموسة
— Liaison	— Linking	468 — وصل
— Fonction	— Function	469 — وظيفة

المدخل الفرنسي

لثبت المصطلحات

— A —

Abstrait (403)
Ablatif (34) (196)
Accent (429)
Accent de hauteur (429)
Accent syllabique (430)
Accusatif (147)
Acoustique (30)
Acoustico-[illegible]
Actif (361)
Adjectif (452)
Affriquée (216)
Agglutination (42)
Agraphie (175)
Aire linguistique (170)
Altération (152)
Alphabet (57)
Altération (203)
Alternance (126)
Alternance vocalique (124)
Alvéoles (328) (406)
Analogie (304)
Anthropologie (58)
Aoriste (358)
Aperture (69)
Aphasie (174)
Appareil vocal [illegible]
[illegible]
[illegible]
Arbitraire relatif (32)
Arbitraire du signe (31)
Articulation (115)
Articulation des paroles (113)
Articulation [illegible] (114)
Articulé (son) (405)
Articuler
Artificielle (langue) (25)
Aspect (396)
Aspiration (123)
Aspiré (420)
Assimilé (375)
Associatif (rapport) (90)
Association (85)
Assonance (202)
Atlas linguistique (28)
Atone (274)
Auditif (207)
Audition (208)
Auxilière (281)

— B —

Bruit (190)
Buccal (263)

— C —

[illegible]
Caractère agglutinant (209)
Caractère synthétique (210)
[illegible] (31)
Cas (136)
Cavité buccale (250)
Cavité nasale (249)
Centre d'association [illegible] (43)
Chaîne de la parole (205)
Chaîne de sons (206)
Chaîne [illegible]
Chaînon explosif (361)
Chaînon implosif (360)
Changement linguistique (106)
Changement phonétique (108)
Changement sémantique (107)
[illegible] (377)
[illegible] (393)
Circuit de la parole (38)
Code (299)
Code de la langue (296)
Combinaison (124)
Comparaison [illegible]
Connaissance de la langue (22)
Complément (208)
Complément direct (402)
Complexe (205)
Composé [illegible] (382)
Concept (32)
Constituant (364)
Condition (365)
Conjugaison (92)
Consonantique (222) (150)
Consonne (147)
Consonne double (148)
Contraste
Coordination associative (122)
Cordes vocales (74)
Corps social (52)
Corrélatif (100)
Corrélation (18)
Correspondance [illegible]

— D —

Datif (142)
Degré [illegible] (178)
Degré de parenté (180)
Degré [illegible] (181)
Dental (26)
Dérivation (23)
Dérivé (395)
Désinence (251)
Diachronie (82) (199)
Diachronique (198)
Dialectal (354)
Dialecte (349)
[illegible] (35)
Dialecte [illegible] (3)
Dialectologie (2)
[illegible]
[illegible] (84)
[illegible]
[illegible]
Double [illegible]
Double [illegible] (28)
Durée (17)

— E —

Écrit (91)
Écriture [illegible]
Écriture [illegible] (32)
Écriture [illegible] (33)
Élément [illegible]
Élément [illegible] (67)
Élément phonologique (268)
Élision (146)
[illegible]
Entité (26)
Entité abstraite (123)
Entité concrète (124)
Entité [illegible] (322)
Entité grammaticale (127)
Équivalence (424)
Espace (409)
Espèce phonologique (137)
Esprit de clocher ou force particulariste (437)
État de langue (34)
[illegible]
[illegible]
Étymologie (78)
Étymologie populaire (79)
Étymologique (24)
Évolution (78)
[illegible]
[illegible]
[illegible]
Explosion [illegible]
[illegible]

— F —

Faculté du langage (416)
Fait linguistique
Famille de langues (27)
Fermant (27)
Fermeture [illegible] (418)
Figure (104)
Flexionnel (399)
Flexion (35)
Flexion nominale (36)
Flexion pronominale (37)

Linéaire (170)
Linguiste (43)
Linguistique (adj.) (43) (346)
Linguistique (la) (44)
« de la langue (55)
« de la parole (56)
« diachronique (52)
« évolutive (48)
« externe (50)
« générale (53)
« géographique (49)
« historique (47)
« interne (51)
« rétrospective (46)
« statique (54)
« synchronique (45)
Liquide (355)
Lois d'alternance (294)
Lois diachronique (293)
Lois linguistique (297)
Lois phonétique (296)
Lois synchronique (295)
Locatif (139)
Luette (348)

— M —

Masse (ou masse parlante) (134)
Matière phonique (356)
Mécanisme (73)
Modèle (422)
Moindre effort (372)
Monophtongaison (301)
Monosyllabique (8)
Morphologie (224)
Morphologique (225)
Mot (319)
Motivation (80)
Motivé (360)
Mouillé (417)
Moyen (ie) (404)
Moyenne/mesaï (369)
Mutabilité (83)
Mutation consonantique (104)

— N —

Nasal (173)
Nasalisation (172)
Nasalisé (379)
Naturelle (langue) (243)
Négatif (201)
Néo-grammairien (431)
Nominatif (140)
Normatif (116)
Nuance (286)

— O —

Occlusif (215)
Occlusion (68)
Onde d'innovation (425)
Onde linguistique (427)
Onde sonore (426)
Onomatopée (317)
Oppositif (112)
Opposition (110)
Opposition grammaticale (111)
Organe vocal (250)
Orthographe (303)
Ouverte (voyelle) (419)
Ouvrant (son) (277)

— P —

Palais (165)
Palatal (166)
Palatisation (82)
Paléontologie linguistique (256)
Paradigme de flexion (126)
Parfait (357)
Parler local (353)
Parole (347)
Participé en -é (19)
Participe présent (17)
Patois (352)
Perfectif (421)
Permutation (13)
Perspective (191)
phase tenue (247)
Phénomène linguistique (248)
Philologie (289)
Philologique (290)
Phonation (94)
Phonème (228)
Phonétique (la) (257)
Phonétique (adj.) (227)
Phonologie (284)
Phonologique (285)
Phrase (131)
Physiologie (288)
Physique (adj.) (287)
Point volcalique (459)
Postonique (voyelle) (461)
Préfixe (200)
Préposition (11)
Préverbe (12)
Procédé (244)
Processus (264)
Prononciation (440)
Prospectif (16)
Prototype (458)
Psychique (188)
Psychologie sociale (261)

Flexion verbale (93)
Fonction (469)
Force d'intercourse (438)
Formatif (236)
Formation productive (241)
Forme (237)
Forme dialectale (220)
Forme nominale (239)
Forme verbale (240)
Fosses nasales (171)
Fricatiff (182)
Frontière syllabique (145)
Furtif (377)
Futur (391)

— G —

Génitif (137)
Gérondif (18)
Glotte (386)
Grammatical (189)
Grammaire (432)
Grammaire comparée (436)
Grammaire générale (435)
Grammaire historique (433)
Grammaire normative (434)
Grasseyé (le r) (441)
Graphie (251)
Groupe associatif (371)
Groupe d'association (371)
Guttural (162)

— H —

Harmonie vocalique (72)
Hiatus (41)

— I —

Idée
Identité (5)
Identité synchronique (6)
Idiomatique (caractère) (210)
Idiome (330)
Idiome local (332)
Idiome primitif (331)
Idiosynchronique (3)
Image (229)
Image acoustique (230)
Image auditive (232)
Image musculaire (233)
Image verbale (234)
Image visuelle (235)
Immotivé (275)
Immutabilité (326)
Imparfait (359)
Impératif (caractère) (329)
Imperfectif (392)
Implosif (64)
Implosion (63)
Impression acoustique (65)
Impression visuelle (66)
Indicatif (238)
Indicatif (parfait)
Indicatif (présent)
Indice (300)
Innovation (81)
Innovation linguistique (4)
Intercourse (438)
Isoglosse (118)
Isoglossématique (119)
Istrument (complément d') (138)

— J —

Jeu d'alternances (266)
Junggrammatiker (431)

— L —

Labial (218)
Labio — dental (219)
Langage (315)
Langage articulé (318)
Langage humain (316)
Langage oral
Langue (333)
Langue artificielle (337)
Langue courante (336)
Langue des livres (341)
Langue écrite (343)
Langue grammaticale (345)
Langue lexicologique (342)
Langue littéraire (334)
Langue maternelle (338)
Langue mère (335)
Langue morte (344)
Langue vivante (339)
Langue vulgaire (340)
Laryngé (374)
Laryngien (164)
Larynx (163)
Latéral (125)
Lautverschiebung (105)
Lettre (149)
Lexique (396)
Lexicologie (398)
Lexicologique (397)
Liaison (468)
Lieu d'articulation (478)

— S —

[illegible]
signe [illegible] (252)
[illegible]
solidarité syntagmatique (25?)
son (226)
sonante (121)

— T —

[illegible] (245)
[illegible] (246)
[illegible]
Type (454)
Type grammatical (455)
Type linguistique (456)
Type syntagmatique (455)

مدخل انقليزي
لثبت المصطلحات

— A —

Ablative (403)
Ablaut (34—106)
Absolute arbitrariness (32)
Absolute regularity (60)
Abstract entity (323)
Accent (428)
Accusative case (143)
Acoustic (39)
Acoustic image (230)
Acoustic impression (65)
Acoustic phase (245)
Acoustic sensation (9)
Acoustic sequence (413)
Active (361)
Adjective (452)
Affricate(d) (216)
Agglutination (42)
Agglutinative nature (209)
Agraphia (175)
Alliteration (132)
Alphabet (57)
Alteration (103)
Alternation (120)
Alveolar ridge (328—400)
Analogie (304)
Anthropology (58)
Aorist (358)
Aperture (69)
Aphasia (174)
Arbitrary (30)
Arbitrariness of the sign (31)
Area (linguistic) (370)
Articulated language (318)
Articulated sound (405)
Articulation (115)
Articulatory phase (246)
Artificial language (25)
Artificial vowel (152)
Aspect (390)
Aspirated (420)
Aspiration (123)
Assimilated (375)
Association (85)
Association center (383)
Associative coordination (122)
Associative group (371)
Associative relation (86)
Associative series (204)
Assonance (202)
Audition (208)
Auditive image (232)
Auditory (207)
Auxiliary (280)
Average/medium (369).

[illegible]

— H —

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

— I —

[illegible] (6)
Ideographic writing (342)
Idiom (226)
[illegible] character (266)
[illegible]
Image (224)
Imperative (274)
Imperfect (354)
Implosive (54)
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
Inflected word (304)
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

— L —

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
Language used in books (34)
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
Lexicographer (347)
Lexicological language (342)
Lexicological value (305)
Lexicology (306)
Lexicon (306)
Linear (171)
Lingual (43)
Linguistic (43—340)
Linguistic atlas (28)
Linguistic change (106)
Linguistic code (299)
Linguistic [illegible] (34)
Linguistic law (287)
Linguistic map (48)
Linguistic [illegible] (236)
Linguistic [illegible] (248)
Linguistic sign (186)
Linguistic substratum (242)
Linguistic type (456)
Linguistic unit (465)
Linguistic value (305)
Linguistic [illegible] (427)
Linguistics (43)
Linguistics of language (55)
Linguistics of speech (56)
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

— C —

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
Conjugation [illegible]
[illegible]
Consonant (47—222)
Consonantal [illegible]
Consonantal mutation [illegible]
Conventional value (30[illegible])
Coordination [illegible]
Correlation [illegible]
Current language (330)
[illegible]

— D —

[illegible] (42)
Dead language (34)
Degree (77)
Degree of kinship [illegible]
Dental [illegible]
Derivation (23)
Derivative (306)
Desinence (251)
Device (244)
Diachronic [illegible]
Diachronic law (293)
Diachronic linguistics (52)
Diachronic reality (154)
Diachrony (190)
Diacritic sign (253)
Diagram (87)

[illegible]

— E —

[illegible]

— F —

[illegible] (24)
[illegible] speech (205)
Folk etymology [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] element [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

— G —

General Grammar (475)

Local speech (353)
Locative case (139)
Long syllabe (402)
Long vowel (154).

— M —

Mass (134)
Mechanism (73)
Modern language (339)
Monophthongisation (301)
Monosyllabic (8)
Morphological (225)
Morphology (224)
Muscular image (233)
Mother tongue (338)
Motivated (360)
Motivation (80)
Mutability (83).

— N —

Nasal (173)
Nasal cavity (269)
Nasal fossae (171)
Nasal resonance (196)
Nasal track (302)
Nasalisation (172)
Nasalized (379)
Natural dialect (350)
Natural language (243)
Negative entity (201)
Noise (190)
Nominal form (240)
Nominative case (140)
Normative (116)
Normative grammar (434)
Notation (311)
Noun inflexion (36).

— O —

Occlusion (68)
Occlusive (215)
Onomatopeia (317)
Open vowel (419)
Opening sound (277)
Opposition (110)
Oppositive (112)
Oral (283)
Oral cavity (270)
Orthography (303)
Original language (335).

— P —

Palat[illegible] (165)
Palatalized (417)
Palate (155)
Palatisation (82) —«edr
Participle (19)
Pattern (423)
Patois (352)
Perfect tense (357)
Perfective (125)
[illegible]
[illegible]
[illegible]
Philological (259)
Philology (289)
Phonation (94)
Phonem (228)
Phonetic (227)
Phonetic change (108)
Phonetic doublets (385)
Phonetic law (296)
Phonetic transcription (88)
Phonetic writing (313)
Phonetics (257)
Phonic (227)
Phonic matter (356)
Phonic sequence (217)
Phonological (285)
Phonological element (268)
Phonological species (133)
Phonological system (449)
Phonology (284)
Physical (287)
Physiological (288)
Pitch stress (429)
Place of articulation (378)
Positiv sign (252)
Post tonic (461)
Prefix (200)
Preposition (11)
Present participle (17)
Preverb (12)
Primitive idiom (331)
Process (264)
Productive formation (241)
Pronoun inflexion (37)

Prounciation (440)
Prospective (76)
Prototype (458)
Psychic (158—453)

— Q —

Quantitative rhythm (78)

— R —

Radical (23)
Radical vowel (153)
Respective (366)
Reduplication (96)
Reconstruction (29)
Regular (389)
Regularity (27—59)
[illegible] (192)
Rhyme (292)
Rhythm (77)
Relative arbitrariness (33)
Resonator (384)
Retrospective (14)
Retrospective linguistics (46)
Root (127).

— S —

Scheme (194)
Semantics (259)
Semantic change (107)
Semiological (183)
Semiological system (447)
Semiotics (258)
Sentence (131)
Series (203)
set of alternances (266)
Shades (286)
Short syllabe (409)
Short vowel (155)
hashing Sound (393)
Sign (186)
Sign of writing (254)
Signifiant (176)
Signal (21)
Significant (184)
Signification (185)
Signified (380)
Silbenbildend (415)
Sistant articulation (102—114)
Slightest effort (372)
Social entity (321)
Social Psychology (261)
Soft palate/velum (272)
Sonante (221)
Sonantic (222)
Sound (226)
Sound wave (425)
Speaker (367)
Species (460)
Speech (347)
Speech circuit (187)
Speech communauty (22)
Speech faculty (416)
Spirant (193)
Spontaneous phenomenon (117)
State of language (141)
Static (291)
Static linguistics(54)
Stem (129) Stream of speech (206)
Stress (428)
Stressed syllable (410)
Stressing system (450)
Strong verb (282)
Structure (79)
Suffix (327)
Subunit (464)
Syllable (406)
Syllabic (411)
Syllabic boundary (145)
Syllabic writing (314)
Syllabic stress (430)
Syllabication (407)
Symbol (195)
Synchronic (1)
Synchronic identity (6)
Synchronic law (295)
Synchronic linguistics (45)
Synchronic reality (158)
Synchronic system (444)
Synchrony (2)
Synonyms (362)
Syntagm (211) (381)
Syntagmatic (212)
Syntagmatic relation (263)
Syntagmatic solidarity (95)
Syntagmatic type (455)
Syntagmatics (213)
Syntactic (90)
Syntax (89)
System (443)
System of phonems (448)
System of sounds (445).

الفهـرس العـام

توطئـة 6

قائمـة الرمـوز الصوتيـة 13

مقدّمـــة

الباب الأول : لمحة عن تاريخ الألسنية 17

الباب الثاني : مادة الألسنية . صِلاتها بالعلوم المقرنة بها 24

الباب الثالث : موضـوع الألسنيـة

الفصل الأوّل : اللغة وحدّها 27

الفصل الثاني : منزلة اللغة من الظواهر الخاصة بالكلام 32

الفصل الثالث : منزلة اللغة من الظواهر البشرية ـ علم الدلائل 36

الباب الرابع : ألسنية اللغة وألسنية اللفظ 40

الباب الخامس: عناصر اللغة الداخلية والخارجية 44

الباب السادس: تمثيل اللغة بواسطة الكتابة

الفصل الأول : ضرورة دراسة هذا الموضوع 48

الفصل الثاني : تعظيم المكتوب وأسباب تبجيله على المنطوق 49

الفصل الثالث : أنظمة الكتابة : للكتابة نظامان اثنان لا ثالث لهما 51

الفصل الرابع : أسباب عدم التطابق بين المنطوق والمكتوب 52

الفصل الخامس: نتائج عدم التطابق بين المنطوق والمكتوب 55

الباب السابع : الفنولوجيا :

الفصل الأول : حدها 61

الفصل الثاني : الكتابة الفنولوجية 63
الفصل الثالث : نقد شهادة المكتوب على المنطوق 64

تذييـــل : مبـــادئ في الفنولوجـــيا

الباب الأول : الأجناس الفنولوجية 70
الفصل الأوّل : حدّ الصوتم 70
الفصل الثاني : جهاز التصويت 73
الفصل الثالث : تبويب الأصوات حسب تقطيعها القموي 77
الباب الثاني : الصوتم في السلسلة المنطوقة : 85
الفصل الأول : ضرورة دراسة الأصوات في السلسلة المنطوقة 85
الفصل الثاني : الانحباس والانفجار 87
الفصل الثالث : مختلف التوليفات بين الانفجارات والانحباسات في السلسلة [المنطوقة] 91
الفصل الرابع : ضبط حدود المقطع وموقع النواة الحركية 94
الفصل الخامس : نقد النظريات المتعلقة بالمقطعة 96
الفصل السادس: مدى الانحباس والانفجار 98
الفصل السابع : صوائم الدرجة الرابعة من الانفتاح ، الحركات المزدوجة، بعض المسائل المتعلقة بالخطّ 99
تعليق الناشرين 102

القســـم الأول : مبـــادئ عامّـــة

الباب الأول : طبيعة الدليل اللغوي 109
الفصل الأول : الـ ـ والمدلول والدال 109
الفصل الثاني : المبدأ الأول : اعتباطية الدليل اللغوي 111
الفصل الثالث : المبدأ الثاني : الصفة الخطّية للدالّ 114
الباب الثاني : اللاتحول والتحوّل في الدالّ 116
الفصل الأول : اللاتحول 116
الفصل الثاني : التحوّل 120
الباب الثالث : الألسنية القارة والألسنية التطوّرية 126
الفصل الأول : الثنائية الداخلية ميزة جميع العلوم المباشرة للقيم 126
الفصل الثاني : الثنائية الداخلية وتاريخ الألسنية 129

الفصل الثالث : الثنائيةالداخلية مفسّرة من خلال بعض الأمثلة 131
الفصل الرابع : الفرق بين المستويين الآني والزماني كما يتجلّى من خلال بعض المقارنات 136
الفصل الخامس: تقابل الألسنية الآنية والألسنية الزمانية من حيث مناهجها ومبادئها 140
الفصل السادس: القانون الآني والقانون الزماني 142
الفصل السابع : هل يمكن أن ندرس اللغة دراسة سرمدية 146
الفصل الثامن : عواقب الخلط بين الآني والزماني 147
الفصل التاسع : خواتم هذا الباب 150

القســـم الثاني : الألسنـــية الآنيـــة

الباب الأول : عموميات 157
الباب الثاني : الكيانات الملموسة في اللغة 160
الفصل الأوّل الكيانات والوحدات : تعريفها 160
الفصل الثاني طريقة تعيين حدود الوحدات 162
الفصل الثالث : الصعوبات العملية في تعيين حدود الوحدات 163
الفصل الرابع : الخاتمـــة 165
الباب الثالث : الاتحاد والحقيقة والقيمة 167
الباب الرابع : القيمة اللغـوية 172
الفصل الأول : اللغة من حيث هي فكر منتظم في صلب المادة الصوتية 172
الفصل الثاني : النظر في القيمة الألسنية من حيث مظهرها المتصوري 175
الفصل الثالث : النظر في القيمة اللغوية من حيث مظهرها المادي 180
الفصل الرابع : النظر في الدليل من حيث هو كلّ 183
الباب الخامس : العلاقات السياقية والعلاقات الترابطية : 186
الفصل الأول : بعض التعريفات 186
الفصل الثاني : العلاقات السياقية 187
الفصل الثالث : العلاقات الترابطية 189
الباب السادس : إواليـة اللغـة 192
الفصل الأول : التضامنات السياقية 192
الفصل الثاني : عمل هذين النوعين من التجميعات في آن واحد 193
الفصل الثالث : الاعتباطية المطلقة والاعتباطية النسبية 196
الباب السابع : النحـو وفروعـه 201

الفصل الأول : بعض التعريفات ـ التقسيمات التقليدية 201
الفصل الثاني : التقسيمات المنطقية 204
الباب الثامن : دور الكيانات المجردة في النحو 206

القسم الثالث : الألسنية الزمانية

الباب الأول : بعض العموميات : 213
الباب الثاني : التغيرات الصوتية 218
الفصل الأول : انتظامها المطلق 218
الفصل الثاني : قيود التغيرات الصوتية 219
الفصل الثالث : بعض القواعد المنهجية 221
الفصل الرابع : أسباب التغيرات الصوتية 223
الفصل الخامس: عمل التغيرات الصوتية عمل لا حدّ له 229
الباب الثالث : النتائج النحوية المترتبة عن التطور الصوتي 232
الفصل الأول : انفصام الرابط النحوي 232
الفصل الثاني : انطماس حدود أجزاء الكلمات المركبة 233
الفصل الثالث : لا وجود لمزدوجات صوتية 235
الفصل الرابع : التناوب 237
الفصل الخامس: قوانين التناوب 239
الفصل السادس: التناوب والرابط النحوي 241
الباب الرابع : القياس 243
الفصل الأول : تعريفه مع الاستشهاد ببعض الأمثلة 243
الفصل الثاني : الظواهر القياسية ليست بتغيرات 245
الفصل الثالث : القياس مبدأ من مبادئ الخلق والإبداع في اللغة 248
الباب الخامس : القياس والتطوّر 253
الفصل الأول : كيف يدخل اللغة مبتكرٌ من المبتكرات القياسية 253
الفصل الثاني : المبتكرات القياسية من أعراض التغيرات 254
الفصل الثالث : القياس من حيث هو مبدأ من مبادئ التجديد والمحافظة 257
الباب السادس : ايتيمولوجيا العامة 260
الباب السابع : الالصاق 264
الفصل الأول : حده 264

الفصل الثاني : الالصاق والقياس 266
الباب الثامن : الوحدات والاتحادات والحقائق الزمانية 268
تذييل للقسمين الثالث والرابع 275
(أ) التحليل الذاتي والتحليل الموضوعي 275
(ب) التحليل الموضوعي وتعيين حدود الوحدات الفرعية 277
(جـ) الايتيمولوجيا 282

القسم الرابع : الألسنية الجغرافية

الباب الأول : في تنوّع اللغات 285
الباب الثاني : تشعبات التنوّع الجغرافي للغات 289
الفصل الأول : تعايش لغات عديدة في بقعة واحدة من الأرض 289
الفصل الثاني : اللغة الأدبية واللسان المحلّي 291
الباب الثالث : أسباب تنوّع اللغات جغرافيًا 294
الفصل الأول : الزمان هو المتسبّب الرئيسي في هذا التنوّع 294
الفصل الثاني : عمل الزمان في مجال تراثي متّصل الأجزاء 297
الفصل الثالث : ليس للهجات حدود طبيعية 300
الفصل الرابع : ليس للغات حدود طبيعية 303
الباب الرابع : انتشار الموجات اللغوية 306
الفصل الأوّل : قوّة الانفتاح والتبادل وقوّة الانغلاق والتعصّب 306
الفصل الثاني : ارجاع القوتين إلى مبدإ واحد 309
الفصل الثالث : التمايز اللغوي على المجالات الترابية المنقطعة 311

القسم الخامس : مسائل في الألسنية الاسترادية

الباب الأول : اتجاهات الألسنية الزمانية 319
الباب الثاني : أقدم اللغات والنموذج الأصلي 324
الباب الثالث : عمليات إعادة البناء اللغوي 328
الفصل الأول : طبيعتها وغايتها 328
الفصل الثاني : نصيب عمليات إعادة البناء من الصحة 331
الباب الرابع : شهادة اللغة في علم الأنتروبولوجيا 334
الفصل الأول : اللغة والجنس البشري 334

الفصل الثاني : الوحدة الأثنية 335
الفصل الثالث : علم الاحاثة اللغوي 336
الفصل الرابع : النمط اللغوي وعقلية المجموعة الاجتماعية 341
الباب الخامس : فصائل اللغات والأنماط اللغوية 343
أمهات نظريات ف. دي سوسير (صالح القرمادي) 349
ثبت المصطلحات العام 369
المدخل الفرنسي لثبت المصطلحات 388
المدخل الانقليزي لثبت المصطلحات 394
الفهرس العام 401

عدد الناشر : 85 — 55 — 300

لا نزاع في أنّ « دروس في الألسنية العامة » لفرديناند دي سوسير تمثل المحاولة الكبرى الأولى التي صيغت فيها جميع المفاهيم الحديثة صياغة منهجية . هي تتضمن إلى جانب تحديد تعريف للألسنية وضبط مهمّتها ، جملة من المعطيات النظرية الجوهرية التي ستحدث ثورة في نطاق الدراسات اللغوية القديمة .

الدار العربية للكتاب : المقر الرئيسي : عمارة وفاء : شارع غومة المحمودي
ص . ب 3.185 الهاتف : 47.287 طرابلس ــ الجماهيرية العربية الليبية ــ
الفرع الرئيسي : المنار 2 ، نهج 7101 رقم 4 ــ الهاتف : 236.600
ص . ب : 1.104 تونس العاصمة ــ الجمهورية التونسية

الثمن : 2،350 د.ل ــ 6،600 د.ت